
خليل شرف الدين
الموسوعة الأدبية الميسرة
أبو نواس
ابن الرومي
المتنبي
بيروت
Bibliotheca Alexandrina
0014813

الموسوعة الأدبيّة الميسّرة

١

أبو نواس

تأليف

الأستاذ خليل شرف الدين

منشورات

دار ومكتبة الهلال

بيروت

طبعة جديدة منقحة
١٩٨٧

بيروت - بئر العبد - شارع مكرزل بناية برج الضاحية
ملك دار الهلال تلفون ٨٣٦٩٨١ - ٤٦٣٥٥٧
ص.ب ١٥/٥٠٠٣ برقياً مكتهلال

بين الموت ·· والموت ·· تكمن الحياة :
بين موت القيم الموروثة ·· وموت عابديها
الواقفين كالأصنام ·· على أطلالها ··
ينهض مارد ·· حاملا بشارة البعث (١) ··
يمشي بثبات على طريق الجلجلة ·· وكل كيانه
يشع نارا ونورا ·· ويرسل شعرا ·· وكل
وجدانه يتحدى بالحرية والكلمة : الحرية
المشوهة والكلمة الجوفاء ··

يبصق من رئتيه تفاهات الناس ··
ويتنشق مكانها هواء جديدا صافيا ··
يهاجم الانحراف ·· بالانحراف ·· ولا خيار
لديه ··

دعوته تحمل سيف خارجي جسور : هو الشعر ··

---

(١) نقصد طبعا الناحية الفنية والروح التجديدية عند ابي نواس .. فقط ..

المغموس بدموين : دم الحرمان والضياع ..
ودم الخمرة الجديدة .. بالكؤوس الكسروية..
والنداء الجديد .. الى الحضارة الوافدة ..
فهو مع العصر والحضارة .. في الصميم
وهم في العصر .. خارج العصر .. وكلهم عقيم
ولهم دينهم .. وله دين ..

انه أبو نواس ..

اقتراح ٠٠ برسم الجيل الجديد

كنا سنتبع في هذا الكتاب ، كما في كتبنا السابقة (١) ، القاعدة الاملائية الميسرة الآتية :

أولا : ما لا يلفظ لا يكتب ٠ مثل : سمحو ــ لن يسمحو ــ لم يسمحو ٠ وهاكذا ٠٠

ثانيا : وما يلفظ يكتب بحروفه الأصيلة لا البديلة كـ : هاذا ، وليس هذا ، لاكن ، وليس لكن ٠ تماما كهاته وهاتين ٠

ثالثا : الألف المقصورة تكتب ألفا طويلة توحيدا

---

(١) وهي على التوالي : ابن خلدون : ريادة وابداع . ابو العلاء : مبصر بين عميان . ابن رشد : الشعاع الاخير الصادرة عن مكتبة الهلال بيروت ١٩٧٩ .

لهما وتسهيلا على الناشىء والأجنبي ·· ودون أن نلحق أي ضرر بالقاعدة الصرفية · مثل : مستشفا (بدل مستشفى) ، ليلا (بدل ليلى) ، تراءا له (بدل تراءى له) ·

كما كنا سنتثني ـ بالطبع ـ لفظ الأدوات والحروف التالية :

حتى ، متى ، بلى ، أنّى ، لدى ، على ، الى ·· لتبقى هذه الأدوات والحروف مشيرة الى وجود الألف المقصورة في الاملاء القديم ، ودفعا لأي التباس أو غموض ··

ان دعوتنا هذه ليست جديدة ، ولا هي بالأمر الجلل الذي يدخل تحت طائلة القانون الجنائي ·· فقد سبقنا طليعيون مجددون ، نادوا بمثل هذا التسهيل ، بل بأكثر منه ، كطه حسين الذي اقترح زيادة أربعة أحرف جديدة على أحرف اللغة العربية ·· لكن قيامة المتزمتين قامت يومها · فأهمل طه حسين دعوته (حقنا للدماء !!···) وها هي القيامة نفسها تقوم علينا اليوم (٢) في

---

(٢) علي وعلى الدكتور احمد لواساني : استاذ الفارسية في الجامعات : اللبنانية والاميركية والعربية ، الذي كان

الردود المتبادلة على صفحات بعض الجرائد اللبنانية (٣) بين الدكتور أحمد لواساني وبعض النقاد (٤) .

وقد تكشف الأخذ والرد عن عقليتين : عقلية سلفية تريد أن تبقي القديم على قدمه ، مهما يكن .. وأخرى تحررية ، تحاول ، فيما تحاول ، التيسير والتطوير لأشكال وصور املائية لا ينفع بقاؤها ، ولا يضر الغاؤها ، أو ضبطها .. بل يفيد ، اذ يجعل كتابة اللغة العربية ، عند الناشئين والأجانب ، سهلا يسيرا ..

وما أضر باللغة وبالعقل العربي ، فشدهما الى الوراء ، في مجالات كثيرة ، كتلك العقلية المتشددة

قد طبق هذه القاعدة في كتابه الموسوم : نظرات جديدة في تاريخ الادب الصادر عن الجامعة اللبنانية سنة ١٩٧١ .

(٣) كجريدتي النهار والسفير خلال شهري شباط واذار ١٩٨٠ .

(٤) الذين انقسموا الى فريقين : فريق معارض متشدد يسوءه ان تتنفس اللغة العربية وتتطور ولو في الشكل مثل : الدكتور عمر فروخ ، والاستاذ نسيب نمر ، وجميل ع. رعد . وفريق طليعي مؤيد . مثل : وليد الشهابي ، واميل يعقوب واحمد حاطوم . ونحن واثقون من ان امثال هؤلاء كثيرون في الوطن العربي . المؤلف

التي أسمي أصحابها ، مع الأديب هادي العلوي : « اكليروس اللغة » ·· الذين انطلقوا ، خـلال النقاش ، من حس التابو ·· الى درجـة اصدار الأوامر ، لأمثالنا ، نحن المتطفلين على العربية ، بألا نتعرض لمعشوقتهم من قريب أو بعيد ·· فهي عرضهم وشرفهم ·· وهـي حكر عليهم ·· وأي تهذيب أو تشذيب لبعض صورها ، وبعض حروفها، يعد ، في نظرهم ، طعنا بذلك الشرف والعرض ··

لكنهم فشلوا ، لأن ردودهم كانت غمزا ولمزا ، واستعلاء ، أكثر منها نقدا موضوعيا ·· فانقلب السحر على الساحر ·· وبرز لنا مؤيدون طليعيون، سيزداد عددهم ــ حتما ــ عبر المسيرة الكبرى للغتنا العربية الحبيبة ، على دروب التطور الحقيقي الذي يبدأ ــ في العادة ــ صعبا ·· لكنه ينطلق رغم كل شيء ·· وينتصر ··

واذا كنت ــ هنا في هذا الكتاب ــ لم أطبـق القاعدة الاملائية الجديدة ، فذلك لسببين اثنـين لا ثالث لهما · أولهما : حرصي الشديد على مصلحة دار مكتبة الهلال ، ناشرة هذا الكتاب التي يهمني

أن تنتشر مؤلفاتها الرصينة في كل قطر عربي ، دون استثناء ..

وثانيهما : رغبتي في أن تصل دعوتي المتواضعة ـ عبر هذا الكتاب ـ الى عشاق اللغة العربية الحقيقيين من الجيل العربي الجديد ..

وفي أي حال ، فأنا مقتنع كل الاقتناع بصوابية الطريقة . وسأبقى داعيا لها ، وسأطبقها في محاضراتي وكتبي القادمة ، ان شاء الله ، كما فعلت منذ سنوات حين طلبت من طلابي (في صفوف الفلسفة والعلوم الاختبارية) تطبيقها في مسابقاتهم وأماليهم ففعلوا ، بعد رضى واقتناع تامين ..

الفصل الأول

بنى عصر أبي نواس حضارة معقــدة ومنوعة فيها من الدخيل أكثر من الأصيل ·· لكن الداخل الى كل حضارة لا يسمى دخيلا اذا كــان علما وفنا ومنجزات تشكل ــ في الحقيقة ــ.روافد هامة لتلك الحضارة تتفاعل معها وتغنيها وتتوحد بها ··

وكانت الحضارة الفارسية من أبرز وأهم تلك الروافد التي ذهبت بعيدا في عمق الحضارة العربية الناشئة ·· بل كانت هي هذا العمق ··

وهكذا تركزت الحضارة العباسية على عمقين أو بعدين : البعــد العربي المسلــم المهيأ للتقبل والانفعال ·· لكن على كبريــاء الحاكــم حــامل الرسالة ·· والبعد الفارسي المستعد بكل معطيات

حضارتـــه ورواسب تاريخـــه ·· الى الفعـــل ··
والتغلغل في الجسم العربي ·· والعودة أخيرا الى
لعب الدور الأول ·· دور الحاكم لا المحكوم ··

نشأ الصراع ·· وكان لا بد أن ينشأ ·· ومن
خلاله تمت آلة الحضارة العربية الاسلامية تحت
تأثير ذلك الصراع الذي مهـد للصـــدام وبالتالي
لتخلخل أركان الامبراطورية التي انتهت أخـــيرا
نهاية مأساوية فاجعة ··

وسرعان ما شهدنا الصراع يتأزم منذ البداية··
ثم يتفاقم منذ عهد الرشيد ·· ثم يستأسد أيام
المأمون ·· ثم : تكسرت الفروع على الأصول ··
ونبت في بواكيرها وبين براعمها انسان يحمل من
الأصول والفروع والروافد ·· أشياء وأشياء ··

وكان لهذا الانسان أشبـــاه ونظـــراء ظلوا في
الخفاء ·· أما هو فبرز يمثلهم ·· يتزعمهم ··
كالسيف القاطع ·· كالتحدي الصارخ ·· كالفرح
الفارح ··

ببراءة الطفولة ·· وخبث الرجولة ·· وميوعة

المتخنثين ٠٠ وذكاء المثقفين ٠٠ فمن تراه يكون هذا الانسان الكثيف سوى أبي نواس ؟!

من تراه يجسد كل تناقضات العصر وروائعه ورذائله ٠٠ سوى أبي نواس ؟! ولم يكن أبو نواس بدعا في الحضارات ، لا سيما تلك التي تتخذ سبيل المادية والعلم ٠٠ بعيدا عن القيم الروحية التي يحملها الحاكم ٠٠ وتلك التي تنبض فيها عروق العنصرية والشعوبية ٠٠ خاصة ذلك الشعور من قبل المحكوم المتفوق بأنه أكفأ وأجدر من الحاكم المتخلف وأنه كان في يوم من الأيام سيدا له وملكا عليه ٠٠ فلا بد اذن من نشوء الصراع بين العقليتين وبين الحضارتين : الحضارة الاسلامية ٠٠ وكل سلاحها حتى ذلك الحين ٠٠ قرآن وسنة ولغة وفروسية وأشتات يسيرة من معرفة ٠٠ والحضارة الفارسية وأسلحتها لا تكاد تحصى في جميع ميادين الادارة والعمارة والسياسة والزخرفة والموسيقى والغناء وتنظيم الجيوش والجباية والخدمات والزراعة وبروتوكول العيش الامبراطوري ومفهوم السعادة واللذة ٠٠ الى آخر أشياء الحضارة هذه ٠٠ مما كان الجسم والحكم العربيان يفتقران اليه ٠٠ ويحاول البعض عدم الاغتراف منه أو الارتماء في

أحضانه تخوفا أو تزمتا ..

فينبري أمثال أبي نواس - من المولدين المقبلين على الحياة الجديدة - للدفاع والانتصار للحضارة الوافدة ضد كل قديم عربي عفا عليه الزمن ، وتجاوزته الأحداث ، (كما نقول اليوم) بالرغم مما له من سند الدين واللغة والقيم الموروثة فكان كل ما فعله أبو نواس أن تقدم حيث تأخر غيره .. وبقي في الساحة حيث توارى الكثيرون .. وجأر حيث لاذ بالصمت المنافقون ..

فكان ممثلا أصدق وأبرع وأعذب غناء لكل أشياء تلك الحضارة .. ووجها مشرقا من وجوهها كما كان مؤشرا صارخا من مؤشرات نهايتها ...

مذهبه مذهب الحِسِّيين في فهم اللذة ..
وشعاره واحد لن يتغير :
مرتين لن نأتي الى هذه الحياة ..

وعقيدته : كل عقيدة أو مذهب يسمح بالغفران ويبرر فلسفته ونهمه ولذته وحريته .. وتهتكه..

ايمانه واحد لا يتغير : ان الله غفور رحيم .. وليذهب المتزمتون الى الجحيم .. ويوم الحساب مؤجل الى يوم الدين .. ثم انه :

ما جاء من أحد يخبر أنه في جنة قد كان أو في نار!!
ولينهب هـذا الشباب اللـذات نهبـا ·· أيامـا معدودات ·· أما الغد فبظهر الغيب كمـا يقول الخيام :

غد بظهر الغيـب واليوم لي
وهل يطيب العيش في المقبلِ
ولسـت بالغافل حتـى أرى
جمال دنياي ولا أجتلي (١) ··

ولم يكن أبو نواس بالغافل ولا بالجاهل ·· حتى اذا كان المرض والهرم وبرز رعب المصير : أطلقها استغفارات حارة ولا أروع ·· وتمسـك بالله : الملاذ الأخير ··

عصر أبي نواس :

ولما كنا لا ندرس أبا نواس على أنه أبو نواس فحسب ، بل ندرسه ويجب أن ندرسه على أنه مظهر مشرق من مظاهر البيئة الجديدة والعصر الجديد ، فلا بد ــ اذن ــ من القاء نظرة خاطفة ــ ولكن في العمق ــ على بيئته وعصره ، لنرى ــ بالتالي ــ ان

---

(١) ترجمة احمد رامي ·

أبا نواس لم يفعل أكثر من أنه مثل الجانب الماجن وبالأصح : الرافض لكل ما يعتورهما من نقائص ·

ملامح العصر البارزة :

يلاحظ بوضوح أن الثورة المسلحة التي قام بها العباسيون بمؤازرة الفرس ، قد تبعتها ثورات اجتماعية وروحية ودينية :

فبعد أن كان الأمويون عربا في تفكيرهم ،وبدوا في مأكلهم ومشربهم ونوع عبثهم وغزلهم ،ومجونهم، خلا ، الشواذ ، حذرين من الاختلاط بالأجناس الأخرى ، بل وكارهين لها ، أصبح العباسيون ولهم طابع جديد في الحياة : طابع هو مزيج من رواسب التقاليد العربية وروافد الحضارة الفارسية ·

أهم هذه الروافد :

أ ـ في الاجتماع :

كانت أكثر المقتبسات الاجتماعية في المآكل والمشرب والملبس والمفرش وأدوات المنزل ، والصناعة ، والعمارة ، عن الفرس (٢) ·

---

(٢) يؤكد ذلك تاريخ الشعوب الاسلامية لبروكلمن ، وغيره من الكتب ـ المراجع .

كثرة الرقيق : وكانت أكثر أمهات الخلفاء والوزراء (٣) من الجواري · كما كانت في بغداد (٤) سوق للنخاسة (٥) · وهؤلاء الجواري كن متعلمات مثقفات ، يعلمهن نخاسوهن في مدارس فاقت في الاقبال عليها قصور الخلفاء · فبرعن بالشعر العربي المطعم ، والغناء على حرية مطلقة ، وذوق وجمال ودلال · ولهذا لم يتغزل أبو نواس بحرة على الاطلاق · يقول الجاحظ في رسالة القيان ما خلاصته : « أنهن عملن الى جانب عملهن اليومي على نقل عادات شعوبهن ، وفتحن

---

(٣) كالخليفة المأمون وامه « مراحل » فارسية والمعتز وامه « غصن » رومية ايضا . والمطيع وامه « صفارة » من صقليا الخ . الحضارة الاسلامية للمستشرق ادم متز ج١ ص ٣٩ ط.ع. بيروت ١٩٦٧ . والعقد الفريد .

(٤) بغداد او باغ داذ او باغدان (لها سبع قرارات) باغ داذ ، بغداد ، بغدان ، بغذاد ، باغدان ، مغدان كما سميت دار السلام والزوراء . وسماها الحريري مدينة المنصور وثعلب في مجالسه : حاضرة الدنيا وبعض المستشرقين : مدينة العالم بعد اثينا وروما الخ . وهي لفظة فارسية معناها بيت الجداء . في مكان يدعى الهاشمية بنى عليه ابو جعفر المنصور عاصمة ملكه وسماها بغداد وقد حلت محل دمشق عاصمة الامويين لقربها من بلاد فارس ..

(٥) سوق في بغداد يباع فيها الرقيق .

مدرسة للتطرف » وكانت لهن منازل عامة يؤمهـا الشعراء والأثرياء ·

ب ـ في السياسة :

الخلافة العباسية منصب أعلى ·· هيمن بادىء الأمر على كل شيء ولم يهيمن ـ آخر الأمر ـ على شيء ·· أما الحجابة والوزارة فكانتا من نصيب الفرس (٦) · ولهذا عد الجاحظ دولة بني العباس « أعجمية خراسانية » ودولة بني أمية « اعرابية في أجناد شامية (٧) » · ويقول ابن خلدون : « كان بنو أمية يستظهرون بحروبهم ، وولاية أعمالهـم برجال العرب مثل عبيد الله بن زياد والحجـاج ، والمهلب وأبنائه · وأما العباسيون فقد كان وزراؤهم من العجم كبنـي برمك ، وبنـي سهـل ، وبني وهب ، وبني طاهر ··· » وقد دام حكم بني العباس

---

(٦) والحقيقة في مسألة الخلافة العباسية انها كانت للعلويين ابناء عم العباسيين ـ وفقا لما اتفق عليه الثائرون . لكن العباسيين نكثوا بالعهـد ، ونكلـوا بالعلـويين والمتعاطفين معهم مـن القادة الفـرس كأبي مسلـم الخراساني . ومن المفكرين كابن المقفع .. وكان هذا من اهم اسباب انهيارهم السياسي .

(٧) البيان والتبيين ص ١٩٢ .

خمسمائة سنة وعليه بنى ابن خلدون نظريته في علم السياسة والاجتماع ونشوء الدول وعصبياتها ، وأسباب انهيارها . وحين قسم حياة الدولة الى خمسة أو ستة أدوار كان أمامه دائما نموذج الدولة العربية في المشرق ، وخاصة دولة بني العباس ، الى جانب الدويلات البربرية الاسلامية في المغرب ..

بدأت الدولة العباسية اذن بالدور الأول وهو دور نفوذ الخلفاء العرب وهيبتهم بتركيز الدولة والقضاء على حلفاء الأمس (من السفاح حتى المتوكل = عظمة بغداد) ــ دور سيادة الجيش ، وأكثر جنده من الترك = انتقال العاصمة الى سامراء وضعف بغداد . ــ دور سيادة بني بويه ــ دور بني سلجوق .. ثم دور الاحتضار ، واكتساح المغول لبغداد وسحق معالم حضارتها . ويشبه المسعودي فعل أصحاب الأطراف في بداية القرن الرابع الهجري وتغلب كل واحد منهم على الصقع الذي هو فيه ، بفعل ملوك الطوائف بعد موت الاسكندر (٨) .

أما أبو نواس فقد عاش في الدور الأول : دور

---

(٨) مروج الذهب ط. اوروبية ج١ ص ٣٠٦ .

عظمة بغداد ، وتماسك الدولة ، وغناها ، وترف الطبقة الحاكمة ومن اليها ·· وكان هو ممن دار في فلكها ·· خاصة أيام الرشيد والأمين ·

جـ ـ في الدين :

ظهرت أول الأمر نزعة المحافظة على الدين ، لتبقى الخلافة رمزا للسلطتين الدينية والزمنية ·· ولهذا كانت لأكثر الخلفاء الأُوَل حياتهم الخاصة، على غير تبذل ، ابتداء من السفاح وانتهاء بالمهدي أما الرشيد فقد خرج بعض الشيء عن احتشام أبيه وتستره ·· ثم جاء المأمون ليشكل ـ وهو على رأس المعتزلة ـ أخطر مظهر من مظاهر الشك والتأويل الديني في عهده ·· مما شجع على قيام حركة التحرر وبالتالي المجون عند جيل المولدين·· فظهرت الزندقة ، وظهر الاستهتار بكل قديم عربي، والدعوة الى كل جديد فارسي ·· في ذلك المجتمع الجديد ·· وبدا كأن الفرس يحاولون جاهدين ، وفي شتى الميادين العودة الى السلطة وبسط السيادة على العرب · وهذا ما نفذوه فعلا وبالتدريج ، وهو ما يعبر عنه بالشعوبية (٩) ·

---

(٩) سنتحدث عن الشعوبية في مكان اخر ، حين نتعرض لدعوة ابي نواس الى التجديد ، والسخرية من العرب او الاعراب المحافظين ..

كان على رأس هذا الشباب العابث المتزندق بشار ـ الى حد ما ـ وأبو نواس الى حد كبير ـ الذي لم تكن تعجبه ـ بالطبع ـ تأويلات المعتزلة وتحفظاتهم الدينية .. فيضمن بعض خمرياتـه شيئا من الهجاء والنقد للمتحرجين منهم .. في حين تعجبه تخريجات الجبرية على لسان الباقلاني .. والأشعرية على لسان أبي الحسن الأشعري زعيمهم الذي يقول : « ان المهم في الايمان انعقاد القلب عليه ، وان حصل الكفر باللسان » .. وتعجبـه ـ على الأخص ـ آراء المرجئة الذين يقولون « بعدم خلود العصاة في النار » ...

د ـ في الاقتصاد :

وفي هذا المجال يكفي أن نعيـد على ذواكرنا حديث الرشيد للغمامة التي ان أمطرت فان خراجها يأتيه . في هذا الحديث كثير من الاعتزاز القومي وكثير من الحقيقة الموضوعية . فالرشيـد حكم أمبراطورية تمتد من الخليج وما وراء الخليج في الشرق الأقصى .. الى تونس في المغرب .. وفي الأغاني (ج ٥ ص ٦) أن نفقات قصر الخلافة بلغت في اليوم الواحد سبعة آلاف دينار .. وفي المستطرف

من كل فن مستظرف للأبشيهي (ص ٥٠) أن الهادي أعطى ابراهيم الموصلي المغني في يوم واحد مائة وخمسين ألف دينار ••• وحين غنى ابن محرز في حضرة الرشيد قصيدة مطلعها :

واذكر أيام الحمى ثم انثني
على كبدي من خشية أن تصدعا

أخذه الطرب كل مأخذ (١٠) وأمر له بمائة ألف درهم •• ويبدو أن خلفاء كثيرين كانوا يعطون من دون حساب (ودون أن يرف لهم جفن) •• لامتلاء خزائنهم بالمال ولأنهم كانوا « يسكرون من زبيبة » كما يقول المثل •• فكيف وهم يستمعون الى الشعر الرفيع واللحن البديع •• ويضيق بنا المجال عن قصص ذلك البذخ الأسطوري والتبذير الجنوني الذي لا يكاد يصدق •• مما يملأ النفس اعجابا و « قرفا » في آن معا •• أما احصائية ابن خلدون للخراج أيام المأمون فتؤكد أنه تجاوز الأربعمائة مليون درهم !! وحدث ولا حرج عن

(١٠) حبذا لو اخذته الحمية على المساكين الذين كانوا يؤلفون ٩٠٪ من الشعب . ليته بنى به بيمارستانا واحدا ..
المؤلف

البذخ الأسطوري الذي عرف به الخليفة الواثق في مجال بناء القصور الفخمة وتجهيزها بالتحف والثريات وتلبيس جدرانها بالخز والديباج والمرايا الهائلة ·· والانفاق الهستيري على كبار المغنين والمغنيات ، والملحنين والشعراء ، وكل من يتعيش في كنفه من أدباء ومؤلفين ومتزلفين وخدم وحشم وحريم وكبار القادة والتجار والنافذين و ·· (القوادين !) واذا صحت الرواية التالية ـ وهي صحيحة ـ نكون قد زرعنا بأيدينا بذرة انهيار ذلك الصرح الحضاري الكبير : « اعترض شخص من عامة الشعب (وقد اعتبره المسعودي مجنونا) محمد بن سليمان ، وقال له : يا محمد أمن العدل أن تكون غلتك في كل يوم مائة ألف درهم ، وأنا أطلب نصف درهم فلا أقدر عليه (١١) » ؟! ·

طبقية بشعة كانت متغلغلة في جسم المجتمع العباسي تنخر فيه على مهل ! فلو أحسن توزيع ثروة أمبراطورية بلغت مساحتها ضعفي مساحة أوروبا لكان للتاريخ مجرى آخر ·· يقول جرجي زيدان (١٢) معتمدا على احصائية ابن خرداذبة أن

---

(١١) مروج الذهب ج٦ ص ٢٩٠ .
(١٢) تاريخ التمدن الاسلامي ج٢ ص ٢٥١ .

ما يقال له بالدخل القومي (ثروة الأمة) بلغ في أواسط القرن الهجري الثالث ٧٨ مليارا و٣١٩ مليونا و٣٤٠ ألف درهم (١٣) بالنقد العباسي ٠٠

انه مدخول ضخم بدأ يتكون منذ العصور الاسلامية الأولى ٠٠ فكلما امتدت الفتوحات واتسعت رقعة الامبراطورية اتسعت مداخيلها ٠ مما أدى في النهاية الى البذخ والتبذير (١٤) ٠٠ ثم الافلاس

---

(١٣) كل عشرة دراهم بدينار واحيانا كل عشرين . والدينار وحدة نقد ذهبية سكها العرب على صورة الدينار الهرقلي البيزنطي . وهي تزيد وزنا على نصف الليرة الانكليزية بقليل .
انظر : ابو العتاهية : رائد الزهد في الشعر العربي ص ١٤ ر. اسامة عانوتي ــ المكتبة الاهلية بيروت ١٩٦٢ .

(١٤) لم يعد غريبا ان يكون للخيزران مائة وستون مليون درهم ، ولمحمد بن سليمان ٥٠ مليون درهم .. وان تكون غلته مائة الف درهم في اليوم الواحد كما ذكر المسعودي . وثمن كل قصيدة ينشدها مروان بن ابي حفصة للمهدي الف درهم .. ومليون درهم هدية المأمون الى طبيبه (لا بأس الى طبيب ..) ومائة الف درهم ثمن الصوت يغنيه اسحاق الموصلي يحيى بن خالد .. الخ .. الخ (للوقوف على مقدار هذه الثروات الضخمة والتبذيرات الجنونية نحيلك الى المراجع التالية : مقدمة ابن خلدون ــ مروج الذهب ــ الاغاني ــ طبقات الاطباء ــ عيون الاخبار والفخري لابن الطقطقي الخ ..)

بالطبع ..

وغرقت فئة الحكام ومن لف لفهم في بحر من اللذائذ والمحرمات وانتشر الفساد ورقت حاشية الدين .. فانقسم الناس الى متلمس لفتات تلك الثروة فكثر شعراء المدح المتزلفون وانحطت قيمته الفنية الى الحضيض .. والى ناقم ساخط هيأ للثورة أثناء ذالك .. وكان المسحوقون وقودها دائما .. ثم الى نافر لاذ بتقواه ودينه وعلمه (١٥) وانصرف للتعليم والتأليف .. والى زاهد قنع من دنياه بالقليل وندم على ما فرط .. والى متصوف ثائر ـ أول الأمر ـ يريد تغيير النظام (١٦) ـ كما نقول اليوم ـ لكنه طورد وقتل .. فلجأ بعضهم الى التقية (١٧) والآخر الى..الله..وانتهى الأمر الى

---

(١٥) كما فعل امثال الامام جعفر الصادق الذي انصرف الى تعليم العلوم وابرزها الكيمياء مع تقية كان لها ثمارها فيما بعد .

(١٦) كاخوان الصفاء والحلاج ودعاة سريين كثيرين ..

(١٧) التقية : طريقة لحفظ الايمان . لجأ اليها الشيعة ايام المحنة زمن العباسيين وخلاصتها : ان تقول او تفعل غير ما تعتقد ، لتدفع الضرر عن نفسك او مالك كما لو كنت بين قوم لا يدينون بما تدين وقد بلغوا الغاية في التعصب الخ : الشيعة والتشيع ص ٤٨ ، الشيخ محمد جواد مغنية .

أن هجرت بغداد من قبل هؤلاء الأتقياء وأصبحت وكرا لكل متربص وحكرا على كل طامع ·· حتى قال أحدهم :

بغـداد أرض لأهـل المـال طيبة
وللمفاليس دار الضنك والضيق

أصبحت فيها مضاعا بين أظهرهم
كأنني مصحف في بيـت زنديـق

كان طبيعيا اذن في مثـل هذا الجو أن تنتشر المحرمات من كل نوع ·· ثم تتسرب الى معظم طبقات الشعب خاصة في بغداد (لا سيما أيام الازدهار) وفي أرباضها وأديرتها ، حيث كان أبو نواس فارس ميدانها يمضي بأوزاره اليها ، وطويلا مـا مكث هناك مع عصابته أو « عصبة الشطار » على حد قوله ، يحتسون الخمور المعتقة الثمينة والدهقان سعيد بهم ، الا اذا كان يهوديا ، كما سوف نرى في خمرياته (١٨) ··

(١٨) كان كل ذلك يجري في المدن . اما في الاريـاف فمـا برحت التقاليد العربية مسيطرة الى حد كبير ، وكذلك المحافظة على الدين والعرض وسائر القيم الاخلاقيـة الموروثة.. الى جانب تجمع «شيعي» معارض في اغلب =

هـ ــ في الثقافة :

نقلت في العصور العباسية الأولى جميع العلوم والفلسفات ، والفنون الجميلة الأجنبية ، فنشطت الحركة الفكرية ، وكان من نتائجها في الشعر أن صرف شعراء الجيل الجديد، وهو ما سمي بالمولدين، وجههم عن الصحراء والتقليد ، وعاشوا حياتهم البغدادية الجديدة بكل تنوعها ، وخصبها ،وحريتها، وعبروا عن كل ذلك ، بكل الحرارة والصدق والعفوية .. « فكان أن تكشفت للزمان انسانية لم تعد في بساطتها وتسليمها بدوية (١٩) » ولم تبق في فكرها ومعرفتها ، ونزعاتها ، وأساليبها ، لاهثة خائفة سطحية ..

= الاحيان. ومعنى هذا، اننا سوف نشهد فارقا كبيرا بين الحياتين : الحياة في بغداد ، والحياة في الريف : هناك حيث الفنى والبذخ والترف بما لا يقاس ــ كما رأينا ــ وهنا الفقر والعوز والخصاصة بما لا يطاق او يوصف.. وهذا ما اشار اليه الجاحظ في « بخلائه » حيث الح الى ما محصله : ان هناك قوما لا يجدون معدة لطعامهم ، واخرين لا يجدون طعاما لمعدتهم . وان من الناس فئة كان خبزها خليطا من نشارة الخشب وشعر الماعز وزؤان الشعير .. او روث الدواب .. ومن نسائهم من كن يفقأن عيون اطفالهن للتسول بهم !!

(١٩) في جوابي نواس ص ٥٢ ــ ٥٣ د. علي شلق ــ المكتبة العصرية ــ صيدا ــ بيروت بدون تاريخ .

على رأس من يجسد هذه الانسانية ، ثقافة ومزاجا وسلوكا وشاعرية ، كان ولا شك أبو نواس: زعيم جيل المولدين ، ورئيس عصابة المجان المؤلفة من أستاذه وموجهه والبة بن الحباب (٢٠) ، وحماد عجرد ، وأبان اللاحقي ، والعباس بن الأحنف ، والحسين بن الضحاك الملقب بالخليع ، ومطيع بن اياس ، ومسلم بن الوليد المعروف بصريع الغواني ، والفضل الرقاشي .

كان هؤلاء يجتمعون في حوانيت بغداد ، أو ضواحيها في حانات الأديرة والبساتين فيقيمون أياما موصولة « ينفقون كأنهم شخص واحد » ويحب بعضهم بعضا على كثير من الانسجام النفسي (٢١) نفهم ذلك كله من خلال خمريات قائدهم ، التي سن لهم فيها « بروتوكولا » خاصا وطريقة عيش

(٢٠) والبة هذا كان الى مجونه وتهتكه عالما وشاعرا وراوية. افسد سيرة شاعرنا .. ولكنه افاده في تفجير طاقاته الشعرية .. يقال انه اشار عليه ان يحفظ اراجيز العرب ومطولاتهم .. ثم بعد التأكد من حفظها جيدا ، ينساها .. وبعد ذلك يقول الشعر الاصيل ... وهكذا كان .. واذا صح ذلك فنحن نرى فيه خبرة عميقة بالنفوس المرهفة والذواكر الجيدة .. وطريقة تربوية صحيحة الى حد كبير ..

(٢١) في جو ابي نواس ص ٥٣ د. علي شلق .

خاصة (٢٢) .. وكانوا حين تضيق بهم بغداد على رحبها ، يتنقلون بأوزارهم بين البصرة والكوفة .

أبو نواس :

كاسر اوثان حتى النشوة ..
ومنتش بكسرها حتى الانفصام ..
لم يشأ أن يظل مخلوقا ..
بل طمح الى ان يكون خالقا ..
حين تجاوز التقليد .. والتستر ..
الى التجديد ، والمجاهرة ، والتحدي ..
فكان مأساوي المصير ..
يوم رفض لغة الغير ، وقيمه ونظمه ..
لكنه تعامل معها بشماتة ضاحكة ، وسخرية ..
حطم جسده ، بحرية ورفض ومصادمة ..
ليقف، وحده، على الشاطىء الاخر والاعمق من الحياة .
متفردا ، رائدا ، وممتلئا بزهو وانتشاء ..

حيــاته :

هو الحسن بن هاني (٢٣) بن عبــد الأول بن

---

(٢٢) هذا البروتوكول واضح المعالم والبنود في الخمريــات كما سوف نرى .

(٢٣) ويدعى هانىء او « هنى » راى جلبان تغسل الصوف على حافة نهر ، فاعجبته فتزوجها فاولدها ابا نواس واخاله يدعى ابا معاذ ، واختا . امتهــن هانــي حرفة الحياكة ــ او رعاية الغنم ــ بعد خروجه مــن جيش مروان .. كما عرف بسوء الخلق وكان متقدما في السن حين رزق بابي نواس ...

الصباح . يكنى بأبي علي في رواية ، وفي روايات بأبي نواس (أو نؤاس) . يقول ابن خلكان « انما قيل له أبو نواس لذؤابتين كانتا تنوسان على عاتقيه ... » وقيل ان خلفا الاحمر كان له ولاء في اليمن ، وكان يحب أبا نواس ، فقال له يوما : « أنت من اليمن ، فتكنَّ باسم ملك من ملوكهم « الاذواء » فاختار « ذا نواس » فكناه خلف أبا نواس بحذف (ذو) (٢٤) .

كان أبوه من أهل دمشق ، ومن جند مروان بن محمد ، آخر خلفاء بني أمية (٢٥) . أما أمه فأهوازية تسمى « جلبان (٢٦) لها غيره ولد يدعى أحمد ، وبنت لم يذكر الرواة اسمها . وكانت هذه

---

(٢٤) وسئل مرة : من كناك أبا نواس ؟ فقال : انا كنيت نفسي بذلك لانني من قوم لا يشتهر فيهم الا من كان اسمه فردا . وكانت كنيته لسبعة فكنيت بأبي نواس (اعيان الشيعة ج٤٤ ص ٨) واراد بالسبعة الاذواء ملوك اليمن من قضاعة وهم : ذويزن ، وذورعين ، وذو قائش ، وذو جدن ، وذو نواس ، وذو اصبع ، وذو كلاع (المصدر نفسه) .

(٢٥) وكان يلقب بالحمار لكثرة ما تحمل من تبعات وانتفاضات على حكم منهار ..

(٢٦) ومعناها بالفارسية : وردة على اذن او في بستان ، او على غصن . وقيل انها سندية واسمها جلنار ومعناه زهر الرمان ، وقيل اسمها : شحمة (ابن منظور) .

الأم على شيء من ارتباك السيرة والخلاف المستمر مع أبيه · كانت غسالة صوف على رواية بروكلمن وصاحبة دار للقطاء في البصرة (٢٧) ، أو قوادة تجمع المشبوهين والمشبوهات في بيتها (على رواية ابن منظور ص ٥) ·

أخباره : ظلم غير مبرر :

اذا كان أبو الفرج الاصفهاني لم يفرد لأبي نواس بابا خاصا به وبسيرته وأشعاره ، في كتابه الموسوعي : الأغاني ·· أو ان هذا الباب قد سقط أو أُسقِطَ منه ــ عبر الرواة والمدونين ــ فضاع كغيره ·· فان ابن النديم في فهرسه يبدو ظاهر التحامل على أبي نواس وان كان في كتابه (ص٢٢٨) يحاول تغطية تحامله بقوله : « ويستغنى بشهرته عن استقصاء نسبه وخبره ·· وكذلك فعل الزبيدي صاحب « تاج العروس » حيث اكتفى بالقول : « وأبو نواس الحسن بن هاني الشاعر ·· معروف ·· « كأنما يكتب هاؤلاء الناس لأنفسهم وعصرهم فقط منكرين انسانية الأجيال المقبلة (٢٨) » ·

(٢٧) بروكلمن : تاريخ الشعوب الاسلامية ج٢ ص ٢٤ .
(٢٨) على حد قول استاذنا الدكتور علي شلق .

وأنا أقول أن فاقد الشيء لا يعطيه ٠٠فقد دوّن هؤلاء وأمثالهم أخبار الأدباء والشعراء تحت تأثير عاملين : الأول جهلهم بقواعد البحث العلمي ٠ والثاني تأثرهم بنزعات عنصرية أو مذهبية ضيقة ٠

ولم ينصف أبا نواس فعلا سوى علماء عصر النهضة من مستشرقين عُدول وتلامذة لهم معروفين في العالم العربي كأصحاب دائرة المعارف الاسلامية ومجدد دائرة المعارف للمعلم بطرس البستاني العلامة الدكتور فؤاد أفرام البستاني ٠ أما العلامة المجتهد السيد محسن الأمين في موسوعته الاسلامية الكبرى : أعيان الشيعة (٢٩) فقد أفرد لشاعرنا قرابة أربعة أخماس صفحات المجلد الرابع والعشرين منها ٠٠ (٣٠) وكبروكلمن صاحب تاريخ الشعوب الاسلامية ، وأحمد أمين في ضحى الاسلام ، وكريمر مؤلف الحضارة الاسلامية وتأثرها بالمؤثرات الاجنبية وطه حسين في حديث الأربعاء وعبد الرحمن صدقي في كتابه الشهير « ألحان ألحان » والمستشرق الايطالي نللينو الخ ٠٠ هؤلاء وسواهم من محققي التراث

---

(٢٩) اعيان الشيعة ج٢٤ ص ٣ .
(٣٠) صفحات المجلد المذكور تبلغ ٢٦١ صفحة ..

العربي هم الذين ردوا لأبي نواس اعتباره بعد أن طمس القدامى معالم سيرته وامتيازه · حتى ديوانه أضاعوه وبعثروه وحملوا صاحبه شعرا مهزولا ليس له · الى أن جاء أمثال اسكندر آصاف فجمع الديوان وحققه وضبطه وطبعه بمصر سنة (١٨٩٨) ومحمود كامل فريد ١٩٣٧ وزكي المحاسني : دمشق ١٩٣٨ · أما المستشرق نولدكه فقد أثبت في دراسة ضافية له عالمية أبي نواس حيث فضله على الشاعر الألماني هنريخ هيتي ···

هذا الاهتمام الكبير بشاعرنا من قبل هؤلاء العلماء المحققين يؤكد لنا مرة أخرى عظمة أبي نواس في مجالات فنية وانسانية كثيرة لم يهتد اليها مدونو السير القدامى الأمر الذي يسمح لنا بالقول ان أبا نواس هو أحد مكتشفات القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين ، أي عصر نهضتنا التي قامت على أكتاف بعض المستشرقين المنصفين وكبار تلامذتهم العرب ، فلولاهم لما عرفنا أبا نواس على حقيقته ، وأمثال ابن الرومي والجاحظ وأبي حيان التوحيدي والمتنبي وسواهم ·

شاعريته ـ أقوال القدماء :

سيتضح مما يلي من أقوال « النقاد » القدماء في أبي نواس أنهم لا يزالون على الوتيرة المعروفة في تقييم من سبقه من الشعراء : أقوال عامة يطلقونها في الشاعر أو الكاتب لا تنقع غلة، ولا تشبع نهمنا الى معرفة الحقيقة • يكفي البيت الواحد أحيانا لتفضيل شاعر على شاعر •• وحين يأتي الرأي مسجعا فلمَ البحث ـ بعد ذلك ولِمَ التدقيق ؟!

سئل لبيد من أشعر الناس ؟ قال : الملك الضليل • قيل ثم من ؟ قال : الشاب القتيل • قيل ثم من ؟ قال: الشيخ أبو عقيل •• (يعني نفسه ••) وكان الخليفة الراشدي الأول يقدم النابغة ويقول : « هو أحسنهم شعرا وأعذبهم بحرا وأبعدهم قعرا(٣١) » •

---

(٣١) وسأل ابن عباس الحطيئة : من اشعر العرب ؟ فقال: الذي يقول :

ومن يجعل المعروف في غير اهله
يفره ومن لا يتقي الشتم يشتم

وليس الذي يقول :

ولست بمستبق اخا لا تلمه
على شعث . اي الرجال المهذب ؟

(مع ان بيت النابغة انجح فنيا في نظرنا).. ونسمع =

وسنجد الفوضى نفسها والارتجال نفسه في عصر صدر الاسلام والعصر الأموي · والنقد وان قوي نسبيا من الوجهة اللغوية الا أنه ظل امتدادا للعصر الجاهلي من حيث اعتماده على وحدة البيت من القصيدة أو وحدة الميزة البارزة · واذا مال الى شيء من الموازنة فباقتضاب كلي ، كما فعل الشعبي في المقارنة بين وصف الليل وتطاوله عند امرىء القيس والنابغة ففضل النابغة ·· ولعله لم يفعل ذلك الا ارضاء لسيده الخليفة الأموي آنذاك الوليد بن عبد الملك (٣٢) ·

على أنه من الانصاف أن نذكر أن النقد قد ازدهر ـ شيئا ما ـ أيام الأمويين : في بيئة الحجاز التي كانت مركزا لتجمع ديني يقوم على درس القرآن والتفقه في الدين · وتجمع أدبي يقوم على الغزل خاصة ·· ولقد دار النقد حول الغزل بين منكر له ومعجب به : بين من يراه خروجا على القيم العربية الاصيلة ، واستهتارا بالدين (النظرة

= جريرا يؤكد : النابغة اشعر الناس .. والاخطل يقرر : لبيد اشعر الناس .. والكميت يحسم الخلاف : عمرو بن كلثوم اشعر الناس .. الخ الخ ..

(٣٢) زهر الاداب ص ٤٥٣ .

الأخلاقية لا الجمالية) وبين من يرى فيه الرقة والجمال والعذوبة ·· والحديث الشهي الجديد عن معطيات الحضارة الوافدة والحرية المطلقة (٣٣) · وفي أوائل العصر العباسي لم ينطلق النقد من أسر الفوضى والارتجال كما كان منتظرا ، فقد ظل خاضعا لشروط اللغويين والنحويين ورغبتهم الخاصة ·· اذ كانوا هم قضاة الشعر وحكامه · حتى قال الخليل بن أحمد : « انما أنتم معشر الشعراء تبع لي ، وأنا سكان السفينة وربانها ·· ان قرضتكم ورضيت قولكم نفقتم والا كسدتم ··· » فكلما كانت القصيدة أحفل بالشواهد وأجمع للغريب كانت أجود في نظرهم ·· وكلما كانت المعاني أرسخ في القدم كانت أفضل ···

وكان الرأي مجمعا في أوائل هذا العصر على تقديم الشاعر القديم ، والمحدث الجاري على

---

(٣٣) اما في العراق فقد كان النقد يدور ـــ يومذاك ـــ حول الهجاء السياسي متأثرا بالحزبية القبلية : فجرير يغرف من بحر والفرزدق ينحت من صخر ، على حد شهادة مالك بن الاخطل .. ويجب الا ننسى نقد الخوارج لغير شعرائهم ، الذي كان ينحو نحوا يتفق مع ما اشتهروا به من تدين وتمسك شديد بالقيم الروحية والاخلاقية الاسلامية ويوافق اهواءهم عقيدتهم ..

القديم ·· على المحدث المجدد أو شبه المجدد، فآثروا الجاهلي على الاسلامي المولد ·· مما أثار أبا نواس ومن قبله بشارا الذي أنزل الشعر من أبراجه العاجية أو كاد ·· الى دنيا الناس ·· ودخل به كل بيت ·· ولم يتورع عن أن ينظم شعرا بلسان حماره (٣٤) ·· أما أبو نواس فقد ثار ثورته المعلومة لشدة وطأة هؤلاء النقاد اللغويين المتزمتين الذين اضطروا أخيرا الى الاعتراف له بالمقدرة والابداع ·· ولكن بتحفظ شديد : قال أبو عمرو بن العلاء : « لقد نبغ هذا المحدث حتى لقد هممت بروايته ··· » وقال العتابي : « لو أدرك الخبيث الجاهلية لما فضلت عليه أحدا » · غير أن هذا النمط التقليدي في النقد لم يدم طويلا ·

---

(٣٤) كان حمار بشار قد مات رهقا من كثرة ما تحمل من ضخامة جثة بشار وتنقله بها، ولكن بشارا جعله يموت عشقا حين رآه فيما يرى النائم يشكو اليه اتانا جميلة كانت مربوطة الى باب الاصبهاني .. وانها هي سبب موته :

سيدي خذ بي اتانا عند باب الاصبهاني
تيمتني ببنان وبدل قد شجاني
تيمتني يوم رحنا بثناياها الحسان
وبغنج ودلال سل جسمي وبراني
ولها خد اسيل مثل خد الشيفران

فالعصر عصر علم وثقافة وحضارة وافدة وأصيلة متطورة ·· فلا بد من تفاعل الآداب وتداخل العلوم وتمازج الأفكار ·· ولا بد من شيء جديد في النقد: رديف الأدب وحليفه اللدود منذ كان · هذا الجديد هو : وضع علوم اللغة من نحو وبلاغة وعروض ، وجمع أشتات الشعر العربي من جاهلي واسلامي ومخضرم · وترجمة المنطق اليوناني الى العربية وبعض الفلسفة : أمور ثلاثة هامة تأثر بها النقد تأثرا كبيرا ونما عليها ، وبها اتسعت مناهجه وآفاقه ·

فابن سلام في « طبقات فحول الشعراء » ينظر في الشعر الجاهلي ويقيمه ، مقسما الشعراء الى طبقات عليا ، ودنيا ·· مرتكزا في تقسيمه على مقاييس وضعها بنفسه واعتمدها ، منها : النظر في عدد مطولات الشاعر ، وهل الشاعر بدوي أم حضري ، ومنها النظر في صحة نسبة الشعر الى قائله ، وهو ما عرف عندهم بالنحل ·· وابن قتيبة في « الشعر والشعراء » ومن قبله الجاحظ في « البيان والتبيين » لم ينظرا الى الشعراء نظرة أبي عمرو بن العلاء والخليل والعتابي وأمثالهم · فلم يفضلا القديم لأنه قديم ، ولم يردا ذلك الحديث لأنه حديث ··

بل كانا عادلين قريبين من المنهجية والموضوعية العلمية في النقد . ها هو ابن قتيبة يعيب على المتعصبين للقديم تعصبهم الأعمى بقوله : « فاني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوما دون قوم » ... وكان الجاحظ شديد الوطأة على من يفضلون الجاهليين لمجرد أنهم قدماء سابقون ، فلا ينظرون الى جودة معاني المحدثين ورقة طبعهم وسلاسة أساليبهم . ومثلهما فعل ابن الأثير (٣٥) وقدامة ابن جعفر (٣٦) والى حد ما أبو هلال العسكري(٣٧) والجرجاني (٣٨) .

وهكذا يبدو واضحا أن أبا نواس الشاعر كانت كفته راجحة عند جميع هؤلاء النقاد : سواء أكانوا متزمتين متشددين أو متحررين منصفين .. فقد فضلوه على جميع شعراء عصره وحتى الجاهليين كيعقوب بن السكيت وابن منظور

(٣٥) في كتابه الشهير : المثل السائر .
(٣٦) في كتابه الشهير : نقد الشعر .
(٣٧) في كتابه الشهير : سر الصناعتين .
(٣٨) في كتابه الشهير : اسرار البلاغة .

وأبي عبيدة الذي قال : أبو نواس في المحدثين مثل امرىء القيس في المتقدمين ، فتح لهم بـاب هذه العطن ودلهم على هـذه المعـاني ، وأرشدهم الى طريق الأدب والتصرف في فنونه (٣٩) • وقـال أيضا : « شعراء اليمن ثلاثة امرؤ القيس وحسان ابن ثابت وأبو نواس » •

وكان بشار يحسد أبا نواس على كثير من شعره وخاصة قصيدته في وصف النخل ومطلعها :

ما لـي بدار خلـت من أهلها شُغل
ولا شجاني لها شخص ولا طلل (٤٠)

وحكى ابن خلكان عن اسماعيل بن نوبخت أنه قال : هو في الطبقة الأولى من المولديـن • وابن خالويه قال بعد أن شرح له أرجوزته : « لولا مـا غلب عليه من الهزل والجد لاستشهدت بكلامـه في كتاب الله تعالى » •

وقال الثعالبي في كتابه « خـاص الخـاص » :

---

(٣٩) اعيان الشيعة ج٢٤ ص ٢٠ .
(٤٠) انظر الديوان ص ٦٩٨ جمع وتحقيق وضبط احمد عبد المجيد الغزالي . الناشر دار الكتاب العربي ــ بيروت بدون تاريـخ .

« واذا أعجب به سفيان (بن عيينة) مع زهده وورعه فما الظن بغيره ۰ وكان سفيان هذا شديد الاعجاب بأبي نواس لا سيما قصيدته :

ما هوى الا له سبب
يبتدا منه وينشعب

وتكفي شهادة الجاحظ فيه ۰ قال أبو عثمان : ما رأيت أعلم باللغة ولا أفصح لهجة مع حلاوة ومجانبة الاستكراه ، منه ۰۰۰ ولا أعرف أرفع ولا أحسن من شعره ۰۰ وان شعره يصل الى القلب بغير اذن ۰ وكان يقول : « لا أعرف بعد بشار مولدا أشعر من أبي نواس » ۰۰ وأبو العتاهية حين يُسأل من أشعر الناس ؟ يجيب : الشاب العاهر أبو نواس حيث يقول :

أزور محمدا فاذا التقينا
تعاتبت الضمائر في الصدور

فأرجع لم ألمه ولم يلمني
وقد قبل الضمير من الضمير

فيردها أبو نواس حين يسأل فيجيب : الشيخ

الطاهر .. أبو العتاهية ، حيث يقول :

الناس في غفلاتهم ورحى المنية تطحن

وقد أخذ أبو العتاهية هذا البيت ـ كما أردف أبو نواس ـ عن قوله تعالى : (اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون (٤١)) . وفي هـذا تعريض بأبي العتاهية وغمز . وان كـان ذلـك الاقتباس مستحبا يومها .

وحين سمع أبو العتاهية قول أبي نواس يـوم عاتبه على مجونه :

لا ترجع الانفس عن غيها ما لم يكن منها لها زاجر

صاح أبو العتاهيـة : وددت ، والله ، لو أني قلت هذا البيت بكل شيء قلته ..

كما كان يتحسر لو أنه قال مثل هـذا الشعر النواسي في الزهد :

وما النـاس الا هالـك وابن هالـك
وذو نسـب في الهـالكـين عريـق
اذا امتحن الدنيـا لبيـب تكشفـت
له عن عـدو في ثيـاب صديق (٤٢)

---

(٤١) سورة الانبياء الاية ٢١ .
(٤٢) اعيان الشيعة ج ٢٤ ص ٢٤ .

وشهد له المأمون بأنه أشعر الشعراء سواء في خمرياته أو زهدياته أو حكمه .. وكان يطرب خاصة لهذا البيت : اذا امتحن الدنيا (البيت السابق) وهذا البيت :

يا شقيق النفس من حكم ‎ ‎ نمت عن ليلي ولم أنم

واستمع المأمون الى خمريات الأعشى والأخطل فلم تعجبه وفضل عليهما قول أبي نواس :

فتمشت في مفاصلهم
كتمشي البرء في السقم

فعلت في اللب اذ مزجت
مثل فعل النار في الظلم

فاهتدى ساري الظلام بها
كاهتداء السفر بالعلم

وأقسم أبو تمام ألا يصلي حتى يحفظ شعر مسلم بن الوليد وأبي نواس . روى ابن خلكان أنه دخل على أبي تمام وبين يديه ديواناهما فقال له : ما هذا ؟ فقال : «اللات والعزى وأنا أعبدهما» ... وقال الفضل بن الربيع للأصمعي : من أشعر أهل زمانك يا أصمعي ؟ فقال : أبو نواس حيث يقول :

أما ترى الشمس حلت الحملا
وقام وزن الزمان فاعتدلا ..

وكان البحتري من المعجبين جدا بشعر أبي نواس . سأله ابنه أبو الغيث (أو الغوث) لما حضرته الوفاة ، من أشعر الناس ؟ فقال : أعن المتقدمين تسأل أم عن المحدثين ؟ فقلت : المحدثين . فقال : يا بني لو قسم احسان أبي نواس على جميع الناس لوسعهم .. وأنصفه الشريف المرتضى في أماليه ، وأخوه الشريف الرضي ، حتى خصمه النظام رأس المعتزلة قال عنه : « لقد جمع له الكلام فاختار أحسنه » الخ .. الخ ..

أقواله في نفسه :

ونحن وان كنا لا ندخل مثل هذا في باب النقد من قريب أو بعيد ، بل في باب الاعتداد بالنفس الى درجة الاطناب والتعشق ، وهو ما يسمى في علم النفس الحديث « بالنرجسية » الا أننا نورد ذلك على سبيل الاطلاع والتسلية من جهة ، ومن جهة أخرى لكي نلمس بعض أسباب وملامح تلك الشخصية الخصبة والمعقدة والمتواضعة معا :

قال أبو نواس : شعري أشبه شيء بشعر جرير وقال : سفلت عن طبقة من كان قبلي وعلوت على طبقة من معي ومن جاء بعدي ·· فأنا نسيج وحدي ·/

شاعريته بالمقياس الجديد : قوة الاختراق :

من خمول الأب وهوان الأم انبثق أبو نواس ـ كما علمنا ـ ··

فاما أن يضربه الهوان ، كما ضرب أخاه أبا معاذ ، واما أن يتابى عليه بما أحس من مواهبه ، فيخترق حجب الزمان والمكان ، بعد أن ملأهما فنا وتحديا ·· وغناء ·· فيصل كأي عظيم الينا ·· ثم يتجاوزنا الى ·· الابدية ··

وكانت أداة الاختراق لديه أقوى من أداة أي عظيم سواه : الشاعرية المطبوعة ·· والابداع الموهوب ·· ثم العفوية ، والروح العذبة ، والصراحة والصدق في تجسيد حضارة برمتها ·· وتخليدها ·· وقبل كل هذا : قوة حضوره عند الخاصة المثقفة ·· وعمق تواجده الدائم في ضمير الشعب المرهق ·· الرافض مثله في لا وعيه ··

المتحدي مثله للارستقراطية الفكريــة والعنصرية والطبقية ..

كان أبو نواس ضد الجمود والجد والعبوس .. عوّض على نفسه بالبسمة والنكتة والخمرة .. وعوض علينا باحتقار تفاهاتنا وعوائدنا وجدياتنا وبكائنا الدائم وراء المجهول .. وانكسارنا المستمر أمام القدر .. فأحببناه تلقائيــا وانســانيا .. وللأخلاقيين أن يحاسبوه فيكرهوه .. أو يجتنبوه هذا اذا كانوا يملكون حــق المحاسبة .. أما نحن فسنظل نرى فيه صديقا أثيرا وانقلابيا خطيرا .. في عالم كونه لنفسه ولنا ، هو عالم الفن والتحدي والمجابهة والفرح .. وسنظل نحبه ونقبل عليه .. اقبال المحب المعجب .. وليس بالضرورة اقبــال المقتدي .. فما السر ؟

ان في وجدان الشعب العربي دائمــا ، كما في وجدان أي شعب نماذج حبيبة لديه ينسى معهــا همومه اذ يرى فيهــا لا شعوريا متجســدا لآمالــه وطموحاته وقيمه .. أو رمزا لبطولات طالما أحب أن يجدها عند صانعي تاريخه .. حتى اذا رآها متجسدة في شخص .. هتف لها من أعماقه وصفق

بكلتا يديه ٠٠ فكيف اذا كان هاذا البطل خارجا من صفوفه ٠٠ من صفوف المنبوذين ، أو المحرومين ، أو المضطهدين، لا لشيء الا لأن لونه أسود ــ كعنترة مثلا ــ ٠٠ يهتف له لأنه يرى فيه وفي أمثاله خلاصه ٠٠ يرى فيه نفسه ٠٠ حتى اذا تسنى لهذا البطل أن يكون شاعرا وعاشقا متساميا ٠٠ انقلب في نظره أسطورة ٠٠ وراح ينسج حوله الأساطير ٠٠ والنماذج الأخرى التي ملأت كيان الشعب اعجابا وحبا في دنيا الشعر والأدب قليلة على كثرة الشعراء والأدباء : في طليعتها المتنبي والمعري والجاحظ ٠ أما أبو نواس فنموذج أكثر قبولا شعبيا ــ كما أرى ــ لأنه أكثر حضورا ، اذ هو أجمع لشروط الحضور من غيره ٠٠ باستثناء المتنبي ٠٠ لذا ذهب في التاريخ الشعبي حكاية حلوة من حكايا الذكاء الفطري ، وجمال الطلعة ، وخرافة من خرافات التحايل المحبب والتخابث المقبول ، والنكتة الجريئة البارعة ٠٠ والسخرية الناقدة غير الجارحة ٠٠ أو الجارحة غير المميتة ٠٠ ضمن اطار شخصية رافضة ومعادية لطبقات تافهة من الحكام أو العلماء، أو الأدباء ٠٠ طبقات يرفضها الشعب ــ في العادة ــ أو لا يحبها ٠٠ فتراه تلقائيا منحازا الى صف

رافضيها ومنتقديها من الابطال أو الشعــراء أو الفنانين ·· وينسى معهم ــ بعد هذا ــ كل هفواتهم وشذوذهم وتجاوزاتهم ·· ويتغنى بهم وبشعرهم وآثارهم مضيفا اليها مــا أمكنــه مــن أقاصيص وروايات تمجيدية ، نكاية بتلك الطبقات التافهة والمستغلة ·· وانتصارا منه للجانب الأحب مــن الحياة ··

ونحن لا نجد شاعرا في الأولين التصقت شخصيته بشعره ، وشعره بشخصيته، سوى شاعرين اثنين ربما لا ثالث لهما هما : ابن الرومي وأبو نواس ··

من هنا كانت شاعرية أبي نواس حديثا متكاملا حلوا عن شخصيته الفاعلة المستقطبة لكل معطيات العصر وبالتالي أصدق شاهد على حضارته وأغلى وثيقة ··

ثم اننا نجد في شاعرية النواسي خصبا وكثافة· فهي حين توحي بالكلم الموهوب والغناء المحبــوب لا تبدو مسطحة الانسياب أو ضحلة الاشعاع بــل يمسك بها عقل مكثف الثقافة اللغوية والعلميــة والتقنية فاذا بشعره ــ بعد هذه العملية ــ على

سهولتـه الظـاهرة ، بشـارف الفلسفـة وعلم النفس (٤٣) .

عوائق طبيعية :

كان الوعي وكابوس اللغة عائقين كبيرين يشدان بالشعر العربي القديم الى الوراء ، اذ كانـا هما المسيطرين على الشاعر أثناء النظم .. نقول الوعي بالمفهوم النفسي للكلمة حيث ينشغـل الشـاعر في صحو تام بأدوات الصناعة الشعرية من تقنيات بلاغية وأصول وقواعد وقوانين، عن انشغاله بالداخل باللاوعي .. أي بالبدايـة الحقيقيـة لكل عمـل فني .. أما الآن فنحن مع شعراء الطليعة نشهـد حالة من اللاوعي تكاد تكون هي المسيطرة أثنـاء عملية الولادة أو التوليد الفني .. يأتي الشعـر معها انهمارا مـن شلال حدسي غـير منظور .. وانبهارا بعوالم جديدة وبعيدة يخلقهـا الخيـال باستمرار فتنهمر صورهـا على دائـرة الرصـد

---

(٤٣) نجد ذلك في تحليله النفساني لرفاق كاسه حين تأخذهم الخمرة كل مأخذ ، ولنفسية الدهقان او الدهقانة ، كما سنرى ـ وذلك ناتج عن كثرة المعايشة والمصاحبة لا عن المام علمي بدخائل النفوس طبعا ..

الحسي المنظور ·· ثم تبدأ عملية التعبير بالصيغ الفنية التي قد تأتي مبهمة أو مغلقة على القارىء العادي لكنها مفهومـــة ومقبولة لـــدى المتأثر الذي يقرأ ما وراء الصورة والصيغة من ظلال نفسية ومعان حدسية تجريدية ويكون المعنى آخر ما يفتش عنه بين تضاعيف « الحالة » ·

هذا الى جانب أن الشاعر الطليعي قـــد تحرر نهائيا من عقدة اللغة ·· وخرج نهائيا مـــن جو الرهبة الذي كانت اللغة تفرضه على الشاعر ·· لذلك تأتي قصيدته تجسيدا للحالة في اطـــار من الأسطورة والوهـــم ·· والهذيان بقيم معينـــة ، اجتماعية أو سياسية ·· يحيط بها الوعـــي من أطرافها لتبقى على شيء من المعقولية أمام القارىء، لأن الشعر كأي نتاج فني آخر، هو في النهاية لخدمة الانسان ·· والا انقلب هلوسة وثرثرة ·· وأبو نواس كسائر شعراء عصره لم يستطع أن يتحرر من رهبة اللغة ويهرب من كابوس الخليل ·· لكنه حاول جاهدا أن يكسر القيد ويصفع أرستقراطية التعبير العربي والموضوعات الرتيبة المملة التي كان الشعر يدور عليها وحولها ·· فنجح الى حد كبير ·· وكان رائدا في هذا الباب ··

مزايا ريادية :

ما دمنا قد فهمنا الشعر على أنه ذلك الألـق الروحي الذي يشع من قرارة الشاعر٠٠من وجدانه من كيانــه عبر الكلمــة المنسابــة دون تعمل أو تصنع ٠٠ أو دون انقطاع ٠٠ قلنا : دون انقطاع، اذ في اللحظة التي ينقطع معها الشاعر عن الاشعاع ليلهو بالصناعــة والتفتيش عن القافيــة ـ كما كان يفعل الأقدمون وحتى المحدثون من الرعيــل النهضوي الأول ـ (٤٤) يكون قد فوت عليه دفقات كثيرة وصورا مشعة أكثر ترفده بها الحالة الشعرية ٠قــد لا يستطيع العــودة الى التــوفز أو التحفز الانفجاري الأول بكل توتره وتكامله ٠٠ ومن ثم٠٠ بكل انسياباته المتلاحقة ٠٠ ما دمنا قد فهمنا الشعر هكذا ، يصبح الشاعر الحق في نظرنــا هــو ذلك الانسان الذي يشعرنا بأنه مالك تلك القدرة الهائلة على التألق والانسياب والتفجر ٠٠

---

(٤٤) حتى ان بعضهم كان يبدأ قصيدتـهبوضـع قوافيها اولا٠٠ ثم يحاول جاهدا رصف المعاني والكلمات والاوزان حتى تأتي موافقة لتلك القافية الجاهزة ... وطالما سهـر بعضهم الليالي حتى يفتح الله عليه .. كأن نظم الشعر (ضرب مندل) او تنجيم ٠٠ المؤلف

وأبو نــواس مــن هؤلاء الشعــراء العباسيين القلائل الذين امتلكوا تلك القدرة على التألق ·· وبالتالي الانسياب ·· عبر القيم التعبيرية ·· حتى صب في قنوات التاريخ مارا بنا قوي التأثير والحضور ثم يغادرنا الى حيــث لا ندري مــن أطراف الأبدية والخلود ··

ومعنى ذلك أنه استطاع أن يتحرر من الصناعة اللغوية والتلوينات اللفظية والمعنوية التي كانت سائدة في عصره ·· ومن طغيان النقــاد كالخليل والأصمعي وأبي عمرو بن العلاء على نتاج الشعراء لكنه كــان تحــررا محدودا ·· فقد ظــل شعــر النواسي كلاسيكيا وعلى قافية واحــدة ·· دون اغراب أو تعقيد مع محاولة جادة لتخفيف تلــك القيود وترقيق الصناعة اللفظية ·· فجاء شعره واضحا ·· سهلا ورقيقا يصلح في أغلبه للغناء ··

ثم كيف لا يرق شعره ويسلس وأكثــره دار حول الخمرة ومفاعيلها ومجالسها ·· والخمرة كما يقول أبو نواس ترقــق الطباع وتذهــب بنــزق اللئيم ·· فكيف لا ترقق ديباجة الشاعر ومعانيه وصوره ؟! وعندما يكون من أهــم مميزات هــذا

الشاعر الثورة على كل قديم وعشق كل جميل ، والدعوة الى كل جديد وافد أو غير وافد .. يصبح طبيعيا أن يجسد شعره هذا المنحى الحديث ، وهذا النهج الذي عده الكثيرون كفرا بالعروبة (اذا صح التعبير هنا) وشعوبية وقحة .. نحن ــ بادء بدء لا نرى فيه ذلك ــ بل نراها شاعرية سمحاء جريئة تجري على رسلها ، طلقة ، وثابة ، محببة ، تجرف في طريقها كل متعصب أو متحجر ، ثم تدخل القلوب ــ بعد ذلك ــ بدون استئذان ..

هذا بالتحديد ، ما فعله أبو نواس ، وما استطاعه بجدارة ، في حين تلهى الآخرون بالاطار الخارجي للشعر أو النظم على الأصح ، كابن المعتز (٤٥) ومسلم بن الوليد،ثم التباهي بالغموض وتعقيد المعاني كما سوف يفعل أبو تمام بعد قليل أما في القرنين الرابع والخامس الهجريين فقد بدأ النظم العربي ــ ولا نقول الشعر ــ يميل بشدة الى أن يصبح طلاسم وأحجيات ، ولزوم ما لا يلزم .. ما عدا بعض الشهب .. والنيازك ..

---

(٤٥) خليفة يوم وليلة كما يسميه زميلنا الاستاذ عبد العزيز سيد الاهل . في كتاب له بهذا العنوان ..
المؤلف

شاعرية أبي نواس اذن من طراز جديـد في العباسيين ·· لا لأن ثورته كانت عارمة ، وتحرره كان جريئا ، ودعوته السلمية الحارة كانت أمضى من دعوة المتنبي المسلحة ·· ولا لأن شاعريته هذه كانت كروحه جياشة وغزيرة رفدته بكل أنـواع الصور والتعابير ·· بل لأن صاحـب هذه الثورة كان يقف وحده في الميدان ، تحيط به من كل جانب أفاع سامة،وذئاب شرسة،تحاول أن تفترسه لتبقي القديم على قدمه ، ولتشد بالعرب الى الوراء ، مع ان العصر موات لهم ، والحضارات جاهزة ليتفاعلوا معها ، وليتذوقوا ما فيها من أطايب تملأ العقول والبطون والأفئدة ··

أدرك أبو نواس بحسه الصافي ، وحدسه البعيد، وثقافته المكثفة أن العرب المولدين لم يعد يليق بهم العيش في بغداد الرشيد والأمين والمأمون بأجسامهم وحدها ·· في حين لا تزال أرواحهم تعيـش في الصحراء ·· من هذا المنطلق بدأ النواسي ثورته ، ثم اشتدت لتشمل العرب جميعا بعد أن كثر المعنفون وتعاظم اللائمون ·· لقد أحرجوه فأخرجوه ·· فراح يجهر بالكفر ·· بقيمهم وتقاليدهم وأساليب عيشهم ·· وتمت القطيعة بعد أن اتهـم بانـه

شعوبي كبير !! فليكن ·· ولِمَ لا ··؟ فاذا كانت شعوبية دعوته الى كل جديد وكل جميل ·· وكل لذيذ ·· وحضاري ·· فما أحلاهـا شعوبية ·· واذا كانت شعوبية أن يحيا حياته كما يهوى ·· وأن يكون ما يهواه فارسيا ·· ومن يهواهم فُرسا فأهلا وسهلا ·· وليبلع الحـاسدون الجـامدون رمال الصحراء ·· وليأكلوا يرابيعها ·· وليشربوا ماءها الآسن كالأبعرة ·· أما هو فسوف يستبدل كل ذلك بالخمرة وبالحياة الحضارية الجديدة من أي مصدر كانت روافدها ·· وليكن بعد ذلك ما يكون ··

اننا لا نحاسب أبا نواس أخلاقيا وقوميا فذاك شأن علماء الاخلاق والقوميات ·· وكم تجنى عليه هؤلاء في الماضي ·· ويتجنون اليوم ·· والمسألة ـ على كل حال ـ ليست من اختصاصنا ·· كما أن تقييم شاعريتـه وشخصيتـه ـ فنيا ـ ليس مـن اختصاصهم ··

نحن نفهم أبا نواس وأمثاله من هذه الزاوية وحدها : زاوية الفن والابداع ·· والقدرة على الاتصال والايصال وتمثيل العصر ·· والتفـرد

بامتياز ما ٠٠ يسم الشخصية بطابع خـاص ٠٠ ويرسم الأسلوب بتهاويل وظلال لهـا جـو خاص ومذاق مميز ٠٠ فاذا بالشاعر « نسيج وحده » ٠٠ وهو ما أحس به أبو نواس فعلا ، فأعلنه بكل اعتزاز وتواضع حين قال:« سفلت عن طبقة من تقدمني ، وعلوت على طبقـة من معي ومـن يجيء بعدي ٠٠ فأنا نسيج وحدي ٠٠ » وحين يحس الشاعـر ، بصدق ، هـذا الاحساس يكون فعـلا شاعرا ٠٠ والشعور بالتفرد والامتياز كان طاغيا لديه : في سيرته ، في حبه الفاشل ، في انحرافه ، وشذوذه ، حتى في تزعمه لعصابة المجان ٠٠ وفي سكره ونشوته، كما سنرى في شخصيته الشعبية التي لا تزال محببة عندنا ٠٠ وكانت هي سبيله الى قلوب منتقديـه ولائميه ومعنفيه ، حتى الشيوخ منهم وعلماء اللغة والدين ٠٠ فتسامحوا معه ورووا شعره واستشهدوا به ٠٠ ولم يستطيعوا تجاهله ، وتعاملوا معه ٠٠ بل وأحبوه ٠٠ وهذا يعني ـ في نظرنا ـ أمرين على الأقل :

١ ـ انه كان انسانا فاعلا ، متعدد الجوانـب ، وبالتالي عظيما ٠٠

٢ ـ انه كان صاحب طريقة في الحياة ، ومدرسة
في الشعر ·وهاتان : (الطريقة والمدرسة)
هما قوام ثورته ومصدر العاصفة التي أثيرت
ضده ومعه ·· ولا تزال ··
وهنا تكمن العبقرية ·· ويكمن الابداع ··
وتكون الريادة والفرادة ···
غير ان الجدير بالملاحظة والتسجيل هنا هو :

ان أبا نواس لم يبرز ·· ولم يكن مميزا في سائر الموضوعات خارج اختصاصه كالهجاء مثلا أو المديح أو الزهد أو الرثاء ·· على ما في زهده من صدق وحرارة ولوعة وشعور عميق بالندم · في الهجاء يضيع مع ابن الرومي · وفي الزهد يختفي مع أبي العتاهية ·· وطالما أعاره بعض المعجبين به مقاطع من زهديات أبي العتاهية ونسبوها اليه ·· بالرغم من أن أبا العتاهية نفسه تمنى مرة لو يأخذ أبو نواس ثلث شعره في الزهد البالغ ستة عشر ألف بيت على أن يعطيه ثلاثة أبيات زهدية قالها الحسن وهي :

اذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت
لـه عن عـدو في ثياب صديـق

ـ مـن لـم يكـن للـه متهمـا
لـم يمس محتاجـا الى أحد ··
ـ يـا كبـير الذنـب عفو الـ
لـه عـن ذنبـك أكبر ·· (٤٦)

والحق أنك لن تجد أبا نواس شاعرا ، وثائرا ، ورائدا ، وانسانا الا مرة واحدة وفي مكان واحد هو : خمرياته ·· (٤٧)

ان كل حضارة عصره بكل خصائصها ونقائصها تتجسد دفعة واحدة ، وتشع بألق واحد ، من على منارة واحدة هي : شخصية أبي نواس وشاعريته ·· واذا مثل غيره جانبا من جوانب تلك الحضارة فان أبا نواس قد مثل كل الجوانب وتعامل معها سلبا وايجابا ·· ورغم ظلم القرون الماضيـة ، وتجني المؤرخين على تينك الشخصيـة والشاعرية ، فقد نهضتا من تحت ركام الظلم والظلام أسطع وأروع وأحب ·· نتيجـة مجهود شاق قـام به محققون نهضويون ومستشرقون ، لديوان كاد يذهب بددا ،

(٤٦) الحان الحان ص ٣٨٧ .
(٤٧) سنتحدث عن هذه الخمريات النواسية بالتفصيل بعد قليـل ..

ويتناثر أشلاء .. وحصيلة دراسات تقييمية جادة أعادت لشاعرنا الكبير مكانه الحقيقي بين شعراء العربية الكبار .. بل شعراء الانسانية قاطبة .. وأنقذته من براثن ذئاب التدوين العربي القديم وأسقطت عن وجه الجميل أقنعة سوداء مصطنعة ...

صفاته :

قال ابن منظور : « كان أبو نواس حسن الوجه، أبيض ، حلو الشمائل ، وكان ألثغ .. وكان نحيفا وفي صوته بحة لا تفارقه ، وكان نظيفا ، ظريفا ، كثير المجون والخلاعة » ..

وقال أبو نواس يصف مزاجه :

في انقباض وحشمة ، فاذا
صادفت أهل الوفاء والكرم
أرسلت نفسي على سجيتها
وقلت ما قلت ، غير محتشم

ويروون ان أول شعر نطق به وهو صبي (في سن المراهقة) هو :

حامل الهوى تعب — يستخفه الطرب
ان بكى يحق له — ليس ما به لعب
تضحكين لاهية — والمحب ينتحب
تعجبين من سقمي — صحتي هي العجب

وجدانه في الحب :

الواقع أن أبا نواس لم يلزم حالة واحدة من وجدانية الحب · فهو مع جنان (٤٨) مشبوب العاطفة جياشها · وهو مع عنان (٤٩) يعشق بعقله عشق صداقة واستلطاف · وقد يحب لاهيا عابثا (٥٠) · على أنه ـ في أي حال ـ لم يكن عذريا ، ولا صوفيا من قريب أو بعيد ·

زهدياته :

قد يكون من المستغرب أن نجد أبا نواس زاهدا ، أو شاعر زهد ، وهو من هو مجونا واقبالا على الحياة ، وانصرافا عن كل ما يذكره بالموت والآخرة والحساب ·· لكن التقييم النفسي اليوم، يثبت ان أكثر الناس قربا من الله ·· بل أكثرهم

---

(٤٨) جنان جارية لال عبد الوهاب الثقفي ، حلوة ، اديبة ،

(٤٩) عنان جارية الناطفي ، وهي قينة ، عشقهاابو نواس عشقا يختلف عن عشقه جنان . عنان عاشت للفن ولم تعش للحب . كان بينها وبين النواسي مساجلات شعرية طريفة . انظر كتاب غزل ابي نواس د. علي شلق ص ٢٨ .

(٥٠) كان ذلك حين اجتاز سن المراهقة وظهر انحرافه الجنسي واضحا فاصبح لا يتغزل الا بالفتيان والغلمان.

حاجة اليه هم أكثرهم فسوقا وخلاعة وزندقة ومرضا .. فكيف اذا كان هؤلاء شعراء أو أدباء ، أو فلاسفة .. حتى الشعراء الربانيون ـ في نظري ـ لن يكون في شعرهم الزهدي أو الصوفي ما في شعر الخطاة التائبين من لوعة وحسرة وحرارة وصدق .

وهذا ما نجده ، بالفعل ، في زهديات أبي نواس حين كان وجدانه يتألق ، وضميره يستيقظ ، في غمرة من انهيار صحته ، واشتداد ألمه ، أثناء لياليه الموحشة ، حيث ينصرف عنه رفاقه،فيروح يهمس في اذن السماء توسلات ضارعة ، وآهات خاشعة منيبة هي الصدق كل الصدق ، والتوبة الخالصة النصوح .. لِمَ لا ؟ والشاعر ابن اللحظة .. فبقدر احساسه بالفاجعة ، أثناء هذه اللحظة بقدر ما يأتي التعبير مأساويا وصادقا .. وها هو أبو نواس في أوج يقظة وجدانه ينظر الى حياته ، فاذا ما فرط منه فيها كان شيئا لا يحصيه حساب (٥١) :
لهف نفسي على ليال وأيام سلكنا بهن لعبا ولهوا ..

---

(٥١) غزل ابي نواس د. علي شلق دار بيروت ١٩٥٤ .

قد أسأنا ـ كل الاساءة يا رب فصفحا عنا الهي وعفوا

وحين حج أطلق هذه المناجاة الرائعة :

الهنا ما أعدلك مليك كل من ملك
لبيك قد لبيت لك
لبيك ان الحمد لك والملك ، لا شريك لك
ما خاب عبد سألك أنت له حيث سلك
لولاك يا رب هلك
لبيك ان الحمد لك والملك .. لا شريك لك
كل نبي وملك وكل من أهل لك (٥٢)
وكل عبد سألك سبح أو لبى فلك
لبيك ان الحمد لك والملك لا شريك لك
والليل لما ان حلك والسابحات في الفلك
على مجاري المنسلك
لبيك ان الحمد لك والملك .. لا شريك لك
اعمل وبادر أجلك واختم بخير عملك
لبيك ان الحمد لك والملك .. لا شريك لك

.. ويروي أحد المستشرقين ان دعاء التلبية الذي

---

(٥٢) اهل لك : فرح وصاح وتكلم بصوت مرتفع (كما في الديوان حاشية صفحة ٦٢٣) .

يطلقه الحجيج في عرفات ما هو الا صورة معدلة عن هذا الدعاء ٠٠

ولكن هذا الزهد وهذه الضراعات لم تكن لتدوم طويلا ٠ فأكثرها كان الحسن يطلقه أثناء اشتداد نوبات «الربو» عليه في لياليفقره ووحدته ومرضه ٠ وحين يطلع عليه النهار وتمتلىء رئتاه بأوكسيجين الحياة ونسائم بغداد ، سرعان ما نراه ينسى أوجاعه ويطلّق ضراعاته عائدا الى لهوه وعبثه يغنيهما ـ في خمرياته ـ كأحسن ما يكون الغناء ٠ على أنه كان صادقا في الحالين ٠٠

أما شعر التوبة والاستغفار الذي قاله أواخر عمره ، وعلى فراش الموت ، فهو في نظرنا ، أقل حرارة وان كان صادقا ٠٠ أقل حرارة لأنه ضراعات انسان مضطر الى لقاء ربه لم يعد أمامه سوى أن يتوب ويتلو فعل الندامة بين يديه ٠٠ ثم يسلم الروح ٠٠ هذا بالاضافة الى أن أكثر زهدياته منحول ٠٠ قاله أبو العتاهية ، وصالح بن عبد القدوس ، لكن الراوية حمزة الاصفهاني نسبه الى أبي نواس خطأ أو اشتباها لتقارب ما عند

الشاعرين من « محاولة ايذاء النفس بالتقريع المستمر على ما فرط منها ، والالتجاء الى عفو الله وغفرانه ، والى الاقرار بالتوبة لتمحو ما بها من سيئات (٥٣) .. » .

(٥٣) ديوان ابي نواس « الحسن بن هاني » ص ٦٠٩ ، تحقيق احمد عبد المجيد الغزالي ــ دار الكاتب العربي ــ بيروت ــ لبنان ١٩٥٣ .

الفصل الثاني
الخمريات (أو الشعر الخمري)

١ ــ قبل أبي نواس :

نشأ الشعر الخمري في الجاهلية مرافقا لفن الغزل والفنون الأخرى • فكان كالغزل تفتتح به القصائد • وكما كانت المرأة توحي ، كذلك كانت الخمرة • كلاهما مبعث للنشوة ، وظل ظليل يخفف عن البدوي جفاف صحرائه ويبوس حياته • وهما في القصور المتاخمة من لوازمها ، وفي الأديرة من مقوماتها ، وعند اليهود تجارة رابحة •• ولعل الخمرة من أقدم اللذائذ في تاريخ الحضارات العريقة والأديان الوثنية ، بل والسماوية ، الى حد ما ، فهي « شراب الآلهة » عند اليونان ولها اله هو

باخوس (١) وساق هو أبولو (٢) • ومردة الجن عند العرب هم معتقوها ونافثوها في فم الشعراء(٣)• كما أن الشعراء الذين تغنوا بها شربوها قبل ذلك مع سادة القوم وفرسانهم حتى أصبحت وسيلة من وسائل الفخر في الجاهلية • والكريم عندهم من سقى ضيوفه خمرا بدلا من اللبن الذي هو شراب البدوي الفقير أو البخيل (٤) •• ولهذا عانى الاسلام كثيرا

---

(١) اله الخمرة عند اليونان هو Bacchus والفرنسيون ينسبون اليه الشعر الخمري فيقولون Poésies Pachiques:

(٢) Apollo وهو ساقي الالهة في معبد باخوس .

(٣) كقول الفرزدق في هجاء ابليس : هما نفثا في في مــن فمويهما ... أي ان شيطانـــي الشعر سقياه الخمرة فاسكراه فأوحيا له بالهجاء المر والغــزل الفاضح .. وشياطين الشعر اعتقاد يونانـــي . ففـــي الميثولوجيا اليونانية ان سقراط كان يعتقد أن له شيطانا خاصـــا يوحي اليه ما يريد . وكان الرومان القدماء يكرمون الشياطين الخاصة والشياطين الوطنية فيحتفلون لكل مولود بشيطانه . ويكرمون الشيطان الوطني بتقديـم الفواكه والثمار . ويسمون شياطين الشعـر Musa ويقولون ان اليهود لما نفوا الـــى بلاد فارس اقتبسوا الاعتقـــاد الفارسي بآلهي الخير والشر . والفــرس يعتقدون بسكنى الجن في الاماكـــن .. وحين اتصـــل العرب بالفرس واليونان والرومان تاثروا بهم فاعتقدوا مثلهم بوجود الشياطين او الجن ولا سيمـــا شياطين الشعر فكان للاعشى شيطان اسمه مسحل ، ولبشار : شنقناق .. الخ .. وكانو يسمونه تابعا او رئيا . ومن الجن كلمة génie الاجنبية وهي بمعنى العبقرية =

في رد أسياد قريش عنها بعد أن دخلوا في الديـن الجديد . وكان مرنا جدا في تحريمها والتدرج في ذلك تدرجا معقولا ..

فاذا نظرنا الى الآية المكية الكريمة : « ومن ثمرات النخيل تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا » لا نجد فيها تحريما أو حتى منعا .. هـذه الآية نزلت على الرسول في مكة أي في بداية الاسلام .. وسراة قريش يشربون الخمرة بل ويتباهون بشربها في الجاهلية .. وها هم في فجر الدعوة يستمرون في شربها حيث لا مانع ولا وازع . لكن عمرا وعليا ونفرا من متشددي الاسلام رأوا أن الخمرة وهي مفسدة العقل ومتلفة الصحة والمال ، لا يجوز أن تبقى صفة المسلم الحق وعادة من عاداته، فسألوا النبي في أمرها وأمر الميسر ، فنزلت الآية « ويسألونك عن الخمر والميسر ، قل فيهما اثم كبير ، ومنافع للناس

= ثم اشتقوا منها Ingénieur واطلقوه على المهندس.
ويقال لصوت الجن : عزيف ومنه : العزف : الضرب على الالات الموسيقية فكان ما ترسله هذه ات من الحان وانغام فيه من السحر ما في عزيف الجن ..

(٤) كما حدث للحطيئة وكان معروفا ببخله حين حل به ضيف فسقاه بدل الخمرة لبنا ثم لما غادره في الصباح هجاه..
المؤلف

واثمهما أكبر من نفعهما » . الا أننا لا نلحظ أي تحريم .. بل تدرجا في المنع وظل كثيرون يتعاطونهما .. لما فيهما من « منافع للناس » ..

لكن اثم الخمرة برز واضحا حين دعا عبد الرحمن بن عوف ـ وهو من كبار الصحابة ـ نفرا من صحابة النبي الى مائدته وسقاهم خمرا فشربوا وسكروا .. وحضرت صلاة المغرب فقدموا بعضهم لامامة الصلاة،فراح يقدم ويؤخر ويلحن في صلاته لشدة سكره .. فأخبر الرسول .. فنزلت الآية : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاةوأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون (٥) » . هنا لا نجد تحريما بل تحذيرا من اقامة الصلاة في حالة السكر .. أما التحريم القطعي للخمرة باللفظ الصريح فلم يرد في الآيات المكية .. حتى اذا كانت الهجرة واتسعت رقعة الاسلام واستمر بعض المسلمين في شربها رغم التحذير والتنديد ، وأن الخمرة « رجس من عمل الشيطان » كالميسر والأنصاب والأزلام (٦)

---

(٥) انظر كتاب الحان الحان ص ١٩٣ عبد الرحمن صدقي ـ دار المعارف بمصر ١٩٥٧ .

(٦) انصاب جمع نصب وهو الصنم . لكن الصنم مصور ومنقوش عليه اما النصب فلا. والانصاب حجارة كانت =

نزلت آية التحريم بالمدينة في شهر ربيع الاول سنة أربع من الهجرة ، وقيل بعد غزوة الأحزاب بأيام في ذي القعدة سنة خمس من الهجرة . أما الآية فهي : « انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون » .

وقيل ان التحريم نزل قبل الهجرة بصور وسور مختلفة وبالتدريج ـ كما رأينا ـ وبالقطع والأمر والنهي والزجر كما في هذه الآية وغيرها . فالتحريم باللفظ لم يعد ـ بالضرورة ـ لازما أو واجبا ما دامت الآيات كلها تشير الى ذلك .

ثم جاء الحديث النبوي : « الخمر من هاتين الشجرتين » الكرمة والنخلة، ليفسح في المجال أمام المتأولين ليستخرجوا أن الخمر المحرمة هي الشراب المتخمر من عصير العنب والتمر وحدهما .. أما باقي الخمور من العسل والحبوب مثلا فليس محرما

= في الجاهلية حول الكعبة تنصب فيهل عليها ويذبح لغير الله تعالى .. والازلام جمع زلم وهي سهام كانوا يستقسمون بها في الجاهلية وفي سورة المائدة : « انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » .

ويعود الخليفة عمر ليؤكد شمولية التحريم وليقطع دابر المتأولين ويحسم الأمر • فيقول في خطبة له : « أما بعد ، أيها الناس ، انه نزل تحريم الخمر • وهي من خمسة : من التمر والعنب والعسل والحنطة والشعير » • وهناك حديث نبوي يقول : شارب الخمر كعابد الوثن • فأي تحريم أقوى من هذا التحريم ! وأي تعميم في كلمة «الخمر» فلم يقل خمرة الكرم أو النخل أو سواهما •• لكن الأمر لم يحسم في الأمويين وتعاظم في العباسيين حيث كثرت الفرق وبلغت الجرأة عند بعضها حد الاباحة وان الله لو أراد التحريم لفعل ذلك في آية صريحة وحاسمة ولكان حرمها ــ قبل النبي محمد ــ على جميع رسله وأنبيائه •••

هذا القول هو محصل رأي المعتزلة •• غير أنه لا يعني خروجهم على اجماع عامة المسلمين على التحريم ، وانهم يدعون الى اباحة شرب الخمرة •• بل يريدون ــ وهم العقلانيون المتحررون في الاسلام والغياري عليه ــ أن يناقشوا أمر التحريم من جوانبه المختلفة التاريخي منها والحضاري والعلمي •• لا أن يكتفوا بالاجماع دون تأويل ، وبالآيات دون تفسير •• فبحثوا ــ كسائر المتشددين ــ في المسكر

منها وغير المسكر وبكمها وكيفها ، ومقاديرها ومدلولاتها وماهيتها ، لا حبا بها أو اباحة لها ، بل ارضاء للعقل عندهم • هذا العقل الذي لا يرضى بالتسليم الأعمى ، أو الاخذ بلا مناقشة ••

غير أن هذا النقاش وذاك الجدال بين الفرق الكلامية سمح لأمثال أبي نواس ــ كما سنرى ــ أن ينتهزوا الفرصة ويشربوا الخمرة بالكبير وبالصغير (٧) على حد قول شاعرنا •• الى أن تتفق هذه الفرق على رأي واحد •• هذا ، وبالرغم من أن ربانيين كثيرين قد قطعوا بتحريمها كما فعل الرسول والصحابة وكبار التابعين الا أن الناس على دين ملوكها • فما دام الملك ــ ولا نقول الخليفة ــ يشربها خفية وجهارا فلم يعد اثما كبيرا شرب العامة لها (٨) •

---

(٧) اي بالكأس الكبيرة والصغيرة .
(٨) جاء عن الامام جعفر الصادق في النهي عن الخمرة قوله : « اذا شرب الانسان منها جرعة لعنه الله وملائكته ورسوله والمؤمنون ، فاذا شربها حتى سكر سلب روح الايمان من جسده ويأتي يوم القيامة بالعا لسانه ينادي العطش العطش الخ » ..

وتتمزدك (٩) اللذة أيام أبي نواس ثـم أيام ابن الرومـي ـ زمـن المتوكل ـ فيأخـذ الناس بمعاقرة الخمرة وسائر ما تطاله أيديهم من صنوف المتع المادية والمجون والفسوق حتى تصبح المعاقرة نوعا من التحدي ·· ومذهبا من مذاهب المجددين الأحرار ·· وعند ابن الرومي وسيلة تهكم وسخرية من كبار أئمة الدين كالشافعي وأبي حنيفة اللذين كانا دائمي الخلاف على المسكر من الخمرة وغير المسكر · اسمعه يقول :

أباح العراقي (١٠) النبيذ وشربه
وقال : الحرامان : المدامة والسكر
وقال الحجازي (١١) الشرابان واحد

---

(٩) نسبة لمذهب المزدكية الاباحي الذي كان صاحبه (مزدك الفارسي القديم) يدعو فيه الـى نوع مـن الاباحيـة وشيوعية النساء . والاشتراكية في العيش بين الناس . ومن الظرفاء من يقول ان الشيوعية الحالية ما هي الا بذرة من بذور مزدك هذا زرعها هناك في بلاد «الهياطلة» (روسيا اليوم) !! حين غضب عليه كسرى زمانـه ونفاه الى تلك البلاد ... المؤلف

(١٠) العراقي : ابو حنيفة . وهو صاحب المذهب الحنفـي الذي ينسب اليه وهو مذهب انتقائي حر .. متأثر الى حد كبير بمذهب الامام جعفر الصادق .

(١١) الحجازي : الشافعي .

فحلت لنا مـن بين قوليهما الخمر
سآخـذ مـن قوليهمـا طرفيهمـا
وأشربها ٠٠ لا فارق الوازر الوزر !!

ثم يمضي العراقي والحجازي والمتشددون جميعا ويمضي معهم ابن الرومي وأبو نواس ٠٠ وتبقى الخمرة وجها لوجه أمام الدين ٠٠ ينبت لهـا في مدائن العرب ألف نصير ونصير ٠٠ وألف نواسي وخيام ٠٠ وينتزع من الدين ألف نصير ونصير ٠٠ لضعف العصبية الأولى ، جيلا بعد جيل ، ولطغيان أصحاب الحضارات الوافدة وتغلغلهم في صميم هذا الدين ٠٠ وبعد غياب حماته ، وهزال دعاتـه في الحواضر والأقاليم ٠٠ فكان للخمرة ـ وهي رأس المحرمات وأم القيم التي يعتز الاسلام بأنه استطاع التغلب عليها بعد أن تعامل معها ومع دعاتها بحنكة ومرونة ملحوظتين ـ كان للخمرة أن تعود الى ماضي عزها ومجدها ٠٠ وأن تصبح أهم وجه من وجوه الحضارة العباسيـة الوافدة وأهـم موضوع مـن موضوعات الشعراء المولدين ٠٠ كما انقلبت علما قائما بذاته وصناعة لها موادها الخام ومستخرجوها ومعتقوها ومعاصرهاوخبراؤهاوتجارها ومسوقوها ٠ وازدهرت مجالسها ، فبعد أن كانت في حوانيـت

متواضعة في الجاهلية وصدر الاسلام ، أمست ولها في « عاصمة الدنيا بغداد » وفي أرباضها وأديرتها وحوانيتها الغنية ، طقوسها ومراسيمها ومغنوها ومغنياتها ونداماها وسقاتها وشعراؤها فلا يشربها الا الخلفاء والأمراء وكبار القوم في قصور فخمة عابقة بروائح البخور والعطور والخمور من كل نوع ‥ ولا تسكب الا في كؤوس كسروية عسجدية على آنية من فضة يقدمها غلمان مولدون بأيد نظيفة وثياب فضفاضة وقوامات كلها غنج ودلال وعيون هي السحر الحلال ‥ مضافا الى السحر الحرام فتكون النشوة نشوتين والسكرة سكرتين خصوصا لمن كان في مثل ذائقة أبي نواس واختصاص أبي نواس …

لي نشوتان وللندمان واحدة
شيء خصصت به من دونهم وحدي

هذه الظاهرة ماذا تعني لنا على الصعيدين الديني والاجتماعي ؟

ان الحضارات الثلاث الوافدة والمتفاعلة على الأرض العربية والاسلامية كانت الخمرة وصناعة

الخمرة من أهم قيمها ومعطياتها. فهي في اليونان شراب الآلهة ولها اله ـ رمز ، هو باخوس وساق هو أبولو والحضارة الرومانية امتداد لليونانية لها مع الخمرة شؤون وشجون ·· والبوذيون يقدسونها ، والفرس يعتبرونها شراب الأكاسرة والأمراء وكرام الناس فيوغلون ويتفننون في استخراجها وتخزينها وتخميرها ويزركشون آنيتها ويقيمون لها مواسم خاصة وأدبا خاصا · فكيف بهذا العربي المسلم لا يتأثر وهو المهيأ نفسيا وحضاريا لتقبلها ·· ثم انه أصبح يرى خلفاءه يشربونها ويتباهون بها والشعراء يغنونها ويعاقرونها ؟!

وأصحاب الفرق الدينية يختلفون فيها فلا يحسمون ؟! لا بد ـ اذن ـ وقد بعد هذا المسلم عن الجو النبوي الايماني الخالص ، وقرب من روافد النهر الحضاري الكبير لا بد لهذا العربي المؤمن المهزول الايمان أن يغترف ـ في النهاية ـ بكلتا يديه من الخمرة ويعتبرها أمرا ضروريا ولازمة من لوازم عيشه الجديد وحضارته الجديدة ··· لكنها لم تتربع على عرش القلوب والعقول كما تربعت في المدن والحواضر العباسية الكبرى ·· اذ

أن الثروة والتأثر يكونان أشد قربا من الناس منهما في الأرياف حيث الفقر وبالتالي المحافظة على القيم الاسلامية أشد وأعمق فيهم ..

في جاهلية العرب الثانية :

قلنا انه كما كانت المرأة توحي كانت الخمرة توحي في الجاهلية .. كلتاهما مبعث للنشوة والمتعة ولو عابرة .. كلتاهما ظل ظليل يرطب للبدوي جفاف صحرائه .. ونكد عيشه .. ومر مذاقاته .

فاذا عرضتا له أقبل عليهما اقبال الجريح المسغب ونسي معهما ـ ولو لهنيهات ـ نداءه الصارخ : وأحرقلباه ! وكبده المحرورة المقروحة .. ينادي ليل نهار على من يبيعه بدلا منها كبدا « ليست بذات قروح » فلا يلقى جوابا من أحد سوى الخمرة أو المرأة أو كلتيهما فيلقي بأثقاله عند قدميهما .. وينسى معهما أوجاعه وتشرده .. وصحراءه ..

وكلتاهما في قصور الجاهلية من لوازمها ودلائل ترفها .. وان قصرا كالخورنق أو السدير فيه مثيلات المتجردة والمنخل اليشكري وعدي والنابغة

لا بد أن يكون فيه خمور دهرية ·· لتكتمل الأداة ويتفجر الشعر الخمري والغزلي بالرائع من الأبيات والآيات ··

خاصة بعد أن « يسقط النصيف (١٢) وتسقط جميع الاعتبارات الملكية ·· وينتهك البروتوكول ويبدأ القصف ·· والسكب ··

لكن المتتبع لبواعث الشعر الجاهلي ونمط حياة الشعراء والحالة الاقتصادية في الصحراء يلاحظ فارقا كبيرا ـ من حيث الصدق والمعاناة ـ بين الشعر الغزلي والشعر الخمري : فالغزل الذي كانت تفتتح به قصائد المدح أو الفخر أو الهجاء كثيرا ما كان تقليدا يجري مجرى العادة وليس نابعا من أعماق شاعر عاشق أو شبه عاشق ·· حتى ان زهيرا اضطر ـ بحكم العادة ـ الى أن يفتتح معلقته بالتغزل بزوجته « أم أوفى (١٣) » حين لم يجد

---

(١٢) اشارة الى وصف النابغة للمتجردة امرأة النعمان بعد سكرة عرمرمية ، حيث يقول في مطلع القصيدة :
سقط النصيف ولم ترد اسقاطه فتناولته واتقتنا باليد .
هذا اذا صحت رواية المطلع وكان من نظم النابغة وليس من نظم غريمه المنخل البشكري ... المؤلف
(١٣) امن ام اوفى دمنة لم تكلم بحومانة الدراج فالمتثلم

ـ وهو الشيخ الهرم ـ فتاة شابة يتغزل بها ...

في حين أن الخمرة ـ وهي المادة الصعبة ـ أو القطع النادر في الجاهلية ـ لم يكن يصفها ويصف تأثيرها ومجالسها الا من ذاقها وتأثر بها واشتراها « بالمشوف المعلم (١٤) » على حد قول عنترة .. واستطاع أن يحضر مجالسها أو يعقد لها المجالس من كبار القوم كالملوك والفرسان والأمراء وسكان الأديرة والمدن ..

أما طرفة الذي كان يحس احساس الأمير ـ وان عاش مطرودا ـ فقد وجد نفسه كفؤا لها فشربها رغم خصاصته ، وجعلها احدى أهم غاياته الثلاث في الحياة :

ولولا ثلاث هن من لذة الفتى
وجدك لم أحفل متى قام عودي
فمنهن سبقي العاذلات بشربة
كميت متى ما تعل بالماء تزبد
وكري اذا نادى المضاف محنبا

(١٤) الدينار المنقوش .

كسيد الغضا ، نبهته ، المتورد (١٥)
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب
ببهكنــة تحــت الخباء المعمد (١٦)

كأس ــ مروءة ــ امرأة : لذة مثلثة ·· أليست هذه هي جماع أحلام الأمير ·· وكل قيم الفارس بها يحيــا ·· وبها يتحدى وينتصر ؟·· ولعلــه خارج عالمه هذا ·· لا شيء ·· فليبق ــ اذن ــ داخله ·· ليبقى ·· والموت للآخرين ·· خالا كان هذا الآخر أم عماً ·· واذا فرض عليه الموت ·· عند أمير البحــرين ·· فليسق حتــى الثمالة ·· وليفصد أكحله ·· ليموت على نشوة ·· كما عاش على نشوة ·· وتكتمل الفروسية ·· ويغادر الدنيا كما يريد هو ··

وحسان بن ثابت شاعر النبي ، لا يرى ضيرا في احدى صحوات وجدانه وبدوات تذكاراتــه ، من أن يحن الى رفاق الصبا ــ في الجاهلية ــ رفاق

---

(١٥) المضاف : الملتجىء ــ محنبا : صفة الفرس ــ سيــد الغضا : الذئب . والغضا شجــر خص الذئب به ·· المتورد : الذي يرد الماء ليشرب .

(١٦) البهكنة : المرأة الغضة الناعمة . وتبهكنت العجــزاء مشت مشية البهكنة (محيط المحيط) .

شرابه عند الغساسنة .. وها هو يعتذر الى واحد منهم هو الفارس عمرو بن معدي كرب حين مر يقبره :

نفرت قلوصي من حجار حرة
بنيت على طلق اليدين وهوب
لا تنفري يا ناق منه فانه
شريب خمر مسعر لحروب
لولا السفار وطول قفر مهمه
لتركتها تحبو على عرقوب

فكأن حسانا قد عاد بكليته من عالمه الايماني الجديد الى عالمه الرفاقي الرحيب .. ليستغرق فيه مرة أخرى .. ويستشرف معالمه من خلال تلك الحجارة الحرة التي يرقد تحتها نديم كريم .. وفارس معطاء .. له الحب كله .. فلا تنفري أيتها الناقة .. وهل تنفرين من « شريب خمر » ومسعر لحروب الكرامة ؟ وهكذا تدخل الناقة جو الحنان والألفة مع صديق يتذكر وآخر ينصت ويعي تحت التراب .. فينيخها .. ولو الى هنيهات .. ويتمنى لو يعقرها ليطول مكوثه عند قدمي حبيبه وشريك كأسه .. غير أن بعد المسافة ووعثاء الطريق تمنعه

ويا ليتها لم تكن ..

أما عدي بن زيد العبادي الذي كان ، كما يقول الجاحظ « ربانيا وصاحب كتب » فقد شربها ووصفها وأشار الى زمن شربها المفضل فاذا هو الصبوح ، قبيل الصباح ، والغبوق قبيل المغيب أو بعد الأصيل .. كما تحدث عن القينة الساقية التي تسقي بابريقها (١٧) خمرة صافية كعين الديك :

ودعوا بالصبوح يوما فجاءت
قينة في يمينها ابريق
قدمته على عقار (١٨) كعين الد
يك صفى سلافها(١٩)الراووق(٢٠)
مزة قبل مزجها فاذا ما
مزجت لذ طعمها من يذوق

---

(١٧) الابريق : جمعه اباريق معرب اب ريز الفارسية .
(١٨) العقار : الخمر لمعاقرتها اي لملازمتها الدن او لعقر شاربها عن المشي ، او لمعاقرتها العقل (انظر عقر محيط المحيط) .
(١٩) السلاف ماسال من عصير العنب قبل ان يعصر .. ويطلق على الخمر فيقال سلافة . (انظر مادة سلف محيط المحيط) .
(٢٠) المصفاة والباطية وناجود الشراب الذي يروق به ، والكأس بينها (انظر مادة روق محيط المحيط) .

وإذا فوقها فقاقيع كاليا
قوت خمر يثيرها التصفيق (٢١)
ثم كان المزاج ماء سحاب
لا صدى آجن ولا مطروق

ليس ها هنا من لهاث وراء أمر عجب ·· أو قضية صعبة ·· ولا من تحد ·· أو لوعة ·· أو فلسفة ·· بل جو خمري مرتاح ·· يتعامل معه الشاعر كجزء من حياته اليومية ، ولولا ضرورة الشعر لما كان عدي بحاجة الى كلمة « يوما » التي تشعرنا وكأن الشاعر يصف صبوحا غير متاحة يوميا ·· فهي ــ على العكس ــ متاحة لأمثاله ·· من الذين يعيشون في القصور ويتبوأون المراكز العالية ·· ودليلنا أنه ينساب ــ من خارج قريب ــ مع الجزئيات والتفاصيل ويكاد ينسى وقعها في شرايينه وأمعائه ورأسه ليقينه أنه هو والخمرة شيء واحد ·· فلم يعد له من هم معها سوى أن يداعبها من خارج ·· ويحاورها ·· ويحللها ·· لقد شربها وتفاعل معها في أماسيه وأصابيحه ·· ولم يبق سوى أن يستعرضها ويعرضها أمام عينيه

(٢١) التصفيق : تحويل الشراب من اناء الى اناء ليصفو . (انظر مادة صفق محيط المحيط) .

كلوحة فنية .. أو كقصة جزء حي من كيانه .

ولقد جعلها فرسان الجاهلية احـدى مقومات بطولاتهم ، ومتممات خصالهم شيمة فرسان القرون الوسطى في أوروبا .. فهذا عنترة يشربها ـ كما رأينا ـ « بالمشوف المعلم » ويتباهى أمام عبلة بأنه وان سكر فهو لا يفرط بشرفه ، ولا تهون عليـه كرامته ، وهو اذا سخا وجاد فليس ذلك من تأثير الخمرة ، وانما هو كريم طبعا لا تطبعا .. كريم في حالتي السكر والصحو :

واذا سكرت فانني مستهلك
مالي وعرضي وافر لم يكلم
واذا صحوت فما أقصر عن ندى
وكما علمت شمائلي وتكرمي

أي مال لهذا العبد المنبوذ من أبيه الأبيض الأرستقراطي ؟ وأي عرض يصونه راعي الابل ؟ ولكنها نخوة تكمن في قرارة هذا الاسود الذي صمم على تحرير نفسه بفعاله وخصاله .. فلا بد من مخاطبة عبلة البيضاء الحرة بما يروق لها من شيم البيض من الرجال .. وكأن تلك الخصال والشيم هي وقف على هؤلاء في عرف ذلك المجتمع الجاهلي

المنغلق ·· وتلك الطبقية العنصرية الحادة ··
فليكن ·· ولكن عنترة (٢٢) وقد حكمت عليه
الطبيعة أن يكون أسود البشرة ·· لا بد له أن يكون
أبيض بأي شكل ليرتقي الى مستوى البيض من الابطال
بل الى أرفع وأسمى ·· وهكذا كان : الانسان
الأبيض يمتاز عنه ويصبح أميرا أو فارسا ، أو
بطلا ·· أو شاعراً وسكيرا ·· فليكن هو كل
هؤلاء ·· شرط ألا يفقد صفات الشرف الأخرى ··
في حالات السكر ·· فيفقد صفات الزوج الذي
سيكونه ·· فتغضب عبلة وهو حريص كل الحرص
على رضاها ·· حتى فتاة الحي لا يغشاها عند
غياب حليلها ، كما كان يفعل امرؤ القيس مثلا :

أغشى فتاة الحي عند حليلها
واذا غشا في الحرب لا أغشاها
وأغض طرفي ان بدت لي جارتي
حتى يواري جارتي مأواها ··

بذا يكتمل البطل الشاعر والزوج المثالي ··
والخمرة لم تعد مهانة ·· بل عدة بطولة ·· حتى

---

(٢٢) عنترة لغة هو الذبابة السوداء الكبيرة ، وتحذف التاء المربوطة في السيرة فقط فيقال « سيرة عنتر » .

خصم عنترة ومنـافسه في ساحـات القتـال ذاك « المدجج » بالسلاح الذي « كره الكماة نزاله » لا يجد عنترة صفة لمدحه واعلاء شأنه ـ وخصـم عنترة عظيم مثله ـ سوى أنه :

ربذ (٢٣) يداه بالقداح اذا شتـا
هتاك رايات التجار ملوم (٢٤) ..

فالخمرة العنترية ـ اذن ـ وثيقة دستورية .. لمبادىء أخلاقية فروسية سامية وتفسير عملي للذة رواقية أبيقورية أكثر منها مزدكية ..

وهذا فارس ملوكي من طراز آخر هو عمرو بن كلثوم تذهب به الخمرة كل مذهب فيرى نفسه أقوى وأعز من غريمه عمرو بن هنـد ملك الحيرة ..

---

(٢٣) ربذ : سريع في مناولة الكؤوس لضيوفه ونداماه .
(٢٤) التجار : بائعو الخمرة . ولراياتهم قصة : كان بائعو الخمور الجيدة يأتون في اغلب الاحيان من فلسطين الى الجزيرة العربية (واكثرهم من اليهود) فينصبون خيامهم في مكان عام ، ويضعون راية حمراء على ساريـة فيأتيهم الامراء والفرسان فيشربون ويشربون من معهم الى ان تنفد تلك الخمور فينزل البائع رايته (يهتكها) ويعود الى بلاده .. فيكون هذا الامير او الفارس هو سبب انزال الراية ونفاد الخمرة . وفي هذا دليل واضح على كرمه وبذخه الى درجة ان اهله واصحابه يلومونه على ذلك .. المؤلف

وأغلب ظني أنه كان سكرانا بخمرتين على الأقل حين أطاح برأس هذا الأخير . فلِمَ لا يفتتح بها معلقته وهي التي أعانته على الانتصار ؟ :

ألا هبـي بصحنـك فأصبحينـا
ولا تبقـي خمـور الأندرينا (٢٥)
مشعشعـة كـأن الحـص فيهـا
اذا مـا الماء خالطها سخينـا (٢٦)
تجـور بـذي اللبانـة عن هـواه
اذا مـا ذاقهـا حتى يلينـا (٢٧)
تـرى اللحز الشحيـح اذا أمـرت
عليه ، لماله ، فيهـا مهينـا (٢٨)

---

(٢٥) الصحن : القدح الكبير . اصبحينا : اسقينا الصبوح . الاندرين : قرية جنوبي حلب اشتهـرت في الجاهليـة بصناعة الخمور . الحص : نبت له زهر احمر علـى صفرة يشبه الزعفران .

(٢٦) سخينا : تعاور المفسرون على معنيين : الاول انها فعل من السخاء والنون للجمع . فيكون المعنى : اذا شربنا فاننا نسخو ونجود بمالنا ، وفي هذا التفسير تعمـل واضح . والثاني صفة من السخونة ، فتكون حالا للماء الذي يخالط الخمرة .. لا سيما اذا علمنا ان قريـة الاندرين كانت للروم في ذلك الزمن . ومن عادتهم ان يشربوا الخمر بالماء السخين (الفاتر طبعا) وقد اشـار الى هذه العادة ابو العلاء في رسالة الغفران ـــ المؤلف مشعشعة : ممزوجة بالماء .

(٢٧) ذو اللبانة : صاحب الحاجة الملحة .

(٢٨) اللحز : الضيق الصدر .

أما القول بأن هذه الافتتاحية الخمرية ما هي الا تقليد جرى عليه شعراء الجاهلية ففيه من السهولة والتسليم في التقييم ما فيه ٠٠ اذ ما الذي يحول دون هذا الفارس الأمير وتمثل الخمرة في بدايات قصائده ٠٠ أكان بعيدا عنها ؟ عن تناولها ؟ وهي عدة الفرسان ومدار فخرهم ٠٠ والمنخل اليشكري يشربها بالكبير وبالصغير ـ على حد قوله ـ ويختال فخورا بها لتسمعه المتجردة وغير المتجردة :

ولقد شربت من المدامة بالكبير وبالصغير
فاذا سكرت فانني رب الخورنق والسدير
واذا صحوت فانني رب الشويهة والبعير

هكذا تشبها واستعلاء كأن ليس في دنيا هؤلاء من هموم الحياة وغايات المجد سوى الخمرة والمرأة والكرم ٠٠ وشيء من تحقيق الذات ٠٠ وحسبهم ذلك ٠٠ اختصارا للزمن ٠٠ وانتهابا للذات التي لا تدوم ٠٠ واختراقا لحواجز البيئة وتخليدا للذات عبر الفن ٠٠

وبعد ، فمن الجدير بالتسجيل ملاحظة أمرين هامين في خمريات الجاهليين عامة ، هما :

أ ـ تعاور الشعراء الذين ذكروها على صور للخمرة تكاد تكون واحدة ، ونظرة اليها واحدة ٠

ب ـ كونها غرضا من أغراض كثيرة في القصيدة الواحدة ٠ واذا كان لها من اعتبار في نظر الشعراء فهو أنها كانت كالغزل مما يفتتح به القصائد في أكثر الأحيان ٠

الا الأعشى ! :

ولن نجد شاعرا من بينهم يكاد ينقطع لها حياة ومعايشة وشعرا كالأعشى (٢٩) الاكبر صناجة

---

(٢٩) (اواخر القرن السادس الميلادي واوائل ظهور الاسلام، هو ميمون بن قيس بن جندل من بكر بن وائل . لقب بالاعشى لانه لم يكن يبصر نهارا . وليس من السخرية ان يكنى بأبي بصير (من قوة البصيرة لا البصر). نشأ في منفوحة باليمامة . الا انه لم يكن يستقر فيها . بل كان جوالة من الطراز الاول ، صيفا وشتاء ، يجوب اطراف الجزيرة تكسبا ، حتى نسجت حوله الروايات في انه الشاعر الذي يمكنه ان يزوج العوانس .. (كبنات المحلق مثلا) وان يشهر بشعره من يشاء ويعز من يشاء . كان اكثر اصدقائه من المسيحيين .. خاصة سدنة كعبة نجران او كنيستها ، ومعتقي الخمور في الاديرة ، والعباد في الحيرة فكسب من كل ذلك ثروة لفظية وتعابير اعجمية ادخلها في صفة الخمرة :

العرب وجوالة الشعراء المتصعلكين ·· أما الباقون فقد شربوها ـ كما رأينا ـ وتباهوا بها وفلسفوها ولكن لم يزد اهتمامهم بها عن اهتمامهم بالحبيب ، أو اطلال الحبيب ، أو الناقة ، أو الفرس ، أو الممدوح ، أو المهجو · لذا فنحن ما نكاد نحيا هنيهات مع هذا الشاعر حتى نشم رائحة جديدة تفح من بين أعطاف شعره هي رائحة الخمرة التي تنسينا ، ولا شك رائحة ثيابه المهملة وجسده المعروق لكثرة تجواله وتسكعه ··· حتى ان الرواة يذكرون ان الأعشى ما هجا وما مدح الا ليكسب مالا ينفقه على لذته ولهوه وشرابه ··

فلأول مرة نجد شاعرا جاهليا متفرغا للخمرة وتوابعها ، يتجاوز في وصفه لها الى أشيائها وعدتها، ومجالسها ، وساقيتها ، وتأثيرها في شاربيها ·· ولا عجب فهو المتكسب بها ومن أجلها ·· حتى انه لم يكن شريب خمر وحسب ·· بل كانت له معصرة في قريته منفوحة ·· كما كانت داره مجمع الرفاق

= كالاسفنط ، والقهوة ، والراووق والابريق الخ ..
ويروى انه قصد النبي ليسلم على يديه ويتوب فاعترضه المشركون واخبروه ان هذا النبي يحرم الخمرة فقفل راجعا ولم يسلم ... المؤلف

يلهون معه ويشربون ٠٠ وحين حضرته الوفـاة أوصى رفاقـه أن يشربوا على قبره كلمـا زاروه ويهرقوا منها على ترابه عل عظامه تروى بها وهي رميم ٠٠ فلا عجب أن نجده مبدعا في التغني بها له فيها صور فنية طريفة الخيال تضـج بالحيـاة والحركة ٠٠ الى جانب الدقة في الملاحظة :

تريك القذى من فوقها وهـي فوقه
اذا ذاقهـا من ذاقهـا يتمطـق

لاحظ الدقة في تصوير الصفاء والنقـاء ٠٠ وروعة الحركة في « يتمطق » التي ما نكاد نقرأ البيت ونتمثل المعنى حتى نتمطق فعلا ٠٠٠

توكأ على هذا البيت الأخطل في بعض خمرياته فقال :

ولقد تباكرنـي علـى لـذاتهـا
صهباء عالية القـذى خرطوم (٣٠)

وللأعشى في القصيدة نفسها :

من خمـر عانـة قد أتـى لختامها

(٣٠) خرطوم : سريعـة الاسكار .

حـول تسـل غمـامـة المزكـوم

فقال الأخطل :

واذا تعـاورت الأكـف ختـامهـا

نفحـت فنال رياحهـا المزكوم ..

ومنها للأعشى : ′

وكـأس شـربـت علـى لـذة

وأخـرى تداويـت منهـا بها ..

أخذ المعنى ـ هذه المرة ـ أبو نواس وولد من صورته صورة أقوى وأعمق فقال :

دع عنك لومـي فان اللوم اغـراء

وداوني بالتي كانـت هي الداء ..

وحين يصبح الشعر وعاء للحكمة و « أرشيفا » تسجل فيه « المعلوماتية » يبرز الحكماء والمتفلسفون أمثال المأمون فيعلقـون على البيـت « بأن أولـه سقراط وآخره بقراط ... » وعلـى الصـدق والصراحة والعفوية والشاعرية الحقة السلام ... فالشعر في نظرهم تاريخ وجغرافيا وعلم والا فلا .. عذرهم أنهم يعيشون في القرن الثامن الميلادي .. فما عذرنا نحن اذا نظرنا الى الشعر نظرتهـم ؟ ونحن نعيش في أواخر القرن العشرين ؟! ...

وواضح أن الطريقة القصصية السردية والحوارية التي طفت على أبي نواس كان لها جذور عند الأعشى وبدايات موفقة · اضافة الى الجانب النفسي والمناخ التحرري الذي كان أبو نواس يحيا فيه وينطلق منه في حواره مع الخمرة : عشيقته الأولى ··

وانك لن تجد كبير فرق بين هذه الحوارية للأعشى وأية حوارية خمرية لأبي نواس اللهم الا فارق العصر والوضع والموقف والثقافة ·

قال الأعشى :

وقد أقود الصبا يوما فيتبعني
وقد يصاحبني ذو الشرة الغزل
في فتية كسيوف الهند قد علموا
ان ليس يدفع عن ذي الحيلة الحيل
نازعتهم قضب الريحان متكئا
وقهوة مزة راووقها خضل
لا يستفيقون منها وهي راهنة
الا بهات وان علوا وان نلهوا
ومستجيب تخال الصنج يسمعه
اذا ترجع فيه القينة الفضل

والساحبــات ذيــول الريط آونــة
والرافــلات علــى اعجازها العجل
من كل ذلك يــوم قــد لهوت بــه
وفي التجارب طول اللهو والغزل..

انها حكاية حال الأعشى مع الخمرة حين يذهب الى الحانوت تصحبه عصابة من كرام الرفاق وعدتهم كاملة من الطهاة والشواة (شاو مشل شلول شلشل شول !!) وما أشبه .. رفاق ينهبون معه اللذات نهبا لايمانهم بأن العمر هو الشباب وما دون ذلك فضول وخمول .. وأن الموت لا مهرب منه ولا حيلة معه .. وليتلوع الهاربون من الفاجعــة وليبكوا ما شاؤوا .. أما هم أمامها فذوو شرة يتحدونها بتحييدها أو نسيانهــا .. وهــا هــم في الخمارة يتحلقون حول زعيمهم الأعشى المتكىء على الريحان يأنسون بحديثه وشرابه وآدابه .. فينتشون بها نشوة لا يستفيقون منها الا ليطلبوها من جديد . أما السقاة فغلمان نظيفو الثياب خفيفو الحركــة يطوفون على السكارى بين الاغفاءتين .. ثــم لما تفعل الخمرة فعلها ينطلق الوتر في نغم خافــت يجاوبه الصنج وصوت القينة الفضل (ذات الثياب الفضفاضة) في ترنيمة مشتركة خافتة تزيد من

بهجة المكان وتخفف من ثقل الزمان ·· أو تلجم سرعته ··

وتمضي أيام الأعشى كهذا اليوم الذي لها به وتحرر من نكد الدنيا وقسوة الواقع ·· ولن أتصوره غير هذا حتى ولو لم يكنه ·· واني لألمح من هذه الحوارية الخمرية أمرا آخر جديرا بالتسجيل وهو مدى تحضر الأعشى وعمق ما تأثر به من تطوافه في أطراف الجزيرة العربية حيث الممالك والملوك والدور والقصور وحيث الحضارتان الفارسية والرومانية تتركان آثارهما في ملبس العرب ومآكلهم ومشربهم وعاداتهم ·· فيأخذ الأعشى من كل ذلك بقسط ينعكس على خمرياته وأسلوبه فيها ··

فمن خمريات الأعشى وأمثالها نتعرف الى الحانة والحانوت والخدم والسقاة والقيان والمغنيات ·· كما أن زي الغلامة A la garçonne كان معروفا في تلك القصور والحوانيت ·· فهذا غلام الأعشى يعلق في أذنه قرطا ويخضب كفه ويقلص سرباله (٣١) عندما يباشر عمله في الحانة ··

---

(٣١) اصبح عند العامة (شروال) .

بعكس الغانيـات المغنيـات اللواتي يسحبـن ذيول الريط (٣٢) أي اللباس الفضفاض أو ما يسمى اليوم (بالماكسي) ·· وبديهي أن هـذا الترف وهذه الحضارة لم تكـن في الباديـة ولا عرفهـا شعراؤها الا من تسنى له ـ كالأعشى والنابغة ـ أن يعيش معها وفيها ولا سيما النابغة ·· الأعشى لماما والنابغـة دواما (٣٣) ·· بل كانـت في الحواضر القريبة من مدن العراق والشام والحيرة واليمن ومن الأديـرة وبعض الواحـات كتيماء (حيـث قصر السموأل المسمى بالأبلق الفرد ··) وفدك وجلق القريبة من دمشق يومئذ ·

فلانـت ديبـاجـة هـؤلاء الشعـراء المتحضرين وتميزوا عن غيرهم من شعراء الباديـة ، لا سيما أولئك الذين عاشوا قبيـل الاسـلام أو أدركـوه كحسان والأعشى والخنساء واكتسى الشعر الجاهلي على أيديهم حلة جديدة فلانت تعابيره ووضحـت صوره وقل غريبه ··

(٣٢) الريط : الريطة كل ملاءة غير ذات لفقين (اي قطعتين متضامتين) كلها نسج واحد وقطعة واحدة ـ محيـط المحيط مادة ريط .
(٣٣) وكامرىء القيس وحسان وعدي والمنخل .

لنستمع اليه يخاطب ناقته :

وكعبـــة نجـران حتـم عليـك
حتى تناخـي بأبـوابهـا (٣٤)
نزور يزيـدا وعبـد المسيـــح
وقيسا هم خير أربابها ٠٠ (٣٥)

وهكذا يمضي الأعشى في لهوه وعبثه حتى يشيخ ويبلغ الثمانين و « يودع الخندريس لأصحابها » كما يقول ٠٠ ولكنه يظل يحن الى أثافت « وقت عصارة عنابها » والى منفوحة ومعصرته ولداته ٠٠

في الأمويين :

ويجيء الاسلام وينصرف المسلمون الى الجد من الأمور والى تركيز دعائم الدين والدولة وبنـاء المجتمع الجديد بعد أن عاني النبي كثيرا في مسألة تحريم الخمرة ٠ الا أنه بمرونته ومرونة الآيات

---

(٣٤) كعبة نجرا ن: معبد في اليمن او كنيسة النصارى .
(٣٥) يزيد وعبد المسيح وقيس هـم كهنة هذه الكعبـــة كان الاعشى يزورهم فيكرمونه ويسقونه .

المنزلة استطاع ، في مدة وجيزة ، أن يحرمها تحريما قاطعا . وأهرقت دنان الخمرة في شوارع المدينة لأول مرة (٣٦) ، بعد اعلان تحريمها .. (٣٧) وبعد أن عاشت دهرا طويلا معتقة ومقدسة في أكثر بيوتات قريش وصناديد العرب وفرسان الجزيرة .

فكان من الطبيعي أن يخرس الشعراء ـ مهما كانت مشاربهم ـ عن ذكرها تهيبا وتأدبا ، كما خرسوا عن ذكر توابعها من لهو وقصف وغزل وطرد .

وما هو الا نصف قرن ينقضي ـ أو أقل قليلا ـ والناس حول نبيهم وخلفائه الراشدين بين زاهد ومجاهد وفدائي وقائد فتح .. أحلى حلاوة بين

---

(٣٦) انظر الحان الحان ص ١٩٤ .

(٣٧) فقد روى انس بن مالك صاحب رسول الله وخادمه انه كان ساقي القوم يوم حرمت الخمرة في بيت زوج امه ابي طلحة زيد الانصاري ـ ولم يكن شرابهم الا الفضيخ من البسر والتمر ـ فاذا مناد ينادي . فقال ابو طلحة اخرج فانظر فخرج انس فاذا مناد ينادي « الا ان الخمرة قد حرمت » فاخرج الناس الحباب (الجرة الضخمة) الى الطريق فصبوا ما فيها . ومنهم من كسر حبه ، ومنهم من غسله بالطين والماء لتطهيره .. ولقد غودرت ازقة المدينة بعد ذلك حينا كانما مطرت ، وقد استبان فيها لون الخمر وفاحت ريحها : المصدر نفسه ص ١٩٤ .

شفتيه ذكر الله وأمتع متعة لديه تلاوة القرآن آناء الليل وأطراف النهار ، وألذ اللذائذ عنده رضا ربه والاستشهاد بين يديه .. لكن معاوية يستخلف بالخديعة ويبني عرشه على حمام من الدم .. ثم يجعلها كسروية قيصرية ليمكن لابنه يزيد من بعده .. فأطلت الفتنة برأسها من جديد وانقسم المسلمون شيعا وأحزابا .. وبدأت أركان الدولة تتزعزع وانفرع البيت الأموي الى فرعين وزادت حدة الرفض وطلاب الخلافه من الفرع الهاشمي العلوي .. فراح الفرع المرواني يستعمل الشدة حينا واللين أحيانا ثم انتهى الى سياسة جديدة في التعامل مع الجيل الجديد ممن ثار آباؤهم . قوامها: اغراق هذا الجيل بالترف والمال والبذخ وبناء القصور في مكة والطائف والمدينة ووادي العقيق وتوجيه ثمرات الفتوح الى هناك ، من اماء وجوار مثقفات وقيان يجدن العزف والقصف والخدمة في الدور والقصور فكان أن عرف الجيل الرافض هذا النمط الجديد من الحياة فلانت قناته وأسلس قياده وغرق حتى الأذنين في بلهنية العيش .. ونجحت السياسة ــ المؤامرة .. الى حين .. فكيف لا تعود الخمرة بكل أصنافها وبكل مغرياتها والخلفاء

الأمويون ــ ما عدا العبد الصالح عمر بن عبد العزيز ــ يجأرون بشربها على شكل لم يسبق له مثيل ·· ويقربون الى قصورهم وبطانتهم أمثال الأخطل الذي جاهر بالبقاء على مسيحيته في بلاط الخليفة عبد الملك بن مروان وبشرب الخمرة والسكر حتى وهو ينشد الشعر بين يديه (٣٨) ·

وعادت مطالع الشعر الأموي تتوج بوصف الخمرة وبالغزل أو بكليهما ثم ينصرف الشعراء الى أغراضهم الأخرى من مدح أو فخر أو هجاء ·· تماما كالجاهلية وبنفس الأسلوب ما خلا الاخطل الذي تتلمذ في مدرسة الأعشى فتفرغ مثله للخمرة أو كاد ·· تفرغ شربا ومعاقرة ·· غير أنه حين وصفها لم يتفرغ تماما لأن السياسة وحاجات قبيلته تغلب أخذت من وقته وشعره الشيء الكثير ·· حتى

---

(٣٨) يروى انه كان يدخل على الخليفة ولحيته تقطر خمرا .
وكثيرا ما دعاه عبد الملك الى الاسلام تخلصا من السنة الناس ، فكان جواب الشاعر من مثل : « والله يا عبد الملك ما ملكك فيها الا كلقعة من ماء الفرات بالاصبع ... » او مثل :

ولست بصائم رمضان يوما ... ولست باكل لحم الاضاحي
ولست بقائم كالعير ادعو ... قبيل الصبح: حي على الفلاح
ولكني سأشربها شمولا ... واسجد عند منبلج الصباح

حين انصرف الى وصفها كانت غايته سياسية أكثر منها « فنا للفن » كما كان له من دينه وحريته المطلقة في البلاط المرواني ما جعله يتحرر مما لم يستطع الشعراء المسلمون أن يتحرروا منه حين يصفون الخمرة ومجالسها بالرغم من أنهم على دين ملوكهم ..

فكان الأخطل يتنفس في خمرياته بملء رئتيه ويحض على شربها ،ويرى أنها سر تدفق الشاعرية . قال مرة لشاعر يدعى المتوكل الليثي حين سمع شعره فأعجبه : « ويحك يا متوكل ، لو نبحت الخمرة في جوفك كنت أشعر الناس » .. وقد طبق هذا المبدأ على نفسه فكان لا ينظم الا بعد أن يبرد حلقه بها كما يقول ، ولا يمدح الخليفة الا بعد أن يعرج على سادن الخمرة في البلاط .. فيسقيه رطلا ورطلين وثلاثة (٣٩) بل ربما استسقى الخليفة نفسه .. (٤٠) وحين ألقى قصيدته الشهيرة :

---

(٣٩) الرطل مقدار كأس كبير او ليتر .. وفي المحيط الرطل: مقدار اثنتي عشرة اوقية .. والمقدار الأول هو المقصود
يروى انه دخل يوما على عبد الملك فاستنشده فقال : قد يبس حلقي فمر من يسقيني . فقال : اسقوه ماء .
(٤٠) فقال : هو شراب الحمير وهو عندنا كثير . قال اسقوه لبنا . قال : عن اللبن فطمت ، قال : فاسقوه عسلا، =

« خف القطين » كان قد عرج على السادن ايـاه وشرب عنده أربعا حتى ثمل ودخل على الخليفة مترنحا وأنشد عصماءه تلك واليك الخمرية التالية:

شربنا فمتنـا ميتـة جاهليـة
مضى أهلها لم يعرفوا ما محمد ..
ثـلاثـة أيـام فلمـا تنبهـت
حشاشـات أنفـاس أتتنا تـردد
حيينـا حيـاة لم تكـن من قيامة
علينا ولا حشرا أتانـاه موعـد
حياة مراض حولهم بعد مـا صحوا
من النـاس شتـى عاذلون وعود
وقلنـا لساقينا : عليـك فعد بنا
الى مثلهـا بالأمس ، فالعود أحمد
فجـاء بهـا كأنمـا في انـائـه
بها الكوكب المريخ تصفو وتزيد
تفوح بما لا يشهـد الطيب طيبه

= قال : هو شراب المريض . قال : فتريد ماذا قال : خمرا يا امير المؤمنين .. قال : او عهدتني اسقي الخمرة لا أم لك .. لولا حرمتك بنا لفعلت وفعلت .. وما كان بمقدور هذا الخليفة ان يفعل شيئا يضر بالاخطل ..
المؤلف

اذا ما تعاطت كأسها من يد يد

تميت وتحيي بعد موت وموتها

لذيذ ، ومحياها ألذ وأمجد

فهو على مذهب الجاهليين جرأة في شرب الخمر: وتهافتا عليها .. وبعد ان كان كبار القوم في جاهليات الأمم يعتبرونها « شراب الآلهة » أصبح الأخطل يراها الآلهة نفسها : فهي تحيي وتميت وتميت وتحيي .. وهي في كلتا الحالتين « ألذ وأمجد » ... على حد قوله . واذا ما سجد المؤمنون لربهم فهو لها يسجد وبحمدها يسبح .. تماما كسجدة أبي نواس الذي قال :

وجاء بها زيتية ذهبية

فلم نستطع دون السجود لها صبرا(٤١)

وخمرة الأخطل : جذوة من لهب يتوهج ـ لكنها عند أبي نواس أرق وألطف : أضواء وأنوار .. وتدور بها أكف الساقيات يمنة ويسرة .. وتقدم على اسم الله (كذا) .. شرابا طيبا يفعل في

---

(٤١) سجدة نواسية ـ اخطلية ... شر خلف لشر سلف .. والبادىء اظلم ..

النفوس فعل الرعشة اللذيذة تتجاوز العصب الى العظم فتتمشى فيه كما تمشت خمرة النواسي :

وتمشت فيَ مفاصلهم   كتمشي البرء في السقم ..

وواضح أن أبا نواس قد لاحظ صورة الأخطل فرققها وعلمنها (اذا صح التعبير) ... ونمضي مع الأخطل فنراه يحترم أصـــول المجلس الخمري الذي وضع قواعده الأعشى فيأتي على ذكر المغني والشواء المرعبل الذي يتناوله الشاربـون بـين الكأسين أو بين السكرتين ..

هذا التوكؤ على صور الأعشى وغير الأعشى جعله لا يأتي بشيء جديد في أوصافها وان كان قد تعمق قليلا في وصف حالة السكران ومفعول الخمرة في الجسم والعقل .. لقد شغل الأخطل عن الخمرة بالهجاء والشعر السياسي فلم يتسن له الابداع فيها.

وهكذا يبدو واضحا أن الرايـة الحمراء أو الراية الخمرية لم يستلمها في الأولين والآخريـن سكير أجدر من أبي نواس .. مع أنه لم يبدع في وصفها ووصف مجالسها كل ذلك الابداع ..

فعلام الزعامة ؟ ولِمَ القيادة ؟..

نعود الى معلوماتنا في علم النفس على ضحالتها فنهتدي الى الجواب :

يرى علماء النفس أن الكبت أو الـ :
Refoulement يحدث في الانسان الذي يعيش في بيئة ما (متحضرة على الأخص) نوعا من السلوك المغاير أو التحول Déviation في السلوك ..
فاذا صادف محاربة من الغير أو نقدا ، بلغ ذلك عنده حد التصعيد Sublimation وتأتي النشأة المنحرفة والتربية السيئة ومعاشرة المنحرفين لتكون عوامل اضافية تعمل في الجسم تهديما ، وفي النفس حبا عارما لكل مغاير فتنشأ العقد النفسية المتعددة والفهم المضاد للجانب التقليدي الباهت من تلك البيئة المتحضرة والتمسك الشديد بالجانب الجديد والغريب فيها ..

ولذا كان مفهوم اللذة والجنس عند أبي نواس مغايرا ومطابقا في آن ، لمفهومها عند الأسوياء أو التقليديين من بني جنسه وعصره ، وللذين لم يستطيعوا ـ مثله ـ التكيف مع شروط البيئة الجديدة والحضارة الجديدة .

حاول مثلهم أن يحب ويتزوج الحرة البيضاء العربية فلم يفلح ورد خائبا ٠٠ فحز ذلك في نفسه ونشأ في أعماقه نوع من الألم المرير المكبوت ٠

والألم ـ عند علماء النفس المعاصرين ـ ينشأ عادة عند فقدان التكيف بعد المحاولة (٤٢) كما ينشأ عند كبار النفوس نوع من التحدي المستمر ينتهي غالبا بالانكسار والقطيعة ثم الهروب ٠٠

أما أبو نواس فقد تحدى ولم يهرب ٠٠ ولم ينكسر ٠٠ وكتعويض مثالي وجد الحل في مجالين حضاريين : الخمرة والشعر ٠٠ والذوبان الكلي فيهما : تأله في الخمرة وأله الخمرة ٠٠ وذاب في الشعر ذوبان السكرة ٠٠ حتى بدا كل ما يقوله كأنه شعر موزون (٤٣) واذا كان البخيل مولعا بالذهب لا بلذة الحصول عليه ، فان غاية الحياة عنده هي الفعل لا الانفعال (٤٤) ٠٠ أما أبو نواس فغاية الحياة عنده هي الانفعال لا الفعل ٠٠ أو الانفعال ثم الفعل ٠٠ ومن هنا كان النواسي مكسابا

---

(٤٢) هربرت سبنسر : مبادىء علم النفس ص ٢٨٨ ط٠ع٠
(٤٣) الحصري : زهر الاداب ج٣ ص ٢٠٤ ٠
(٤٤) ديركهايم : التربية الخلقية ص ٢٤٠ ٠

متلافا ، لا يبقي في جيبه شيئا ولا يذر ٠٠ ذا روح اشتراكية صرفة ٠٠٠ نعرف ذلك من أخباره وأشعاره : لسان حال سيرته وطريقة عيشه مع عصبة المجان أو « الشطار » الذين كان أبو نواس ينفق عليهم أو ينفقون عليه « وكأنهم شخص واحد (٤٥) ٠٠ » مع أن عطايا الخلفاء والامراء له كانت ضخمة ومتعددة ٠٠ أما السبب فنفسي دائما : يتحدى بانفاقه بخلاء عصره من المرموقين ٠٠ ويريد أن يبرهن للأسياد والمتزعمين أن السيادة والزعامة ليست بحفظ الاموال وامساكها عن الناس السيادة والزعامة الحقيقيتان تكونان لمن كان مثله مع رفاقه ٠٠

وهكذا تفجرت الرغبة المكبوتة التي واصلت وجودها في اللاشعور عند أبي نواس ، بعد أن راقبت وترقبت فرصة الظهور والانفجار ٠٠ ولكنها حين ظهرت ودخلت حيز الوعي استبدلت بأفكار وأعمال صدامية ٠٠ مما أدى الى وجع متواصل (٤٦) ٠٠

---

(٤٥) د. علي شلق : في جو ابي نواس ص ٤٧ .

(٤٦) سيغمون فرويد : خمسة دروس في التحليل النفسي ص ٣٠ ترجمة جورج طرابيشي دار الطليعة بيروت ١٩٧٩ .

هذا الواقع المؤلم حسمه أبو نواس بالتغلب على مرضه ووجهه بالفـن •• والارتماء في أحضـان الخمرة •• بل والعيش الدائم في رحابها عله ينسى أسباب كبته وضعفه ووجهه •• حتى عنصر التحدي وحالة الشذوذ التي عاشها كانا وكأن أبـا نواس يريد بهما الانتقال الدائم من حالة الوعي المؤلم الى حالة اللاوعي المريح ••

والخلاصة : اننا أمام أبي نواس لا نملك الا أن نحبه ونحب فيه « انسانيته الصراعية » الرافضة بالرغم من أننـا نشكـل ذلك « الغير » المعارض لسلوكه الاخلاقي •• دون أن نفكر اذا كانت هذه المعارضة صحيحـة أو لا •• بحكـم أننا متآلفون لا شعوريا ـ كمـا يقول ـ سبنسر ـ مع البيئـة وشروطها •

الفصل الثالث

الخمريـات النواسيـة

مذهبه الخمري :

تأله آبو نواس بالخمرة ، أثناء وبعد اخفاقه في الحب ·· كما تألهت الخمرة به ·· فاذا كانت جنان قد صرفته عنها ولم تحبه ، فان الخمرة لم تصرفه ·· بل تناديا ، واستغرق كل منهما في الآخر استغراقا حميما مستديما ·· حتى أصبحت هذه الشاطرة (١) كما يسميها حاجة من حاجات نفسه

---

(١) سماها « شاطرة » تيمنا بلقب اصحابه وندماه الذين كان يطلق عليهم لقب « عصبة الشطار » ويصح العكس كذلك .... يقول فيها :

مـن كان يهـذي بحب جاريه ... او بغلام ·· فانني امق
شاطـرة في الاناء صافيه تغشى ... لها مـن شعاعها الحدق

وجزءا من أجزائها ·· يلوذ بها ويستريح معها ·· بل ويجد نفسه فيها ·· ولا يمكنه أن يفارقها كيلا يخسر نفسه :

فما الغرم الا أن تراني صاحيا
وما الغُنم الا أن يتعتعني السكرُ

أو قوله :

فما الطيش الا أن تراني صاحيا
وما العيش الا أن ألذ وأسكرا ··

فهو « يعيش » معها وبها ·· وَ « يطيش » سهمه حين يريشه خارجها ··

بدأ النواسي خمرياته سبيلا الى تذكر الأحباب والحبيبات ، ثم وسيلة الى نسيانهم ونسيانهن حتى غدت بعد أول معاشرة الحبيبَ نفسه ·· ومن هنا نجد خمرياته ملازمة لغزلياته في تداع وجداني · حتى لكأن معاقرة الخمرة أصبحت عنده نوعا من الاتصال الروحي والحسي والجنسي معا ··· فلم يعد هناك فرق بين المعاقرة ·· والمعاشرة ·· أو ·· المضاجعة !··

كما أن لاستغراقه فيها دوافع شخصية أخرى ٠ منها : قلقه المستمر ، واضطراب وضعه السياسي : فمن موالاة للأمين ، الى انصرافه عنه ، الى تشيعه ، الى موالاته للفرس !٠٠ ومنها : قلقه الفكري ، اذ كان يحتشد في رأسه كثير من الآراء والمذاهب الجديدة ٠٠ ومنها : خمول نسبه الأدنى : فقد كان أبوه جنديا سيء الاخلاق ، ثم مات عنه وهو طفل وأمه غسالة صوف ، انصرفت عنه وتزوجت من أحد البصريين ، وكانت قوادة تجمع في بيتها ذوي السيرة المشبوهة ٠٠ ومنها : اضطراب وضعه المالي في كثير من الأحيان ٠٠ فقد كان أبو نواس ، كما أسلفنا ، مكسابا ٠٠ متلافا ٠٠ ومنها : تزمت رجال الدين في تحريمها ٠٠ واختلاف بعضهم في أي الخمور محرم وأيها المحلل ٠٠ الامر الذي دفعه ، وهو المتحرر الثائر في وجه التقاليد الى معاقرتها بلهفة وتحد شديدين ٠٠ ومنها : اختلاف أصحاب الفرق الاسلامية في تقدير العقوبات ، وماهية الايمان ، وقضية خلود شاربها في النار أو عدم خلوده ٠٠ كل ذلك جعل أبا نواس « يجتهد » مثلهم في هذه الأمور فحلل شربها الى أن يتفقوا ملقيا بالمسؤولية كلها عليهم ٠٠ تماما كما فعل ابن

الرومي (٢) معاصره ..

صفة الخمرة :

للخمرة عند نواسينا صفات وأسماء وكُنى وآلاء :

اثن على الخمر بآلائها وسمها أحسن أسمائها

ولها مراسيم وقوانين وأوقات ، وصحب يتحينون هذه الأوقات ، وهم لها أكفاء ونظراء :

والخمر قد يشربها معشر ليسوا اذا عُدوا بأكفائها

كما أن لها مراصد ومقاصد وأديرة يقصدها الأكفاء من الشطار النواسيين في أواخر الليل . والى جانب الأديرة حانات ومقامات نصرانية ويهودية ومجوسية .. يؤمها هؤلاء بعد ما تفرغ من سمارها ، فيصور أبو نواس سدنتها وقد ذعروا

(٢) لا لشيء الا لانهم اصحاب الحضارة الوافدة التي من معطياتها : الخمرة والحرية في طلب اللذة .. وقد عد بعضهم ذلك شعوبية من ابي نواس .. وهذا ما دحضناه في اخر الكتاب .

أول الأمر ، ولكنهم لا يلبثون أن يتبينوا الزمرة وقائدها ، فيهشون لهم مرحبين بزعيمهم ·· ثم يدخلونهم فيستعرضون أجود أنواع الخمرة ·· ولا يسألون الخمار عن السعر مطلقا ، حاشاهم !·· وهم المحترفون الكرام ·· الا اذا كانت الدهقانة يهودية عجوزا ·· ويكون لأبي نواس ، عادة ، فصل الخطاب في الموضوع ··وما أن يأخذوا مكانهم حتى يفتح الخمار احدى الزجاجات ·· فيخرون جميعهم سجدا لها :

وجـــاء بهـــا زيتيـــة ذهبيـــة
فلم نستطع دون السجود لها صبرا

ثم يبدأ أحدهم الحديث عنها فيتغزل بها شعرا ونثرا ·· وغالبا ما يكون البادىء أبو نواس على طريقته الشعرية القصصية المحببة ، حيث ينطلق معددا أوصاف الخمرة ومجلسها وساقيها وفعلها في النفوس والرؤوس فاذا بها : كرخية مشعة تغنني عن المصباح :

قال : ابغني المصباح قلت لـه اتئد
حسبي وحسبك ضوؤها مصباحا ··

واذا هي ، دائما ، دهرية معتقة :

حتى تخيرت بنت دسكرة

قد عجمتها السنون والحقب ..

يعتقها رهبان خبراء كرهبان دير قطربل الذين:

يتلون انجيلهم وفوقهم

سماء خمر نجومها الحبب

وهي دواء للصدر وجلاء للهموم :

ما وجد الناس ولا جربوا

للهم شيئا مثلها مدفعا

كما أنها ألطف من الماء وأرق من النور .. ولو مزج بها النور لمازجها .. فتولد منهما أضواء وأنوار :

رقت عن الماء حتى ما يلائمها

لطافة وجفا عن شكلها الماء ..

فلو مزجت بها نورا لمازجها

حتى تولد أنوار وأضواء ..

انها صورة تكاد تكون علمية تصدر عن فكر حضاري .. ولولا رقة ألفاظها وسلاستها الشعرية لحسبنا أن عالما فيزيائيا يتحدث لنا عن ماهية النور والماء والثقل النوعي للأشياء ..

ولكن الخمرة النواسية لم تعد تلــك الخمرة المادية المسكرة فحسب ٠٠ بل انقلبت في لا وعيــه انسانة عذراء لعوبا يتغالب معها أبو نواس فيغلبها أولا ثم تغلبه :

نغلبها أولا وتغلبنا فنحن فرسانها وصرعاها٠٠

وحق لأبي نواس أن « يؤنسن » الخمرة ٠٠ ما دام قد فقد عطف أعز الناس وحبهم ٠٠ فهي عروس شعره ٠٠ بل هي عروسه حقا ٠٠ يخطبها من أبيها ومربيها الدهقان ٠٠ ويبذل لها مهرا غاليا : « صاعا من الدر والياقوت ما ثقبا » ٠٠ ولهــا معه عنــاق ووصال ، وكثيرا ما طلبت منه أن يمنع عنها أولاد الحرام ٠٠ ولا يمكن منها « العربيد يشربها ٠٠ ولا اللئيم الذي ان شمها قطبا ٠ ولا المجوس فان النار ربهم ٠٠ ولا السفال الذي لا يستفيق ولا غر الشباب ولا من يجهل الأدبا ٠٠ » :

انــي بذلــت لهــا لمــا بصرت بهــا
صاعــا من الدر والياقوت مــا ثقبا
يــا قهوة حرمــت الا على رجـــل
أثرى فأتلــف فيهــا المال والنشبا

مقاديرها :

والخمرة تؤخذ بمقدار ، ومقدارها أربعة أرطال (٤) . وفي هذا يستخرج رأيا فلسفيا يبنيه على القياس فيقول :

رأيت طبائع الانسان أربعة هي الأصل
فأربعة لا ربعة لكل طبيعة رطل ..

فهو يرينا – حسب رأي الفلاسفة الطبيعيين – وكذلك اخوان الصفاء – ان هذه الطبائع هي : الحرارة والبرودة ، والرطوبة واليبوسة .. وكلها موجود فيه . فلا بد لها اذن من توزيع منصف عند معاقرة الخمرة .. فأربع كؤوس لأربع طبائع .. ولا بأس بستة أرطال لا أربعة .. كما ان للخمرة في الكأس مقدار والباقي للماء :

تدور علينا الراح في عسجدية
حبتها بأنواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفي جنباتها
مهى تدريها بالقسي الفوارس

---

(٤) سبق شرحه .

فللخمر مـــا زرت عليه جيوبهـــا
وللماء ما دارت عليـــه القلانس

كؤوس ذهبية مصورة •• وسكرة شاهنشاهية ••
لا تليق الا بأمثال أبي نواس !••

وتتلاقى عبر الزمان والمكـــان أرواح السكارى
وندامى الخمرة كما تتلاقـــى أشعارهم في الصيغ
والتعابير والظلال حتى لكأنها روح واحدة أو قصيدة
واحدة : فهذا « الكيوس » شاعر الخمرة اليوناني
يبدو في خمريته التالية وكأن أبا نواس قد سمع به
وقرأ له وتأثر به :

« ان زيوس مزنته هامية، وريح السماء صرصر عاتية
وفي الأنهار تجمدت مياهها الجارية ••
هدىء في العاصفة قوتها ، جمع للنار جذوتها
امزج ــ كما تشتهي ــ من الصهباء صفوتها ••
ثم طوق منك الجبين باكليل من رياحين ••
لا تسلمن القلب للأشجان أي خير ترتجيه من أحزان؟
ليس للداء يا صاح غير هذا الدواء : الخمر
فاحتس الخمر حتى تنتشي •• الى الشراب هيا !
فيم انتظارك المصباح ؟

لم يبق الا ساعة ويدهمك الصباح ..
هات الكؤوس .. واختر منها الضخام الكبار
ها هي تدلت من المشاجب .. فوق الجدار
ان « سملا » و « زيوس » أنجبا باخوس حفيدا
وسقي الحفيد لذيذ الخمر فخلق خلقا جديدا
ثم هيأها للانسان وسقاهـا ... فكانت لهمومـه
يلسمها وسلواها ..
اقتلها بالماء : واجعل من الخمر قدرا .. ومن الماء
مِثلا ..
واملأ الأقداح مترعة .. حتى نهايتها ..
واعطني قدحا .. وانتظر حتى تراني .. حسوته
فقدم الثاني .. (٥)

آدابهـا :

ولمجالس الخمرة عند أبي نواس آداب وأصول ومراسيم ، مفصلة عنده في ما يشبه البروتوكول الدائم . من هذه المراسيم :

---

(٥) قصة الادب في العالم ج١ ص ١٧١ و ١٧٢ احمد امين وزكي نجيب محفوظ مكتبة النهضة المصرية ــ القاهرة ١٩٥٥ .

أ ـ يجب احترام النديم ، وتقديمه في حالة الصحو ومراعاة وضعه في حالة السكر ، وعدم اكراهه على الشرب بعد اكتفائه :

ولست بقائل لنديم صدق
وقد أخذ الشراب بمقلتيه
تناولها والا لم أذقها
فيأخذها وقد ثقلت عليه
ولكني أدير الكأس عنه
وأصرفها بغمزة حاجبيه
وأحبسها الى أن يشتهيها
وآخذها برفق من يديه
وان مد الوساد لنوم سكر
دفعت وسادتي أيضا اليه
فهذا ما حييت له واني
أبر لمثله من والديه

أية أبوة هي هذه الأبوة الحادبة من زعيم المخمورين ! لا يلح على نديم شرابه ولا يأمر ولا يثقل •• بل يدعه يغفو تلك الاغفاءة السكرى •• ويصرف الكأس عنه لمجرد غمزة حاجبيه •• حتى الاغفاءة لها من أبوة أبي نواس نصيب : مخدة من ريش النعام يدفعها

برفق ليتكيء عليها ·· بل عليهما الرفيق الغافي ·· وفي هذا الجو الخمري الناعم تمر كلمة « أيضا » بهدوء فلا نشعر بجفافها ·· مثلما مرت يوما على لسان المعري (٦) ··

ب — يجب أن تقام مجالسها اما في « بستان مونق » كما يقول ، أو في دير عامر مقصود معروف بخموره الدهرية (٧) أو في حانة (٨) زاهرة زاخرة بالغلامات والغلمان الظراف ، والمغنيات الجميلات المجيدات :

بطيز ناباذ كرم ما مررت به
ألا تعجبت ممن يشرب الماء

---

(٦) يقول نقاد الشعر ان كلمة ايضا ليست من القاموس الشعري في شيء لثقلها وجفافها وعدم مطاوعتها للتعبير الفني وعدم انسجامها مع الجو الشعري . غير ان ابا العلاء طوعها وجعلها تنسجم وجو القصيدة الحميم .

قال في وصف ورقاء :

رب ورقاء هتوف في الدجى ذات شجو هيجت من شجني
ولقد تشكو فما أفهمها ولقد اشكو فما تفهمني
غير اني بالجوى اعرفها وهي ايضا بالجوى تعرفني .

(٧) كدير : طيزناباذ الذي كان ابو نواس يفضله على جميع اديرة ارباض بغداد . وله في وصفه ابيات كثيرة ، واشهر حانة يؤمها كانت في دير سرجيس وهو احد البقاع المعمورة . ارضه مزروعة بالنخيل والكروم وقد سمي معصرة ابي نواس .

(٨) من اهم الحانات التي كان ابو نواس يرتادها ويفضلها :

وقبله الأخطل سمى الماء شراب الحمير وفي حضرة الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان!! واللبن شراب الرضع من الاطفال ··والعسل شراب المرضى ·· وهذا هو خليفته النواسي يعاف شرب الماء لا سيما في ذلك الدير :

قد تركت الماء فيها وشربت الخسرويا
أرض كرم تجلب الد هر شرابا سابريا

جـ ـ يجب تحين فراغ الأديرة والحانات من روادها، وارتيادها موهنا (في أواخر الليل) مع الرفاق جميعا حيث يحلو السمر الهزيعي الأخير ويخلو لهم الجو فلا يعبق الا بأنفاسهم وأنفاس الخمرة والقيان والغلمان ···

= حانة ابن آذين في دير قطربل . وحانة سرجيس في دير طيزناباذ .. وحانة جابر في الكوفة ..! وحانة شهلاء وهي خمارة يهودية ، وحانة عون ، ومن حانات الشام حانة هشيمة بدمشق (عمرت هشيمة حتى ادركت الرشيد) كانت هشيمة هذه تخدم الوليد بن يزيد في شرابه . وحانة تل عزاز . ومن الحانات الخاصة : حانة الشط ببغداد الخ ولماذا نطيل في سرد الاسماء ؟! فقد كانت الدور والقصور داخل بغداد وخارجها كلها بيوت خمر وريبة معا .. لا سيما ايام الواثق .
المؤلف

وليلـة دجن قد سريـت بفتيـة
تنـازعهـا نحـو المـدام قلـوب
الى بيـت خمّـار ، ودون محلـه
قصـور منيفـات الـذرى ودروب
ففزع مـن ادلاجنـا بعـد هجعـة
وليس سوى ذي الكبرياء (٩) رقيب
تناوم خوفـا أن تكـون سعايـة
وعـاوده بعـد الرقـاد وجيب
فلمـا دعونا باسمـه طـار ذعـره
وأيقن أن الرحل منه خصيب (١٠)
وبادر نحو البـاب سعيـا ملبيـا
لـه طـرب بـالزائريـن عجيـب
وقـال ادخلـوا حييتـم مـن عصابة
فمنزلكـم سهـل لـدي رحيـب
وأبـدى لنـا صهبـاء تـم شبابهـا
لهـا مرح في كأسهـا ووثـوب ..

لقد كانت لياليه نهارات .. ونهاراته ليالي
للنوم .. أو للصحو بلا كأس ..

---

(٩) ذو الكبرياء : اللـه .
(١٠) اي ايقن بالكسـب .

وللناس الذين لا يمكن تصورهم خارج صورة العصابة ·· هؤلاء يرى فيهم الحياة بكل تفاهاتها وحقاراتها وسرعة زوال الانسان عنها ·· وأولئك يرى فيهم الخلود والابدية·

د ـ الدهقان أو الدهقانة لا يساومان في أغلب الأحيان ·· أدبا وظرفا وحسا حضاريا صافيا وأبو نواس لا يساوم أصلا وطبعا : يدفع سلفا ـ عن شهر ـ ألف دينار له ولصحبه ولو بات ـ بعدها ـ خالي الوفاض :

عددت بكفه ألفا لشهر
بلا شرط المقيل ولا المقال(فاسخ البيع)
فظلت لدى دساكره عروسا
لعذراوين من خمر وآل (١١)

الا اذا جاؤوا « وفي المال قلة » كما يصف حاله مع دهقانة فيها وميض شباب باهت أراد أن يبيت ليلته عندها :

---

(١١) عروس : يقال للرجل وللمرأة وهنا للرجل . كالعريس عند المولدين بعذراوين : مثنى عذراء . والمراد انه بين خمر طال حجابها في الدن وفتاة في مقتبل العمر .. الحان الحان حاشية ص ١٢ .

فقلت لهـا جئنـا وفي المـال قلـة
فهل لك في أن تقبلي بعضنا رهنا ؟
فقالت لنا : أنت الرهينة في يـدي
متى لم يفوا بالمال خلدتك السجنا ..

وأي سجن .. انه السجن الوحيد المحبب لدى أبي نواس .. يقصد اليه قصدا .. أمـا دنيا بغداد الرحبـة وساحـاتها العريضـة ومساجدها وقصورها ودورها التي تعج بكل علم وأدب وفن وصراع على السلطة اذا ما خلت مما يحب ويهوى فهي السجن الكبير ..

هـ ـ الانفاق بين الرفاق مشترك لأن حسهم مشترك « ينفقون كأنهم رجل واحد (١٢) » .

و ـ الخمرة شراب الكرام من الناس ، وهي محرمة على البخلاء والأعراب مـن جاحدي فضلها وجاهلي قيمتها .. وأبو نواس يمسك عن مجادلتهم :

(١٢) د. علي شلق : في جو ابي نواس ص ٥٢ والحان الحان ص ٦ على عكس ما يفعل شبان اليوم بما يسمى «عشرة حلبية » وهذه على ما ارجح عادة مستحدثة ودخيلة

دعني من الناس ومـــن لومهم
وأحس ابنـــة الكرم مع الحاسي

فما له ولهم :

مالي وللناس كم يلحونني سفها
ديني لنفسي ودين الناس للناس
أعــاذل ما على مثلــي سبيل
وعذلك في المدامـــة يستحيـــل
أعــاذل لا تلمنـــي في هواهــا
فـــان عتابنـــا فيهـــا يطـــول
كلانا يدعـــي في الخمر علمـــا
فدعني ، لا أقول ولا تقول ..

فالحياة عنده لا تتسع للجدل وللفلسفـــة .. وحين نفلسف اللذة ــ في عرفه ــ نفقدها .. وانفاق الوقت في كل ذلك يذهـــب برونـــق الشبـــاب .. وروعة المبادرة ..

وحري باللائمين البخلاء أن يسكتوا أو يبلعوا البحر وليدعوه يشربها بطارفه وتالده .. فهـــم لا يصدرون الا عن حسد وشح وفسولة .. أما هو فعن براءة وكرم وفهم وبطولة :

ـ فلأشـربـن بطـارف وبتـالـد
بنت الكروم برغم أنف الحاسد ..
ـ لو كان لومك نصحا كنت أقبلـه
لكن لومك موضوع على الحسد ..

ولو أطاع فيها أحدا لأطاع الله فهو وحده الجدير بالطاعة :

ـ واذا نزعت عن الغوايـة فليكن
للـه ذاك النـزع لا للنـاس
ـ لـو أطعنـا ذا عتـاب
لأطعنـا اللـه فيهـا ..

ثم ان حسابي عند الله لا عندكم أيها الزناة أبناء الزانيات :

ان كنت للنار فمـا حيلتـي
عـذبنـي اللـه وأشقانيـه
أو كنـت للجنـة أحيـا بهـا
فما عليكم يا بني الزانية ...

ان الخمرة من عنصر طيب وعريق .. فهـي شراب الآلهة في قديم الحضارات والأديان كما أن

لها من سمو الأصل ونبل الأرومة ما يجعلهـا ذات روح استشهادية فدائية ·· تعطي كلها ·· كـل ذاتها ·· ليحيا بها شاربوها ومقدسوها ·· ثـم يذوب الكل ·· في ·· الكل !! فأين البخيل من كل هذا وأين اللئيم ؟! والسافـل والعربيد والمجوسي ليكن بينهـا وبينهـم حجـاب صفيق ·· حفظـا لسموها وقداستها ·· ها هي تستجير به صارخة ضارعة :

لا تمكنني من العربيـد يشربنـي
ولا اللئيم الذي ان شمني قطبـا
ولا المجـوس فـان النـار ربهـم
ولا اليهود ، ولا مـن يعبد الصلبا
ولا السفال الـذي لا يستفيـق ولا
غر الشباب ولا من يجهل الأدبـا

وواضح هنا أنه لا يقصد بالمجوسي أو النصراني أو اليهودي مجرد عبادته ·· بل ذاك اليهـودي أو المجوسي أو النصراني الذي لا يعبد الخمرة ويفضل عليها عبادة النار أو الصليب أو ·· العجل الذهبي ويروح النواسي بعدهـا يسخر مـن كل شيء وكل انسان لا يعرف سرها وقيمتها وتأثيرها ··وسخريته

في خمرياته منتشرة بشكل ملحوظ ·· وبها اختصر الجدال وحسم الخلاف ·

ز ـ والخمرة ليست وحدها مبعث السكر والنشوة ـ على عمق تأثيرها ـ بل هناك نشوتان وسكرتان لأن هناك مصدرين لهما هما : الخمرة والساقية · فلا بد لأمثال أبي نواس من نشوتين وسكرتين :

تسقيك من عينها خمرا ومن يدها
خمرا ، فما لك من سكرين من بد
لي نشوتان وللندمان واحدة
شيء خصصت به من دونهم وحدي

هذا الشعور بالامتياز أصبح قانونا عند الصوفية الذينوجدوا فيخمرتهم سبيلهم الى الحبيب الأوحد : الله · فانتشوا بها وبه واتحد الكل ·· هناك في السماء ·· وفي اللاوعي ·· أما هو فقد ظل على الارض مع حبيبين لا ثالث لهما : الخمرة والساقي (غلاما كان أو غلامة) ·· ومع نشوتين أقرب الى أن تكونا ماديتين لا روحيتين : نشوة أولى ومصدرها الخمرة ·· ونشوة ثانية ومصدرها

عين الساقية ·· اذ أنها حين تبدأ تسقيه من عينها فلا تلبث أن تسقيه من شفتيها و ·· الله أعلم بالبدايات والنهايات ··

هكذا ، وبالرغم من ارتفاع النواسي عن سطحيات الأخطل ونعوت الأعشى ، فلم يعد وصفها ووصف مجالسها كافيا ، بل راح شاعرنا يوغل في مرامي الخمرة ومعانيها ، ويفلسف تأثيراتها ومفاعيلها وقيمها ·· حتى جعلها سرا من أسرار الكون ·· واسترسل في تأويل هذا السر ·· فاذا الحياة تافهة بدونه ··· ومعه يمكن أن تعاش هنيهاتها وتستطاب ·

فن التعبير الخمري عند أبي نواس :

لم يكتف النواسي بوضع دستور الخمرة ومراسم شربها ، بل جعل من صنعتها وفلسفتها أدبا خمريا مستقلا تمام الاستقلال عن غيره من الفنون ·· بل مدرسة قائمة بذاتها قوامها :

ــ الروح القصصية في سرد حكاية حاله مع الخمرة والخمارة والخمارين · وذلك بتأثير حياة مسترخية ومسترسلة عاشها الحسن ·· فلا لهاث

وراء انتهاب اللذات،ولا قلق ولا خوف ·· بل روح شابة وثابة مطمئنة ساخرة ·· حتى يوم حبسه الأمين تداركا لغضب بعض رجال الدين راح يداعب الخليفة ويمازحه ويرسل له قصائد الاستغفار ·· والاستذكار ·· من السجن :

قل للخليفة انني حتى أراك بكل باس
من ذا يكون أبا نواسك اذ حبست أبا نواس
أقصيته ، ونسيته ولعهده بك غير ناس
قد كنت آمل غير ذا لو كنت تنصف في القياس
ان أنت لم ترفع له رأسا فديت،فنصف راس

ـ الممازجة بين أوصاف الخمرة وأوصاف الطبيعة ورموزها من أزهار ورياحين وكروم وطيوب ونسائم وأنهار وشموس وأقمار ونجوم وشلالات حتى لكأن نفسه لا تطيب للشراب الا في أرباض بغداد حيث الحدائق والبساتين والأديرة الغارقة الى الأذنين في عبقين فواحين : عبق زهر الليمون والرمان ·· وعبق الخمرة في سور الكؤوس والدنان ·· ونكاد لا نرى النواسي مستغرقا في وصاله الحميم مع الخمرة يناجيها وتناجيه ·· ويوغل بعيدا في كشف أسرارها الا بعد قضائه ليلة

أو ليالي في تلك المطارح المونقة والرياض الضاحكة فتأتي خمريتـه مزيجا رائعـا من ظلاله النفسيـة وظلال الطبيعة ٠٠ وخليطـا مدهشا من أنفاسـه وأنفاس الخمرة والمخمورين ومن أنفاس النسيمات العليلات في أواخر ليلة خريفية أو أمسية صيفية ٠٠ مما كان يبرد وجيب القلب المُعنى وينقع الغلة ويخفف من لهيب الشوق والحرمان القديم ٠٠

عالم كونـه النواسي لنفسه وقضى أحلى أيام عمره فيه ٠٠ بعيدا عن بغداد والبصرة والكوفة وصخب حوانيتها وحاناتها وتفاهة حياة الناس فيها حاكمين ومحكومين ٠٠ فلا عجب ان رأيناه هـو وهذا العالم كتلة حياة واحدة وكيانا واحدا : فلا أوصاف خمرة تستخرج من قاموس اللغة أو تؤخذ من الأخطل والأعشى أو سواهما ٠٠ ولا رموز طبيعية يُحكى له عنها أو يطالعها عند الآخرين ٠٠ ولا هي من أبي نواس المستريح قليلا في أحضان الطبيعة المتخذ من نسائمها ورياحينها « مروحة » يجفف بها عرقه ٠٠ حتى اذا جف العرق وارتاحت الاعصاب عاد الى ٠٠٠ المدينة وتلهى كأي شاعر آخر بالمديح ــ الكذب ٠٠ أو الرثاء المصطنع ٠٠ أو الهجاء ٠٠ لا ٠٠ أبدا ٠٠ بل العكس هو الصحيح ٠٠ هنا تموت

الشاعرية عند أبي نواس ولا يبقى سوى الوجـه التقليدي الآخر منه : وجه الكذب والنفاق والتقليد أي اختفـاء الشخص الشاعر المميز ٠٠ واختفـاء الأصل ٠٠ وبقاء الفرع ٠٠ وهناك تحيا الشاعرية بكل خصبها وكثافتها وتنهمر بالرقيق العذب من الألفاظ والصور والتهاويل فيتنفس بملء رئتيه ويهتف بملء فمه :

طـاب الزمـان وأورق الأشجـار
ومضى الشتاء وقد أتى آذار (١٣)
وكسا الربيع الارض مـن أنواره
وشيـا تحـار لحسنـه الابصـار

---

(١٣) ويوافقه مارس من شهور الروم ، وفي الثاني عشر من اذار تحل الشمس برج الحمل وذلك اول فصل الربيع . واذار اسم سامي الاصل . يقول البيروني ان الهنود يسمونه اسار ، وفي الفهلوية اذر . ومعنى جذره عمل الحقول . ومنهم من ضمنه معنى الجلال والجهارة . وهذا معنى ليس بعيدا عن كونه من « هدر » فهو هدار صاخب بما يحدث فيه من عواصف ورعد وسيول . والعامة تقول « اذار الهدار فيه الزلازل والامطار ، فيه سبع ثلجات كبار ما عدا الزغار » . وفي اذار تتفتح الارض وكل ما دب عليها من انسان وحيوان . ويوافق الحادي والعشرين منه بدء الربيع واول السنة الفارسية او عيد النيروز . ومعنى النيروز « اليوم الجديد » ومنه في الفرنسية Nouvelles Roses وفي الانكليزية New Roses ولهذا =

فانف الوقار عن المجـون بقهـــوة
حمراء خالط لونهـا أقمـار (١٤)
واستنصـف الأيـام من أحداثهـــا
فلطالما لعبـت بـك الاقدار ...

ونراه في مقطوعة أخرى خبيرا فلكيا ، أو مطلعا ـ في الأقل ـ على ما يقوله علماء الفلك في عصره فيقتبسه ويجعله ميعادا طيبا لشرب الخمرة حيث يعتدل المزاج ويكتمل طيب الخمرة ويميل الطقس الى الاعتدال ويختال الربيع وتخرج الارض زينتها:

أمـا ترى الشمـس حلـت الحمـلا
وقام وزن الزمان واعتـدلا (١٥)

= العيد عند الايرانيين حتى اليوم اهمية كبيرة .. فيه تقام حفلات تدوم ستة ايام لكل يوم منهاج . لذا ذكره ابو نواس كثيرا في خمرياته . ولا ننسى ان الخمر يكمل طيبها ونضجها وتعصر في اول السنبلة (اغسطس) ثم تبقى في الدنان الى ان تشرب ، فاذا شربت في اول حلول الشمس برج الحمل فقد استوفت سنة بهذا الاعتبار . وابو نواس خبير بذلك ، وهو يشير اليه في ابيات ومقطوعات سنذكر بعضها ..

(١٤) اقمار كناية عن الحبب .

(١٥) كان الاصمعي يفضل ابا نواس على شعراء زمانه بهذه القصيدة .

وغنـت الطـير بعــد هجعتهــا
واستوفـت الخمــر حولهـا كمـلا
واكتســت الارض مــن زخارفهــا
وشي نبــات تخـالـه حلــلا
فاشرب علـى جدة الزمــان فقـد
أصبـح وجـه الزمــان مقتبــلا

ألا يبدو لنا أبو نواس شاعر الخمرة الربيعية والشباب الذي لا يريد أن يتحول الى خريـف ؟ والطبيعة الضاحكة بألـف ثغر ، المفترة عن ألـف ابتسامة ؟ والتي أصبحت هي والخمرة والشبـاب أقانيمه الثلاثة معها يحيا وبدونها يموت ؟!...

وعما قليل سوف نسمع صوتا عاليا لتلميذ نواسي أمين يحيا مع الخمرة كأستاذ لكنه يتعمق فيها .. يفلسفها كمالا أحد .. وفلكي رياضي يدخل الى رحاب الخمرة ولا يخرج منه ... انه عمر الخيام الذي وقف أمـام الفاجعة والقدر والقهر الكوني متحديـا بالنسيـان واللجـوء الى العقـل و .. الخمرة .. (١٦)

---

(١٦) سنعقد مقارنة وجيزة بين نواسينا ونواسي الفـرس لكثرة ما بينها من تشـابه .

روى ابن منظور ان النواسي قال : « لا أكاد أقول شعرا جيدا حتى تكون نفسي طيبة وأكون في بستان مونق ، وعلى حال أرتضيها ، من صلة أوصل بها ، أو وعد بصلة ، وقد قلت على غير هذه الحال أشعارا لا أرضاها ... » هذا القول يدل على خبرة دقيقة بصناعة الشعر(١٧)لا بنظمه . فقد ينظم (الشاعر) وهو في زحمة الطريق .. لكنه لن يكون مبدعا أو مجيدا على الاطلاق .. مهما ادعى المدعون ..

ويكاد يصبح شعر النواسي في الخمرة وثيقة تاريخية وجغرافية نستقي منها المعلومات لا الشعر وحده حتى ليبدو الشعر فيها آخر شيء يهتم به الشاعر :

مسارحها الغربي من نهر مرمر
فقطربل ، فالصالحية ، فالعقر ..

فاذا جردنا هذا البيت عن معناه لم يعد لنا فيه كبير غناء .. ودخل في عداد النظم الوثائقي ..

---

(١٧) د. علي شلق : في جو ابي نواس ص ٨٥ م. عصرية ١٩٥٥ .

غير أن أبا نواس سرعان ما يتفلت من أسر الوثائقية ليعود الى دنيا الفن الصريح ·· وجو الخمرة المريح يبث فيه أشواقه ولواعجه ·· بل يفرغ فيه كل همه وكبته ·· ويتفرغ معه الى الحديث والمطارحة والمنادمة وبث ·· الدعوة ··

ويتمسرح الشعر الخمري على يدي النواسي فاذا بالحديث والمطارحة والمنادمة تنقلب فلذات مسرحية على خشبة الطبيعة الربيعية الغناء ،قوامها الحوار الرشيق وبطلتها الخمرة وأبطالها الندامى وكورسها القينة والغلام والدهقان والدهقانة ·· وينساب بين الجميع نغم ملائكي حنون ترسله حنجرة ساقية لعوب ويوقعه صنج ودف ورباب ·· حتى اذا مازج ضحكات السكارى ·· وهمساتهم انتشى الجو كله ·· وراح الكل في نصف اغفاءة لذيذة ·· وأسدل الستار ·· ومضى كل الى غايته الا الدهقانة اليهودية التي تشترك في المسرحية لكنها لا تتفاعل مع شخوصها ، على روعتهم ·· وتبقى تتعامل بكامل صحوها مع ·· أبي نواس وحده : يساومها ·· يمازحها ·· يدفع لها المبلغ كاملا ·· أو مقسطا ·· أو يجعل نفسه رهينة عندها الى حين الاستحقاق ·· ثم يعود أدراجه الى

عند حنون :

وخمـــارة للهـو فيهـــا بقيـــة
اليهـا ثـلاثـا نحو حانتها سرنـا
ولليــل جلبــاب علينــا ، وحولنــا
فما ان ترى انســا لديه ، ولا جنا
يسايرنــا ، الا سمــاء نجــومهــا
معلقة فيهــا ، الى حيــث وجهنــا
الى أن طرقنا بابهــا بعــد هجعــة
فقالت : من الطراق ، قلت لها : انا
شبــاب تعارفنــا ببابك لــم نكــن
نروح بما رحنا اليك فأدلجنا (١٨)
فان لــم تجيبينــا تبــدد شملنــا
وان تجمعينــا بالوداد تواصلنــا
فقالت لنا : أهــلا وسهلا ومرحبــا
بفتيان صدق ما أرى بينهم أفنا(١٩)
فقلــت لهــا : كيــلا حسابا مقومــا
دواريق خمر ما نقصن ، وما زدنا

(١٨) ادلج : سار من اول الليل .
(١٩) الافن : ضعف العقل او الراي .

فجاءت بها كالشمس يحكي شعاعها
شعاع الثريا في زجاج لها حسنا
فقلت لها : ما الاسم ، والسعر ، بيني
لنا سعرها ، كيما نزورك ما عشنا
فقالت لنا : حنون اسمي ، وسعرها
ثلاث بتسع ، هكذا غيركم بعنا
ولما تولى الليل أو كاد ، أقبلت
الينا بميزان لتنقدنا الوزنا
فقلت لها : جئنا وفي المال قلة
فهل لك في أن تقبلي بعضنا رهنا ؟
فقالت لنا : أنت الرهينة في يدي
متى لم يفوا بالمال خلدتك السجنا ..

ويمضي أبو نواس على رسله في حواريات خمرياته كما يمضي الهوينا في حياته وان كان يبدو مسرعا في انتهاب لذاته .. فهو على سرعته يلوب دائما ويتمحور حول أقانيم ثلاثة : الخمرة ، الشباب ، الطبيعة الربيعية الحية ، قوام مسرحيته الكبرى ..

فاذا ما جمعنا كل حوارياته بالاضافة الى ذاته ومشاعره وطغيان شخصيته كبطل مسرحي لا يتبدل

بتبدل المشاهد والأماكن والاشخاص ظهر واضحا أن هذه المسرحية الكبرى لا تخرج على وحدات أرسطو الثلاث ، وان لم يقصد اليها شاعرنا قصدا وهي : وحدة الزمان والمكان والعمل ٠٠ فالزمان لا يتجاوز الاربع والعشرين ساعة : من الغبوق الى الصبوح (٢٠) والمكان : الحانة لا سيما تلك الرابضة على جناح دير داخل بستان ٠٠ والعمل أو الحادث : الشرب حتى النشوتين والسكرين وكل ما يصاحب ذلك من ندامى وسكارى ومغنيات وشواء وسدنة وملابس وتقنيات ومقدمة وعقدة ٠٠ وحل ٠٠ ومفاجآت ٠٠

وهذه حوارية أو مشهد من مشاهد المسرحية الكاملة : البطلة فيها الخمرة نفسها ٠٠ يستنطقها أبو نواس كعادته ويحاورها ، كما حاور الدهقانة حنون سابقا :

طربت الى خمر وقصف الدساكر
ومنزل دهقان بها غير دائر
بفتيان صدق من سراة ابن مالك
وأزد عمان ذي العلا والمفاخر

(٢٠) الحان الحان ص ٣٥٨ .

فلما حللناها نزلنا باشمط

كريم المحيا ، ظاهر الشرك ، كافر

له دين قسيس ، وتدبير كاتب

واطراق جبار ، وألفاظ شاعر

فحيا وبيا ، ثم قال لنا : اربعوا

نزلتم بنا رحبا بأيمن طائر

فقلنا له : ان المدام غذاؤنا

وانا أولو عقل واهل بصائر

فحيا وبيا ، ثم قال لنا : اربعوا

وأوجعها في الصيفحر الهواجر (٢١)

فقلت لها لما أضاء سناؤها

على صحن كأس ـ قد علا الكف ـ زاهر

أبيني لنا يا خمر كم لك حجة ؟

فقالت : لحاك الله ، لست بذاكر

شهدت ثمودا حين حل بها البلى

وأدركت أياما لعمرو بن عامر

فقلنا : أنسقاها على وجه أهيف

له تيه معشوق وشخرة شاطر ؟!

---

(٢١) الغمو : غطاء الدنان من الخشب والطين . والهواجر ج هاجرة وهي حر الظهيرة في يوم قائض .

ولولا هذه الشخرة الساخرة على شيء من الخشونة في آخر الحوارية ، وشيء من صفاقة لغة أصحاب المواخير ٠٠ لولاها لبقينا مع حوارية أبي نواس بكل مشاعرنا واعجابنا بفنه وصفاء أسلوبه ٠ كان يمكن أن يكون لكلمة « شخرة » وقعها وقيمتها الفنية لو جاءت خاتمة لحوارية شعبية مواخيرية ٠٠ أما وقد جاءت في مسرحية راقية التعبير سلسة التصوير رفيعة مستوى الحوار فقد جاءت ــ ولا شك ــ نابية وفجة ٠٠

ويقوده حبه للحوار الى أن يصبح ــ في خمرياته ــ أحاديث عفوية يجري فيها مع الطبع والواقع دون اصطناع كلمات شعرية قاموسية أو تقليدية حتى أصبحت هذه الأحاديث كلاما يتداوله أبو نواس يوميا مع الرفاق وأصحاب الحانات ٠

لما وردناها نلم بشيخها
علج يحدث عن مصانع عاد
قلنا : السلام عليك ، قال عليكم
مني سلام تحية ووداد
ما رمتم ؟ قلنا : المداد ، فقال قد

وفقتم يا اخوتي لرشاد
عندي مدام قد تقادم عهدها
عمرت ولم يشعر بها أجدادي
فأكيل ؟ قلنا بعد خبر : اننا
لا نشتري سمكا ببطن الوادي

ويطول بنا المقام عند خمرياته الحوارية التي أصبحت حكاية حاله مع عصره وحياته ، سكب فيها كل روحه وكل وجدانه : اليك هذه الفلذة الحارة المرحة من فلذات مسرحيته الكبرى لتتأكد من أبي نواس الفنان الواقعي الذي اتخذ من خمرياته سبيله الى بث دعوتين على الأقل ، ودون أن يشعر هما : الدعوة الى أن يكون الأدب صورة للعصر والواقع ، بأسلوب لا اصطناع فيه ولا زخرفة ٠٠ فاذا زخرف ووشّى ففي المعاني والمواقف لا في الأساليب ٠ والدعوة الى أن يحيا انسان عصره حضارته الجديدة لا أن يعيش في بغداد بجسمه وحده ، بينا فكره وروحه مشدودان الى الوراء عشرات السنين ٠٠٠ الى هناك حيث السراب الكاذب من القيم والتقاليد : تأمل روحه المجددة وذاته المرحة في هذه الفلذة الضاجة بالحياة والمرح والدفء والعفوية :

وفتيـــان صدق قد صرفــت مطيهم
الى بيــت خمـــار نزلنا بـــه ظهـــرا
فلما حكـــى الزنار ان ليس مسلمـــا
ظننا به خيرا فظن بنـــا شرا (٢٢)
فقلنا : على دين المسيح بن مريم ؟
فأعرض مزورا • وقال لنا كفرا (٢٣)
ولكـــن يهـــودي يحبـــك ظـــاهـــرا
ويضمر في المكنون منه لك الغدرا
فقلنا له : ما الاسم ؟ قال : سموأل
على انني أكنى بعمرو ولا عمروا (٢٤)
ومـــا شرفتنـــي كنيـــة عربيـــة
ولا أكسبتني لا سناء ولا فخرا (٢٥)

---

(٢٢) الزنار : ما يشد على الوسط ، وهو خاص باهل الذمة في الاسلام يتميزون به (الديوان ص ٦١) .
(٢٣) من ازور : انحرف . وقال لنا كفرا : رواية الصولي ، والنسخة الالمانية . ورواية حمزة : وقال لنا هجرا : والهجر القبيح من الكلام .
(٢٤) اكنى بعمرو : اي يقال ابو عمرو . ولا عمرو : اي لا ولد لي بهذا الاسم ، اشارة الى انه لما يزل صبيا وعمرو : معدولة عن عامر . فمن اين جاءته هذه الواو يقولون : هي واو داوود استعيرت منه واتبعت بعمر (للتفريق بينه وبين عمر ... ونحن نقترح الغاءهـــا وفقا لطريقتنا الجديدة : ما لا يلفظ لا يكتب .. المؤلف
(٢٥) السناء : الرفعة .

ولكنهـا خفـت وقلـت حـروفهـا
وليست كأخرى انما خلقت وقرا (٢٦)
فقلنا له عجبـا بظـرف لسانه :
« أجدت أبا عمرو فجود لنا الخمرا »
فأدبـر كالمـزور يقسـم طـرفـه
لأرجلنـا شطرا ، وأوجهنا شطـرا
وقال : لعمري لو نزلتـم بغيرنـا
للمناكم ٠لكن سنوسعكم عذرا (٢٧)
فجـاء بهـا زيتيـة ذهبيـة
فلم نستطع دون السجود لها صبـرا
خرجنـا علـى أن المقـام ثـلاثـة
فطابـت لنا حتى أقمنـا بها شهرا
عصابة سوء لا يرى الدهر مثلهـم
وان كنت منهم لا بريئا ولا صفرا
اذا ما دنا وقـت الصلاة رأيتهـم
يحثونهـا حتى تفوتهم سكـرا ..

(٢٦) الوقر : الحمل الثقيل .
(٢٧) لو احطتم بأمرنا ــ على رواية الصولـي : اي لـو عرفتموه . ولكنكم لم تحيطوا بـه ..

تخريجاته الفلسفية :

ان خطيئة السكر ومعاقرة الخمرة داخلة ، في مذهب النواسي ، في قانون العفو الالهي العام ·· وينسى الفاسق أو يتناسى نص تحريمها ـ فيزيد قائلا أنها ـ أي الخطيئة ـ تجعل لذلك العفو قيمة وتضفي عليه صفة العدالة :

اترك التقصير في الشر ب وخذها بنشاط
من كميت كسنا البر ق أضاءت في البواطي
لِم ؟ وعفو الله مبذو ل غدا عند الصراط
خلق الغفران الا لامرىء فيالناس خاطي
يا كبير الذنب،عفوالله من ذنبك أكبر
أعظم الأشياء في أصغر عفو الله يصغر

ثم ان رجل الدين يزري بالدين ان هو حظر العفو عن الخطاة الموغلين في خطاياهم ! يقول منتقدا صديقه القديم ابراهيم النظام (٢٨) مجاهرا بفسقه وثورته :

(٢٨) روي ان ابا نواس صحب في صباه ابراهيم النظام ثم افترقا . وكان النظام خلال ذلك قد اعتنق مبادىء المعتزلة وصار على رأس فرقة منهم . فلما التقيا بعد هذا دعا النظام ابا نواس الى اعتناق مذهبه ولامه على =

دع عنك لومي فان اللوم اغراء
وداوني بالتي كانت هي الداء
صفراء لا تنزل الاحزان ساحتها
لو مسها حجر مسته سراء
من كف ذات حر في زي ذي ذكر
لها محبان لوطي وزناء
قامت بابريقها ، والليل معتكر
فلاح من وجهها في البيت لألاء
فأرسلت من فم الابريق صافية
كأنما أخذها بالعين اغفاء
رقت عن الماء حتى ما يلائمها
لطافة وجفا عن شكلها الماء
فلو مزجت بها نورا لمازجها
حتى تولد أنوار وأضواء
دارت على فتية دان الزمان لهم
فما يصيبهم الا بما شاؤوا

= شرب الخمر ومجاهرته بالعصيان ، وخوفه من عاقبة ارتكابه الكبائر .. لان مرتكب الكبيرة في راي المعتزلة — كما هو معلوم — مخلد في النار فرفض وعرض به في هذه المقطوعة . الديوان حاشية ص ٦ تحقيق : احمد عبد المجيد الغزالي . دار الكتاب العربي — بيروت — لبنان ١٩٥٣ .

لتلك أبكـــي ، ولا أبكـــي لمنزلـــة
كانـــت تحـــل بهـــا هنـــد وأسمـــاء
حاشـــا لـــدرة أن تبنى الخيام لهـــا
وأن تروح عليهـــا الابـــل والشـــاء
فقل لمن يدعـــي في العلم فلسفـــــة
حفظت شيئـــا وغابت عنك أشيـــاء
لا تحظر العفو ان كنت امرءا حرجا
فـــان حظركـــه في الـــديـــن ازراء

أنا لا أجد في هذه الخمرية الصاخبة سوى دفاع عن الحرية في شكل خمريـــة ... اذ لـــن يؤذي النواسي كلام كهذا الكلام يوجـــه اليه من صديق متحرج زميت .. ومن يقول انها شعوبية حـــادة ظهرت في هذه الهمزية فقد حمل النواســـي أكثر مما يحمل .. كل ما في الأمر انها ثورة انســـان متحرر متحضر تجمعت فيه جميع أسباب الشذوذ والانحراف : من تربية بيتية شاذة وبيئة فاسدة وضروف قاسية . فلم يعد لرباط الدين أي تأثير عليه لما يراه من انحراف الخلفـــاء ودجل رجـــال الدين أنفسهم .. الى جانب ثقافة مكثفة تفاعلت مع رواسب شخصيته وخلفياتها فانفجر بما لا يمكن له حبسه أو دفعه .. وجرف في طريقه الصديـــق

المتحرج والقريب المرائي ·· ثم العرب أجمعين ··
اذا كانوا على شاكلة هذا الصديق ·· أو اذا كانوا
يعيشون العصر بأجسادهم وحدها ·· انها فورة
ان لم نقل ثورة ·· وللشاعر ــ هنا ــ أن يتدفق
في غنائيته الرائعة هذه ، وليس علينا ، نحن من
بعد، سوى التقاط نفثاته وهدرات وجدانه وتقييمها
بميزان الفن والعفوية والصدق ، فاذا هي خلجة
رائعة من خلجات النواسي ·· وسواء قضى على
خصومه أم قضوا عليه فلا يهم ·· المهم عندنا روعة
البيان عن الكيان وصدق التعبير عن الوجدان ··
الى جانب عمق التمثيل للعصر وثقافته وحضارته
وقوة الحضور في شخصية الشاعر حتى يلامس
وجداننا اليوم وخلق الشعور لدينا بأنه كان مظلوما
وصادقا وكانوا هم الظلمة الكاذبين ·· وكان رائعا
وخالدا حين استطاع بحسه الحضاري وفنه أن
يصور جانبا كبيرا من مجتمعه وفكر ذلك المجتمع
ورجاله وأن يخلد كل هذا ·· في حين يسقط
الجميع في قيعان النسيان لو لم تخلدهم ريشة الفنان
وبراعة الشاعر الشاعر ··

ويمضي أبو نواس ثائرا على المتزمتين وضاحكا
ساخرا من الحياة ، مع الصرحاء الطلقاء ··

فيلتمس عفو ربه بطريقة ماجنة مستبشرة فيقول للساقي :

اسقني واسق يوسفا مزة الطعم قرقفا
وضع الزق جانبا ومع الزق مصحفا
واحس من ذا ثلاثة واتل من ذاك أحرفا
خير هذا بشر ذا فاذا الله قد عفا ..

لعلها مفارقة العصر وغمز من قناة من يشربها سرا ويدعي التقوى والصلاح وفي ظنه أنه الناجي من غضب ربه .. أما أبو نواس فأصرح وأصدق وأقرب ـ في حسه ـ الى عفو ربه .. على الأقل لصدقه وبراءته .. فلا خبث ولا رياء .. ولا كذب .. عنده ..

حجه :

ومن قال ان أبا نواس لا يحج ؟ بلى .. لقد حج مرة .. ولكن حين حجت جنان .. وسيحج مرة ثانية شرط أن تفنى ـ أولا ـ لذات بغداد :

وقائل هل تريد الحج قلت له :
نعم اذا فنيت لذات بغداد !...

سخريتـه :

ليس أمضى من سلاح السخرية في هتك حجاب المنافقين أو المقلدين أو البخلاء ، وليس أروع من تصويرهم بصدق ونقد مغلفين بغلاف السخرية ، لا سيما اذا كانت هذه السخرية فنية ·· شفافة ·· وغير جارحة ·· كما فعل الجاحظ مع بخلائه ، فأعطانا لوحات رائعة لنفسياتهم المعقدة وحركاتهم الكاشفة قل أن يقتني مثلها متحف الزمن ·· وفن السخرية أو موهبة اضحاك الناس دون تجريحهـم فن راق وصعب وموهبة حضارية خلاقة :

فمن السهل أن تبكي الناس ـ على صعوبـة تصوير فواجعهم ـ لكن من الصعب جدا اضحاكهم خاصة اضحاك النخبة منهم ـ ذلـك لأن الوجـه المرئي من الحياة هو وجه المأساة لا المهزلة لذا فهو سهل التناول عند الملهمين من الأدبـاء والشعراء والفنانين ·· أما الوجه غير المرئي تماما من الحياة فهو الوجه الضاحك ·· ولعل الواقع هو ان الحياة ، في حقيقتها ، ذات وجه واحد هو المأساة والوجود العدمي الفاجع ·· لذا كان على الفنان أن ينتزع الملهاة من صميم المأساة وأن يكشف عن ذلك الوجه

المثير للضحك أو الدعابة أو الغرابة ،ثم أن يجعل الناس يضحكون ويستغربون حين يكتشفون أنفسهم في ذلك الوجه ··· فيتوارون خلفه ويضحكون شامتين ·· بينا هم في الحقيقة لا يضحكون الا من أنفسهم ولا يشمتون الا بأنفسهم ·· وكان حريا بهم أن يبكوا قبل أن يضحكوا !!·· تلك الموهبة لا تؤتى الا لكبار الفنانين ومنهم أبو نواس حين استطاع أن يعري بصدقه وصراحته كثيرا من الوجوه المصطنعة في عصره ··

فحين يعرج الشعراء المقلدون على رسم يسائلونه ويبكون عنده ·· يعرج هو على خمارة البلد ·· وحين يرثون ديار الأحبة الماضين واقفين ·· يجلس هو ـ بكل الصدق وكل العفوية ـ يحتسي الخمرة وحين يبعدون بذلك عن روح العصر ·· يقرب هو منه ومنها ·· ولأم المقلد الهبل ···

ثم لماذا التقليد ·· والتعقيد ·· والتزمت والجد ؟ ما دامت الحياة لا تتسع لكل هذا العنت ·· والعبث والخبط في الفراغ ؟ خذ الحياة بسهولة وفرح ·· واملأ شبابك باللذائذ ـ وأفضلها الحرام ـ في نظر أبي نواس ·· بادرها بما ملكت

يداك ·· قبل فوات الأوان ·· ولا تلتفت الى لوم اللائمين وغضب المتحرجين ·· لذا جـاء شعره ، خاصة في الخمريات ، شفافـا شفافية حياتـه ، صافيا صفاء خمرته ، سهلا سهولة فهمه لواقعـه وحضارة عصره ··

وسوف لا نتحدث في هذا الكتاب ـ عن أبـي نواس الهاجي ولا المادح ولا الراثي ولا الطردي ـ الا لكي نثبت أنه لم يكن في هذه المجـالات شيئـا مذكورا بل كان كغيره من المادحين على قلة مبالغته، والمازحين الهاجين ، على خفة ظله ، والراثين على صدق عاطفتـه ، والمفتخرين بالخمرة وبالحضارة الفارسية على وضوح نسبه في اليمانية ··

اننا لن نجد أبا نواس ـ حقا وصدقا وريادة ـ الا في خمرياته ·· انها كل عمره ·· وكل وجدانه، وكل حبه ·· وكـل ايمانه ·· واذا ظهـر عصره وجوانب مجتمعه المتعددة هناك : في المدح والفخر والهجاء والرثاء ، فلن يظهر الا هو في الخمريات ·· ومن خلال هذه الهوية تشرع جميع أبواب العصر العباسي الاول والحضارة العباسية الأولى ، في أحلى مظاهرها وأجمل وجوهها ··

الوحدة الموضوعية :

لم يعد الشعر العربي « كشكولا » كما كان في الجاهلية وعند شعراء صدر الاسلام والأمويين ، أي خليطا متنافرا بين استهلال غزلي مصطنـع ، مرورا بفخر أو هجاء ، وانتهاء بمدح أو رثاء ٠٠ حتى البيت الواحد كان هو الوحـدة المستقلة معنى ومبنى ٠٠ لهذا وقف الناقدون القدامى عند البيت الواحد وقيموه ففضلوا قائله على سواه٠٠وأطلقوا عليه لقب : أشعر الشعراء ٠٠ وغير ذلـك مـن الألقاب الارتجالية المجتزأة ٠٠

أما اليوم والعصر عصر علم وثقافة وتمـازج حضاري فمن الطبيعي أن يستقـل كل موضـوع شعري عن غيره ٠٠ وأن تترابط الوحدات الداخلية المؤلفة من أبيات القصيـدة في وحدة موضوعيـة وفنية متكاملة ٠٠

هـذا التـرابط لا تفرضـه الثقافة والعصر وحدهما فحسب بـل يفرضه نوع الحياة الجديدة التي يحياها الناس ٠ الجاهلي قلق ، ضارب آفاق ، موزع الفكر والعاطفة ٠٠ أما العباسي فهـادىء

البال ، مستقر ، له بيت أو قصر يسكن فيه ، متخصص ، مروي العاطفة ، يطلب المال فيجده ، والشهرة فيلقاها ، والحب فيبتسم له ، واللذة فيغترف منها ·· والشاعر العباسي أقرب ناس عصره الى كل ذلك تأثرا واستيعابا ·· فكيف لا يضج شعره بتلك الوحدة الموضوعية والتعبيرية وكل شيء في حياته وفكره يوحي بها ؟

ودع عنك بعض التقليديين الذين لا يزالون مفككي الفكر والروح وبالتالي الموضوع الشعري وهؤلاء هم بالذات الذين حاربهم أبو نواس وسخر منهم ·· فهل يفعل فعلهم ؟!

لا شك أن شاعرنا سوف يجسد تلك الوحدة الموضوعية في قصائده خاصة في خمرياته · فلم يعد كافيا ، في تلك الخمريات ، أن تصبح الوحدة الموضوعية عبارة عن استقلال القصيدة ودورانها حول موضوع الخمرة وتوابعها · بل اننا نلحظ اتحادا عضويا بين الأبيات ، وروابط روحية بين المعاني والجو المحيط والطبيعة الضاحكة من جهة، وبين روح الشاعر وثقافته وهواتف وجدانه وشبابه واحباطات كيانه ، من جهة ثانية ·

فلم يعد غريبا ـ من الناحية الفنية والمعنوية ـ أن نجد أي بيت في الخمريـة مفتقرا في تركيبه ومعناه الى البيت الذي يليه • مثال ذالك :

وخمـارة (٢٩) للهو فيهـا بقيـة
اليهـا ثلاثـا نحـو حانتها سرنـا
والليل جلبـاب علينـا ، وحولنـا
فما ان نرى انسا لديـه ولا جنـا
يسايرنـا الا سمـاء ، نجـومهـا
معلقـة فيهـا الى حيـث وجهنـا
الى أن طرقنـا بابهـا بعـد هجعة
فقالت من الطراق ؟ قلنا لها : انا
شبـاب تعارفنـا ببابـك لم نكـن
نروح بما رحنا اليك ، فأدلجنا ••

فقافية البيت الاول « سرنا » ذات اتصال وثيق « بواو » الليل الدالة على الحال • وكذلك عجز البيت الثاني مرتبط المعنى بصدر البيت الثالث الذي نجد قافيته « وجهنا » شديدة الصلـة بأول البيت الرابع •• وهكذا في آخـره وأول البيـت

(٢٩) الخمارة هنا بمعنى بائعة الخمرة لا الحانة .

الخامس ··· سلسلة مترابطة التركيب والصياغة تهيمن عليها حوارية عفوية وروح مرحة متصلة الرغبة موحدة الهدف ·· وسهولة في التعبير وربط الأجزاء كمن يجري حديثا شفهيا مرحا مع أحد أصحابه أو صاحباته ·· حيث لا تصنع ولا صناعة بل حديث القلب للقلب ··

حقيقة السخرية عند أبي نواس :

هل هي مزاجية أم ظاهرة اجتماعية : لا ريب في أن أبا نواس خلق ليكون ساخرا فكها ،لما تميز به من حب للمغايرة والشذوذ منذ نشأته ·

لكننا نلاحظ أن المجتمع العباسي بتركيبه الجديد والحضارة العباسية بتعقيداتها المنوعة خلقت مفارقات مضحكة ومؤسفة في آن ·· ثم ان المجتمع العربي ـ بعد أن كان في الجاهلية وأيام صدر الاسلام والأمويين مجتمعا بدويا قاسيا ·· ثم مجتمعا قبليا محافظا ·· ثم مجتمعا قوميا ·· على شيء من الاستعلاء والتفرد ·· حاول الشاعر المتحرر كسره والخروج من طوقه الآسر ، فلم يفلح هذا المجتمع أصبح في العباسيين مجتمع حضارة

منفتحة ومتفاعلة •• ثم تطور باتجاه تجمع سكاني في المدينة خاصة ، في بغداد العاصمة التي وصفها أحدهم : بأن الناس يرون فيها في كل لحظة وكل يوم « كأنهم خارجون من مسجد » •• مما شكل طوقا جديدا للانسان المتحرر والمنغمس ـ رغما عنه ـ في خضم حضارته •• وتطلع شاعر مثل أبي نواس فوجد مسافة شاسعة تفصل بينه وبين الآخر، بينه وبين الطبيعة •• أي بينه وبين الحرية •• فعمل جاهدا على كسر الطوق وكشح الظلام الذي يحجب ضوءها وخلق ما يسمى اليوم بالبعد الثالث لعالمه••فاذا به وسط دوامة هائلة من التناقضات ، وبحر زاخر من البشر من شتى الأجناس والملل والمشارب •• فوجد نفسه مسوقا اما الى الغرق في الخضم واما الى السخرية من هكذا مجتمع لم يعد فيه للانسان المثقف من الطبقات الدنيا مكان •• مجتمع طبقي معقد ، وطبقته الحاكمة وما اليها سخيف وأخرق ومحافظ وبخيل وزميت •• وهذه كلها دوافع جيدة اما لسخرية الساخرين وتهكم المتهكمين ، كما فعل بشار وأبو نواس والجاحظ ، واما للاستعلاء والتجريح والرفض ، كما فعل المتنبي ، وأبو العلاء الذي راح نكاية بالمجتمع

والوجود ، يهتك أسرار الوجود فاذا الكل باطل الأباطيل ..

وهكذا تظهر سخرية أبي نواس ذات أبعاد اجتماعية وجذور حضارية كانت سبيله لخلق عالمه الجديد من جهة ، والتساؤل عن البديل من جهة أخرى .. وحلت الخمر والطبيعة عقدة ذلك التساؤل ولو الى حين .. وبقي التغني بكل هذا ، وغناؤه في خمرياته ، الى كل حين .. وفي هذا كثير من الحداثة والقدرة على الاختراق (٣٠) والاستمرارية . ومما يؤكد هذه الاستمرارية لشخصية أبي نواس أنه لا يزال مدار حديث العامة اليه تنسب نوادر وأعمالا وخرافات كثيرة ، منها ما قام به وكان فعلا من صفاته . ومنها ما لم . وقد شرحنا سر ذلك في باب سابق من أبواب هذه الكتاب . أما استمرارية شعر فهذا ما لا يختلف عليه اثنان نظرا لسهولته وعفويته وسخريته الناعمة ، ولأنه يصور الجانب الضاحك الغني من جوانب تلك الحضارة التي بناها العربي يوما حين انفتح على العالم وعرف حقيقة نفسه وقيمه

---

(٣٠) فؤاد رفقة : الشعر والقصيدة ص ١١٢ مجلة مواقف العدد ٣٥ .

وتراثه ..

وهؤلاء هم شعراء الموشحات على ضعفهم في الابداع والخلق أليسوا ثمرة من ثمار النواسي عندما يقفون كل فنونهم وأشواقهم على الخمرة والطبيعة وما اليهما ؟..

أبو نواس والخيام :

وهذا هو الخيام ؟ أليس تلميذا فاق أستاذه ؟ بما أضافه في خمرياته من تأمل وفلسفة في الكون والكائن والمصير . كان المنطلق واحدا : التجربة والمعاناة والثقافة ... لكن شطحات الخيام في عوالم الوجود وأسرار الكون ومعنى الحياة كانت أبرع وأعمق . وقف النواسي عند الخمرة المادية ولم يتجاوزها الا قليلا كما وقف عند الطبيعة الخضراء المحيطة ببغداد .. أما عمر الخيام فقد تجاوز كل ذلك حتى شارف الفلسفة . لقد كان كما ينعته أحد المستشرقين الايرانيين المعاصرين (٣١) « الروح التائهة في سر الوجود »

(٣١) الدكتور محمد محمدي رئيس قسم اللغة الفارسية وادابها في الجامعة اللبنانية في الستينات في كتابه : الادب الفارسي ص ٢٤٣ منشورات قسم اللغة =

وجعله الشهرزوري « تالي ابن سينا » والقفطي « الفرد الوحيد في الحكمة والنجوم دون ريــب »

= الفارسية وادابها في الجامعة اللبنانية ــ بيروت ١٩٦٧)
ولد عمر الخيام في نيسابور من اعمال خراسان في الشطر الثاني من القرن الحادي عشر ، وتوفي قبل انتهاء الربع الاول من القرن الثاني عشر (٥١٧هـ) . عاش في عهد نظام الملك السلجوقي . ومن رفاق دراسته الحسن بن الصباح صاحب قلعة الموت وزعيم طائفــة الاسماعيلية ومثير الرعب في قلــوب الصليبيين بواسطــة رجالــه (الحشاشين) كان عمر محبا للعلم منصرفا اليه بكليته. وضع التقويم السنوي للملك شاه وكان من الدقة بحيث شهد له المؤرخ الانكليزي جيبون في كتابه « هبوط الدولة الرومانية » له تاليف كثيرة في علم الفلك والجبر . اما لقبه الخيام فلانه كان اول أمره يصنع الخيام لفقره ، وقبل ان ينقذه الوزير نظام الملك من ذلك الفقر تقديرا لعلمه . يقال ان طائفة الصوفية كانت اشد الناس كرها للخيام لانه عرض في شعره باعتقاداتها .. مصرحا ان طريقة التصوف لا توصل الى الله ولا تكشف ســدول الغيب عن نور الحق .. بل ان الانتشاء بالخمرة هــو الذي يفعل ذلــك والكاس هــي المفتاح الاوحد لباب الغيب .. والنبراس الفريد لاجتلاء اسرار الوحدانية.. وقد استعار كبيراشعراء الفرس حافظ الشيرازي وجلال الدين الرومي كثيرا من معانيه وصباه في قالب صوفي يبدو انه أحب الى نفوس الشعب الفارسي لان مــن خصائص هذا الشعب او هذه الامة انها : سريعــة الشك سريعة الايمان ــ مولعة بالملاذ الحسية ولوعهــا بالملاذ الروحية وتحب ان تحيا اللذتين .. الا انها الى الثانية اقرب لذا انصرفوا بعض الشيء عن الخيام حين جاهر بلذته المادية .. انظر : رباعيات الخيام ترجمة محمد السباعي ص ١٤ .

ويراه البيهقي « متمكنا في جميع فروع الحكمة والرياضيات والمعقولات » . أما الزمخشري فيسميه « حكيم الدنيا ، وفيلسوف العالم » . فهو يختلف عن أبي نواس بأنه كان « أعقل » وأكثر اتزانا وحكمة .. أبو نواس ملتهب العاطفة لما يراه سعادة ولذة .. والخيام منزو مدبر عن الدنيا وترهاتها ولعل العصر هو الذي أثر في الخيام سلبا وفي النواسي ايجابا .. الخيام في القرن الخامس الهجري حيث سطوة رجال الدين المغلقين .. حيث يؤخذ الانسان على الظنة ويقتل فيه أمثال السهروردي وتحرم الفلسفة .. والنواسي في القرن الثاني للهجرة حيث نمت الفلسفة ونقلت جميع العلوم تقريبا وازدهرت المعتزلة حين حماها ثلاثة خلفاء على رأسهم المأمون .. ومعنى هذا رواج حرية الفكر والعمل والقول .. الأمر الذي استغله أبو نواس أحسن استغلال وعبر عنه أفضل تعبير . أما عصر الخيام فهو من أسوأ العصور الاسلامية .. انحطاطا وتحجيرا على الفكر والجسم والروح .. ويا لحسرة عالم كالخيام .. ويا لقلقه وشكه .. يرى عالما مقلوبا تسود فيه شريعة الغاب ويتحكم به رجال دين ذئاب في شراستهم كلاب في دنسهم ونباحهم

الدائم في وجه كل فكر نير متحرر ·· لكن أيشك الخيام هكذا بسهولـة ·· وهـو العالـم الرياضي والفلكي والمتدين الفيلسوف الذي يرى في كل يوم دليلا على وجود الصانع وفي كـل جرم وكوكـب ومخلوق رمزا اليه ودليلا عليه ·· في حين يصطدم كل يوم بما يناقض الاسلام من المسلمين أنفسهم·· وما يدفع الى التساؤل ·· فالحيرة ·· فالشك فالكفر أو ما يشبه الكفر ·· وهنا تكمن الفاجعة وتكون مأساة المفكرين ·· فيطغى عليهم شعور قاتل بالقهر الكوني والعدمية وتنفجر الذات بألف سـؤال ·· وألف شك ·· وتكون الرباعيات : نشيدا أزليـا للعبة الحياة والموت ·· ثم الموت والحياة ·· ويظل السر سرا والحجاب صفيقا ··

ويجد الخيام الحل في :

الخمرة ، والتأمل ، ومناغاة المجهول ·· وتحت دالية الكرمة يرسل نشيد الاناشيد ·· أو يغمغم به لنفسه ·· واقفا في عقيدته على حافتي البرزخ بين شك ويقين ·· وحتى عقيدته ليست موروثة ولا هي كغيرها من المسلمات انها عقيدة ايمانية خاصة صادرة عن يقين خالص كوّنه فكره ونسجته روحه

فنعت بالكفر لأنهم لم يفهموه ولا هو كان قـادرا على شرحه لهم ‥ فراح يغنيه ‥ لنفسه ثم لمن يفهم منهم ‥ في وعاء من حكمة انسانية بعيـدة الغور ، وفي اطار من شعر خمري يبدو فيه الخيام ، كأبي نـواس ، شاعرا خمريـا يعـاقر الخمرة للذتها الحسية ولأنها رمز لجميع لذائذ الدنيا ‥ يصفها ويستغرق في وصفها ‥

غير ان الواقع ان خمرة الخيام هي غير خمرة النواسي نوعا ورمزا ‥ خمرة الخيام رمز للذة في المطلق : حسية كانت أو روحية ، وهي شعار للتمتع بالحياة : ان الأحياء سيموتون لا محالة ، والذين ماتوا لا شك في أنهم لن يعودوا ، فيجـب ألا نضيع فرصة العمر هباء ، وهذه الفرصة تتمثل عند أبي نواس بالخمرة وتوابعها فقط ‥ أمـا عند الخيام فتتمثل بتنفس الاشجار وصحبة الحبيب ونغمة الناي و ‥ احتساء الخمرة ‥

وأبو نواس لا نجده الا في خمرياته بكامل حسه ووجدانه ‥ أما الخيام فنجده خارج الرباعيـات

الخمرية (٣٢) ونجد الخمرة الحسية عنده طريقا للنشوة الأولى ·· والنشوة الأولى طريقا للنشوة الكبرى ·· وبكلتيهما يشارف النشوان قمة الألوهية ويفك اللغز ·· أو يكاد ··

« الوقت وقت السحر ، ألا فقم يا جوهر الدلال »
ورويدا رويدا عاطني الخمرة ، واعزف على الصنج
فهؤلاء الموجودون لن يبقوا طويلا
وأولائك الذين مضوا لن يعودوا ثانية

نجد الخيام خارج هذه الرباعية الخمرية · نجده حقا في رباعياته التأملية الحائرة :

هناك خفقات قلبه ورعشات أحاسيسه وذوبانه في اللغز المرصود :

عقله الرياضي لا يقبل مقولات فرضية ،

---

(٣٢) لم يهتد الباحثون بعد الى رباعيات الخيام الحقيقية . فهناك احدى وثلاثون رباعية في « نزهة المجالس » في خمس منها فقط ذكر للخمرة . وفي رباعيات « مؤنس الاحرار » الثلاث عشرة خمس خمرية كذلك وفي «مرصاد العباد ، وتاريخ كزيدة ، والجويني ، وتاريخ وصاف لا حديث اطلاقا عن الخمرة . الادب الفارسي د. محمد محمدي ص ٢٥٦ الجامعة اللبنانية ١٩٦٧ بيروت — لبنان .

وفلسفات غيبيّة ، وحلولا ناقصة أو غامضة لهذا الكون ·· فيروح يهذي ويغمغم بأفكاره المعتملة في رأسه ·· وينتابه دوار شديد في جمل قصار ·· سماها الناس رباعيات وما هي بالرباعيات (٣٣) ··

انها نجاوى روح معذبة ، وغمغمات دوار يلف الفكر ·· يدور بصاحبه ·· ويدور ·· ويدور ·· ودائما ينهض من دائرة ليقع في دائرة وليس له أن يجد قرارا ولا مستقرا ··

في هذا الانتقال المتواصل والتوتر الدائم تظهر صورة عالم لم يعد يؤمن بشيء :

لا مقولات الحكماء ولا رؤى الانبياء تروي ظمأه الساغب ··

ولا معتقدات الانسانية على امتدادها تشبع نهمه اللاهب (٣٤) ··

انه باحث عنيد عن الحقيقة لا يجد عند هؤلاء ضوءا يقود اليها ولا حتى بصيص نور ··· فيضطر

---

(٣٣) المصدر نفسه ص ٢٥٧ .
(٣٤) المصدر نفسه ص ٢٥٨ .

الى القول :

هذا الدور الذي فيه مجيئنا وذهابنا
لا بداية تبدو له ولا نهاية
لا أحد يتحدث بالصدق عن هذا المعنى :
من أين هذا المجيء ، والى أين الذهاب (٣٥)

ومع ذلك فان أمم الارض جميعا رغم اختلاف مذاهبها وأديانها متفقة في هذا الامر الغامض المجهول وتظن أنها تعلم من أين والى أين ٠٠ ميثولوجيا الروم واليونان ، أساطير الهنود والصينيين ، خرافات المصريين والكلدانيين وملاحم الفينيقيين ٠٠ كلها نماذج لظنون البشر في سر الخليقة وكلها نتاج حدوس بدائية أصبحت لتكرارها كالمسائل الرياضية لا تقبل الجدل في معادلاتها ٠٠ لذا لم يكن لأحد أن يشك فيها ٠٠ وكل من يجرؤ على الشك كافر جسور وملحد يستحق القتل ٠٠

ان عقل الخيام لا يستطيع أن يقبل بهذا العالم الغامض والمحدود والحقير ، لأنه يراه أثرا حتميا لوجود الفيض الالهي ٠٠ لوجود الاله نفسه ٠٠

---

(٣٥) المصدر نفسه ص ٢٥٨ .

ما دام هذا العالم لا ينفك عن ذاته ...
لا طريق لأحد في ستر الأسرار
لا روح انسان مطلعة على تلك التعبئة ..
لا منزل لأحد في غير قلب التراب
واها على أن هذه الأساطير ليست قصيرة ...

ويبقى الكيان مقهورا بالرغم من عقلانية صاحبه، ويبقى الخيام أسير اللعبة .. مقهورا عاجزا عن ادراك الحقيقة .. لكن عقله يرفض التسليم بكل تلك الفرضيات والمسلمات ولا يراها مقنعة .. فيستغرق في نشيج جنائزي حزين ...

فأين أبو نواس من كل هذا ؟!... أين لعب أبي نواس وعبثه ورفضه .. من جدية الخيام وهتافه وتأمله وانسحاقه ؟!

واذا كانت الخمرة والخمرية عند النواسي هما كل حياته وشبابه .. فان الخمرة والخمرية هما بعض رموز الخيام وبعض محطاته .. بهما يختصر العمر .. وينتهب اللذة .. وبهما يلهو عن اللغز .. أو يلهو به اللغز .. الخيام استطاع في مسيرته نحو الحب الأنقى ـ وهي مسيرة انسانية وطبيعية ـ

أن يتجاوز المحطات الثابتة والدوائر المغلقة التي يتمحور فيها الحب الأدنى .. وتمارس فيها اللذة الحسية ... وكذلك فعلت رابعة العدوية حين تجاوزت المحطات الدنيا من غانية تبيع الهوى والخمرة في حانة ليلية الى ساقية من « كوثر الألوهة (٣٦) » .

---

(٣٦) على حد تعبير نزار قباني في ديوانه : عن الشعر والجنس والثورة ص ٦١ .

الفصل الرابع
الشعوبية : لمحة خاطفة ورأي جديد

اذا نظرنا نظرة سلفية ـ أي عاطفية ـ وتقليدية الى الشعوبية قلنا أنها حركة عنصرية قامت لتقويض دعائم العروبة والاسلام من شعوب غير عربية .ما أسلمت الا لتكيد للعرب ولدينهم ، ولتشوه قيمهم وتراثهم وتفكك مجتمعهم وصولا الى التحكم بهم وبالتالي حكمهم ·· ولتحل الحضارة الاجنبية مكان حضارتهم وتحيي دياناتها ومذاهبها الوثنية القديمة على حساب الدين الاسلامي ···

هذا الكلام تجاوزه الزمن ·· ولم يعد مقبولا تبني مثل هذه الآراء والنظريات أو التسليم بها · بمثل هذه المجانية في الحكم ·

ان كل مـن تحلى بالفهـم الموضوعي للتاريخ الاسلامي وكل من تجرد عن الهوى والغرض ، يرى ان الشعوبية حركة كان من الطبيعي جدا أن تنشأ ثم تتعاظم بين المسلمين المؤلفين من شعوب كثيرة أبرزها الشعوب (١) الفارسية أو الأمة الفارسية ، بدأت أول الامر في صدر الاسلام وبخاصة أيـام الأمويين الذين ميزوا بين العربي والمولى في كـل شيء ·· مع أن النبي نهى عن ذلـك في أقوالـه وممارساته · فمن أقواله : « سلمان منا آل البيت » و « لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى » ومؤذن الرسول كان عبدا حبشيا · وتكاد تجارة الرقيق

---

(١) في القاعدة الصرفية القديمة ينسب الى المفرد لا الى الجمع فنقول : شعبيا وليس شعوبيا الا اذا خيف الالتباس في المعنى : فالقول شعبي يحمل معنى اجتماعيا معينا بعيدا جدا عن معنى شعوبي. ولعل هذا هو مبرر الخروج على القاعدة هنا .. والا فالنسبة الـى المفرد هـو القاعدة : طالب : طالبي (لا طلابي) وحاكم : حاكمي لا حكامي . واليوم في اللغة المتداولة ولغة الصحافة ينسبون الى الجمع اكثر مما ينسبون الى المفرد (او المثنى) فيقولون : صحفي بدل صحافي ، وعقائدي بدل عقيدي ، وجنائني بدل جنيني ، وكتبي بدل كتابي وطلابي بدل طالبي . وانا أرى انه يجب الا نجمد على القاعدة قديمة كانت او حديثة . مجرد كلمة قاعد وقاعدة فيها ثقل وجمود !. الا اذا كانت قاعدة انطلاق صاروخي .. او قاعدة تعصم عن الخطأ فعلا .. المؤلف

أو استخدامه يختفيان ان لم نقل يحرمان أيام النبي . والرقيق من الموالي والشعوب الاجنبية الداخلة في الاسلام .

ويبدو أن اتساع الفتوح أيام الأمويين وتدفق الأموال الى خزائن خلفائهم جعل العنصر العربي الحاكم يزهو بأشياء المجد الجديد مضافا الى المجد القديم : فالنبي منه ، والرسالة قامت على أكتاف مهاجريه وأنصاره ، وهو ناشرها عبر الفتوح ، وهذه الفتوح هو محققها .. فما شأن هذا المسلم الدخيل ؟ هل يكفي أن يكون مسلما لكي يساويه في الدرجة والامتياز .. (مع أن النبي ساواه) ؟!

لا .. لن يكون هذا . وازدهى الأموي بمجديه، وشعر أنه الأولى والاجدر فميز وفرق بين مسلم عربي ومسلم غير عربي ...

وهكذا تولد شعور عفوي بالغبن لدى الآخرين لا سيما لدى الفرس الذين كانوا أشد شعورا بالغبن لأنهم الاكثر تضحية في سبيل انتشار الاسلام وأكثر

ايمانا وتعلقا بالدين الجديد (٢) ٠

واستمر هذا الشعور بعد الثورة العباسية مع ان الفرس كانوا قوام الثورة ووقودها ٠ فالشعور القومي عند العباسيين ظل ـ ولو خفيفا ـ يخالجهم ويجعلهم يحسون بالتفوق والامتياز وان حقهم في الخلافة والحكم يجب ألا ينازعهم فيه منازع حتى انقلب شعورا فئويا حين اقصوا عن الخلافة أبناء عمهم العلويين ونكلوا بهم ٠ فمن باب أولى أن يقصوا شيئا فشيئا أنصارهم من الفرس مع أن هؤلاء ساعدوا وضحوا لايمانهم الاسلامي الخالص ولأن شعورهم بعنصريتهم القديمة كان قد زال أيام النبي حين ساوى بينهم وبين العرب وجعل التفاضل بالتقوى لا بالجنس ٠ فلم يعد لديهم ذلك الحنين الجارف نحو دياناتهم الوثنية الغابرة ٠٠ لكن الحس الحضاري ظل ملازما لهم (أي الفرس) والتفوق فيه على العرب كان هو الدافع الوحيد

(٢) وهناك من يقول ان الفرس ما حملوا لواء الشعوبية الا حنينا الى دياناتهم القديمة وحبا باحيائها ومودتها . هذا القول يدحضه باسهاب الدكتور احمد لواساني في كتابه : نظرات جديدة في تاريخ الادب ص ٢٥٧ و ٢٥٨ و ٢٥٩ وما بعدها .

لاشتراك بعضهم في حركة الشعوبية ··· وسواء كانت الشعوبية من وضعهم وتصميمهم (٣) أم لا ، فالثابت أن أكثر حركات التمرد والانقضاض على الدولة العباسية كانت منهم ، أو على الاقل كانت ديارهم ملجأ للثائرين عليها ثم ان الحركة العلوية الشيعية كانوا هم حماتها والداخلين فيها ·· هذا صحيح ، ولكن الأصح أن غايتهم لم تكن شعوبية عنصرية دينية أي انقلابا كاملا على الدولة العباسية كدولة عربية وحربا على الدين الجديد بدليل أنهم اكتفوا بالدعوة الى « التسوية » أي الى المساواة والعدل بينهم وبين العرب فقط ·· وما فكروا يوما بالتوصل الى الخلافة أو العودة الى وثنياتهم القديمة وحين قدروا على خلع الخلفاء لم يجلسوا مكانهم بل أجلسوا عربيا مكان عربي ·· لأنهم كانوا يؤمنون بأن هذا المنصب الرفيع هو لخلفاء النبي من العرب ومن قريش ، وهو حق لهم لسابقتهم في الاسلام ولأن الاسلام انبثق منهم ومن جزيرتهم ·

وصحيح أيضا أنهم استمروا في اضعاف الدولة

---

(٣) انظر كتاب : نظرات جديدة في تاريخ الادب د. احمد الواساني ص ٢٥٠ وما بعدها . الجامعة اللبنانية بيروت ١٩٧١ .

العباسيــة وتقويض أركانهــا لكــن لا ليهدمــوا الاسلام (٤) بل ليقضوا على الفســاد والانحراف وليعيدوا الحق الى أصحابه من العرب فكانوا شيعة لعلي أشد حماسا من شيعته العرب في الكوفة والمدينة وغيرها .. (وهم لا يزالوان هكذا الى الآن) ... فالغاية ـ اذن ـ هي دائما : نشر ثقافتهم وحضارتهم في الكيان العربي لا أكثر ، بعد أن نقوها مــن شوائب الزراداشتية والمانوية والمزدكية . فكانت الرافد الاول والاكبر لنهر الحضارة العربية الذي كان جافا قبل الاسلام وصبت فيه ـ بعده ـ روافد كبرى من علوم وفلسفات يونــان وروما ن وهند وصين ..

فهل يعد هــذا التوغل الحضاري والسعي اليه شعوبية عنصرية ؟ ومتى كان تفاعل الحضــارات

---

(٤) كما يقول الدكتور عبد العزيز الــدوري : « واذا كان العرب قد نظموا الثورات لدوافع خاصــة بهم ، فان للموالي دوافعهم الخاصة ، وقد تلونت مشاركتهم احيانا بتذكر الامجاد الماضية ، او باحياء الاراء الدينية الايرانية القديمة .. » انظر كتابه : الجذور التاريخية للشعوبية ص ١٠ وما بعدها . دار الطليعة ـ بيروت ١٩٦٢ .

والدعوة اليها شعوبيـــة ؟! (٥) ومـــاذا نقول في الفتوحات الاسلامية في الشرق والغرب : هل نسميها غزوا أو استعمارا بلغة اليوم ، وشعوبية بلغـــة الأمس ؟ أم نسميها نشرا لرسالة سماوية فيهـــا خلاص الانسان ، ونداء الى تفاعل حضاري جديد ؟!

شعوبية أبي نواس :

أبو نواس ــ كما رأينا ــ من أصل عربي يماني لا شك فيه لكن أمه أهوازية ، وكان متشيعا أو شيعيا ــ كما سنرى ــ فهل المناخ والمزاج مهيئان لتقبل مذهبه الجديد في الحياة أم لا ؟

لم يفعل أبو نواس شيئا في هـــذا المجال سوى ارضاء حسه الحضاري وارواء ذائقته الفنيـــة : فالحس والذائقة عملت على صقلهما وارهافهمـــا

---

(٥) للتوسع في فهم الشعوبية فهما جديدا منصفا انظـــر كتاب : نظرات جديدة في تاريخ الادب د. احمد لواساني فصل : الشعوبية ، هل هي حركة مفتعلة في الاســـلام (ص ٢٣٥ ــ ٣٦٦) مع التذكير بأن ثـــورة المقنـــع (١٥٩هـ) وثورة بابك الخرمي (٢٠١هـ) وســـواهما ما هي الا انتفاضات محدودة لدفع ضيم اجتماعي او ظلـــم اقتصادي ــ زراعي لا اكثر .. شانهما في ذلك شان المنتفضين من العرب انفسهم ..

عوامل الثقافة الجديدة ومعطيات الحضارات الوافدة لا سيما الحضارة الفارسية التي من أهم معطياتها ترسيخ الحياة المدينية La vie urbaine وبالتالي اذكاء الروح المديني ـ اذا صح التعبير ـ فيصبح « ابن المدينة » حقا ، ذلك الانسان المجبول على كره « الريف » أو على الاقل النفور منه ومن عاداته وتقاليده ونمط العيش فيه • وأبو نواس نشأة ومزاجا وثقافة ابن مدينة هي بغداد أخذت من الحضارة الفارسية كل مظاهرها ورموزها : فعلى صعيد الدين وكثرة الفرق فيه :

ـ الشك والتأويل وحرية الممارسة في طقوسه •• والتحرر في فهم نصوصه •• وعلى صعيد المجتمع والعادات : صراع شديد بين القديم والجديد في المأكل والملبس والمشرب والمعاشرة ونوع الحب مع ميل ملحوظ الى الاقتداء بكل وافد والغرف من كل رافد ••

وعلى صعيد الأدب : لوحظ اتجاه جديد فيه هو : التحرر من التقعر والشعور العارم بالتمرد على نقاد الشعر المتشددين الذين أرادوا أن يخضعوا الأدباء والشعراء الى مقاييسهم القديمة، كالأصمعي

والخليل وأبي عمرو بن العلاء ..

مما أفرز شعراء حرروا الشعر من موضوعاته القديمة البالية كالغزل المصطنع في المطالع وكالبكاء على الأطلال،فأنزلوا الشعر من آفاق الكذب والرياء الى دنيا الواقع المعاش كما فعل بشار .. أما أبو نواس المدفوع دائما بحسه الحضاري وروحه المدينية فقد وجد خير ما يفتتح به معركته ضد أولئك الجامدين : استهلال قصائده بالوقوف على الخمرة .. لا على أطلال الأحبة .. ثم ان الخمرة معطى حضاري عالمي ... وشربها والتغني بها تصرف حضاري ـ في حسه ـ لا ريب فيه .. والدين على أيامه في أكثر فرقه وتخريجات معظم أصحابها تقول بالعفو والارجاء وعدم التكفير .. أما المتشددون من أمثال المعتزلة والحنابلة والشيعة فلم يعودوا يشكلون ـ في نظره ـ عائقا كبيرا ما دام يرى بأم عينيه الرشيد والأمين والمأمون يشربون الخمرة ويقربون شاربيها وواصفيها ويغضون النظر عما يجري في حانات بغداد من موبقات بسببها وفي الأديرة من تخمير لها وتخزين ومتاجرة وما بين كل ذلك من فسوق وفجور وانحراف .. ولهو ومجون .. الخمرة اذن فارسية كسروية ورمز

ساطع للحياة الحضرية والحضارية الجـديدة ..
فأبو نواس عاشق لها ومتعبد في محرابها .. فاذا
كان هــذا شعوبيــة فهو شعوبــي وليشرب أعداء
الحضارة الماء الآسن ..

واذا صودف أن محاربيه من العرب، فهؤلاء لم
يعودوا ـ في عصره ـ عرباً بل أعرابا بدوا،وليشن
عليهم حربا لا هوادة فيها .. لا لأنهم مجرد عرب ،
وهو العربي في الأساس ، بـل لأنهم عرب يحيون
بأجسادهم في المدينة بينما أرواحهم لا تزال عالقـة
بحب كـل بيدائي بـدائي .. ومشاعرهم ونمط
تفكيرهم وطراز عيشهم لا تزال هناك في الصحراء
تقلد ساكنيها وشعراءهـا وتغترف مـن بحورهم
الرملية والشعريةفلا تأخذ الا القذى..والسراب .

وكلما أصر هؤلاء في جمودهم أصر هـو على
تحديهم .. ومن التخصيص الى التعميم فاذا كـل
العرب في واد غير ذي زرع أو حضارة .. واذا هو
ـ تلقائيا ـ في الجانب الحضاري .. يعني الفارسي
في الجانب المادي اللذيـذ الضاحـك .. فاذا عد
هذا شعوبية فان أبا نواس أكبر شعوبي في العالمين
العربي والاسلامي !!

من هنا كانت شعوبيته ·· لا لأنه صاحب « دعوة » سياسية أو عنصرية تسعى ـ فيما تسعى اليه ـ لتقويض دعائم الاسلام والعروبة ·· ولا لأنه شاعر جماعة سرية أو علنية ينطق باسمها ويعلن مبادئها عن طريق الخمرة والاستهتار بالدين ·· ولا لأنه يقيم وزنا للحياة الجادة فيتأمل في نظام الحكم العباسي الفاسد فيفكر في تقويضه والدعوة الى نظام بديل ·· لا شيء من هذا يهمه على الاطلاق ·· كل ما يهمه أن يحيا حياته الخاصة ·· وأن « يلبط » بقدميه كل ما يعترض سبيل هذه الحياة أو يحد من سيلها المتدفق في وديان الحرية ، والمتعة ، وسهول العيش وسهولته ··

وسواء نقم العرب أو الأعراب عليه أم رضوا ·· وسواء رضي عنه الفرس أم لم يرضوا فهو لا يعمل لهم ولا يعمل ضدهم ·· انه يعمل لنفسه ·· يخدم حسه ، يملأ وجدانه ·· يختلس الفرصة ·· يختصر الحياة بكأس ·· ولا يدعها تطول ·· بيأس ·· ومن بعده الطوفان ··

كان أبو نواس ينادم الخلفاء العرب الاقحاح ويعاشر عصبة المجان وهم خليط من فرس وروم

وأحابيش ·· فمن يوفر له الخمرة والحرية فهو صديقه وداعيته ومن لم ·· فهو عدوه وهاجيه عربيا كان هذا وذاك أم أعجميا ··

ثم ما ذنبه ان كان يهوى الجانب الضاحك المستهتر من الحياة وهو يرى كل يوم ما يبرر سلوكه من المتشددين أنفسهم الذين يشربون الخمرة سرا وينهون عنها علنا ·· ذنبهم مزدوج ·· أما ذنبه هو فواحد ··

ذنبه أنه ابن العصر بكل حسناته ومساوئه ·· لم يعرف كيف يداهن أو يكذب أو يكون جديا ·· والحياة نفسها لم تنصفه ·· بل قست عليه ·· فقسا عليها وتنكر لمفاهيمها ·· واحتقرها وأعلن تفاهتها ورفع الكأس في وجهها ·· ثم قذفها فارغة في رحم التفاهة والجدية والعبوس ··

والمؤسف أن الذين تصدوا له كانوا عربا محافظين أو مسلمين غير عرب يجارون العرب ويتخلقون بأخلاقهم ·· فهاجمهم جميعا ·· والذين أحبهم وعاش في جوهم ودعا الى محاكاتهم كانوا فرسا ومدينيين ·· وكانوا مثله يحملون جرثومة الرفض

ويحلمون بالحياة الجديـدة •• وباللذة الجديـدة خارج نطاق الدين وسيطرة رجاله من المتزمتين •• فتعلقوا جميعا بكل فارسي جديد ، ودعوا اليه ملء أفواههم •

فاذا عين لنا أبو نواس مواقع الكرمة وابنتها الخمرة وقال ان :

مسارحها الغربي مـن نهـر صرصر
فقطربـل فـالصـالحية فالصفـر

تراث أنو شروان كسرى ولـم تكن
مواريث ما أبقـت تميم ولا بكـر

قصدت بهـا ليـلا وليل ابن مـرة
لـه حسـب زاك وليس لـه وفـر

يكون شعوبيا خطيرا وخصما كبيرا من خصـوم العروبة والاسلام ؟! حقا اننا نحمل أبا نواس أكثر مما يطيق •• ولو كان ذلك كذلـك لجرفـه تيار محاربة الشعوبية الذي تجسد في نكبة البرامكـة ومن قبله ابن المقفع •• ولقتل ولما نفعت فيـه شفاعة الأمين وغير الأمين •• الواقع أنه لم يكن يشكل في نظر الخلفاء ولا في نظر رجال الديـن

رجلا خطيرا أو شعوبيا له شأنه ووزنه ·· بل على العكس تماما كانوا ينظرون اليه باعتباره ذا شخصية محببة ، ماجنة ، لطيفة ، تؤنسهم أشعاره ويطربون لخمرياته،ولا يرون في صراحته ومجونه وشذوذه أي خطر ··

والمخجل أنهم كانوا يفهمونه أكثر منا ·· أكثر من بعض الاخلاقيين فينا ·· اما لأن حسهم الفني كان أرهف ·· أو أن تسامحهم الديني كان أوسع ! مصيبتنا اليوم أن بعض النقاد الأخلاقيين لا يزالون يدسون أنوفهم في ما لا يعنيهم ويزنون الآثار الأدبية بموازينهم البالية ·· فيغيب التراث في مجاهل نقدهم وتنطمس معالم الروعة فيه ··وعلى الأقل ·· معالم الافادة منه ·· هذا التراث الضخم آن له أن يتحرر ·· أن يتوهج على أيدي نقاد مثقفين فنيين منصفين ·

وكما هز أبو نواس برودة الحياة وتقاليدها الجامدة فكان شاعرا ·· هكذا يفعل الشاعر الحديث حين يحس في أعماقه « انهيار المفهومات السابقة (٦) » ·

---

(٦) الشعر العربي ومشكلات التجديد . د. ادونيس ص ٤٦ من كتابه : زمن الشعر ط. ثانية .

وحين سخر أبو نواس في شعره عامة وخمرياته خاصة من عقلية الشعراء الجاهليين ومن يقلدهم ، ودعا الى الثورة عليهم وتخطيهم ·· كان مجددا ذا رؤيا صافية واحساس حضاري بالواقع الجديد المعاش ·· ولم يكن شعوبيا ولم ينعته بها ناقد قديم أو حديث منصف

كان صوته اذن أبرز الأصوات لجماعة الشطار أو شعراء الطليعة على صعيد الدعوة الى التجديد لكن عن طريق الخمرة ·· ونحن تهمنا الغاية والروح ·· ولا تهمنا الوسيلة ·· ولهذا فنحن نشعر بقوة حضوره بيننا ·· لا لأنه داعية خمرة واستهتار ·· ومجون ·· بل لأن له صوتا مميزا وروحا صافية تحمل كل مقومات الجرأة والصدق · نسمعه ولا نمل سماعه حين يقول :

عاج الشقي على دار يسائلها
وعجت أسأل عن خمارة البلد
لا يرقىء الله عيني من بكا حجرا
ولا شفا وجد من يصبو الى وتد
قالوا ذكرت ديار الحي من أسد
لا در درك قل لي من بنو أسد

ومن تميــم ، ومــن قيس واخوتهم
ليس الأعاريب عند الله من أحــد

هنا لا تأخذنا العزة في القومية أمام هذا الهجوم الصريح بقدر ما تأخذنا الشفقة على أمثال أولائك الشعراء الذين وقفوا يرثون الوتد أو الحجر ويبكون الأحبة ·· وأحيانا لا حجر ولا أحبة ·· كما نشعر بالاحتقار للشعراء المقلدين الذين يعيشون مع أبي نواس في العصر الحضاري الضاحك نفسه ، لكن أرواحهم لا تزال تعيش هناك ·· بين الأطلال ·· نعم ·· ليس الأعاريب عند الله من أحد ·· اذا كانوا رمزا لماض مضى وعهد تولى ·· ومــع هذا لا يزال بعضّ الناس (في عصره) يقدسهم ويصر على أن يعيش مثلما كانوا يعيشون ·· ان ما يجب أن يقدس هو الحاضر ·· لا الماضي ·· الحيــاة الراهنة بكل أشيائهــا الجديــدة ·· لا الموت ·· فالماضي شيء مات وانقرض وقامت على أنقاضــه حيوات أخرى ·· ومن السخف والهوان طلب الموت على حساب الحياة ··

وحين لامه الناس كانوا أحد رجلين : رجل معجب بمكانة الشاعر مشفق عليــه أن يصبح من شذاذ

الآفاق ورواد الحوانيت . ورجل متزمت حاقد أو متدين جامد .. لكن جواب أبي نواس كان واحدا أمام الرجلين : يتداوى مـن الخمرة بالخمرة .. ويتشاغل عن سماع اللوم بمعاقرتها .. أو يفلسف ذلك اللوم على أنه اغراء بها :

دع عنك لومي فان اللـوم اغـراء
وداوني بالتي كانـت هـي الـداء

أليست هذه الخمرة تبعدني عن الناس وعـن لؤمهم ؟ : وحسبها فضلا :

دعني مـن النـاس ومـن لؤمهـم
واحس ابنة الكرم مع الحاسي ..

لنحسم الخلاف فان شرحه يطول ولكي نبقـى أصدقاء ليحتفظ كل منا برأيه فيها :

أعاذل مـا علـى مثلـي سبيـل
وعذلـك في المـدامـة يستحيـل
أعـاذل لا تلمنـي في هـواهـا
فـان عتابنـا فيهـا يطـول

كـلانـا يدعـي في الخمر علمـا
فدعني ، لا أقول ، ولا تقول ··

وكثيرا ما ردد هذا المعنى الذي مؤداه أن الصحو في هذه الحياة خسران مبين والسكر ربح كبير :

ــ أديرا علي الكـأس ينقشع الغم
ولا تحبسا كأسي ففـي حبسها اثم

ــ وما الغرم الا أن ترانـي صاحيا
وما الغنـم الا أن يتعتعني السكـر

ويلتفت فيرى في جهة الصالحين والناهين من العرب والأعراب المحافظين المقلدين ·· ويرى في الجهـة المقابلة العرب المستعجمين أو العجم المستعربين ، وكلهم حر وكريم يشربونها ولا يرون حرجا في ذلك ·· فهي اذن شراب الأحرار الكرام لا عبيد الماضـي اللئام وسكان البادية الطغام ··

وهو لا ينسى لحظة أنها شراب الآلهة وأنصاف الآلهة من الأكاسرة والخلفاء والأمراء ·· فلا يجوز أن يشربها الا الأكفاء احتراما لمكانتها في التاريخ !

ـ والخمر قـد يشربهـا معشـر
ليسـوا اذا عدوا بأكفائها ..
ولا البخلاء :
ـ واصرفنهـا عـن بخيـل
دان بـالامسـاك دينـا ..
وها هي تصرخ لأبي نواس بملء فيها قائلة له :
لا تمكنني مـن العربيـد يشربني
ولا اللئيـم الذي ان شمني قطبـا
ولا السفـال الذي لا يستفيق ولا
غر الشباب ، ولا من يجهل الأدبـا
ويستجيب سيدها للنداء بحكم أبوته لها ورعايته لحرمتها فيستثني ـ كما شاءت ـ كل عربيد يهم بها .. وكل لئيم فاقد للحس والذوق يقطب حاجبيه حين يشمها ... مع أن شميمها في حاسة أبي نواس أطيب من شميم عرار نجد .. وكل سافل يشربها بلا نظام فيغيب عنها ولا يحس بوجودها وبوقعها.. وكل شاب لا يزال يافعا يجهل آداب الشراب ويجهل ما للخمرة من بروتوكولات ..

أما الذين يجيدون شربها وتحلو منادمتهم فهم الفرس :

ولفارس الأحـــرار أنفـــس أنفـــس
وفخــارهــم في عشــرة مــذمـــوم

ويسميهم في مكان آخر « بني الاحرار » ان لهم أكرم النفوس وأنبلها ·· لا لشيء الا لأنهم ـ اذا سكروا ـ لا يتفاخرون كالعرب·· بل تراهم يذمون التفاخر والتبجح ·· حتى اذا صادف ونادم عربا أسرعوا الى التباهي بالأمجاد والايام :

واذا أنـــادم عصبـــة عربيـــة
بـــدرت الى ذكـــر الفخـــار تميـــم
وعـــدت الى قيـــس وعـــدت قوسهـــا
سبيت تميم ، وجمعهم مهزوم (٧)

ونمضي في تصفح خمرياته كلها فلا نجد شماتة بالعرب ولا دعوة لتقويض حكمهم ـ كما فعل غيره من الدعاة الشعوبيين ـ كل ما نجده شماتة ساخرة

---

(٧) قيس : بن ثعلبة من بطون بكر بن وائل .. منهم الاعشى ميمون بن قيس ، وربيعة الجحدري فارس بكر يـــوم تحلاق اللمم .. والحارث بن عباد فارس النعامة وطرفة بن العبد . وعدت قوسها : ذكرتها من مفاخرها وهي قوس . حاجب بن زرارة وكان رهنها عند كسرى ووفى بها فذهبت مثلا . وقوله سبيـــت ، دعاء على تميـــم للسخرية لا للتشفي . المؤلف

بأولئك العرب المساكين الذيـن لم يعرفوا كيـف يحيون مثله الحياة البغداديـة الجديدة ٠٠ بـدأ ساخرا بالبدو والشعراء المقلدين ٠٠ ثم عمم مطلقا أحكامه على العرب جميعا وبتعبير أصح العـرب المحافظين الجامدين ٠٠

فكان مجددا ذا روح مرحة وعاشقة لكل جميل ٠٠ حتى اذا فشـل في حب الجمـال البشري ٠٠ استغرق في عشق الجمال الخمري أو جمال الخمرة، والشباب والطبيعة والاقبال على الحياة على صورة اندفاع وتحد وشذوذ غير وقح ٠٠ ولم يكن شعوبيا عنصريا أو سياسيا من قريب أو بعيد ٠٠٠ وحسبه أنه أعطانا ـ في خمرياته ـ شيئا جديدا ـ وفي حياته : انسانا احترق في أتون الحضارة العباسية المادية والحياة الماجنة التي أفرزتها تلك الحضارة لكنه ظل كفنان وكشاعر وكصاحب شخصية فذة من أقرب الشعراء العرب الى القلوب وأقدرهم على الحضور وأشدهـم سيرورة على لسـان الشعوب العربية التي نسجت له صورة شعبية قريبة مـن شخصيات الأساطير (٨) كما ألفوا على لسانه نوادر

---

(٨) شرحنا سر ذلك في ابواب سابقة .

وحكايات ، ونقلوه من عصر الى عصر ، حتى اسمه أصابه ــ حبا وكرها ــ بعض التغيير والتحوير ..
فقالو : أبو النواس وقــالو الفــاسق وأبو علي والنواسي الخ ..

الفصل الخامس

رأي وخلاصة :

وهكذا نجد الخمرة ذات علاقة حميمة بالتجربة الشعرية ، لأن الميل الى السكر كالميل الى الشعر ، يصدر عن شعور بالواقع حيث تسقط معالم الأشياء، وتتموه أضواؤها وتبدو أطيافا وظلالا ..

كثيرون هم المدمنون على الخمرة .. لا طلبا للهو واللذة .. بل طلبا للهروب من الواقع .. بحيث يعيش شاربها مع أطياف من الرؤى والأحلام في عالم ملؤه الضياع والانسحاق والقسوة .. وكلما قسا المجتمع اشتد لصوق المخمور بعالمه .. هؤلاء هم الهاربون من الحقيقة .. أو التفاهة .. أو

الفساد ·· أو هم أولائك الباحثون ــ بواسطتها ــ عن الحقيقة الأخرى : حقيقة هذا الكون وسر هذا الوجود فينتهون الى صوفية مغرقة وتصبح الخمرة الحية رمزا للخمرة الالهية · تماما كما فعل الخيام من بعده وكبار الصوفيين كابن عربي والبسطامي والقشيري وابن الفارض · لكن أبا نواس لم يبلغ هذه القمة وظل على أرض الواقع يحتسي الخمرة الحسية ويعيش حياته القصيرة ، وكانت له مع ابنة الكرمة قصة نسيجها الحب وحبكتها الفشل فشربها وألهها ، بل وضاجعها لتكون بديلا عن جنان وعنان ولتكون وسيلته الوحيدة للهجوم الكاسح على كل قديم ··

لقد جعلته الخمرة يصحو على عالم يريده ويغفو على عالم يرفضه ··

واذا كانت خمرياته قد أغضبت التقليد فقد أرضت التجديد

وهي ان أساءت الى العرف والدين الا أنها أرضت الفن وجعلت منشدها من الخالدين ···

شيعيته :

عد ابن منظور صاحب لسان العرب أبا نواس

شيعيا لكن على تستر وتقية (١)٠وحين لامه بعض أصدقائه على عدم مدحه للامام علي بن موسى الرضا مع أنه مدح من دونه شرفا ومكانة قال : « والله ما تركت ذلك الا اعظاما له ٠٠ وليس قدر مثلي أن يقول في مثله وأنشد :

أنا لا أستطيع مدح امام كان جبريل خادما لأبيه(٢)

ويقول المرزباني فيه : « أما مذهبه فكان شيعيا اماميا حسن العقيدة (٣) » ٠

وقيل : ان المأمون لما جعل علي ابن موسى الرضا ولي عهده ، وأن الشعراء قصدوا المأمون ووصلهم بأموال جمة حين مدحوا الرضا ٠٠ الا أبو نواس فانه لم يقصده ، ولم يمدحه ٠٠ فعاتبه المأمون

---

(١) اخبار ابي نواس لابن منظور .
(٢) يقصد طبعا جده النبي محمد . .
(٣) اما ابن خلكان فيذكر في ترجمة الرضا : « وفيه يقول ابو نواس . . . وذكر الابيات الثلاثة السابقة على البيت الرابع انا لا استطيع . . الخ وهي :
قيل لي انت احسن الناس طرا   في فنون من الكلام النبيه
لك من جيد القريض مديح   يثمر الدر في يدي مجتنيه
فعلام تركت مدح ابن موسى   والخصال التي تجمعن فيه
قلت لا استطيع مدح امام   كان جبريل خادما لابيه

قائلا : يا أبا نواس قد علمت مكان علي ابن موسى الرضا مني ، وما أكرمته به فلماذا ادخرت مدحه وأنت شاعر زمانك وقريع دهرك ؟ فأنشأ يقول : (وأنشد الأبيات الاربعة اياها) .. فوصله المأمون من المال بمثل ما وصل به كافة الشعراء وفضله عليهم ..

وحدث الصوفي قال : سمعت أبا العباس محمد بن يزيد المبرد يقول : خرج أبو نواس ذات يوم من دار ، فبصر براكب قد حاذاه ، فسأل عنه ولم ير وجهه فقيل انه علي بن موسى الرضا، فأنشأ يقول:

اذا أبصرتك العين من بعد غاية
وعارض فيك الشك أثبتك القلب
ولو أن قوما أمموك لقادهم
نسيمك حتى يستدل بك الركب (٤)

ويتحكم به جو الخمرة دائما وتملأ خياله أوصافها فتراه يمزج بين صفة الخمر وصفة المتشيع المؤمن . يقول :

---

(٤) اعيان الشيعة ج٢٤ ص ٥٥ وما بعدها .

ومدامة مـن خمر عانـة قرقـف
صفـراء ذات تلهـب وتشعشـع
رقت كديـن الناصبي وقد صفـت
كصفـا الولـي الخاشع المتشيـع

حتى أفراد العصبة أو العصابة ـ لا فـرق ـ ينتقيهم من الشيعة أو المتشيعين :

باكرتهـا وجعلـت أنشـق ريحهـا
وأمص درتهـا كـدرة مـرضـع
في فتيـة رفضـوا سوى آل الهـدى
وعنوا بـأروع في العلـوم مشفـع
وتيقنوا ان ليس ينفـع في غـد
غير البطين الهـاشمي الأنزع (٥)

وعندي أن من تنطقه الخمرة بالصدق والبراءة، في مديح أو سواه ،ويجيد٠٠خير ، ألف مرة ، ممن ينطقه الماء ٠٠ بالكذب والرياء ٠٠ ولا يجيد ٠٠

ومهما يكن من أمر شيعيته فاننا لا نتوقف كثيرا عندها ٠ أولا لهشاشتها اذ طالما سترها أو تجاوزها الى الفسق والفجور والزندقة ٠ وما أوردنا بعض

---

(٥) البطين الهاشمي الانزع : من صفات الامام علي ٠ .

شعره فيها الا لكشف الجانب الفني منها لأنها جاءت تعكس ـ بصدق ـ عاطفة خالصة اضطره الى كبتها واخفائها عاملان :

ـ خوفه من الاضطهاد الذي لحق بكل من أعلن علويته خاصة أيام السفاح ، وبقي العنف يطارد الثائرين العلويين في كل مكان ، وان خف كثيرا أيام المأمون ٠

ـ انصراف أبي نواس بكليته الى عالم المجون والفسق والخمرة الامر الذي ظل أئمة الشيعة يحاربونه بلا هوادة ، لما عرفوا به من زهد وجدية ومثالية وترفع ٠٠ حتى اذا أتيح لأبي نواس اظهار تلك العاطفة نحوهم تدفقت منه غزيرة حار جياشة ٠٠

شخصيته الشعبية :

لا شك أن الشخصية الأسطورية التي نسجها الخيال العربي الشعبي حول أبي نواس مأخوذة معالمها من شخصيته الحقيقية ٠٠ تلك الشخصية الفريدة المميزة عن غيرها بمميزات شعبية كثيرة أبرزها الذكاء والشاعرية الخصبة ، والمرح والصدق

والصراحة والبراءة ومجابهة الكبار بروح السخرية الضاحكة أو الضحك الساخر ، وبالتحدي غير الخشن ٠٠ مما جعلها مقبولة ومحببة الى قلوب جميع الطبقات الشعبية والرسمية في عصره ٠٠ ثم في العصور كلها حيث نقلها الخيال العربي الشعبي من دنيا الواقع الى عالم الأسطورة فاذا بأبي نواس ينقلب الى مهرج سوقي يضحك الملوك بما يصطنعه من بلاهة وسذاجة أحيانا ٠٠ ومن شاعر كبير الى « منافس لشخصية جحا في كثير من الحكايات التي تبدو مشتركة بين البطلين (٦) » كما تشترك معهما شخصية هارون الرشيد ، تارة متنكرا وتارة متدروشا ، التي تمثل السلطة المطلقة في أغرب أساليب استبدادها وتحكمها ٠٠ بحضور شخصية أخرى ثانوية هي شخصية مسرور السياف الذي ينفذ أوامر الخليفة (٧) ٠٠

---

(٦) دائرة المعارف ج٥ ص ١٨٠ وغزل ابي نواس د. علي شلق . وعن الغزل عامة كتابا الغزل عند العرب لحسان ابي رحاب « والغزل » لسامي الدهان .

(٧) اقدم مظهر لهذه الحكايات الشعبية الحلقة الخامسة والثلاثون من « الف ليلة وليلة » الممتدة على ثلاث ليال (٣٣٨ — ٣٩٠) .. ثم الحلقة الثانية والخمسون الممتدة على ثلاث ليال كذالك (٣٨١ — ٣٨٣) المصدر نفسه ج٥ ص ١٨٠ .

الفنون الشعرية الأخرى عند أبي نواس

١ ـ الغزل (٨) :

قلنا أننا سنكتفي ـ في هذه الدراسة ـ بالخمريات النواسية وذلك لأسباب فنية ونفسية وحضارية ألمحنا اليها ـ سابقا ـ ولهذا كادت دراستنا للخمريات تستغرق الكتاب كله : استعراضا وتحليلا ومقارنة ، ايمانا منا بطريقة التحليل النفسي والفني التي تظهر الشاعر بكامل خصائصه ومميزاته في نتاج واحد تفرد به .. وما عداه من

---

(٨) وهو انواع :
١ ـ الغزل : من غزل يغزل بالمراة : فرح (في جو ابي نواس د. علي شلق ص ٥٤) .
والغزل : من غزل بالنساء يغزل غزلا : حادثهن وراودهن (محيط المحيط ج٢ ص ١٥٣١ مادة غزل) .
٢ ـ التشبيب : من ذكر الشبيبة واصله الارتفاع ، ووضوح المحاسن كما يرى ابن رشيق في العمدة .
والتشبيب : من شبب تشبيبا وصف المراة وعرض بحبا . وقيل التشبيب : ذكر ايام الشباب الخ (محيط المحيط) .
٣ ـ والنسيب : من نسب نسيبا بالمراة : شبب بها في الشعر . وعرض بهواها وحبها على تدله وميوعة (محيط المحيط) .
اما موضوع الغزل فليس دائما الجمال في المراة بل ان من موضوعاته كذلك الجمال المطلق اينما ظهر : في المراة او في الطبيعة او المغريات جميعا .. وفي الله.. المؤلف

نتاج يصبح البحث فيه من نافل القول ·· لا سيما ونحن لا نحب ـ في ما نؤلف ـ أن ننحو نحو الاستعراض والتأريخ ·· فقد أشبع أبو نواس تأريخا واستعراضا لجيمع الأبواب الشعرية التي خاض فيها وكان موفقا حينا وفاشلا أحيانا ·· بل كان كغيره من شعراء عصره مصابا بداء التنافس والمباهاة بأنه شاعر العصر ·· وشاعر العصر يجب أن يمدح ويهجو ويتغزل ويرثي وينقض ويقول في الطرد مهما يكن حظه في ذلك قليلا أو كثيرا ·· ومهما تكن تجربته ومعاناته ··

لقد أشبع أبو نواس من كل هذا وعني المؤرخون والمستشرقون ـ قديما وحديثا ـ بديوانه وشرحه ورد المنحول فيه ·· فماذا نفعل نحن ؟ هل ندخل مع الداخلين في هذا الباب ·· فلا نخرج منه بطائل، ولا نزيد شيئا ولا نكتشف جديدا ؟ أم نركز على باب هو كل الأبواب ·· وهو كل شيء بالنسبة لحقيقة الشاعر ، جمعت فيه كل مزاياه وتألقت فيه عبقريته ·· وتكاملت شخصيته ؟

هذا ما قمنا به فعلا قبل قليل ·· فأطرحنا النوافل ـ على ما فيها من رائع القول وجميل

الشعر ـ واكتفينا بالخمريات وحدها ·· لأن أبا نواس لا يوجد على حقيقته الا فيها ···

على اني أشعر سلفا بأن فضول القراء الأعزاء لن يقبل مني هذا الاكتفاء · لذا أبادرُ الى الحديث عن غزل أبي نواس الذي يأتي في الدرجة الثانية من الابداع ، بعد الخمريات ·

العرب أمة غزل :

لعل أمة لم تهرق من الحبر والدمع والـدم في سبيل الجمال كالأمة العربية · وما تغزلت أمـة بالجميل كما تغزلت هذه الأمة · فقد رافق الحبيب أو خيال الحبيب الفرسان في حروبهم وغزواتهم ··· وما سجل أحدهم بطولة من البطولات الا لأن صوت الحبيب يهيب به ·· وخياله يلهب مشاعره ·· وهذا هو عنترة يود تقبيل السيوف لأن في لمعانها لمعان ثغر الحبيب (٩) :

وودت تقبيل السيـوف لأنهـا
لمعـت كبـارق ثغـرك المتبسـم

(٩) يقال ان لامرتين الشاعر الفرنسي الشهير ما اعجب ببيت من ابيات الشعر الفروسي العربي كما اعجب بهذا البيت
المؤلف

كما يغض طرفه ان بدت له جارته ،تدليلا لعبلة على أخلاقه الرفيعة وجدارته لها :

أغشى فتاة الحي عند حليلها
واذا غشا في الحرب لا أغشاها
وأغض طرفي ان بدت لي جارتي
حتى يواري جارتي مأواها

لتعلم الحبيبة البيضاء ان في السواد شرفا وكرامة كما في البيض وأكثر ..

ولتعلم أنه ليس كامرىء القيس (الملك ابن الملك) الذي يخاطب صاحبته قائلا :

ومثلك حبلى قد طرقت ومرضع
فألهيتها عن ذي تمائم محول ...

وكان الجاهليون يضعون المرأة بموازاة الخمرة: كلاهما مسكر وكلاهما يختصر لذائذ الحياة القاسية فاستهلوا قصائدهم بهما (١٠) ..

---

(١٠) اما لماذا اختصروا ذلك في مطالع قصائدهم فيرى له المستشرق كارل نللينو (تاريخ الاداب العربية ص ١٠٢) اسبابا عدة منها : ان غاية الشعر الرفيع عند الجاهليين كانت تعظيم اكابر القوم وتعداد مآثر القبائل، وهجاء الاعداء ووصف القتال . أما الغزل فلم يكن من مقاصد الشعر التي تقوم بها الفحولة ..

ثم جاء الاسلام وعد هذه العاطفــة طبيعية في البشر ومصدرا لكثير من الخير،فنظمها ولم يلغها لا في الشعر ولا في المجتمع ·· بل ربطها بالزواج · ونظر الى الحب والمحبين العذريين نظرة التقديس والتقدير ·

يروى عن النبي أنه قال : من أحب فعف فسل فَمات ·· مات شهيدا (١١) ··

وحين تصبح التضحية بالنفس في سبيل المحبوب بمستوى الشهادة في نظر عظماء الأمة ينقلب الحب عاطفة ليس فقط مقدسة وعظيمة بل جزءا مــن الألوهة · وركنا من أركان الوجود الانساني ·· ومن المفكرين الغربيين من قال : ان أمة يكثر فيها المحبون الكبار أمة قادرة في صراعها مع الحياة أن تتغلب على الأقدار ·· والاعداء · لأن من يضحي في سبيل الحبيب حتى الشهادة جدير بأن يفعل الشيء نفسه في سبيل حبيب آخر هو الوطن ··· وأروع ما تخلد به هذه العاطفة النبيلة بيت من الشعر ··

(١١) كما يروى عن سبط النبي الحسين بن علي انــه سعى ليزوج ليلى من قيس حين طلب منه اهله ذلك .

لذا كان تخليدها دائما عن طريق الشعر (١٢) ··
أو ما يشبه الشعر فنا وايحاء كالرقص الايقاعي
والنحت والموسيقى والرسم ·· أما النثر فبقدر
قليل ·· بقدر ما يشع الخيال فيه وتشرق الصور
وتصدق التجربة (١٣) ··

ويطول بنا الحديث في هذا المجال لكثرة أنواع
الجمال في الوجود ·· وكثرة عاشقيها والمحترقين في
أتونها ·· أو المتعبدين في هياكلها من كبار الفرسان
والأبطال والقواد والأنبياء والشعراء العالميين ··
بل ان عالمية الشاعر تكمن في اجادة الحديث عن
شؤون القلب وشجونه ·· لا عن قضايا العقل
وجدلياته · ويبدو أن عظماء التاريخ كانوا في
أكثرهم عشاقا عظاما ·· لكنهم لم يكونوا أعظم من
الشاعر العاشق ·· أولائك يجسدون عشقهم أعمالا
كبيرة ومنجزات ضخمة وانتصارات · أما الشاعر

---

(١٢) سواء كان شعرا غنائيا او ملحميا او تمثيليا او
اسطوريا ·.

(١٣) نجد ذلك الغزل حتى في الفصول الدينية كنشيد
الاناشيد ولا يتسع المجال ـ هنا ـ لذكر بعض النماذج
الرائعة منه فنحيلك على التوراة (النسخة العربية) او
الى النسخة الحديثة بقلم انسي الحاج .

فيجسد عملا واحدا يفوق كل تلك الأعمال : انه يجسد الألوهة بالحرف ·· والجمال بشمعاعية هذا الحرف ·· والانسانية بتخليد أجمل ما فيها من قيم ورموز ·· وقديما كان (الله) الكلمة ·· ولم يكن العمل ··

لهـذا كان وراء أو أمام كل عظيم شاعر ·· لشعور هذا العظيم بأن شيئا ما أعظم منه ينقصه ·· ولايمانه بأن أعماله وحدها لا تخلده ·· انها بحاجة الى شاعر يخلدها ·· شاعر عاشق ·· حتى الجمال في الكون والمرأة لا قيمة له حين لا يفهم ولا يقدر ، فاذا ما داعبته أنامل شاعر ملهم وراقصه خيـال عبقري وناجاه قلب متيم خرج من بؤرة الضياع والعدم وعاشت عليه الأجيال وكأنه غذاؤها الوحيد وآمنت بالله من خلاله ···

ولهذا قيل ان أمة تخلو من الشعراء ـ وهذا مستحيل ـ أمة لم تولد بعد ·· فكيف خلوها من الشعراء الكبار ·· وكل شاعر كبير عاشق كبير ·· وبالمقابل فان أمة تنجب شعراء كبارا أمة تملك

ثروة لا تقدر بثمن (١٤) ..

غزل أبي نواس :

نسارع الى دحض الرأي القائل بأن غزل أبي نواس هو أخطر ما عند هذا الشاعر (١٥) .. وأننا اذا أردنا أن « نجد » أبا نواس فلن نجده في مدائحه أو أهاجيه أو طردياته أو .. خمرياته ..

---

(١٤) كان نابليون يقول : « لو عاش كورني في زمني لكنت عينته وزيرا . ونحن نقول له : ان أمجادك العسكرية كلها لا تساوي بيتا واحدا من « ملحمة الدهور » لفكتور هيجو التي خلد فيها امجادك تلك .. ويقول الشاعر الحديث أنسي الحاج : « عند كل زيارة شاعر يتغير العالم قليلا او كثيرا .. »
ويقول شاعر الانثى نزار قباني : « ان يكون الانسان شاعرا في الوطن العربي ليس معجزة . بل المعجزة ان لا يكون » . قصتي مع الشعر ص ١٦ نزار قباني .
ويقول الجاحظ : « ان الشعر هو فضيلة العرب » .
ويقول استاذنا الدكتور علي شلق عن الشعر : « انه اثمن عطاء بشري يعبر عن حضارة من الحضارات اذ ان الحضارة هي مجهود الروح في سبيل البقاء ... » ليس الشعر محصول العقل ، او العاطفة ، او الخيال ، او الموسيقية بخصوصها ، بل هو هذه الاشياء ، ومعها صدى الانسانية في مراحلها الماضية المختلفة وشيء اخر من الغد البعيد ... » غزل ابي نواس د. علي شلق ص ٧ دار بيروت ١٩٥٤ .

(١٥) غزل ابي نواس د. علي شلق ص ٧ .

أو زهدياته •• بل في غزله كما يقول أستاذنا الدكتور علي شلق ، ذلك لأن غزله ليس فقط تغنيا بالجمال ، ومطارحة الجواري أو الغلمان الهوى ، بل ان « في باطنه حياة أمة ، وحقيقة عصر ،وتصوير نفس ممتازة بتعدد أحاسيسها ،وتجاربها العقلية(؟) قالت به ، ما لا يمكن للفلسفة أو العلم أن يقولاه » وحجة الدكتور أن أبا نواس « سُبق بخمريين كثيرين ولكنه لم يسبق بشاعر واحد لامع عني بالجمال المطلق عنايته الملحوظة » ••

أرجو ألا يضيق صدر الدكتور حين أرد رأيه هذا معتمدا على الآتي :

أولا : ان خمريات أبي نواس تستغرق من ديوانه أكثر من نصفه ، والباقي لسائر فنون الشعر •• ومنها الغزل •• وتستغرق الخمرة من حياته كل حياته •• بصرف النظر عن هوامش تلك الحياة •• أراد أبو نواس أن يجد حقيقته مع المرأة فأخفق •• وأراد أن يتلمسها في الخمرة فوجدها •• عشقه للجمال النسائي كان ذا بعد واحد •• أما عشقه للخمرة فكان ذا أبعاد •• تواصلا وعاشا متوحدين بكل اللذة •• وكل الاشتهاء الى درجة تشبه الفناء

الصوفي والحلول ، ولكن هنا على الارض ·· هي توحي وتنفث السحر وهو يغني ··

ثانيا : في الغزل نجد العبقرية النواسية هي التي تتعامل مع الجمال ·· تحرك الجمال ·· تسمو به غير ان الجمال يظل في واد وأبو نواس في واد ·· فلا تواصل ولا اتحاد ·· مع هـذا غنى الحَسن الحُسن فأبدع ·· لكن صوته ظل أحادي النبرة واللهفة والتوق ·· فمن الطبيعي أن يبدع شاعرنا في المرأة والخمرة على السواء ·· ومن الطبيعي كذلك أن يأتي ابداعه في الخمرة أبـدع وأروع وأطول نفسا وأكثر اندفاعا نحو الاستمرار ·· والخلود ··

أبو نواس ــ وهو شاعر العصر ــ مفروض فيه أن يتناول كل فن من فنون الشعر ويحلق به ويأتي بالرائع منه،خمرية كانت قصائده أو غزلية،أو غير ذلك ··

لكن القضية ليست في الابداع وحـده بـل في الامتياز والتجديد ·· في قوة الحضور ·· وعمق التجربة واستمراريتها في أعماق الشاعر وفي واقعه

معا ·· بالاضافة الى صدق تمثيله للعصر ومــدى انعكاس أشياء الحضارة المعاشة في شعره وفي حياته ·

ثم هذه الشخصية الشفافــة الطيبــة الحضور الشعبي ·· التي ميزت أبا نواس وأضفت عليه تلك الهالة الأسطورية المتواجدة ، بألفة، في حكاياتنا وأمثالنا ·· كل هذا وذاك لا نجده في غزله بالقدر الكافي والمشع ·· مثلما نجده في خمرياته ·· قد يعكس غزلــه النسائي السوي والغلامي المنحرف جانبا من تلك الشخصية ·· لكنه غير قــادر على كشف كل جوانبها ·· في حين أن الخمريات تكشف ــ وبقوة ــ هاتيك الجوانب المتعددة على انسجام ، والمنسجمة على تعدد ·· في شخصية أبــي نواس الحقيقية ·· الذي رسم ــ بعد فشله في العيش مع الجمال الأنثوي ــ حدود ذلك العالم الخمري الواسع بكل ما فيه من طبيعة ربيعية وشباب دائم وانتشاء موصول ·· فكان له ما أراد ·· وكانت له الريادة في هذا العالم الرحيب دون غيره ··

ثم هل نسي أستاذنا الجليل دعوة أبي نواس الى التجديد والثورة على كل قديم ؟ هل نســي ان الخمريات كانت دون سواها مسرحا ومنطلقا لهذه

الثورة وتلك الدعوة ؟ ان الروح النواسية المتحررة من كل قيد الثائرة على كل قديم في الشعر والفن والحياة ونمط العيش ٠٠ هي التي أنتجت الخمريات ـ لا الغزليات (١٦) ـ ثم انطلقت منها لتدعو الى الارتفاع عن كل تعقيد ، وتطبيق كل معطى من معطيات الحضارة الوافدة ٠٠ وليس مهما أن تكون هذه الحضارة فارسية أو مزيجا من حضارات عدة ، المهم عند أبي نواس أن يحيا حياته الجديدة بكل حرية وبدون تعقيد ٠٠ حتى اذا وجد الحضارة الفارسية هي الطاغية على غيرها دعا اليها وتحمس لها ذلك الحماس الشديد الذي اعتبره بعض السطحيين من الباحثين شعوبية سياسية وعرقية !! وما هي من الشعوبية في شيء ٠٠٠ ان الحس الحضاري الصافي هو الدافع والخمرة هي الوسيلة لا أكثر ولا أقل ٠٠ وما ذنب أبي نواس

---

(١٦) جاء في كتاب : قصة الادب في العالم لاحمد امين وزكي نجيب محمود ج١ ص ٣٨٠ وما بعدها قول للمؤلفين نرى فيه دعما لراينا ، جاء فيه : « وابتدع (ابو نولس) الغزل في الذكور وافرط فيه ، ولم يبلغ في غزله ما بلغه في خمره ... وكانت له صيحة تجديدية في الشعر ... ودعوة الى القول في اثار الحضارة الضخمة لا في الاماكن البدوية التافهة » .

ـ صاحب هذا الحس ـ اذا صادف أن الحضـارة الراهنة هي في أبرز أشيائها فارسية كسروية ؟! وما ذنبه اذا كان المعارضون له ولها عربا يمانيين وغير يمانيين ؟ (١٧) ٠

هل نسي ان كل هذه التطلعات والفلذات قـد سطعت بكل صفائها وجرأتها وتوترها في الخمريات، لا في الغزليـات ؟٠٠ حتى بـدا وكأن النواسي لم يقل غيرها ٠٠ أو لم يتعمق في غيرهـا ٠٠ ثم لم يخرج الا بها حاملا الينا أفراحه وأشواقه وسخريته و « خفة دمه » وروحه التي تبدو وكأنها تسامت على جراحها وتناست آلام حبها القديم ٠٠ وبلسمت كل ذلك بالشراب والمغنية والغـلام ٠٠ والطبيعة والشباب ٠٠ واستطاعت شاعريته أن تغني كـل ذلك في سمفونية خمرية ظلت في أذن الدهر والفن نشيد الأناشيد ٠٠ وذهبت ـ في الأجيال ـ صرخة من صرخات الوجـدان اللاهث وراء اللذة بكـل حسناتها ومساوئها ٠٠

---

(١٧) مع انه في الواقع عربي ابن عربي.. كلما في الامر ان عروبة الحسن منفتحة اكثر من اللازم ربما ، وعروبة اولئك منغلقة جامدة .. المؤلف

لكن أبا نواس ــ لواقعيته ولصوقه الشديد بالمادة الحضارية المتوافرة لم يستطع أن يسمو بنفسه وبواقعه وبخمرته الى مستوى الخيام وكبار الصوفيين (١٨) غير أنه سما بالفن الخمري الى آفاق لم يسم اليها غيره ولن يسمو ..

والسبب أنه كان لاصقا بالواقع لصوق شفتيه بالكأس .. لا يغادرها الا الى كأس أخرى ..

كان أبو نواس ــ على حد تعبير نزار قباني ــ « جزءا من حانات بغداد والبصرة فأصبح جزءا من تاريخ السكر .. والكؤوس .. » .

وبعد هل غاب جمال المرأة نهائيا عن خيال النواسي ؟

غابت المرأة المحافظة ولم تغب المرأة في الحانة والساقية في الدير .. وهكذا استمر الجمال السافر يملأ خيال نواسينا جنبا الى جنب مع جمال الخمرة .. وحين يُغنى جمال المرأة من خلال الكأس يصبح

---

(١٨) انظر في هذا الكتاب المقارنة التي عقدناها بين ابي نواس والخيام .

له ـ في حس الشعراء المخمورين ـ مذاق خاص ونكهة خاصة .. كما يصبح أرقى وأنقى وأعلق في القلوب .. وهذا هو ما فعله ـ في النهاية ـ أبو نواس ..

فكان كابن أبي ربيعة شاعر الجمال السافر أينما وجد لا شاعر الجمال المحجوب أو المتحفظ ..

تجاوز التحديد ـ في غزله ـ الى المطلق فأبدع ..

وتجاوز التقليد ـ في خمره ـ الى التجديد فكان أجمع وأروع ..

وعاش مع الكأس في حركة تعويضية استغنى بها عن عنان وجنان والزوجة والجمال الأنثوي وحده، وظل مع الكأس والحرية والفن الى ... الأبد ...

نماذج من غزله وحبه :

مع جنان : مر أبو نواس في جميع مراحل الحب فأخفق مع العذري ، ولم يرق الى الصوفي ، وانتصر في الحب الغلامي (١٩) . وأبدع في الحب الخمري .

---

(١٩) وهو ما يتعلق بالنساء الغلاميات او المتانثين من الغلمان .

كان مع جنان (٢٠) حب مراهقة عنيفا ومتوترا كـان يصورها كأنها الهـة أو هي مـدار الكون ومحور المجتمع ·· يراها في المأتم معنى من معاني الفرح ينسي المأتم أشجانه :

يـا منسـي المأتـم أشجـانـه
لمـا أتـاهـم فـي المعـزينـا
سرت قنـاع الوشـي عن صورة
ألبسهـا الله التحـاسينـا
فاستفتنتهـن بتمثـالهـا
فهـن للتكليـف يبكينـا
حـق لذاك الوجـه أن يـزدهي
عن حزنـه من بـات محزونا ··

غزل بريء وبسيط ليس فيه حرارة المحبـين المتيمين ·· أمامه مأتم ووسط المعزين يظهر وجه

(٢٠) وهي جارية عبد الـوهاب الثقفي المعروفة بجمالهـا وترصنها . احبت (الفتى) ابا نواس وكان صغيرا مراهقا .. ولكنها رفضته زوجا لسوء سيرته وانحرافه الجنسي .. ويروى انها هي ايضا كانت منحرفة جنسيا تميل الى ما يسمى « بالسحاق » . وقد تمكن مـن رؤيتها ومحادثتها بسبب صداقته لابن منذر الشـاعر الذي كانت مودته بـل وحبه لعبد المجيد بـن الوهاب الثقفي مضرب المثل . الديوان ص ٢٣٢ حاشية

الحبيب وتمثاله ... فيتعامل معهما الشاعر من خارج وبأدوات الصناعة اللفظيـة التي لا نجـد ضمنها أي شحنة غرامية متوترة .. كل ما في الأمر أن الحبيب يلهي المعزيات عن البكاء .. أما هو فلا يدخل الحلبة ليخطف حبيبه ويذهب به بعيدا عن المآتم ..

وفي غزلية أخرى تأتيه امرأة صديقة للثقفيين أصحاب جنان قائلة له أنها سمعت حبيبته تقول لاحدى صاحباتها : « ويحك قد آذاني هـذا الفتى وأبرمني وأحرج صدري ، وضيق علي الطرق بحدة نظره وتهتكه .. فقد لهج قلبي بذكره ، والفكر فيه من كثرة فعله لذلك ، حتى رحمته .. » .

فيسرع الفتى المراهق الى تصوير هذا التصريح الخطير شعرا فيقول :

يا ذا الذي عـن جنان ظـل يخبرنا
بالله قـل وأعد ، يـا طيب الخبر
قال : اشتكتك ، وقالت ما ابتليت به
أراه مـن حيثمـا أقبلـت في أثري
ويعمل الطرف نحـوي ان مررت به
حتـى يخجلنـي مـن حدة النظـر

وان وقفت لـه كيمـا يكلمنـي
في الموضع الخلو لم ينطق من الحصر
ما زال يفعل بي هـذا ويدمنـه
حتى لقد صار من همي ومن وطري

تصوير حضاري رقيق لحوارية لذيذة يطيب للمراهق ـ أي مراهق ـ التقاط تفاصيلها اثباتا لشخصيته التي لم تعد مرفوضة ٠٠ واعتزازا بأنه أصبح من « هم حبيبته ومن وطرها » ٠٠ وأنها لانت وأفرخ روعها ـ كما كان يقول أستاذه عمر ابن أبي ربيعة ـ لقد كانت كلمة واحدة منها (حتى رحمته) كافية لتجعله يتدفق بترجمة ما قالته وما لم تقله ٠٠ أما انعقاد لسانه حين يلقاها رغم « حدة نظره » اليها ساعة تمر به فنراه يبرع في تصوير هـذا المشهد الدراماتيكي الذي كـان ولا يزال صنعة العشاق الرومانسيين (باستثنـاء عشاق اليوم طبعا الذين قلبوا المشهد رأسا على عقب وأعطاهم « الكمبيوتر » تحليـلا كيماويـا لمسألة الوصال والاتصال ٠ وقال لهم فرويد ان خير بديل لعقدة اللسان ولوثة الحب هو الجنس بلا قيد ولا حب ولا من يحبون !!) ٠ وتمضي جنان في تعقيد عاشقها الفتى بالبعد عنه شيئا فشيئا ٠٠ ولكـي

تتخلص من ملاحقته لها لا بـــد أن تشتمه فيثأر لكرامته ويبتعد ٠٠ وهـــذا مـــا حصل ٠٠ ولكن كاميرا الشاعر كانت أقوى من كرامة العاشق فراح يلتقط هذه الصورة المحببة اليه : صورتهـــا وهي تشتمه :

وا بأبي من ذكرت له   وطول وجدي به تنقصني
لو سألوه عن وجه حجته   في سبه لي لقال يعشقني
نعم الى الحشر والتناد نعم   أعشقه أو ألف في كفني
أصبح جهرا لا أستسر به   عنفني فيه من يعنفني

يا معشر النـــاس فاسمعوه وعوا
ان جنـــانـــا صـــديقـــة الحســـن

لم يقل ان جنانا عشيقة أو حبيبة الحسن في آخر المقطوعة ٠٠ لعله أراد أن يخفف من غلـــواء جنان وانزعاجها منه ٠٠ مسكين عاشقنا المتيم ٠٠ أراد من كل قلبه أن تحبه جنان ٠٠ ولكن شروطها كانت قاسية بالنسبة اليه ٠٠ اشترطت عليه أن لا يلوط وأن يقلع عن تهتكه وفجوره فلم يكـــن بامكانه ذلك ٠٠ مـــع أنه لا يزال دون العشرين !! قاتل الله والبـــة مدربـــه والسالك بـــه مسالـــك الانحراف ٠٠

فرويد مرة أخرى :

ويتدخل فرويد هنا ـ ليبرر سلوك أبي نواس وأمثاله ممن حرموا عطف الأمومة والعيش في جو أنثوي أثناء الطفولة .. فيقول أحد تلامذته د.ج. وست (٢١) : « الأرجح أن يكون السبب الرئيسي في تثبيت الجنسية المثلية Homosexualité سببا نفسيا يرجع الى نوع المواقف الانفعالية والعاطفية التي مر بها الشخص أثناء الطفولة والمراهقة .. فقد تكون هناك بعض العوامل التي تدفع الانسان الى التعلق الشبقي بأحد أفراد جنسه وتخلق الميل الى الجنسية المثلية .. غير ان مصير هذا الميل يتوقف بصورة خاصة على عملية التنشئة النفسية والاجتماعية أي على عوامل تربوية وحضارية ... » .

هذا بالاضافة الى الشعور بالدونية (٢٢) عند أبي نواس .. الذي تولد عنده حين تفتحت عيناه على أبوين بائسين تخليا عنه : (الأب بالموت والأم

---

(٢١) في كتابه : Homosexuality لندن ١٩٦٠ الفصل السادس .

(٢٢) وهو ما يسمى بالفرنسية Sentinent de moindre valeur في علم النفس الفردي

بالزواج ثانية ، وبيئة منحطة لا يشرفه الانتساب اليها أو اليهما ٠٠ مما ولّد عنده دافعا عظيما الى العمل وبذل الجهد ونمّى غريزة التسلط والسيطرة والتطلع الى العلو (٢٣) وعندما يعجز الشخص عن اثبات ذاته واكتساب النفوذ الاجتماعي الذي يصبو اليه نظرا لعيوبه الجسمانية (أو شذوذه) فانه يلجأ الى سبل مختلفة من التعويض ، قد تؤدي به أحيانا الى التفوق والقيام بأعمال جليلة ٠٠وأحيانا أخرى الى أن يصطنع في سلوكه أسلوبا شاذا ٠٠ وأن يعيش أحلام اليقظة وهي أبرز طرق قانون التعويض (٢٤) ٠

ولا نرى نموذجا حيا تنطبق عليه كل هذه الحالات والمحاولات أفضل من أبي نواس ، اذ هذا ما قام به فعلا حين هرب من المرأة الى الخمرة ومن ضعة النسب الأدنى (أو العائلة) الى الشعر فكان شاعر العصر بلا منازع ٠٠

والطريف الجديد عند أبي نواس في مسألة

---

(٢٣) Sublimation وللزيادة انظر كتاب : مبادىء علم النفس العام ص ١٧٨ د. يوسف مراد دار المعارف ط٧ القاهرة ١٩٧٨ ٠

(٢٤) المصدر نفسه ص ١٨٠ ٠

الطيف الذي يزور الحبيب في المنام ـ انه يجعل لطيفه شخصية مستقلة واعية (٢٥) على عكس طيف البحتري مثلا . طيف أبي نواس يحاور جنان ويجادلها ويثأر لكرامة صاحبه فيرد طيفها في المنام لأنها ردت صاحبه في اليقظة ...

وأخيرا يلوذ النواسي بالشعر وينهزم أمام الجمال المحافظ .. ويتنفس الصعداء في رحاب الحبيب الجديد الخمر ..

الجمال المتجدد أبدا :

وذات خد مورد فتانة المتجرد
تأمل الناس فيها محاسنا ليس تنفد
الحسن في كل جزء منها معاد مردد
فبعضه في انتهاء وبعضه يتولد
وكلما عدت فيه يكون بالعود أحمد

صورة رائعة للجمال ترسمها ريشة فنان متحضر يرفدها عقل مثقف بما يكتنزه من علم «الاستيتيك» صورة لم يسبق اليها فعلا : فالحسن الأصيل والجمال

---

(٢٥) غزل ابي نواس ص ١٨ د. علي شلق دار بيروت ١٩٥٤ .

الحقيقي هو ـ بالتأكيد ـ ذلك الجمال المتجدد أمام العين العاشقة ، المتولد باستمرار كلما نظرت اليه ·· والتولد والتوليد تعبير كيماوي تفرد أبو نواس في جعله من خصائص الجمال الأنثوي وسيجعله كذلك من خصائص الخمرة ·· (٢٦) وأن من يقول :

يزيدك وجهه حسنا اذا ما زدته نظرا

ليس كثيرا عليه أن يأتي بمثل هذه الروائع ·· ولا غريبا ·· ولعل صدق العاطفة في حب جنان هو وراء كل ذلك الابداع ·· فكم من شاعر مثقف خبير بالكيمياء وغير الكيمياء يقف عاجزا عن التوليد والابداع ·· اذا لم يكن عاشقا ··

وأبو نواس الفتى ، شاعر كبير ، لأنه كان عاشقا كبيرا · عشق الجمال بصدق وتوق وحرارة ·· بل بجنون :

فوا أسفا تلاعب بي جنون الحب في صغري

(٢٦) انظر الخمريات في هذا الكتاب ، والابيات :
رقت عن الماء حتى لا يلائمها لطافة وجفا عن شكلها الماء
فلو مزجت بها نورا لمازجها حتى تولد انوار واضواء

في المرأة هتف له ·· في الخمرة عبده ·· في الطبيعة تفاعل معه ·· في الشباب اختصره بكلمتين: تجدد وتجديد ··

حبه ، عبر غزله بجنان ، كان الصدق كله واللوعة كلها ·· ومأساته معها أنه أحبها بحسه وأعصابه وعاطفته لا بعقله (٢٧) كما سنراه مع عنان ·

ويمضي الفتى المراهق مصورا حبه الفاشل ، ضمن اطار من العبث والمداعبة واللوم يكاد يخفي معه وجه المأساة ·· فمزاجية أبي نواس الضاحكة تطغى حتى على الفجيعة ·· في محاولة مستمرة لكبتها ، أو التخفيف من حدتها ··

ويتلاقى شاعرنا في تصوير المشهد المأساوي لحب من جانب واحد ، مع كبار العاشقين ، والشعراء العالميين ، حين يقول :

ألا رب مشغوف بنا لا ينالُنا
وآخر قد نشقى به ، يتباعد ··

---

(٢٧) ولكن من قال ان ليس لقلوب العاشقين عقول .. قال باسكال :
ان للقلب اسبابا .. لا يعرفها العقل ..

يتلاقى مع قيس في قوله :

جننا بليلى ، وهي جنت بغيرنـــا
وأخرى بنا مجنونة ، لا نريدها ٠٠

كما يتلاقى معـه الشـاعر المسرحي الفرنسي الشهير : راسين ، الذي أنشأ مسرحية (٢٨) بكاملها لتحليل نفسيات أربعة أبطال عاشقين تتنازعهم هذه العاطفة الأحادية نفسها : تتأزم المواقف ، وتحتدم العواطف ، وتتضارب الأهواء ضمن صراع عاطفي رهيب ، أو ما يسميه النقاد المسرحيون : الحلقـة الجهنمية Cycle infernal وتكون المأساة ٠٠

مع عنـان :

وتأتي عنان على رأس قائمة طويلة لجاريـات وقينات (٢٩) فتن بهن أبو نواس ٠٠ وبتعبـير أصح فتن بجمالهن الخارجي ورشاقتهن وظرفهـن

---

(٢٨) هي اندروماك . انظر ترجمتنا لها الى العربية ضمـن سلسلة : روائع الادب الفرنسـي الكلاسيكي . دار الكتاب اللبناني ١٩٧١ بيروت (طبعة ثانية) .
وخلاصتها : امرأة تحب رجلا يحب سواها تحب سواه
ابطالها : هرميون بيريس اندروماك هكطور

(٢٩) كان ممن عوض ابو نواس بهـن عن جنان : دنانير ، وسمجة ، ورحمة ، وعبد ، وعريب ، وحسن ، ودر الخ

وأدبهن و ·· تبذلهن ·· أين غزله المشبوب بجنان من هذا الغزل العابث المفضوح :

وناهدة الثديين من خـدم القصـر
سبتني بحسن الجيد والوجه والنحر

غلاميـة في زيهـا (٣٠) برمكيـة
مزوقةالأصداغ مطمومة الشعر(٣١)

كلفت بمـا أبصرت من حسن وجهها
زمانا،وما حب الكواعب من أمري ··

فما زلت بالأشعـار في كل مشهـد
ألينها ، والشعر من عقد السحر ··

الى أن أجابت للوصـال ، وأقبلـت
على غير ميعـاد ، الي مع العصـر

فقلت لها « أهلا » ودارت كؤوسنـا
بمشمولة كالورس،أو شعل الجمر(٣٢)

---

(٣٠) اي تلبس لبس الغلمان وتقص شعرها مثلهم . وهو ما يسما عند الفرنسيين : A la garçonne
(٣١) مقصوصته ، او معقوصته ..
(٣٢) المشمولة او الشمول : الخمر التي تعرض لريح الشمال لتبرد . الورس : نبات ذو صبغ اصفر .

فقالت : عساها الخمر ؟ اني بريئة
الى الله من وصل الرجال مع الخمر .. (٣٣)

فقلت : اشربي ! ان كان هذا محرما
ففي عنقي يا ريم وزرك مع وزري

ونمسك عن الباقي ففيه من الاباحية ما فيه ..

مثل هذا الغزل لا ينم عن وجدان سوى وجدان العبث والمجون وجو الحرية الذي اضطرب فيه أبو نواس على بلهنية عيش وطلاقة .. فله من هذه الناحية قيمة حضارية وتأريخية فقط .. وقد شهدنا مثل هذه الحواريات العابثة عند ابن أبي ربيعة لكنها كانت حواريات تدور في جو رقابة غير مباشرة (٣٤) أو في جو حرية مقبول عربيا .. واللذة فيه لم « تتمزدك » بعد .. ولم تتحضر كل هذا التحضر الذي عاش فيه أبو نواس والحب فيه حب الجميلة الواحدة عند الطبقات المحافظة .. كما عند جميل .. وهو عذري نسبيا

---

(٣٣) تأمل هذه العابثة : تأتي على غير موعد .. ولا تجامع الرجال الا في حالة صحوهم !..

(٣٤) كان عبد الملك بن مروان خليفة .. وليس الرشيد او الامين .. وكان الحجاج قائد شرطة ورقيبا رهيبا ..

وفي الأريـاف ، وعلى مقربـة منـه ، في المدن ، حب الجمال لا الجميلة كما عند عمر :

سلام عليهـا ما أحبـت سلامنـا
فان كرهته فالسلام على أخرى ..

على أنه غير مستغرق في ماديته وانفلاته كحب النواسي وغزله ..

غزل عمر نظم أكثره للغناء لتسمعـه الأذن العربية المتحررة بعض الشيء ..

وغزل أبي نواس نظم أكثره لتسمعـه الأذن المتحررة في كل شيء .. ولتطرب له الأذن الفاجرة أيضا .. وكانت عنان أديبة ، شاعرة .. ومعها تحلو المساجلة ـ عند نواسيها ـ ويحلو الغزل ..

يروي العقد الفريد هـذه المساجلة الطريفـة والذكية بين عنان وصاحبها أبي نواس .

قال النواسي لها : أجيزي :

هـذي عنـان أسبلـت دمعهـا
كالدر اذ ينسل من خيطـه .

فأجابت وكان سيدها قد ضربها :

فليت من يضربها ظالما
تجف كفاه على سوطه ..

فقال :

ما زال يشكو الحب حتى حسبته
تنفس في أحشائه فتكلما

فأجابت بعد هنيهة :

ويبكي فأبكي رحمة لبكائه
اذا ما بكا دمعا بكيت له دما

ثم قال : أجيزي :

بديع حسن بديع صد
جعلت خدي له ملاذا ..

فأردفت :

فعاتبوه ، فعنفوه
فأوعدوه ، فكان ماذا ؟

والنواسي خبير بنفوس جواريه وقيانه ، ملم بخلجاتهن ، وعواطفهن ‥ لطول المعاشرة والمعايشة يقول في احداهن (ولعلها جنان) فيبدع :

ويدمن اللحظات في كأسه   كأن من يهواه في كأسه ‥

وقوة الإستحضار هذه تعطيه قوة حضور عندنا فنحن لا نكـاد نقرأ استحضاراته تلك حتى نتمثل المشهد نفسه ونتأثر به ‥

الخيال الوثاب :

ويتميز خيال شاعرنـا بتوثب جديد يلاحـق الجمال ليلتقط تفاصيله وتهاويله ‥ ثم يؤنسنه ‥ فاذا به جمال سحري مشع يطارد الليل فيهزمـه ويحل محله ‥ وتمتد نورانيته حتى الفجر فيتلاقى النوران ‥ واذا بليل العاشق ينقلب نهارا ‥ واذا بهما يملآن ما بين الارض والسماء نورا وهاجا، وسحرا يطل الحبيب من خلال ذراتهما باثا سحره المضيء بالنجوم ‥

لم يعد هناك اذن لا ليل ولا صباح ‥ بل عالم مسجور من الجمال والاشعاع !‥

انها مبالغة محببة في تفسير الجمال ·· وخيـــال نواسي فريد :

وليل قد جـاز في طولـه القـــدرا
كشفنا له عن وجه قينتنا الخـدرا
فولى برعـــب قبل وقـــت انتصافـه
كأنا ألحنا عنـــد ذاك لـــه الفجـــرا
وأقبـــل صبـــح قبـــل وقـــت مجيئه
فأدبر مرعوبا ، وقد كسي الذعـــرا
فبتنـــا بـــلا ليل وقمنـــا بلا ضحى
كأنا نصبناهـــا لـــذاك وذا سحـــرا
وبانا على رســـم النجـــوم كلاهمـــا
وما منهما الا يرامقنـــا شزرا ···

حبه الغلامي :

أما حب أبي نواس للغلمان فنمسك عنـــه : لسقوطه في كل الموازين ···

ونتركه لعلماء النفس ليحللوه على ضوء علم النفس الفردي واكتشافات فرويد وملر لما يسميانه « بقانون التعويض » ونظرياتهما في : الشـــذوذ الجنسي و « حب المثل » Homosexualité ومسألة

« اختلال الانية » وتأثير الوراثة والبيئة ... الى آخر هذه المكتشفات والنظريات التي تظهر أسباب ذلك الانحراف ، كما تحدد طرق معالجته . وكل ما يمكننا أن نسمعه من مؤرخي هذه الظاهرة القديمة في المجتمعات الانسانية ، وكاعتذار عن أبي نواس : انه ما كان الأول في هذا الانحراف .. ويبدو أنه لن يكون الأخير .. فعشق المثل موجود لدى الرجال والنساء ، وهو مرض حضاري وآفة اجتماعية معروفة منذ الخليقة .. فهذا هو القرآن الكريم يلمح اليه وينهى عنه (٣٥) وقبله في التوراة (٣٦) أخبار عن أهل سدوم وعمورة (٣٧) وانغماسهم في تلك اللذة ، واليونان (٣٨) والرومان

---

(٣٥) سورة هود الاية ٧٧ — ٧٨ — ٧٩ .

(٣٦) سفر التكوين — التوراة — ١٣ — ١٣ — ١٩ .

(٣٧) سدوم وعمورة : قريتان لقوم لوط كانوا فيهما يأتون الرجال دون النساء وقد عانى لوط كثيرا من العنت مع قومه ليردهم عن شذوذهم عارضا عليهم الزواج من بناته .. كما جاء في القرآن (انظر الاية) وسدوم وعمورة عنوان لمسرحية الفها الشاعر المتحذلق جان جيرودو (١٩٤٤) قمنا بترجمتها الى العربية سنة ١٩٧٣ لحساب وزارة الاعلام الكويتية. وفيها تلميح بالافة.

(٣٨) من جملة التهم التي وجهت الى سقراط انه يفسد الناشئة بها أو بتبريرها .. وفي المائدة لافلاطون حديث يدور على لسان ديوتيما في تفسير الحب وهي فتاة كان سقراط يؤثرها بعطف خاص .

وفارس ٠٠ أما اليوم فقد استشرت هذه الآفة ونظمت حتى أنك لتجد سوقا خاصة بها في باريس ! وفي لندن ٥٠ ٪ على الأقل يمارسون هذه العادة ! (٣٩) وهكذا كان من الطبيعي أن تنعكس هذه العادة في أدب الأدباء وشعر الشعراء وفلسفة الفلاسفة وحتى في سلوكهم وحياتهم منذ أقدم العصور ٠٠ كسقراط وأفلاطون ، وأسطورة « زوس » كبير الآلهة مع الأمير « جانميد » الطروادي ٠٠ ثم أوسكار وايلد في قصته « دوريان غراي ومايكل انجلو والشاعر الفرنسي فرلين » والشاعر الاميركي هويتمان ٠٠ وأندريه جيد ٠٠ الى آخر هذه السلسلة غير الذهبية من الأدباء والشعراء والفلاسفة الذين ابتلوا بالآفة أو صوروها في قصصهم ومسرحياتهم وقصائدهم (٤٠) ٠٠٠

غزله الغلامي :

أما غزل أبي نواس الغلامي فلا نعرض له الا

---

(٣٩) وفي المدة الاخيرة سن الانكليز قانونا ينظم هذه العادة وهذا المرض الخطير .. فتأمل !!

(٤٠) انظر : غزل ابي نواس ص ٤٩ وما بعدها . د. علي شلق . والحان الحان .. ص

من الناحية الفنية والجمالية دون سواها : ان أول ما نلاحظه من خصائصه النفسية انه شاعر اللهفة الدائمة والشوق المستمر أمام الجمال : أي جمال ·· يلاحقه في القصور والدور والحانـات والحوانيت وفي الطبيعة والخمرة وحتى في ··· المواخير ··· كرسام محترف تهمـه الجوانب ·· اللذيـذة··· والممتعة ·· والغريبة ·· في صور هذا الجمال ·· فيسارع الى اهراق كل ألوانه ودهانه على اللوحة نافخا فيها من دمه وروحه وأشواقه ·· فاذا بها تضج بالحياة والحركة ·· وتكون النسخة الثانية لهذا الجمال · أي اللوحة ··-أرقى وأحلى من الأصل دائما ·· فالغلام بحد ذاته لا شيء في دنيا الناس ·· أي ناس ·· لكنه تحت ريشـة الفنان الشاعر يصبح « شيئا » محببـا ·· يصبح ملاكا يهبط من السماء :

معاذ الله لست بآدمي فقل لي هل نزلت من السماء!

وتمعن الريشة في تزويقه وتجميله فاذا به من غير طينة البشر ·· كأنه يعوضه بذلك عن انسانيته المنحطة والمشوهة ·· وكثيرا ما كان الفن والشعر سبيل البشاعة الى الجمال ··

الفصل السادس

قاموس أبي نواس الخمري :

لأبي نواس ـ كما لأي أديب أو شاعر ، أو عالم ريادي مجدد ـ قاموس لغوي خاص به ، أو مفردات ومصطلحات وصيغ تعبيرية تعرف به ويعرف بها ·· يحملها ـ أحيانا ـ ما لم تكن تحمله وهي في بطون المعاجم ·· فتخرج على يديه أكثر توهجا وحيـاة وخصوصية ·

ومن أسماء الخمرة عنده

ـ الشاطرة : ومعناها في المعاجم : الذي يعيي أهله خبثا ·

ـ الماذية : ومعناها في المعاجم : العسل الماذي السهل المدخل ·

ـ الكسروية : نسبة الى الأكاسرة ٠

ـ الخسروية : نسبة الى أحد الأكاسرة أو هو نوع من الثياب الحريرية ، لين الملمس تسمى به الخمرة على التشبيه ٠

ـ صفراء : كأنها من عصير الورس : نبات أصفر ٠

ـ درة : وفي المعاجم : من در اللبن : حلب ٠

ـ بنت دسكرة : وفي المعاجم : الدسكرة : الصومعة أو بيوت الأعاجم يكون فيها الشراب والمجون ٠

ـ صافية شمول : عرضت لريح الشمال فبردت ٠

ـ كرخية معتقة : من معاصر الكرخ أو دنان حاناتها

ـ سلافة لم تعتصرها يد : ولم تدنسها الأعاصير (علم المناخ) ٠

ـ عبورية : نسبة الى الشعرى العبور (نجم) تظهر حين يشتد الهجير ٠

ـ سن الدهر : أي ان الدهر يكشف عنها ليعرف ما سنها ٠٠٠

ـ شقيقة الروح :

عاذلي في المدام غير نصيح
لا تلمني على شقيقة روحي

ـ حمراء كالورد :

لا تبــك ليلــى ، ولا تطرب الى هنــد
واشرب على الورد من حمراء كالورد

ـ ياقوتة : لماعة شفافة كالياقوت .

ـ شراب الصالحين : نبيذ التمر المطبوخ وهو حلال عند العراقيين .. ولهذا يسمونه شراب الصالحين وكان أبو نواس يكرهه ..

ـ بكر سلافة : أي خمر لم تمسسه يد . قدم الصفة على الموصوف .

ـ شمس ضحى :

جاءت كشمس ضحى في يوم أسعدها
مــن برج لهــو ، الى آفــاق ســراء

ـ ترب الدهر في القدم : قديمة مثله .

ـ درياقة : الدرياق لغة في الترياق والقطعة منه درياقة ..

ـ عذراء مصونة : لم يبزل دمها بعد .

ـ خندريس : خندريس تنفح المسك وتحكي الجلنارا (الجلنار : زهر الرمان معرب عن الفارسية) .

ـ دهرية : رضعت والدهر ثديا   وتلته في الولاد

ـ ابنة الكرم : من عصير العنب ·

ـ شراب الملوك : لا للسفال ولا من يجهل الأدبا ··
ولا العربيد ولا اللئيم الذي ان شمني قطبا ··
ولا المجوس ·· ولا اليهود ولا غر الشباب ··
ووفر الكأس عن سفيه   فان آيينها الوقار (١)

ـ زيتية ذهبية :

فجـاء بهـا زيتيـة ذهبـا
فلم نستطع دون السجود لها صبرا

ـ بنت عشر : لم تعاين غير نار الشمس نارا ·

ـ شراب الزرجون : كلمة فارسية معناها : الشراب الذهبي ·

ـ سخامية : لينة ·

ـ السلاف المروق : المصفى بالراووق ·

ـ عروس : كان كسرى ربيبها ·

ـ عقار : أبوها الماء والكرم أمها ·

---

(١) الآيين ، القانون . فارسية .

ـ تراث أنو شروان : لا مواريث ما أبقت تميم ولا بكر ٠

ـ مشمولة الراح : الخمر المبردة بريح الشمال ٠

ـ البابلية : المنسوبة الى عهد بابل ٠٠

ـ حيرية : المنسوبة الى الحيرة بالعراق ٠

ـ ربيبة خدر :

راضهـــا الخـــدر اعصـــر
فكانت له قلبا ، وكان لها صدرا

ـ شراب سابري : نسبـــة الى سابور أحـــد ملوك الفرس ٠ والحاسي يفضلــه أبــو نواس على الشارب ٠

ـ مسكية العَرف : رائحتها طيبة ٠

ـ كرمة الكرخ : والكرخ محلة ببغداد ٠

ـ قهوة دهرية : قديمة قدم الدهر ٠

ـ الناجود : اناء الخمر (يكثر من استعماله) ٠

ـ الباطية : اناء الخمر (يكثر من استعماله) ٠

ـ الطلاء : العصير المطبوخ على النار (كان أبو نواس يكرهه) ٠

ـ معتقة رقيقة شفافة :

عتقـــت في الـدن حتـى
هــي في رقـــة دينــي

ـ مسكية : كالمسك ان بزلت ٠

ـ الراح : مقرونة بالريحان وريحها برائحة التفاح:

سلاف دن اذا ما الماء خالطها
فاحت كما فاح تفاح بلبنان

لها نسيم زانها ولهيب ٠

ـ مدامة مصفقة : مدامة صفقت بسلسال (مزجت بالماء البارد وهي تشج شجا ٠٠ ودنها يبزل بزلا لتفور وتفوح ٠

خصائصها :

ـ مثل الهباء يفوت باللمس : (تجريد) ٠

ـ مولد أضواء وأنوار : (فيزياء) ٠

ـ شيء لا تلامسه الا بحسن غريزة العقل: (فلسفة المدركات والمعقولات ٠

ـ تشرب جهارا واللوم فيها اغراء بها : (منطق)
دع عنك لومي فان اللوم اغراء ٠٠

ـ داء ودواء : (طب) وداوني بالتي كانت هي الداء

ـ تؤثر حتى في الصخر : (كيمياء)
لو مسها حجر مسته سراء •

ـ كثير الماء يفسدها : (كيمياء) :
لا تجعل الماء لها قاهرا ولا تسلطها على مائها

ـ خطيئة قابلة للعفو : (دين) :
لا تحظر العفو ان كنت امرءا حرجا •

ـ والتشدد في منعها ازراء بالدين : (علم الكلام):
فان حظركه بالدين ازراء ••

ـ لا تسمى من قبل العذال : فقد يشان اسمها ويهان
وهي كالفرس الجموح تروض بالضرب ، بالماء ،
الا دارها بالماء حتى تلينها ••

ـ والمزج بالماء « يشجها شجا » :
فلن تكرم الصهباء حتى تهينها : أنسنة ومغايرة•

ـ انها شيء قائم في الوهم : (تجريد) :

لم تقم في الوهم الا كذبت عين اليقين

ـ بل هي روح لم يقم جوهر لطفا به : (تجريد) :

فمتى تدرك ما لا يُتحرى بالعيون ••

ـ خاصة غريبة ورائعة :

الخمر تفاح جرى ذائبا   كذلك التفاح خمر جمد

تنافر الأضداد .

فاشرب على جامد ذا ذوب ذا

ولا تدع لذة يوم لغد ..

ـ أحدثُ قدمها : خمسون عاما :

خمسين عاما حتى اذا هرمت

واخضر من نبت نبتها الورق ..

ـ لا ليل عندها .. فهي في تألق دائم :

لا ينزل الليل حيث حلت   فليل شرابها نهار ..

ـ الاهة أرضية : اثن على الخمر بآلائها ...

ـ ولها أسماء حسنى : وسمها أحسن أسمائها ...

ـ وهي انسان أيضا : عروس تخطب من أبيها أو أمها فيغلو مهرها . ومهرها :

صاع من الدر والياقوت ما ثقبا ..

ـ تستوحش في الدن فتبكي قائلة لأمها :

يا أم ، ويحك ، اخشى النار واللهبا ..

ـ أما بعلها : فالماء يمتزج بها ..

ـ ولقاحها : الثلج أبرده ..

ـ وبيتها : تُراه الخشب ؟ كلا : انــه القناني والأقداح من صنع الفراعنة أو الأكاسرة ..

ـ والنواسي يستل روحها فتموت فيه :
ما زلت أستل روح الدن من شغف ...

ـ وهي تسعى بالكأس وتطوف : تطوف علينا الراح في عسجدية .

ـ وكأسها ذهبية كسروية ، مزخرفة : حبتها بأنواع التصاوير فارس .

ـ في قرارتها ترتسم صــورة لكسرى : قرارتهــا كسرى ، وفي جنباتها .

ـ وعلى جوانبها صور بقر الوحش وصيادون : مها تدريها بالقسي الفوارس ..

ـ وهي مما يحيا به الانسان :

أربعة يحيا بها قلب وروح وبدن
الماء والبستان والخمرة والوجه الحسن ..

ـ وهي تعدل أمزجة الجسم وطبائع الانسان :

رأيت طبائــع الانسان أربعة هي الأصل (١)
فــأربعـــة لأربعـــة لكل طبيعــة رطل (٢)

ندامــى النواســي

طبقاتهم :

كان أبو نواس يختار رفاق شرابه من : عليــة القوم كالقاسم بن الرشيد « المهذب الــذي يخلط حرفا بلين » . وكالخليفة الأمين نفسه ، وعيسى بن أبي جعفر المنصور وسواهم ..

أو ممن ينسجم معهم أدبيا ونفسيا وطريقة حياة ليسمو بهذا كله عن الابتذال ويرتفع بالخمرة الى المستوى اللائق بهــا وبه بعيــدا عن الاعراب أو السوقة ، المعربدين والمتشاجرين :

خلتـــا شر تشينـــان الفتـــى
حيثما حل : الخنا والعربدة ..

ألقابهم :

ـ الشطار تينمـــا باسم حبيبتـــه الشـــاطرة (أي الخمرة) ..

---

(١) وهي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوســة ..
(٢) رطل انكليزي بمقادير اليوم ، او ما يعادل الكأس الكبيرة ..

ـ عصبة المجان :

يريد أن يتكنى بالعصبة المجان
بعجرد وعباد والوالبي الهجان
وقاسم ومطيع ريحانة الندمان

ـ عصابة السوء :

عصابة سوء لا يرى الدهر مثلهم
وان كنت منهم لا بريئا ولا صفرا

ـ فتيان صدق :

وفتيان صدق قد حثثت مطيهم
الى بيت خمار نزلنا به ظهرا ..

ـ فتية كنجوم الليل ... أو فتية غر غطارفة .. أو جلاس كرام :

الراح طيبة وليس تمامها
الا بطيب خلائق الجلاس

ـ خرس عن الخنا ... طلاب هوى فاتكون .. فتية ، سادة ، غارين .. ونديم صدق (لواحدهم) الخ ...

ـ عددهم : يفضل أبو نواس ألا يتجاوز عددهم الخمسة كيلا تعم الفوضى ويسود الهرج :

ثـــلاثـــــة في مجلس طيـــــب
وصاحـــب الدعـــوة والضـــارب

فـــان تجـــاوزت الى ســـــادس
أتاك منهم شغب شاغب (١) ..

هذا ، والا فهو يفضل أن يشربها وحيدا :

نادمتها اذ لـــم أجـــد مسعدا
أرضاه أن يشركني فيهـــا

شربتهـــا صرفا على وجههـــا
فكنت ساقيها وحاسيهـــا ..

أحلى أماكن شربها :

ـ درجة أولى : دير خنـــة : في الاكيراح ـ ديـــر طير ناباذ : بين القادسية والكوفة ـ دير قطربل ـ دير هند : (وهي زوجة المنذر الثالث ٥١٤ ـ ٥٦٣) المعروف بابن ماء السماء . أو هي هند : بنت الحارث بن عمر بن حجر آكل المرار الكندي وكانت مسيحية .

(١) من الطبيعي الا يكثر عدد الندامى ما دام ابو نـــواس يؤثر له ولهم الوقار والهدوء والهمس ... حتى الهمس يفضل عليـــه الصمـــت والاشارة باليـــد او العين او الحاجبيـــين بدء التحيـــة بينهم نظر النديم الى النديم .. ويصرفها بغمزة حاجبية .. الخ ..

ـ دير الروم : في سواد بغداد ـ دير الثعالب ـ وكورة نهر عيسى .

ـ دير العذارى ـ دير العاقول : ناحية المدائن وبالقرب منه قتل المتنبي ..

ـ دير الغادر : على طريق خراسان : نزل فيه أبو نواس وكانت له فيه مواقع ..

ـ درجة ثانية : حانات الأرباض خارج بغداد حيث البساتين والطبيعة الضاحكة .. على طريق القوافل ، وحيث الراح والريحان والخلوات الهادئة ، والخمور المعتقة ، والمضاجعات على اختلاف أنواعها ... كالصالحية ، والقصر وكلواذ (١) .

ـ درجة ثالثة : حوانيت بغداد أو مواخيرها .. حيث الصخب والغناء والعربدة والغلاميات المتصابيات .. (كان أبو نواس يكره هذا الجو ولا يلجأ اليه الا مضطرا ..) .

ـ بائعوها ومعتقوها : هم في أغلب الأحيان :

---

(١) وهناك ايضا حانات : الفرك ، وهيت ، وعانات ، وعكبرا الخ ..

رهبان الأديرة والدهاقنة اليهود خبراء التخمير والتخزين ، وسماسرة بيع الخمور ٠٠والدهقانات اللواتي أحببن أبا نواس وعصابته لظرفهم وكرمهم وعدم مساومتهم ٠٠ (وأحيانا يدفعون عن شهر سلفا) ٠٠ فكن يستقبلنهم ولو بعد منتصف الليل دون حذر حراس الخليفة وعسسه ٠

ـ غلام الحانة : مقرطق : يدور على شاربي الخمرة بلباسه المقرطق : وهو لباس فارسي شائع يومذاك ٠٠

ـ مازج الكأس أديب هاشمي ! وهو كالظبي : يكاد من التهييف ينعقد ٠٠ أمرد ٠٠ يطرر الورد على خده من عرق بالمسك معجون ٠٠ ألثغ ٠٠ مخنث الألفاظ ٠٠ لماطر شاربه (١) ٠

ـ أصل الخمرة وأرومتها : لها بين بصرى والعراق كروم ٠٠ يهودية الأنساب ، مسلمة القُرى ، شامية المغدى ، عراقية المنشا ٠٠ مجوسية قد فارقت أهل دينها ٠٠٠

ـ وقت شرابها : اذا كان عرب الجاهلية يشربونها

---

(١) ايسر ما فيه من فضائله امنك من طمثه ومن حبله ...

« بعدما ركد الهواجر » فالنواسي يشربها بعد ما نام العواذل ، وهدىء الناس جميعا في مضاجعهم أي بعد منتصف الليل ..

ـ كيفية شرابها : أبو نواس يشربها جهــارا .. ولا خير في اللذات من دونها ستر .. « وأم التستر زانية » كما يقول .. وبنت الحانة سافرة .. لعوب .. غانية .. فلا مجال للسرية مطلقا .. انه وجودي في فهمه للذة .. وأكثر من واقعي وحضاري الحس ...

ـ حقوق الكأس : « حقوق الكأس والندمان خمس » كما يقول :

فأولها التزين بالوقار
وثانيها مسامحــة الندامى
وكم حمت السماحة من ذمار
وثالثها ـ وان كنتَ ابن خير البرية محتدا ـ
ترك الفخار

ورابعها ، وللندمــان حــق
سوى حق القرابــة والجوار
اذا حدثتــه فاكس الحديث
الذي حدثتــه ثوب اختصار

وخامسها يدل به اخوه
على كرم الطبيعة والنجار
كلام الليل ينساه نهارا
فان الذنب فيها للعُقار

ـ وللنديم حقوق :

ولست بقائل لنديم صدق
وقد أخذ الشراب بمقلتيه
تناولها ، والا لم أذقها
فيأخذها وقد ثقلت عليه
ولكني أدير الكأس عنه
اذا استغفى بغمزة حاجبيه
وان طلب الوساد لنوم سكر
مددت وسادتي أيضا اليه
وذلك ما حييت له واني
أبر بمثله من والديه ..

ـ وللكأس أشكال وألوان : فهناك الغُمر أو القدح الصغير الذي لا يروي ..

ومنها : القعب وهو القدح الكبير .. والاكبر هو العُس والصحن .. وكالأقداح : الكاس والطاس والجام والزجاج . ويسمى القدح المقعر الوأب.

ويقال للقدح أعلاه ضيق ووسطه واسع المكوك·
ويوصف القدح القصير الجدار القريب القعر بأنه أرح أو رحرح أو رحراح (١) ·· ومنها البلوري أو الزجاجي الفرعوني الملون ، ومنها المذهب والكسروي والخسروي المزركش بشتى التصاوير الفارسية والرومية (٢) وأفضلها عنده الشفاف بأيد شفافة ··

كل هذه وتلك قوانين وآداب وتشريعات جعلها عميد الجامعة النواسية شروطا مسبقة للانتساب الى أي فرع من فروع هذه الجامعة العالمية ·· ولا سيما فرع : الفنون والآداب الخمرية !!·· على المنتسب أن تتوفر فيه وأن يلتزم بها ، قبل كل شيء ·· كيف لا ·· وقد طبقها العميد على نفسه وأعطى المثل ـ القدوة ؟! حتى الكأس ، في هذه الجامعة ، يجب أن يكون مميزا ··

النديم الأكبر : أو القدوة الكبرى ·· لطلاب جامعته :

أحب النواسي أن يكون مميزا كشاعر فكان له ما أراد في زمانه ، حتى خصومه من المحافظين

(١) الحان الحان : ص ٢٤٦ وما بعد ها .
(٢) المصدر نفسه ص ٢٤٨ وما بعدها .

شهدوا له ·· وان تكون له الفرادة والريادة في معاقرة الخمرة فسن لها قوانين وبروتوكولات ·· وأن تكون له الزعامة على عصبة المجان ، لا ترفعا ولا استعلاء ، بل شعورا منه بالامتياز والخبرة في ميداني : المعاقرة والشعر ·· فكان أبا ومربيا ·· لهؤلاء أكثر منه زعيما ··

من امتيازاته : يبدو ان أحدا من الباحثين لم يكتشف حالة نفسية معينة من حالات أبي نواس وهي : حنينه الشديد الى : الآخر ·· لافتقاره اليه في طفولته وصباه ·· لا سيما الآخر المذكر لا المؤنث (١)فعبر عنه في شعره ومارس الاحتكاك به في شبابه وكهولته ··

ومن هنا كان تشبثه بصيغة المثنى على المفرد ·· أو الجمع ·· فلن تجد في حياته مع العصبة سوى اثنين : هو والآخر ·· مهما كان أفراد العصبة متعددين ·· فكلهم واحد في نظره وفي تعامله معهم ·· كما لن تجد في ديوانه سوى صيغة المثنى خاصة في خمرياته يكثر منها لدرجة أنها لفتت نظرنا وفسرناها على أنها انعكاس نفسي

---

(١) لفشله مع المؤنث اما وحبيبة .

لميله الشديد الى الآخر الذي يهواه ويحب أن يختصر الكل فيه ٠٠ حتى بدا أسيرا للمثنى دائبا في الجمع :

تسقيك من عينها خمرا ومن يدها خمرا
فما لك من سكرين من بد
لي نشوتان وللندمان واحدة
شيء خصصت به من دونهم وحدي

لها خطان من لون وريح ٠٠
لها أليفان من لون ورائحة ٠٠
ليس للهم دواء كاغتباق واصطباح ٠٠

ـ روحان في جسد :

ما زلت أستل روح الدن من شغف
حتى انثنيت ولي روحان في جسد

وقد أنشأ مقطوعة خمرية على صيغة المثنى (١):

ولتكن في كل يوم لك فيه سكرتان
لا تخدعن عن التي جعلت سقم الصحيح وصحة السقم

كما تكثر عنده المقارنة والمقابلة بين المثلين وبين النقيضين ٠٠ أو ما يسميه البلاغيون القدامى

---

(١) الحان الحان ص ١٠٣ .

بالطباق ‥ وهذا أيضا نتيجة ولعه بالمثنى (أي هو والآخر) ‥‥ الذي قلنا ان أبا نواس يختصر الكل فيه :

ــ وتريه الغـــي رشدا وتريه الرشــد غيــا
ــ اسقني حتى تراني حسن عنــدي القبيح
ــ وتمشت في مفاصلهم كتمشي البرء في السقم
ــ كرخية تترك الطويــل مــن العيش قصيرا ، وتبسط الأملا ‥
ــ ظلت حميا الكأس تبسطنا حتى تهتك بيننا الستر
ــ تترك من يشرب بها هائما يقفز من فوق ومن تحت

وتمضي سائر تلويناته اللفظية والمعنوية على هذا الطراز الجميل الــذي تخلقــه تلك النفسية المحرومة في طفولتها من الآخر ‥ فانقلب الفواسي معها ذا روح ثنائية بأسلوب طباقي يجسد ذلك الميل الشديد الى ما أفقدته اياه طفولته البائسة ‥

وهكذا :لوم واغراء ــ داء ودواء ــ راح وراح ــ روح وريحان ــ موت وحياة ــ خطيئتان ــ مقلتان ــ يدان ــ عذراوان من خمر وآل ‥

عجنا بثنتين من طبائعها ‥ وهو يشرب مرتين ــ كما يسكر سكرتين ــ :

اشرب مـن ريقتـه مـرة

ومرة من فضلة الكاس ..

وهذه تشبيهات لم يسبق اليها (لها صفة الكشف):

فشبهت كأسيـه بكفيـه اذ بـدا

سراجين في الحراب قس اذا صلى

فتزداد عنـد المزج طيبـا كأنها

اشارة من تهوى الى كل ما تهوى

كألسنة الحيات تبدو من الذعر ...

تبدو السرائر ان عينـاك رنقتا

كأنمـا لك في الأوهام سلطانِ ..

بتنا نديـن لابليس بطـاعتـه

حتى نعى الليل بالناقوس رهبان

ومن روائعه التي تسبق علماء الجمال الى احدى خصائص الجمال :

يزيدك وجهه حسنا   اذا ما زدته نظرا ...

وقلما وجدنا عند أبي نواس تجسيدا للصور الذهنية ـ كما سنجد ذلك عند ابـن الرومي ـ لكننا نقع على شيء من هذا في غزله الغلامي :

أقول للسقم كم ذا قـد لهجت بـه
فقال لي : مثلمـا تهـواه أهـواه

هذه الأنسنة التي تجعل من « السقم » انسانا ينازع أبا نواس حب ذاك الغلام تجسيد يجرد معنى السقم من هيولاه فاذا به انسان عاشق .. لا مرض قاتل ..

ويمضي أبو نواس مع غلمانه مداعبا ومغازلا وشاكيا ومسترحما ومتوددا .. باثا كل صباباتـه في أشكال من يهوى منهم : في مشيتهم ، وحديثهم ، وغنجهم ، وتخنثهم .. يحاورهم ويجادل النافرين منهم مستشهدا أمامهم بكل ما يخفف من نفورهم من آيات قرآنية وأحاديث نبوية وأقوال فقهاء الدين والفرق من معتزلة وأشعريـة وجبرية ومرجئـة ليدخل في روعهم أنه لا يأتي في حبهم شيئا ادا (١) . كما يستعمل مـع بعضهم المنطـق والحساب وعلم

(١) شيئا منكرا .

الضوء والتولد والانكسار ·· فاذا بشعره ـ هنا ـ وكل شعـــره ، سجـــل حافـــل بكل أشياء الحضارة المادية والفنية والفكرية في عصره ·· نكاد نكتفي به اذ يغنينا عن كثير من المراجع ·· ولعله سجل أمتع وألذ وأصدق من كل السجلات ·· انه سجل الفن الخالد ··

يكفي صاحبه خلودا أننا حين ندخل عالمه ننسى معه همومنا ومشاكلنا اليومية ··

يكفيه أنه يخطفنا ·· يرفعنا اليه ·· يمسح الكآبة عن وجوهنا ·· وقلوبنا ·· ويضع مكانها البسمة والفرحة والحب ·· ويضيف الى أعمارنا عمرا جديدا ·· على حساب عمره ·· وصحته ·· وأعصابه ·· وسمعته ··

لذا نحن نحبه ·· لأنه ـ في أتون الحضـــارة العباسية ـ كان الاكثر احتراقا ·· والاكثر توهجا · غيره ذوبه اللهب ·· وقضى عليه ··

أما هو فقد أنقذه الفن ···

« تم الكتاب »

الفهـرس

الموسوعة الأدبية الميسّرة

٣

ابن الرومي

تأليف

الأستاذ خليل شرف الدين

منشورات

دار ومكتبة الهلال

بيروت

طبعة جديدة منقحة
١٩٨٧

بيروت - بئر العبد - شارع مكرزل بناية برج الضاحية
ملك دار الهلال تلفون ٨٣٦٩٨١ - ٤٦٣٥٥٧
ص.ب ١٥/٥٠٠٣ برقياً مكتهلال

اقتراح •• برسم الجيل الجديد

كنا سنتبع في هـذا الكتـاب ، كما في كتبنـا السابقة (١) ، القاعدة الاملائية الميسرة الآتية :

أولا : ما لا يلفظ لا يكتب • مثل : سمحو ــ لن يسمحو ــ لم يسمحو • وهاكذا ••

ثانيا : ومـا يلفظ يكتب بحروفـه الأصيلة البديلة كـ : هاذا ، وليس هذا ، لاكن ، وليس لكن • تماما كهاته وهاتين •

ثالثا : الألف المقصورة تكتب ألفا طويلة توحيدا

(١) وهي على التوالي : ابن خلدون : ريادة وابداع . ابو العلاء : مبصر بين عميان . ابن رشد : الشعاع الاخير الصادرة عن مكتبة الهلال بيروت ١٩٧٩ .

لهما وتسهيلا على الناشىء والأجنبي •• ودون أن نلحق أي ضرر بالقاعدة الصرفية • مثل : مستشفا (بدل مستشفى) ، ليلا (بدل ليلى) ، تراءا له (بدل تراءى له) •

كما كنا سنتثني ـ بالطبع ـ لفظ الأدوات والحروف التالية :

حتى ، متى ، بلى ، أنّى ، لدى ، على ، الى •• لتبقى هذه الأدوات والحروف مشيرة الى وجود الألف المقصورة في الاملاء القديم ، ودفعا لأي التباس أو غموض ••

ان دعوتنا هذه ليست جديدة ، ولا هي بالأمر الجلل الذي يدخل تحت طائلة القانون الجنائي •• فقد سبقنا طليعيون مجددون ، نادوا بمثل هذا التسهيل ، بل بأكثر منه ، كطه حسين الذي اقترح زيادة أربعة أحرف جديدة على أحرف اللغة العربية •• لكن قيامة المتزمتين قامت يومها • فأهمل طه حسين دعوته (حقنا للدماء !!•••) وها هي القيامة نفسها تقوم علينا اليوم (٢) في

---

(٢) علي وعلى الدكتور احمد لواساني : استاذ الفارسية في الجامعات : اللبنانية والاميركية والعربية ، الذي كان

الردود المتبادلة على صفحات بعض الجرائد اللبنانية (٣) بين الدكتور أحمد لواساني وبعض النقاد (٤) ٠

وقد تكشف الأخذ والرد عن عقليتين : عقلية سلفية تريد أن تبقي القديم على قدمه ، مهما يكن ٠٠ وأخرى تحررية ، تحاول ، فيما تحاول ، التيسير والتطوير لأشكال وصور املائية لا ينفع بقاؤها ، ولا يضر الغاؤها ، أو ضبطها ٠٠ بل يفيد ، اذ يجعل كتابة اللغة العربية ، عند الناشئين والأجانب ، سهلا يسيرا ٠٠

وما أضر باللغة وبالعقل العربي ، فشدهما الى الوراء ، في مجالات كثيرة ، كتلك العقلية المتشددة

قد طبق هذه القاعدة في كتابه الموسوم : نظرات جديدة في تاريخ الادب الصادر عن الجامعة اللبنانية سنة ١٩٧١ ٠

(٣) كجريدتي النهار والسفير خلال شهري شباط واذار ١٩٨٠ ٠

(٤) الذين انقسموا الى فريقين : فريق معارض متشدد يسوءه ان تتنفس اللغة العربية وتتطور ولو في الشكل مثل : الدكتور عمر فروخ ، والاستاذ نسيب نمر ، وجميل ع٠ رعد ٠ وفريق طليعي مؤيد ٠ مثل : وليد الشهابي ، واميل يعقوب واحمد حاطوم ٠ ونحن واثقون من ان امثال هؤلاء كثيرون في الوطن العربي ٠ المؤلف

التي أسمي اصحابها ، مع الأديب هادي العلوي : « اكليروس اللغة » ·· الذين انطلقوا ، خلال النقاش ، من حس التابو ·· الى درجة اصدار الأوامر ، لأمثالنا ، نحن المتطفلين على العربية ، بألا نتعرض لمعشوقتهم من قريب أو بعيد ·· فهي عرضهم وشرفهم ·· وهي حكر عليهم ·· وأي تهذيب أو تشذيب لبعض صورها ، وبعض حروفها، يعد ، في نظرهم ، طعنا بذلك الشرف والعرض ··

لكنهم فشلوا ، لأن ردودهم كانت غمزا ولمزا ، واستعلاء ، أكثر منها نقدا موضوعيا ·· فانقلب السحر على الساحر ·· وبرز لنا مؤيدون طليعيون، سيزداد عددهم ـ حتما ـ عبر المسيرة الكبرى للغتنا العربية الحبيبة ، على دروب التطور الحقيقي الذي يبدأ ـ في العادة ـ صعبا ·· لكنه ينطلق رغم كل شيء ·· وينتصر ··

واذا كنت ـ هنا في هذا الكتاب ـ لم أطبق القاعدة الاملائية الجديدة ، فذلك لسببين اثنين لا ثالث لهما · أولهما : حرصي الشديد على مصلحة دار مكتبة الهلال ، ناشرة هذا الكتاب التي يهمني

أن تنتشر مؤلفاتها الرصينة ، في كل قطر عربي ، دون استثناء ..

ثانيهما : رغبتي في أن تصل دعوتي المتواضعة ــ عبر هذا الكتاب ــ الى عشاق اللغة العربية الحقيقيين من الجيل العربي الجديد ..

وفي أي حال ، فأنا مقتنع كل الاقتناع بصوابية الطريقة . وسأبقى داعيا لها ، وسأطبقها في محاضراتي وكتبي القادمة ، ان شاء الله ، كما فعلت منذ سنوات حين طلبت من طلابي (في صفوف الفلسفة والعلوم الاختبارية) تطبيقها في مسابقاتهم وأماليهم ، ففعلوا ، بعد رضا واقتناع تامين ..

المؤلف

استهـلال :

اذا كان للسوى أن يتنابذوا بالألقاب ، ويتكالبوا على المناصب والمراتب ، وتغيب ذواتهم في ذوات الخلفاء ، والأمراء وأنصاف الآلهة ··· فان لابن الرومي ذاته وحياته ، كما يهوى هو ، ويحب ·· لا كما يهوى هؤلاء ويحبون ··

نسج لنفسه عالمه الخاص ، وفصله على قـد مزاجه ، وخياله ، ورؤاه ·· ثم عاش فيه شاعرا متوحدا ، لا يصله بعوالم أهل عصره سوى خيوط رفيعة شفافة ·· أقواها : حسه ، وذائقة الجمال فيه ··

ينفر من البشاعة ، لكنه ينصب عليها بكلتـا يديه ، ويمسك بتلابيبها حتى ·· تنقلب بين الريشة واللون لوحة فنية متكاملة ··

يعشق الجمال بكل أشكاله وصوره : ما يؤكل

منه بالفم ، وبالعين ٠٠ وما يتذوق باللسان والأنف والأذن ٠٠ كل النسائم لها في خياشيمه هينمات وفي رئتيه تموجات ٠٠ حتى ريح طيب الأولاد ٠٠

يذوب في الكل ٠٠ ويذوب الكل فيه ٠٠ ومـا يلبث الشعر حتى يصلنا بهذا الكل الذائب المصفى بمصفاة الفن والخلود ٠٠

سخريته تعرية لجواهر الناس والأشياء المزيفة تذهب بعيدا في دروب اللون والحركة والتجسيد ٠٠ مهومة كالقدر على المعايب ، والنتوء ، والنشاز ٠٠ حتى ننسى معها أنها للتشفي وتبريد الغلـة ٠ والانتقام للجمال ٠٠ صوره المشوهة تكاد تخرج من اطاراتها لتشاركنا الضحك عليها ٠٠ تماما كصور الجاحظ في بخلائه ، وتربيعه وتدويره ٠٠

هذا هو ابن الرومي ، الحاضر فينـا أبـدا : الانسان المسحوق الذي هزمته ، بل خلدته نفرته من الذئاب المسعورة ، والكلاب « الكلبانة » الراوي لنا بصدق وعفوية وحرارة قصته مع هـؤلاء ٠٠ ومع نفسه ٠٠ بكلام مهموس حينـا ٠٠ ومجهور حينا ٠٠ ولذيذ في جميع الأحيان ٠٠

ـ ابن الرومي ـ
أو الاحساس الفاجع بالغربة

شاعر في جميع حياته
حي في جميع شعره
غريب في الناس.. غريب في الشعراء
العقـاد

عصـره :

هو القرن الثـالث الهجـري المليء بالأحداث الجسام والاضطرابـات السيـاسية والاجتماعيـة الدامية · وهو القرن الذي حوى النقيضين : النضج العقلي وازدهار الفلسفة والأدب والعلوم الدينية واللغوية من جهة··والتفسخ السياسي والاجتماعي والانهيار الاقتصادي من جهة ثانية · ففي البصرة

ثورة الزنج (١) ، وفي بغداد طغمة الجند الاتراك والفرس تتجاذب السلطة وتعيث في العاصمة فسادا والبادية تضطرب بالفتن يثيرها كل طامع ومغامر ٠٠ وفي الأمصار والأقاليم مصادرات واقطاعيات ومحاولات انفصال واستقلال ٠٠ أما السلطة المركزية في بغداد فقد ضعفت أيما ضعف حيث أصبح الخليفة لعبة بيد الخدم والجنود الأتراك ٠٠ ومن هنا استنتج ابن خلدون نظريته في انهيار الدول عندما تضعف العصبية الأولى ٠٠ ويصيب مركز السلطة

---

(١) وهي ثورة ذات طابع اجتماعي ، قادها علي بن محمد انطلاقا من البحرين (الكبرى) ثم تحول الى البادية بعد اخفاقه في البحرين وادعى هناك بأنه المهدي المنتظر، لكنه اخفق ايضا فتوجه شطر البصرة . .ثم شطر بغداد نفسها حيث مكث قرابة العام حاول اثناءه تثبيت اقامته بما ادعاه من انه يعلم ما في ضمائر اصحابه كما زعم انه سال ربه ان يعلمه حقيقة امره . فرأى كتابا يكتب له وهو ينظر اليه على حائط ، ولا يرى شخص كاتبه ... ثم عاد الى ظاهر البصرة ، وقام بثورته (٢٥٥ هـ.) بعد ان حشد الزنج الذين كانوا عمالا يكشحون السباخ او الشورج عن شط العرب ، ويعيشون ظروفا حياتية سيئة للغاية .. نجحت الثورة .. واستقل علي بن محمد بالبصرة وجوارها اثر معارك طاحنة . دام حكمه ١٥ سنة انتهت بمقتله بعد ان جرد الخليفة المعتضد حملة عليه ، اجتز راسه وحمل على قناة الى بغداد . للتوسع : انظر كتاب احمد علبي : ثورة الزنج منشورات دار مكتبة الحياة ١٩٦١ بيروت .

(أي العاصمة) وهن وتخلخل نتيجة الترف ، يقول ابن خلدون : « اذا غلبت الدولة على أمرها في المركز فانها تفقد كيانها ولو بقيت الاطراف سالمة (٢) » ٠

وهكذا لم يسلم المركز (بغداد) ولا سلمت الأطراف من آثار غلطة المتوكل الكبرى ولا سيما المعتصم الذي جعل من الاتراك قوام جنده وركيزة حكمه ٠ كانوا يعزلون الخليفة لمجرد وشاية أو مكيدة أو تقصير في زيادة الجعالات والهبات ٠٠ أغروا المنتصر بقتل أبيه المتوكل ٠٠ لكن المنتصر مات كمدا بعد بضعة أشهر فاستخلف المستعين ثم المعتز ثم المستكفي (٣) ٠٠ الى ما هنالك من أشباه الخلفاء وأشباه الرجال الذين كانوا يعرفون لماذا يجيئون ولكنهم لا يعرفون لماذا يذهبون ٠٠ عشراؤهم داخل القصر اماء وخصيان فاسدون (٤) وخارجه أتراك مستبدون ٠ وكان طبيعيا والحالة هذه أن يستقل حكام الأقاليم في امارات وممالك ٠٠ وانقضى العصر الكئيب بدخول الديلم بغدام أيام المستكفي

---

(٢) المقدمة ص ٢٩٤ .

(٣) تاريخ التمدن الاسلامي ج٢ ص ٤٩٠ .

(٤) كان منهم عند المقتدر وحده ١١ الفا . المصدر نفسه .

(سنة ٣٣٤هـ) وانشاء الدولة البديهية (٥) . ثم قيام دولة بني حمدان في الموصل أولا ، وبعد ذلك في حلب وجوارها ، وسقطت مصر والشام بيد محمد بن طفج الاخشيد ، والمغرب وافريقيا بيد الفاطميين ، والاندلس بيد عبد الرحمن الداخل الأموي ، وخراسان بيد نصر بن أحمد الساماني والأهواز (عربستان اليوم) وواسط والبصرة في يد البريديين ، واليمامة والبحرين في يد القرامطة الخ (٦) والفاطميون ـ بعد ذلك ـ في القيروان ثم في مصر .. فماذا بقي للخليفة سوى بغداد وبعض نواحيها ؟!

فتور همة المسلمين :

في هذا العصر ظهر بارزا ضعف المسلمين ويقظة الروم البيزنطيين واستعدادهم للعودة .. كما فسد الحج ـ على رواية المسعودي ـ وكثر قطاع الطرق،

---

(٥) وكان سلطان هذه الدولة ينسحب على بلاد فارس ، والري ، واصفهان والجبل .

(٦) الحضارة الاسلامية ج١ ص ١٩ وما بعدها . آدم ميتز ترجمة محمد عبد الهادي ابو ريدة دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ لبنان .

وأصبحت ديار المسلمين نهبا لكل طامع ٠

الى جانب كل هذا ٠٠ ماذا سيكون شأن انسان العصر ، ولا سيما من كان على شاكلة ابن الرومي ؟ لا شك أنه سيجمع النقيضين على غرار عصره ٠٠ لا بل سيكون بينه وبين عصره صراع مرير ، وتحد أمر ، ونهاية فاجعة ٠٠ انتهى — في أغلب الأحيان — بالهروب من الحياة والاحياء شيمة الزاهدين — أو المتصوفين — أو بالتكالب على الحياة وانتهاب اللذات شيمة بشار وأبي نواس وانتهاز الفرص شيمة المتنبي والتذبذب بين هذا وذاك وذلك شيمة ابن الرومي ٠٠ وأبي العتاهية ٠٠

حركة التشيع :

نشط الشيعة بعد تقلص نفوذ الخوارج ٠ حتى اذا شارف القرن الثالث على الانتهاء أصبح للشيعة مراكز جديدة كالبصرة التي كانت مركزا قديما للعثمانية ٠٠ وفي فلسطين انتشر المذهب الشيعي في طبريا ونصف نابلس وقدس ثم في المغرب وقيام الدولة الفاطمية في مصر وحتى جزيرة العرب كانت كلها من الشيعة عدا مكة وتهامة وصنعاء وقرح ٠

وفي بلاد خوزستان التي تلي العراق كان نصف الأهواز على مذهب الشيعة • أما مدينة قم فكانت مركزا هاما للشيعة •• وهي في نظرهم مدينة مقدسة تجب زيارتها كل عام لأن فيها قبرا للامام الرضا وابنته السيدة فاطمة (٧) •

هذا الانتشار الواسع للتشيع يقابله انتشار آخر لجميع الفرق الدينية من معتزلة وقدرية ومرجئة وأشعرية وجبرية •• بدأت تحتدم ويكثر دعاتها وناشروها ومنظروها ومحاوروها أيام ابن الرومي أي في مطلع القرن الثالث للهجرة •• فكان طبيعيا في شاعر مثقف مثله أن يتأثر بها جميعا ويقارن بينها ويفاضل •• وهو الذي حضر مجالس هؤلاء ودروسهم وأخذ عنهم وحاورهم •• كما كان واضحا ميله الشديد الى التشيع لكنه لم يكن ـ طبعا ـ من الدعاة المتحمسين لهذا المذهب أو ذاك لانطوائيته •• غير أنه كان شديد التأثر والغضب لما أصاب ويصيب العلويين من تنكيل واضطهاد على يد أبناء عمهم • وسنرى ذلك واضحا في مدائحه العلوية •• غير أن حسه الحضاري والانساني غلب على عاطفته

---

(٧) المصدر نفسه ص ١٢٣ •

الدينية يوم رثا البصرة بعد أن أحرقها الزنج بقيادة الثائر العلوي علي بن محمد ..

الحالة الاقتصادية :

تميز هذا العصر باستمرار تدفق الثروة على الخزينة العباسية .. لكنها كانت تذهب هدرا ، في غير وجهها الشرعي اذ استولى عليها الجنود الأتراك ووزراؤهم وغلمانهم ونساؤهم .. واستغلها قادتهم لاستمالة ورشوة أولياء العهد للانقلاب على آبائهم الخلفاء ، كما فعلوا مع المنتصر الذي اشتروه ليتآمر معهم على الفتك بأبيه المتوكل .. لكن المنتصر هذا لم ينعم بخلافة ملطخة بدم أبيه سوى ستة أشهر ..

عاش ابن الرومي اذن في عصر مليء بالاضطرابات والانتفاضات والثورات . وكان على رأسها دائما تلك الفئة المتقدمة في الاسلام عنيت الشيعة والخوارج والموالي ، حتى ليكاد تاريخ هؤلاء وخاصة الشيعة أن يكون ثورات تتلوها ثورات .. والسبب هو اياه : جور الخلفاء وتسلط الغرباء وضعف الروح الاسلامية وانقلاب الخلافة الدينية الى ملكية هرقلية وابعاد أصحاب الحق الشرعي في الخلافة وأصحاب الكفاءات عنها بقوة السيف والعسف والاضطهاد ..

حتى أصبح الشعب في واد وحكامه الجلادون في واد.
ويرى ابن خلدون أن الخلافة ، بعد علي قد تحولت الى ملك تسنده العصبية .. وبعد الرشيد وأولاده ذهبت معاني الخلافة ولم يبق الا اسمها وصار الامر ملكا بحتا وجرت طبيعة التغلب الى غايتها، واستعملت في أغراضها كالقهر والتقلب في الشهوات والملاذ(٨).
يقول علي عبد الرازق في كتابه : الاسلام وأصول الحكم (ص ٢٦) :«لقد أصبح الخليفة وقد تحول الى طاغية ، لا يرتفع عرشه الا على رؤوس البشر، ولا يستقر الا فوق أعناقهم.. وان ذلك الذي يسمى تاجا، لا حياة له الا بما يأخذ من حياة هؤلاء التعساء، ولا قوة الا بما يغتال من قوتهم ، ولا عظمة له ولا كرامة ، الا بما يسلب من عظمتهم وكرامتهم ...»
فكان طبيعيا أن تتشكل المعارضة شيئا فشيئا ، ابتداء من عهد معاوية الذي جعل من الخلافة ارثا موروثا فانقلبت على يديه ملكية قيصرية .. وهذا ما عناه عبد الرحمن بن أبي بكر في قوله لمروان بن الحكم الأموي : « تريدون أن تجعلوها هرقلية ، كلما مات

---

(٨) المقدمة ص ٥٣٨ .

هرقل قام هرقل ؟! (٩)» • وهكذا خضعت الشعوب الاسلامية منذ ذلك الحين الى سياسة الافقار والاذلال والاختلاس والتجويع والتعذيب •• في حين غرق الملوك ـ ولا نقول الخلفاء ـ وأتباعهم في بحر من اللذائذ المحرمة ، والاستمتاع بالقيان والجواري والمحظيات والغلمان ••• وانصرفوا الى بناء مراتع اللهو من قصور كسروية سنمارية ، ودور ومواخير، وحانات •• وقربوا الخلعاء والشطار والمغنين والمغنيات •• وأنفقوا على كل ذلك أموالا طائلة لا تقع تحت حصر •• في وقت كانت هذه الشعوب ، في أكثريتها الساحقة ، تتضور جوعا ، وتموت فقرا ••

من هنا نشأت فكرة المهدوية •• ورسخ الايمان بظهور المهدي •• وهي نظرية سبقت الاسلام • وقد ظهرت في عصور ساد فيها الظلام والطغيان ، وعم الشقاء •• فمال المضطهدون الى الاعتقاد بأن دفع الضيم ، ورفع الطغيان أمر مستحيل •• فلا بد ـ اذن ـ من منقذ أو « مخلص » ترسله العناية

---

(٩) محمد ضياء الدين الريس : النظريات السياسية الاسلامية ص ٩٦ •

الالهية (١٠) ليخلص البشرية المعذبة مما أصابها من جور الحكام وفسادهم ٠٠

وفي معتقـدات المصريين القدمـاء ، والفرس والهنود ، والعبرانيين شيء من هذا الايمان (١١)٠ على أنه يجب أن نشير الى الفارق الكبير بين فكرة « المخلص » وفكرة المهدي المنتظر ٠ ذلك ان المخلص، في العقيدة المسيحية الذي هو عيسى المسيح لن يأتي ـ كالمهدي ـ الى هذه الارض ليصلح الناس « ويملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا » ٠٠ بل ان المسيحيين ينتظرونه ليحاسب الناس يوم القيامة بالذات(١٢)٠

أما اقتران عقيدة المهدي بالشيعة خاصة ، فلأنهم كانوا قطب المعارضة العنيفة الثائرة في العصـور الاسلامية على امتدادها ٠٠ فالتقية والغيبة (أو انتظار الغائب) عقيدتان متلازمتان تلجأ اليهمـا

---

(١٠) في الغرب المسيحي يسمونها La grâce divine وفي الاسلام : اللطف الالهي ، الذي يلطف بالعباد ويرسل لهم المنقذ . ومن صفات الله في الاسـلام : اللطيف وخفي الالطاف الخ .

(١١) انظر : المهدية في الاسلام لسعد محمد حسن ص ٤٢ ٠

(١٢) احمد علبي : ثورة الزنج حاشية ص ٢٨ منشورات دار مكتبة الحياة ١٩٦١ بيروت .

الشعوب المسحوقة بشكل عام ، وتعيش في ظلهما ، وتتعلل بهما ٠٠ لعل الفرج يأتي منهما ، وتحفظ بهما الكرامة وتستعاد الحقوق ٠٠ تعمل بهما ، في العادة ، الفئة الاكثر ثورية ، والاقوى تنظيمـا ، والأشد استمرارا في النضال ، أو التحضير للنضال ٠ ولقد رأينا كيف أن هذه الفئة استقطبت عواطف الجماهير المضطهدة مثلها ٠ وهذه ظاهرة طبيعيـة تحدث في كل مجتمع متخلخل البنيان تحكمه طبقـة أتوقراطية مونارشية مستغلـة ٠٠ وترزح تحـت حكمها الجائر طبقات مستغلة كثيفة ٠٠ سرعان ما تبرز من بينها طبقة ، أو فئة متقدمة ، تشعر أكثر من غيرها بوطأة ذلك الاستغلال ، وتحاول رده بشتى الوسائل ، وتبشير الناس بالفرج القريب المتجسد بالدولة ــ البديل الموعودة حيث المساواة والعدالة والحرية : أقانيم ــ مشاعل ٠٠ طالما حلم الاصلاحيون القادة بتحقيقها بين الناس ٠٠ وطالما سقطوا دونها شهداء ٠٠ هذا الاستقطاب يتبعه حتمـا استقطاب آخر ، وهو ميل الشعراء الى مثل تلك الفئة الرائدة ، أو الطبقة المتقدمة : ينصرونها بعواطفهم وقصائدهم ذابين عنها ومدافعين ٠٠ ومتغنين بمناقبها وبطولات ثائريها ٠٠ على شكل انتماء كلي ، كما فعل دعبل

ومهيار والسيد الحميري والرضيان وأبو فراس وبعض من المتنبي وأبي العلاء ·· أو على شكل انتماء عاطفي كما فعل أبو نواس ، والفرزدق أيام الامام الحسين وبانتماء أقوى : ابن الرومي · أو على شكل انتماء مصلحي ·· كما فعل صاحب الزنج علي بن محمد (١٣) الذي انتحل عقائد الشيعة لا حبا بهم بل توصلا الى دويلة يحكمها لا أكثر ولا أقل ·· وهذا ما سيسعى اليه المتنبي جاهدا ·· لكنه لم يصل وحسنا فعلت به الأقدار ما فعلت ·· رحمة بالفن ·· ودولة الشعر ··

---

(١٣) وقد كان صاحب الزنج شاعرا الى كونه ثائرا .. ومن ابياته التي تشتم منها رائحة تشيع مصلحي :

لهف نفسي على قصور ببغدا ... د وما حوته من كل عاصي
وخمور هناك تشرب جهرا ... ورجال على المعاصي حراص
لست بابن الفواطم الزهران لم ... اقحم الخيل بين تلك العراص

وقد اقتحم الخيل فعلا فأحرق البصرة ومكث في عاصمته المختارة قرابة ١٥ عاما .. لكنه لم يبشر بدولة شيعية تقوم مقام دولة بني العباس .. ولا جاء بامام منهم ليكون الخليفة ـــ البديل !! المؤلف

(١٤) مفردها العرصة وهي فسحة الدار .

قرن هابط صاعد :

رأينا كيف سادت الفوضى واعتسف الاقطاع ، واضطرب حبل الأمن وقامت الانتفاضات في هذا القرن الثالث الذي عاش ابن الرومي في أوله ومات في آخره ·· وعايش خلفاء راحوا بين قتيل على يد ابنه كالمتوكل ، وثلاثة خلعوا ثم قتلوا كالمستعين والمعتز والمهتدي ·· والآخرون بين مسجور ومسمول ومسحول وأمواله مصادرة أو مستصفاة ··

لكننا سنرى أيضا كيف أن العلوم والفلسفات قد نقلت وتركزت علوم الدين واللغة على أصولها المعللة وتعرف العرب على منطق أرسطو وفلسفة اليونان كافة وأساليب الرومان والفرس في السياسة والادارة والحرب والفن ·· وانعكس كل ذلك على حياة الناس وتفكير المفكرين وشعر الشعراء وجسده الخلفاء والأمراء والقواد في تطبيق الجانب السلبي منه في أغلب الأحيان ·· وغاب الوجه العربي عن الحضارة وان بقي اللسان ··

من منجزات هذا العصر باختصار :

١ ــ تمت المذاهب الاربعة في الفقه .

٢ ـ ظهرت آثار أقطاب الحديث : كالبخاري ومسلم وأبي داوود وابن ماجة والترمذي والنسائي ونشأ علم الكلام واتسع ·

٣ ـ سادت السنة أيام المتوكل بعد أن كانت السيادة للمعتزلة في القرن الثاني للهجرة ، وانتهى القرن الثالث بظهور أبي الحسن الأشعري الذي مهد لظهور الغزالي فيما بعد ·

٤ ـ نضجت علوم اللغة ، وتوسعت مذاهبها بوجود أمثال ابن قتيبة والضرار ، وابن السكيت ، وابن الاعرابي ، ونغطويه ، والجاحظ ، وثعلب ، والزجاج ، والمبرد ، وابن دريد ، والأخفش ، والسجستاني ، والصولي ، والرياشي ، وقدامة بن جعفر ·· الخ ··

٥ ـ ظهر علم الجغرافيا على يد البلاذري واليعقوبي، والدينوري، والبلخي ،والطبري وابن البطريق،وابن خرداذبه، وابن الفقيه، وابن رسته ·· الخ ··

٦ ـ ظهر أول فيلسوف عربي : الكندي ثم تبعه الفارابي وابن سينا ·

٧ ــ وفي الطب ظهر الرازي ، وابن سهل ، وابن ماسويه ، كما ظهر المتجمون بكثرة (١٥)٠٠

٨ ــ وفي الرياضيات الخوارزمي ٠

٩ ــ وفي الكيمياء جابر بن حيان وكفى بهذين دون ذكر سواهما ٠٠

الى جانب ظهور فنون كثيرة من أساليب الحياة العقلية الجديدة ٠٠ حتى أصبح الناس في هذا القرن وهم بين عالم ومتعلم ولا ثالث لهما الا في الأرياف وأطراف الجزيرة ٠٠ فبات أمرا ضروريا وبديهيا أن تجد في كل بيت خزانة للكتب ، يرى فيها الانسان البغدادي خاصة نفسه ورضاء نفسه (١٦) ٠٠٠ وفي أسواق بغداد والبصرة والكوفة دكاكين الوراقين

---

(١٥) العقاد : ابن الرومي حياتـــه من شعره ص ٤١ ط ٧ دار الكتاب العربي ١٩٦٨ ــ بيروت .

(١٦) واني لارى ان هذه الرغبـــة في اقتناء الكتـــب والتهام المعرفة لا تزال حتى اليوم تختلـــج في نفس البغدادي خاصة والعراقي عامة حتى اصبحت خاصة مميزة من خصائصه .. فالعراق بشهادة الناشرين العرب اليوم كان ولا يزال القطر العربي الاول في استهلاك الكتب .
المؤلف

التي لا تحصى ، والتي أصبحت تجارة رابحة للناسخ والمصور والبائع والمؤلف (١٧) .

الشعر والشاعرية في عصر ابن الرومي :

اذا اعتمدنا رأي ابـن الرومي في شعره ، أو الشعر عامة ، نكون قدمنا مثلا حيا على حالة الشعر عصر ذاك ومفهومه عند النقاد . فابن الرومي ، في هجائه الساخر للأخفش وهو عالم لغوي عروضي معروف ، تعريف بالشعر على أنه ليس منطقا ، كما أنه ليس مبتذلا ، ولا سهلا : انه شعر للخاصة لذوي العقول .. لا للبهائم .. على حد قوله :

شعـــري شعـــر ، اذا تأملـــه الا
نسان ذو العقل والحجا عبده ..

لكنـــه ليس منطقـــا بعـــث الله
بـــه آيـــة لمـــن جحـــده ..

ولا أنـــا المفهـــم البهـــائم والطير
سليمـــان قـــاهـــر المـــردة ..

---

(١٧) كما الح الى ذلك ابن المقفع في مقدمة كتابه المترجم : كليلة ودمنة .

ما بلغت بي الخطوب رتبـــة مـــن
تفهــم عنـــه الكلاب والقردة ..

والشعر في نظر ابن الرومي كالشجرة : فيهـــا القشرة اليابسة ، وفيها الخشب الجاف ، والشوك والثمر .. وهو هنا يبرر منهجه في الشعر الذي عيب عليه بأنه ركيك الأسلوب مستقص للمعانـــي كأنه النثر :

قـــولا لمـــن عـــاب شعـــر مادحه
أمـــا تـــرى كيف ركب الشجر
ركب فيـــه اللحاء والخشب اليا
بس ، والشوك بينه الثمر ..

على أنه ـ في الوقت نفسه ـ يعكس اتجاهـــا جديدا في الشعر العباسي ألا وهو : شعر الثقافـــة والعقل ، لا شعر الفطرة والعاطفة الساذجة . لقد أصبح الشعراء مثقفين ، علماء ، نصف فلاسفة أو مناطقة ، لا يكتفون بالموهبة وحدها ، بل لقد فرض العصر أن يكونوا كذلك .. من هنا انقلب الشعر وعاء للحكمة والفلسفة واعيا على المغلقين ، من جهة ، ولكنه من جهة أخرى خفت موازينه الفنية

ـصار لعبة العقل والاصطناع اللغوي والزخرفة البلاغية ، لا عطاء الموهبة والاصالة وحدهما ·· عما قليل سنجد أبا تمام يبرر معمياته الشعرية وغوصه على المعاني البعيدة بأن العيب في الناس لا في شعره ·· حين سأله أحدهم : لماذا تقول ما لا يُفهم يا أبا تمام ؟

فأجاب : ولماذا لا تفهمون ما يُقال ؟··

وسينظر أبو العلاء ـ في القرن الرابع ـ النظرة نفسها الى الشعر على اعتباره حكمة وفلسفة لا « شعرا » حين قال متباهيا : أنا وأبو تمام حكيمان والشاعر البحتري ·· هذه النظرة العلائية ما هي سوى نتيجة لمذهب تعبيري بدأ منذ مسلم بن الوليد ثم بشار وأبي نواس الذين حاولوا أن يجددوا في صياغة الشعر العربي ويخرجوه من دائرة التقليد والجمود · هذا المذهب هو ما سمي « بمذهب البديع » أي مذهب الجديد القائم على مبدأين بلاغيين : التلوين اللفظي والتلوين المعنوي (١٨)· وبتعبير آخر : على المجازات والاستعارات

---

(١٨) كتاب الخطابة لارسطو الذي افاد منه شعراء ونقاد العصور العباسية في فهم الشعر ونظمه ونقده .

ووظائفهما في التعبير والتصوير من ناحية (١٩) ، وعلى المنطق والفلسفة ووظائفهما في تعميق الشعر وعقلنته ـ اذا صح التعبير ـ حتى غالوا بهذا غلوا كبيرا فانقلب السحر على الساحر ـ في القرن الرابع ـ وانتهى الشعر الى أن يصبح أحجية من الأحاجي وتعقيدا من التعقيدات العقلية ولعبة عبثية أو ما سماه حكيم المعرة : لزوم ما لا يلزم كما استقلت فروع علم البديع الى : أ ـ علم البيان وقوامه دراسة التشبيه والمجاز والاستعارة وما اليها ٠ ب ـ علم البديع وقوامه دراسة المحسنات اللفظية من جناس ومطابقة ، وغيرها ٠ ج ـ علم المعاني وقوامه البحث في نظم الجمل وتحديد العلاقة بين أجزائها وأسرار هذا التحديد (٢٠) وهو ما يسمى عند الفرنسيين : السانتاكس Syntaxe ويعتبر أبو تمام ممثلا رائدا لعلم البديع الذي عمل ابن المعتز به وألف فيه وسماه المذهب الكلامي ٠ أما ابن الرومي فقد تأثر بهذا المذهب الجديد لكن

---

(١٩) الادب ومذاهبه ص ٣٤ و ٣٥ ط ٣ محمد مندور مكتبة نهضة مصر ومطبعتها ٠

(٢٠) نظم هذا العلم في كتابي « دلائل الاعجاز » و « اسرار البلاغة » للجرجاني ٠

من جهة التلوين المعنوي وحده دون التلوين اللفظي أو الاسلوب وما يتبعه من محسنات ٠٠ وما ذاك الا لانشغاله بالمعاني يتتبعها في القصيدة باستقصاء غريب حتى يميتها كما قال عنه صاحب العمدة ، أو « حتى لا يبقى فيها زيادة لمستزيد » كما قال ابن خلكان ٠

السخرية :

وفوق هذا نجد ظاهرة فريدة في هذا العصر تميز أدب الأدباء وشعر الشعراء، هي روح السخرية والمرح وحب الاضحاك والنكتة حتى الاحماض ، كما عند الجاحظ وأبي نواس ٠٠ ثم ابن الرومي خاصة ، ولا سيما تلك السخرية الناقدة الشامتة ، والتصويرية الكاريكاتورية التي عرف شاعرنا بهما وخلدت لوحات له كبارا ٠٠وكان العصر هو الموحي بها ٠٠ لما جمع بين طبقاته من تناقضات وبينها وبين الحكام من فوارق ولدت فواجع وكوارث وانتفاضات ٠٠ وكلها كان من النوع المضحك المبكي ٠٠ فلم لا تتناولها مباضع الجراحين وأقلام الشعراء بالتصوير والتشهير والفضح ؟٠٠ كان أمثال الأخفش ممن يجسد بعاهاته الخُلقية

والخلقية ، وعقده الثقافية مادة دسمة للتشهير والتصوير وأخذ النماذج الحية ..

انتشار النظم وانحسار الشعر :

نستطيع أن نسمي عصر ابن الرومي عصر النظم والشعر على السواء مع ميل شديد نحو النظم لمجرد النظم دون موهبة أو ثقافة أو استعداد. انه ـ على كل حال ـ زمن الشعر .. على حد تعبير أودنيس علما بأن كل أزمنة العرب مليئة بالشعر واللغة العربية نفسها لغة شعر ومجاز ورمز .. والعرب أمة شعر وخطابة كما يقول الجاحظ .. وعصر ابن الرومي (٢١) لم يشذ عن القاعدة بل كان هو القاعدة حين صار كل عربي في بغداد وغير بغداد شاعرا بالقوة أو بالفعل وهو الى الفعل أقرب : ومن كان منهم شاعرا بالقوة كالخلفاء والوزراء والأمراء كان مستمعا جيدا وراوية حاذقا حتى الأعاجم كانوا يزاحمون العرب في اجادة نظم الشعر والسماع والرواية كيلا يقال عنهم أعاجم لا يفقهون من العربية شيئا .. ولهذا تضايق ابن

---

(٢١) العقاد : ابن الرومي : حياته من شعره ط ٧ ص ٤٧ .

الرومي من مزاحمة بعض الملوك (الأمراء الأعاجم) له في ميدان الشعر فقال :

قد بلينا في دهرنا بملوك أدباء ـ علمتهم ـ شعراء

وبأي شيء لم يبتل ابن الرومي ؟ حتى الأعاجم والمستعجمون زاحموه فأزاحوه ·· لكنهم لم يستطيعوا أن يزيحوه عن القمة فظل عالقا بها ·· لا متربعا ولا مستريحا ·· ربما ·· أما هم فظلوا في السفح يلوكون الكلمة العربية وتلوكهم ·· حتى اذا أعيتهم حشروا في منظوماتهم كلمات أعجمية هجينة ··

يقول العقاد : « وربما عرضت (لهم) الكلمة الفارسية في البيت العربي مما له المرادفات بالعشرات » فيحشرونها فيه تأنقا أو تجاهلا للمرادف العربي · كقول شاعرنا نفسه :

يا أيها الملك الذي
في برده قمر وشر (٢٢)

(٢٢) شير تعني الاسد بالفارسية مع ان للاسد في اللغة العربية قرابة ٦٤ اسما ونعتا . انظر : ابن الرومي حياته من شعره للعقاد ص ٤٨ .

كما نظموا على الأوزان الفارسية كالدوبيت والرباعية ، أو تغنوا في التسميط. والتوشيح والازدواج (٢٣) •• وأسعفهم علم البديع فدلهم على مناهج الافتنان وبصرهم بأنماط المحسنات والتلوينات المختلفة فصبوا نظمهم في قوالب جاهزة حفلت بكل شيء ولم تنطو على شيء ••

كان لا بد ــ اذن ــ أن تنحسر موجة الشعر الجيد لتحمل في عرض البحر شاعرا مبدعا واحدا أو اثنين على الاكثر •• ويبقى الآخرون على الشاطىء ينتظرون الاقلاع •• ولا شراع •• فكسدت سوق الأدب الرفيع ، ولم يعد أمام الشاعر المطبوع سوى أن « يتوظف » في بلاط الخليفة •• شرط أن يجيد التزلف والكذب في المديح ، وأن تذوب شخصيته في شخصية ممدوحه وتمحى تماما •• كما فعل البحتري ذلك الشاعر الريفي المسكين عند المتوكل •• فعاش على فتات كرامته وبقايا حريته ولم يبدع الا بعد أن تحرر نهائيا ــ بعد مقتل

---

(٢٣) المصدر نفسه .

سيده ــ من قيود القصر . وكانت « السينيــة » أروع أثر فني تركــه لنــا أبو عبادة في متحــف التراث (٢٤) .. أما ابن الرومي فلم ينجــح في الناس فكيف ينجح في البلاط ؟ حاول جهــده .. لكنه فشل .. وصل الى مدخل بلاط المتوكل .. الى حيث الساقي .. ثم تراجع .. ويقال انه مدح خليفتين اثنين هما : المعتصم والمستعين (٢٥) ولم يكن قد تجاوز الاربعين بعد .. كان مدحا سياسيا أكثر منه مدح طمع في عطاء . كان شاعرنا مــن حزب المستعين والمعتــز ينازع المستعين الخلافــة ويتقاتلان من أجلها . فمن الطبيعي أن يناصر ابن الرومي المستعين لأن بغداد كانت معه وكذلك محمد ابن عبد الله بن طاهر أكبر ممدوحي شاعرنا ..

---

(٢٤) انظــر تقييمنا الجديد للسينيــة في كتابنا : البحتري : بين البركة والايوان . دار مكتبة الهلال بيروت .

(٢٥) هو احمد بن محمد بن المعتصم بن الرشيد وامه اسمها مخارق جاء بعد المنتصر المتآمر على ابيه المتوكل وهو اول خليفة من بنــي العباس لم يكــن ابوه خليفة . للتوسع انظر كتاب : محاضرات تاريخ الامم الاسلامية ص ٢٧٢ تاليف الشيخ محمد الخضري بــك ، المكتبة التجارية الكبرى ١٩٥٣ القاهرة .

وصديق الصديق صديق .. فكيف اذا كان مرشحا للخلافة ؟ وابن الرومي من مواليد بغداد لم يغادرها الا قليلا جدا ، وهي تناصر المستعين كما قلنا .. فمن بابِ الوفاء للصديق الكبير ولمسقط الرأس على الأقل كان ذلك المدح .. ثم لم يتكرر .. واكتفى شاعرنا بمدح بعض الأمراء والاصدقاء ، اما اعجابا أو تكسبا .. مدح حسب رواية العقاد أربعين منهم ونيفا .. ووقف أكثر مدائحه على رجال أسرتين بارزتين « في تاريخ الوزارة والقيادة في الدولة العباسية (٢٦) » هما : آل وهب وآل طاهر (٢٧) .

---

(٢٦) ابن الرومي : حياته من شعره ص ٢٥٩ ط٧ العقاد . الناشر دار الكتاب العربي بيروت لبنان ١٩٦٨ .

(٢٧) آل وهب : كانوا نصارى ثم اسلموا . وهم من قرية في واسط . اشتغلوا بالكتابة في بلاطات الامويين ، ثم عند العباسيين . اشتهر منهم : الحسن بن وهب بن سعيد واخوه سليمان — المصدر نفسه . آل طاهر : أسرة من اصل فارسي ، كانت شهرتها في عالم الحرب والادب والنجدة والوزارة ورئاسة الشرطة في بغداد ، اشتهر منها في العباسيين : طاهر بن الحسن بن مصعب بن رزيق بن ماهان .. أسلم جده رزيق على يد عبيد الله طلحة الطلحات الخزاعي والي سجستان .. المصدر نفسه .

ووزع باقي مدائحه على باقي أصدقائه ·· على أننا سوف نرى أن أكثر مدائحه انقلبت فخـرا بنفسه وبشعره على غير استعلاء ، أو راوحت بين مدح وفخر ولوم وعتاب أو ·· هجاء ·· أحيانـا كثيرة ·· في القصيدة الواحدة ···

ثقافته وأستاذوه :

كان ابن الرومي من أسرة غنية • وقد ورث عن أبيه ضيعة أو مزرعة متواضعة مكنه ريعها من أن يعيش ـ أول أمره ـ عيشة راضية وأن ينصرف الى متابعة التحصيل وحضور مجالس العلماء والفقهاء والأدباء والرواة وشارحي المتون والبلاغيين والتزود بزاد دسم من ثقافة عصره • وكان أبوه ـ كما تقدم معنا ـ قد دفعه في هذا الاتجاه منذ صغره ••

تتلمذ شاعرنا على محمد بن حبيب الراوية النسابة ، صديق والده ، وقد كان يرجع اليه دائما

في تفسير ما استغلق عليه من غرائب اللغة العربية ٠ ويرجح العقاد أن ابن الرومي تتلمذ أيضا على أبي العباس ثعلب وحضر مجالسه ٠ وروى عن قتيبة بن عمرو السكوتي بالكوفة ٠

وذكر المعري عن ابن الرومي : « أنه كان يتعاطى الفلسفة » ٠ والمسعودي : « ان الشعر كان أقل آلاته » ٠٠ على غزارة ما قال من الشعر ٠٠ أما الفلسفة والمنطق (أو القياس) والنجوم والعقائد والكيمياء فسوف نراها مبثوثة في تضاعيف شعره تجري على عمق واحد مع حسه وعاطفته وخياله ٠٠

وهكذا فقد أتيح لشاعرنا أن يتزود بثقافة واسعة ومكثفة : لغة ، ونحوا ، وأدبا ، وعلوما أصيلة وأخرى دخيلة ، وفلسفة وما يتصل بها من أساطير اليونان وخرافات الهند وحكايات الفرس ، الى سائر ما كانت تدور عليه ، في تلك البيئة المختمرة ، مباحثات رجال الفكر ، وكان ابن الرومي يخالطهم ، ويساجلهم ويناقشهم (٢٨) مناقشة المطلع الخبير ٠٠

---

(٢٨) دائرة المعارف ج٣ ص ١٢١ .

حيـاتـه :

هو علي بن العباس بن جريج (أو جورجيوس أو جرجيس أو جرجس (٢٩)) . كنيته أبو الحسن، ولقبه ابن الرومي (أي اليوناني الأصل) . ولـد ببغداد وبقي فيها لا يغادرها الى أن توفي ودفـن فيها .. اللهم الا مرة واحدة غادرها الى سامراء وطال مقامه فيها (٣٠) فأخذه الحنين الى بغداد كل مأخذ ، وراح يتغنى بمدينـة طفولتـه وصبـاه واستقراره :

بلد صحبت به الشبيبة والصبـا
ولبست ثوب العيش وهو جديـد
فاذا تمثـل في الضمـير رأيتـه
وعليـه أغصان الشبـاب تميـد

كان منزله في حي العقيقة ، ودرب الختلية ، بازاء قصر عيسى بن جعفر بـن المنصور (٣١) وبما أن المنصور باني بغداد قد هندسهـا دوائر

---

(٢٩) معجم الادباء ج٦ ص ٤٧٤ .
(٣٠) زهر الاداب ج٣ ص ١٠٠ .
(٣١) وفيات الاعيان ج٢ ص ٤٣ .

دوائر فجعل دائرة المركز لقصر الخلافة والدائرة المحيطة بها للوزراء وكبار القوم ، مما يحملنا على الاعتقاد بأن العباس : والد ابن الرومي كان ثريا ومن كبار القوم هؤلاء كي يتمكن من اقتناء منزل يقع في دائرة قصر حفيد المنصور ·· أو قريبا منه ·

ولد شاعرنـــا يوم الأربعاء في الثاني من رجب سنة ٢٢١هـ (٢١ حزيران ٨٣٦م) من أب رومي وأم فارسية (٣٢) ونشأ في ولاء عبد الملــك بــن عيسى بن جعفر بن المنصور · ويروي صاحــب معجم الأدباء أن ابن الرومي كان على قسط وافر من ثقافة عصره في شتى فروعها ·· بفضل أبيــه العباسي الذي كان مسلما متعلما ربــاه ووجهــه الوجهة العلمية التي يريد · لكنه ما لبث أن مات على غير انتظار فاضطربت حياة الفتى بعض الشيء لكن أخاه الأكبر (٣٣) سد الفراغ مع الأم الفاضلة، غير ان الموت طوى هذا الأخ وعمر ابن الرومي في الواحدة والثلاثين ·· ثــم طــوى الأم ·· فزاد

---

(٣٢) لا يذكر المؤرخون اسمها .

(٣٣) ابو جعفر محمد ، وكان اديبا وعمل كاتبا . انظــر الجديد في الادب العربي ط١ ص ١٢٤ حنا فاخــوري دار الكتاب اللبناني ١٩٦٩ بيروت .

اضطراب الشاعر الذي يبدو أنه لم يعد نفسه لتحمل المسؤوليات ·· أو أن تكوينه الجسدي والنفسي لم يكن سويا يضارع الأسوياء همة واستعدادا وجرأة وطموحا ·· وتلاحقت الأحداث المؤلمة ففقد أبناءه الثلاثة الصغار : هبة الله ، ومحمدا ، وثالثا لم يصلنا اسمه ·· ثم ماتت زوجه وهي شابة ·· فلم يبق في ساحة الفجيعة سواه ·· فانقلب هو ذاته فجيعة لا ترثي غيرها بقدر ما ترثي نفسها ·· ومن المفجوعين من يصلحون لتحمل الفواجع وتجاوز آلامها وهمومها ·· أو ان هممهم تشحذ وتتبلور بل تتجوهر بنار العذاب فيبرزون للحياة مسلحين بسلاح التجربة المرة وينجحون في الصراع على الحلبة ·· أما ابن الرومي فمن غير هذه الطينة الصراعية الفذة ·· انه من طينة من ينهارون أمام الكارثة ·· لا يعرفون كيف يدفعونها أو يدفعون آثارها ·· كل ما يعرفونه هو الاكتواء بها والهروب منها اليها ·· والارتماء على وهجها !!

وسنرى ان حياته كانت سلسلة انهزامات وترددات جعلت من صاحبها ألعوبة القدر وأضحوكة البشر في عصر لا يرحم الضعفاء ويدوسهم ·· ولا يهاب الا الذئاب والأبالسة ويقدسهم ··

أما البراءة فهي ضعف ‥ وأي ضعف ‥ وقلة الحيلة أو سوء التصرف أو الجهل بالتدليس والتعامل بخبث مع الناس ‥ صفات لا تليق بالرجال ‥ لذلك لم يكن ابن الرومي ـ في نظره ـ رجلا ‥ كأن صفات « الانسان » يجب أن تنتزع دائما من صفات الوحش ‥ وقد فضل ابن الرومي أن يكون انسانا بين وحوش ‥ لا وحشا بين أناسين ‥

أما الشاعرية ـ في رأيه ـ فبقدر ما يجيد صاحبها الكذب والزلفى والاصطناع والتكسب والا فهي هراء ‥ على أن ابن الرومي آثر أن يكون صادقا مع نفسه وحسه وعقله ‥ وان أغضب من لا نفس لهم ولا حس ولا عقل ‥

أما في دولة الشعر فكان له الصولجان بعد أن حرم من دولة بني العباس كشاعر مقرب من البلاط وكمتعيش على فتات موائد الخلفاء شيمة البحتري مثلا ‥ وحسنا فعل القدر حين أقصاه عنهم وعن قيودهم ومراسيمهم ‥ كما فعل مع معاصره الجاحظ الذي أقصي ، لدمامته ، عن بلاط المأمون ‥ فأنشأ كل منهما دولته : هذا في النثر فأبدع ‥ وذاك في الشعر فاستطال ‥ وكان كل منهما معجبا بالآخر

وقلد ابن الرومي الجاحظ في السخرية وتشويه السحنات ٠٠ كما جارى ـ في الشعر ـ دعبلا والضحاك من معاصريه (٣٤) على أن رافده الأول والأخير كان الموهبة والعبقرية الخلاقة ٠٠ والباقي من عمل العقل المثقف المثقل بمخزون حضاري قل نظيره ، وارث يوناني فارسي كانت له علامات واضحة وعميقة في منهجه الشعري سنعرض له بعد قليل ٠٠

عقيدته :

كان طبيعيا في ابن الرومي أن يكون في صف المعارضة الدينية والسياسية ، بعد أن فشل في ما نجح فيه غيره من دهاء وحيلة وتزلف واهتبال فرص ٠ ولفرط حساسيته كان يرفض الظلم والعنف والاستغلال (٣٥) لهذا كره استغلال الخلفاء العباسيين لحق أبناء عمهم العلويين ، فكان ظاهر التشيع متحمسا للدفاع عن الطالبيين داعيا لنصرتهم ناعيا على العباسيين استئثارهم بالخلافة ، دونهم

---

(٣٤) المصدر نفسه ص ١٢١ .

(٣٥) ابن الرومي : حياته من شعره ، ص ٢١٨ العقاد .

وهي حق مشروع لهم لا لصلتهم بالنبي وآل بيته فحسب بل لأنهم أكفاء جديرون بالقيادة الدينية والزمنية . ثم لأنهم أبلوا في الدين البلاء الحسن ودافعوا عن حوزته ، وقدموا دماءهم من أجل نصرته فكان منهم الدعاة ، والثوار ، والشهداء ..
وهذا هو أبو العلاء يقول في رسالة الغفران : ان البغداديين يدعون أنه متشيع ويستشهدون على ذلك بقصيدته الجيمية :

أمامك فانظر أي نهجيك تنهج
طريقان شتى : مستقيم وأعوج ..

ولكن أبا العلاء لم يحسم الأمر وعلقه في : (ان البغداديين يدعون) .. غير ان هذا لم يمنع العقاد من الحسم فأكد تشيع ابن الرومي أو بالحري شيعيته قائلا : « وانما نعتقد ان المعري لم يطلع على شعره كله فخفيت عنه حقيقة مذهبه » ، ويؤكد العقاد : « ان القصيدة الجيمية وحدها كافية في اظهار التشيع الذي لا شك فيه لأن الشاعر نظمها بغير داع يدعوه الى نظمها من طمع « بنوال » أو مداراة « لأحوال » .. بل نظمها وهو يستهدف للخطر الشديد من ناحية بني طاهر وناحية

الخلفاء .. (٣٦) » حتى بلغ به الحماس ، في قصيدة نونية أخرى حد لوم نفسه على التقصير في بذل دمه لنصرتهم :

ومـــن التقصـــير صونـــي مهجتي
فعـــل من أضحى الى الدنيا ركـــن

لا دمـــي يسفـــــك في نصرتكـــم
لا ولا عرضـــي فيكـــــم يمتهـــن

غـــير أنـــي بـــــاذل نفســـي وان
حقن الله دمي فيما حقن (٣٧)

ليـــت أنـــي غـــرض من دونكـــم
ذاك أو درع يقيكـــم ومجن ..

أتلقـــــى بجبينـــــي مـــن رمـــى
وبنحري وبصـــدري مـــن طعـــن

ان مبتـــاع الرضـــى مـــن ربـــه
فيكم بالنفس لا يخشى الغبن ..

ان عاطفة جياشة كهذه العاطفة لا يمكن أن يشك في صحة عقيدة صاحبها وحبه .. تشيعا كان ذلك

---

(٣٦) المصدر نفسه اخر صفحة ٢١٨ واوائل ص ٢١٩ .
(٣٧) المصدر نفسه ص ٢٢٠ .

منه أو غير تشيع ٠٠ ودع عنك تشيعه الموروث من والديه الشيعيين ٠٠ فهذا ــ في نظري ــ لا قيمة له الا اذا تبنى العقل هذا الارث وعلق به القلب ودعا اليه الوجدان ٠٠ حينئذ يصبح عقيدة راسخة ٠٠ لا انتماءا عابرا ٠٠

هكذا وبمثل هذا الاندفاع كان ابن الرومي شيعيا ٠٠ ونحن نقول ان من كان في مثل رهافة حس ابن الرومي وكرهه للظلم والاضطهاد ،وصدقه وصراحته وحبه للحق وأصحابه ٠٠ لا يمكن الا أن يكون معارضا أو ثائرا أو انقلابيا ٠٠ أي شيعيا ٠٠ وما رأيك ببعض الخلفاء العباسيين أنفسهم الذين صحا وجدانهم فرأوا ان آباءهم أو أجدادهم قد ظلموا أبناء عمهم العلويين حين اغتصبوا الخلافة منهم اغتصابا بعد أن تعاهدوا ــ ابان الثورة ــ على ذلك ؟ كالمأمون (٣٨) والمعتضد الذي أكثر

---

(٣٨) هو عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي كان عالما ومحبا لابي الفلاسفة ارسطوطاليس وتعاليمه كما كان على راس المعتزلة الذين عظم شأنهم في ايامه. ولاه ابوه العهد وعمره ١٣ سنة . دامت خلافته ٢٠ عاما وخمسة اشهر وثلاثة ايام .. عاصره في فرنسا شارلمان صديق ابيه (+٨٤٠) ثم لويس الاول . =

ابن الرومي من مدحه ·· وكالمنتصر الذي اضطغن على أبيه المتوكل اثر مشادة بينهما حول حرمة الامام علي وأبنائه · فتآمر الابن على الأب بواسطة الجنود الاتراك وحل محله في الخلافة ·· يقول العقاد : « وكانت العاطفة أبدا مع بني علي حيث كانت المصلحة أبدا مع بني العباس ·· (٣٩) »

= اختار المأمون لولاية عهده الامام علي الرضا بن موسى الكاظم ، وهو الثامن من ائمة الشيعة الامامية الاثني عشرية (يسميهم المستشرق الاب لامانس اليسوعي الـ Diodécimans) وهي ترجمة حرفية للاثني عشرية .. واتخذ الشعار الاخضر بدل الاسود . لكن الامام توفي في طوس وعاد المأمون عن عهده والى شعاره الاسود بعد فتنة مشهورة .. زوج المأمون الامام علي الرضا ابنته ، وزوج ابنته الثانية الامام التاسع محمد الجواد . وبالرغم من خروج بعض العلويين عليه، ظل المأمون يعامل العلويين معاملة طيبة . جاء في وصيته لاخيه المعتصم : « وهؤلاء بنو عمك امير المؤمنين علي بن ابي طالب ، رضي الله تعالى عنه ، فأحسن صحبتهم ، وتجاوز عن مسيئهم ، واقبل من محسنهم ، وصلاتهم فلا تغفلها في كل سنة عند محلها ، فان حقوقهم تجب من وجوه شتى .. » لكن المعتصم (محمد بن الرشيد) لم يعمل بموجب الوصية . كما انه لم يضطهد العلويين اضطهادا شديدا . محاضرات في تاريخ الام الاسلامية ط٨ ص ١٧٤ وما بعدها .

(٣٩) ابن الرومي : حياته من شعره ص ٢٣١ .

وابن الرومي ، لا يملك أمام المجازر التي تحل بالطالبيين الا أن يغضب الى درجة الثوران والهيجان وهو صاحب الحس المرهف ، فيطلقها سورة متشيع ناقم ‥ في قصائد جياشة ، أقلها مما يطيح بالرأس في تلك الأيام ‥ لكنه ، بذلك ، كان يرضي ضميره وتطلعاته الى غد علوي مرغوب يقضي على حاضر عباسي مرفوض ‥ أما الاعتزال ، وهو شقيق التشيع ، فكان ابن الرومي راغبا فيه ، محبذا له ، وفيه يقول :

أأرفض الاعتزال رأيا كلا ! لأني به ضنين

كما أنه كان يقول بالطبيعتين :

فينا وفيك طبيعة أرضية تهوي بنا أبدا لشر قرار

والاسلام أبطل التثنية ‥ لكن آثار هذه العقيدة الموغلة في قدم الأديان ظلت باقية في النفوس ، لا سيما وان الاسلام لم يبطل النزاع بين الخير والشر ، والنور والظلام ٠ لهذا ظل ابن الرومي القائل بالطبيعتين مؤمنا ، صحيح الايمان ‥ الا أنه ايمان عام غير ملتزم بالفرائض والطقوس ‥ لكنه يبقى ايمانا عارما متفجر العاطفة كلما تزايد

احساس الشاعر باللحظة ٠٠ لحظة انهمار وجدانه على حقيقة من حقائق الوجود وتكشفت له الدنيا فاذا هي : باطل الأباطـــل ٠٠ وقبض الريح ٠٠ فيروح يهمس في اذن الدهر تأوهات متعبد خاشـــع منيب ،وكأنه راهب صومعة، أو شيخ طريقة (٤٠)٠

وفــاتـــه :

ولد ابن الرومي فجر يوم الأربعاء سنة ٢٢١هـ (٨٣٥م) وتوفي يوم الاربعاء سنة ٢٨٤ أو ٢٨٣ كما يرجح العقاد ٠ لا : ٢٧٤ كما يقول ابن خلكان ومهما يكن ٠٠ فالذين يعلقون أقـــدار الاعمـــار بأقدار الايام ، ويربطون بينها وبين أبراج أصحابها من الناس وتأثيرها على مصائرهم ٠٠ يحكمون بأن ابن الرومي خلق شقيا ٠٠ وعليه أن يحيا ويموت شقيا ٠٠ ما دامت نهايته كبدايته شؤما ٠٠ بين يومي شؤم ٠٠ هذا الأمر يقرره علماء الفلك والمنجمون لا نحن ٠٠ أما نحن فنقول: انه عاش ومات كما يعيش ويموت سائر الناس ٠٠ خلال أحد أيام الاسبوع طبعا ٠٠ لكن المسألة هي مسألة انسان متقدم على

---

(٤٠) ابن الرومي : حياته من شعره ط ٧ ص ٢٣١ .

عصره فهما ومزاجا ·· أو على الاقل مغاير لذلك العصر ·· لم يساعده فهمه للأشياء والناس على الانسجام ·· أو التعامل الايجابي معهم ·· فنشأت هوة انهدامية كبيرة بينه وبينهم ·· خاصة بينه وبين الطبقة الرسمية العليا ، ثم بينه وبين سائر الطبقات المغلوبة على أمرها ـ في العادة ـ أو تلك المتكالبة على المنصب والجاه تشتريه بالزلفى وهدر الكرامة ·· قدر ابن الرومي ـ اذن ـ أنه لا يملك أدوات العصر ·· وأنه لا يستطيع الخروج من العصر ·· فلا بد بالتالي من نشوء صراع غير متكافىء : انسان أعزل الا من حسه ورهافته وحساسيته ·· وعقله ·· وتعلقه الشديد بمباهج الحياة ·· يقابله عصر وقح ، معقد المذاهب ، مشوه الفهم والنظرة الى مواهب الموهوبين ·· عصر يملك كل أدوات الصراع والقهر ·· وانسان لا يملك من هذه الأدوات شيئا ·· وقد جاء ذلك الصدام غير المتكافىء على حساب صحته وسعادته واستقراره لكنه لم يجيء على حساب الشعر ·· فكان أن ولد في التاريخ العربي المشوه وفي القرن الهجري الثالث انسان جديد ·· شاعر جديد ·· ذو صوت ينطلق من حنجرة جديدة ·· فنان أضاف شيئا لم تألفه

الأذن العربية .. وحسبه هذا ..

أما كيف مات جسديا فالأمر متروك لذمة قدامى المؤرخين . منهم من يحلو له أن يقيم نوعا من العلاقة بين شؤم الطالع في الحياة وبين نهاية المشؤوم . فيقولون على لسان ابن خلكان : ان ابن الرومي مات مسموما . جاء في وفيات الأعيان : ان الوزير أبا الحسين القاسم ابن عبيد الله بن سليمان ابن وهب وزير الامام المعتضد كان يخاف من هجو ابن الرومي وفلتات لسانه بالفحش فدس عليه غلامه أبا فراس فأطعمه «خشكنجانجة» (٤١) مسمومة وهو في مجلسه . فلما أكلها أحس بالسم . فقال له الوزير : الى أين تذهب ؟ فقال : الى الموضع الذي بعثتني اليه . فقال له : سلم على والدي! فقال له : ما طريقي على النار ... » .

نسيج واه لقصة ملفقة يكذبها التاريخ .. فان والد القاسم مات بعد ابن الرومي بأربع أو خمس سنوات على الأقل (٤٢) .. كل ما في الأمر ان ابن

---

(٤١) اسم فارسي لنوع من الحلوى شبيه بالكاتو في ايامنا .

(٤٢) كما جاء في الفخري لابن الطقطقي. وقد نفى الرواية =

الرومي الأكول الشره المحب للحلوى خاصة ، والضعيف البنية المتجاوز للستين من عمره •• يمكن جدا أن يموت بما تشبه عوارضه التسمم وهو ما يسمى في أيامنا بمرض السكر أو السكري (٤٣) ••

وها هو يؤكد تلك العوارض حين قال :

غدا ينقطع البول ويأتي الهول والغول

كما أن الماء لا ينقع غلة المصاب بالسكري :

وأراه زائدا في حرقتي فكأن الماء للنار حطب (٤٤)

اذن : دعوا ـ أيها الظالمون ـ ابن الرومي يموت على مهله •• ويواجه نهايته كما شاءت له شراهته لا كما شاء خيالكم •• وحبذا لو تركتم الجسد تنحل عناصره كغيره من الاجساد •• وعالجتم تلك الروح الهائمة كالفراشة حول كل جمال •• وقيمتم تلك الشاعرية المبدعة ، أو ذلك الابداع الشاعري بما يعوض على صاحبه بعض ما سرقته منه الايام ، واغتاله سخف العصر ••

= اكثر من محقق كابن خلكان والمعري ، والعقاد وسعيد البستاني وغيرهم ..

(٤٣) ابن الرومي : حياته من شعره ص ٢٧٤ ط٧ ــ ١٩٦٨ .

(٤٤) المصدر نفسه .

شخصيته الغريبة :

كأن شاعرنا قد أحس باهمال التاريخ له نتيجة مواقف المؤرخين من معاصريه له والمتأخرين عنه من الاحداث والاشخاص حين راحوا يؤرخون لهم ولها بمقدار ما لها من علاقة بالبلاطات والمقامات العليا وكل من لم يكن له « شرف » تلك العلاقة ولو عاهرة كان ينبذ ويهمل ويجدف عليه ·· ويسقط في ميزان تاريخهم ··

كان شاعرنا قد أحس بذلك ·· فاستبق الأمور وراح يسجل لأجيال الانسانية القادمة كل أحداث حياته في شعره : سجله الوحيد الباقي على الدهر حتى العنعنات الضئيلة والأمور الهزيلة ، والخصوصيات التافهة ·· كان يبادر الى تسجيلها لتستقيم في نهاية الأمر قصة متكاملة للشقاء البشري وحديثا تاما قائما على حوار الشاعر مع نفسه والآخرين : كيف يفهم الشعر ·· كيف هو ·· كيف حاله ·· كيف صحته ·· كيف يفهم الحياة والاحياء ·· واللذة المادية والروحية ·· كيف يتناولها ؟ هل تكفي حواسه الخمس لتذوقها أم أن بطنه يجب أن تشترك في ابتلاعها ثم هضمها ؟

والجمال : هل يتعبد في هيكله دون أن يلمسه بكلتا يديه ويشمه بمنخريه ؟ والبشاعة التي تعكر عليه جو البهاء المحيط : هل يكتفي بهجوها ·· وقد هجتها الطبيعة قبله ؟ أم يزيدها قبحا على قبح فيقذف بها لوحة فنية ـ كاريكاتورية ـ رائعة لما نسميه اليوم : جمال القبح ·· القائم على البراعة في تجسيد المعايب الخَلقية ثم الخُلقية ؟! كل هذا وأشباهه كان مادة دسمة لتلك الريشة الملهمة التي دار بها وعليها كل شعر ابن الرومي وكل خياله وألوانه وتهاويله ··ولم يسلم هو بشخصه وشخصيته من فضول تلك الريشة ·

ابن الرومي الفتى ، شاب وسيم أبيض اللون جميل العينين ·· منتصب القامة طويلها ·· لكن هل أبقت الهموم والمصائب كل هذا الريعان ؟ لا · أبدا · يجيب شاعرنا،وفوق ذلك : لقد أسرع الصلع الى رأسي ·تقوس ظهري وضعف بصري وغربلت في مشيتي · وما لبست العمامة عن غِوى بل لتستر تلك الصلعة المنحوسة :

لجأت الى لبس العمامة حيلة
لتستر ما جرت علي من الصلع··

ان لــي مشيــة أغربــل فيهـــا
آمنـــا ان اساقط الاسقاطـــا ٠٠

لقد أصبح كالغربال في مشيته المهزوزة والفرق الوحيد بينهما ان الغربال يسقط تحته أما هو فلا٠

فما الذي جرى له بعد كل ذلك الشباب الريان ؟ مصائب متوالية ـ كما رأينا ـ وفقد أحبة أفقده توازنه الجسدي وربما العقلي (بالمفهوم الاجتماعي للعقل) وبعد كل مصيبة كان يبرز الشاعر فيـــه لا الرجل ٠٠ الشاعر ليسجل وكأنه مصور في مأتم لا المأتم نفسه ٠٠ والرجل ليختفي تماما مع كـــل وسائل الصراع والمقاومة المفروض أن تتوفر له ٠٠ وسرعان ما يعود الرجل فيه لا ليستعد للمقاومة والصراع ـ كما كان المتنبي يفعل بعد كل جولة ـ بل لينصب من جديد على الحياة بكل لذائذها المتاحة وكأنه يريد أن يعوض على جسده كل ما حرم منه أثناء المصيبة ٠٠ ثم ليخلق مادة جديدة ودهانـــا جديدا لريشة الفنان والشاعر فيه ٠٠ (أو بلغة اليوم فيلما جديدا) لتلك الكاميرا ذات العدســة الصافية المكبرة المستعدة دائما للالتقاط والتسجيل٠

وهكذا ظل ابن الرومي رغم كل شيء متهالكا

على اللذات المتاحة لا ينهض للكبير فيها أو المستحيل مكتفيا بالمتاح الميسور : من أكلة دسمة ، أو حلوى لذيذة ، أو فاكهة طيبة ، ومن الكساء الموهوب : عباءة صيفية ولو قدمت في الشتاء ·· ومن الغناء : بالاستماع من بعيد الى الصوت في ركن منعزل من أركان الحانة ·· ومن صاحبة الصوت « وحيد » بالاكتفاء عن عشقها بعشق صوتها ، والتغزل به دون سائر جمالاتها ·· التي لم يكن من سبيل الى تذوقها أو الوصول اليها ···

ابن الرومي أمام الجمال والحياة طفل كبير ، وقد ظل طفلا كبيرا ـ كما يقول العقاد ـ يزداد تعلقا بها كلما ازدادت نفورا منه ، يسرف في انتزاع أبسط متعها كلما أسرفت هي في جحودها وتقتيرها·

هذا التصادم ولّد عنده نوعا من التطير أو الوسوسة التي نحمد الله على أنها لم تبلغ به حد الهلوسة أو الهذيان ·· بل وقفت به على حافة الهاوية ومشارف الشعر ·· فأنقذه الشعر ·· والشعر منقذ دائما من مهاوي التفاهة والرتابة والدنس ·· أنقذه الشعر حين أخذ بيده من مطارح البشر ومفازة الحمقى والأغبياء الى عوالم جديدة

من الرؤى والأحلام ومباهج الطبيعة ·· من بغداد وصخب بغداد ·· الى رياضها وبساتينها القريبة ·· فتمت النقلة ·· وفرح الشاعر ·· واستراح الرجل ··

بعض مظاهر التطير :

ما دام هذا التطير لم يسيء الى الشاعر بقدر ما أرهف حسه · فلا بأس من وقفة قصيرة مع أخباره ولو مبالغا فيها ·· لارضاء حاسة الفضول في ناشئتنا التي لا تحب الجدية الدائمة في البحث أو في الحياة : كان أصدقاء ابن الرومي يعابثونه الى درجة المضايقة أحيانا ، مستغلين وسواسه وتطيره اللذين ضربت بهما الأمثال ، وحيكت حولهما النوادر والأقاصيص منها أنه كان ربما لزم بيته ثلاثة أيام بلياليها لا يخرج منه · فكان يلبس ثيابه كل يوم ويتعوذ ، ثم يهم بالخروج ، فيتقدم من الباب والمفتاح بيده فيضع عينه على ثقب الباب فتقع على جار له وكان أحدب ، فاذا ما رآه أجفل وقفل راجعا لا يلوي على شيء وتشاءم ·· حتى الاسماء كان يقلبها ، أو يصحفها فيستخرج منها رموز الخير والشر ·· بل الشر دائما ·· فاسم حسن يصبح في نظره « نحسا »

اذا قلب • وتصحيف : اسحاق مع القلب والابدال يصبح « فحشاء » وسماعه اسم : مرة بن حنظلة معناه البقاء ذلك اليوم في البيت • وهذا ما كان يفعله معه بعض أصدقائه حين يذهب اليه صباحا فيدق الباب فيصيح ابن الرومي من داخل البيت : من الطارق ؟ فيجيبه صديقه الخبيث : مرة بن حنظلة فيقع عليه هذا الاسم المزدوج المرارة وقوع الصاعقة فيبقى في منزله لا يريم •• مخافة أن يخرج ذلك اليوم فيقع في مصيبة أو كارثة • اذن يجب الحذر •• وفلسفة الحذر :

فآمن ما يكون المرء يوما   اذا لبس الحذار من الخطوب

ولا تنقصه الشواهد ــ أثناء الفلسفة ــ ينتزعها من الحديث والسنة والقرآن الكريم •• أما جعفر فعنده أنه مركب من جاع وفر • والخان يذكر بالخيانة :

فكم خان سفر خان فانفض قومهم
كما انفض صقر الدجن فوق الأرانب(٤٥)

---

(٤٥) المصدر نفسه .

وهذا ما يفسر هجومه بكل أسلحة فنـه علـى القبح : فهو في نظره شر كله · فلا بد من تجسيده وتقبيحه أكثر ليتشفى منه الشاعر ويشفي تطيره ·· تماما كما فعل مع الأعور والأحدب والمخصي حتى الاشقر ، شديد الشقرة هو عنده مبعث للتشاؤم لأن لون وجهه يشبه لون الجلد المسلوخ ·· والقينة اذا تضايق منها أو نقم عليها تصبح في نظره فتنة لا قينة اثر عملية تصحيف بسيطة · وهرثمـة : هزيمة ·· الخ ·· الخ ··

وهكذا يمضي ابن الرومي في تداعي أفكـاره ومقدرته العجيبة على توليد المعاني واستخـراج رموز الكلمات وأسرارها حتى ليبدو خبيرا كبيرا في أسرار البلاغة عند العرب واستخراج أعماق مراميها ومعانيها ·· بل استنتاج ما لا يخطر على بال من رموز الاسماء والاشياء ·· ومما زاده اختصاصا في ذلك ليس فقط تطيره وعيشه الدائم مع الاسمـاء والكلمات والمعاني بل ان ثقافته وانتشار علـوم النجوم والفلك وشيوع عقيدة التنجيم في زمنه وفي أرقى البيوتات والعائلات التي عايش أصحابها زمنا كآل طاهر وآل وهب ومدح مشاهيرهم ·· كل هذا أسهم الى حد كبير في تعميق ذلك التطير وهاتيـك

الوسوسة التي كانت تلازمه • فما دام الأصحاء يعتقدون بالتنجيم وتأثير الأفلاك على طوالع الناس، وما دام الخلفاء يحشدون في بلاطاتهم علماء الفلك والتنجيم وحتى المشعوذين منهم ليستشيرهم الخليفة في ما يقدم عليه من أمور هامة وغير هامة ، باستثناء الخليفة المعتصم (٤٦) الذي شذ عن القاعدة ، ولم يعمل بنصيحة المنجمين في بلاطه ، حين عزم على فتح عمورية ثأرا لتلك المرأة المسلمة التي استنجدت به في زبطرا على بعد مئات الأميال عن بغداد مرسلة تلك الصيحة الشهيرة : وامعتصماه !! فهب لنجدتها لا يلوي على شيء • وكان الفصل شتاء (٤٧) وانتقم لزبطرا ولتلك المرأة باحراق البلدة الرومية

---

(٤٦) هو ابو اسحق محمد بن الرشيد بن المهدي بن المنصور وامه اسمها ماردة ولد سنة ١٧٩هـ . بينه وبين اميه المأمون تسع سنوات . وكان في عهد اخيه واليا على الشام ومصر . وكان المأمون يحبه لشجاعته واقدامه . فولاه عهده . توفي في سامراء ودامت خلافته ثماني سنين وثمانية اشهر وثمانية ايام . للتفصيل انظر محاضرات في تاريخ الامم الاسلامية ص ٢٢٤ تأليف الشيخ محمد الخضري بك . مطبعة الاستقامة القاهرة ١٩٥٣ .

(٤٧) قال له المنجمون بعد ان استشارهم : انك ستفشل =

عمورية بعد اقتحامها . مما ألهب خيال الشاعر أبي تمام فأطلق عصماءه ذات المطلع الشهير :
السيف أصدق أنباء من الكتب .. في حده الحد بين الجد واللعب .

نقول اذا كان أمر الأسوياء هو هذا ، تشاؤما من بعض أيام الاسبوع ، وبعض الأشهر .. واعتقادا منهم بتأثير النجوم والكواكب في الاشخاص والاسماء والوجوه فكيف بابن الرومي المهووس المتوفز الحس والغارق حتى الأذنين في معتقدات عصره وثقافة عصره وأباطيل عصره؟.. ناهيك بأولائك الاصدقاء الخبثاء الذين كانوا يثيرون نهمه الى تصحيف الكلمات والاسماء واستخراج رموز الشؤم منها .. فاذا به « يفبرك لهم » منها ما سبق وأشرنا اليه من قلب وابدال وتصحيف ونحت بحيث يزودهم بأكثر مما كانوا يريدونه منه ومنها .. هذا بالاضافة الى

= اذا غزوت زبطرا في فصل الشتاء هذا .. وستنتصر اذا غزوتها ايام نضج التين والعنب اي في فصل الصيف ، لكن المعتصم كذب كتبهم وخالفهم وقام بغزوته وانتصر ..

كونه قعيد بيته ، تقريبا ، ومدينته ، لا يبرحهما الا نادرا ، والناس لا يخالطهم الا لماما ، وممدوحيه، ومهجويه ، ومرثييه ، وموصوفيه ، من الأشياء والاشخاص ، لا يبرحها ، ولا يبرحهم ، الا بعد أن « يقتلهم » معايشة ، ومعابثة ، وتصورا وتصويرا ، فاذا بهم يخلقون خلقا جديدا على يديه ‥ فكان من الطبيعي ـ اذن ـ أن يعيش مع شعره ونفسه أطول مدة ممكنة ‥

وهذا ما قصده صاحب العمدة بقوله انه يقلب المعنى ظهرا على بطن حتى يميته ولا يترك فيه زيادة لمستزيد ‥ خاصة تلك المعاني التشاؤمية والصور البشعة لأشخاص بشعين في سحناتهم أو أخلاقهم ، أو ألفاظهم ، فانه يتشبث بها ، يمسك بتلابيبها ، يداعبها ، يستغرق فيها ، حتى يقذف بها بعيدا عن واقعها ‥ الى واقع لا يبصره العاديون من الناس ، أولئك الذين لهم عيون لا يبصرون بها فاذا بها تستغرب نفسها ‥ واذا بنا نستهجن كيف أن هؤلاء كانوا محل احترامنا أو ‥ عدم اكتراثنا وكيف أن تلك المعاني أو الصور يمكن أن يستخرج منها من الرموز والدلالات ‥ ما استخرجه ابن الرومي منها ‥ حقا ‥ ان ابن الرومي خارج

نطاق شاعريته وشعره ٠٠ لا شيء ٠٠ وهو داخلهما كل شيء : يحيا بهما ٠٠ يتمدد ٠٠ يتنفس بملء رئتيه ٠٠ يستكين ٠٠ يلهو ويعبث ٠٠ يقاضي ٠٠ يحاكم ٠٠ ينتقم ٠٠ يطرب للصوت ٠٠ يصفق لصاحبته وان لم تكترث به ٠٠ يتعبد في هيكل الجمال ٠٠ تاركا للناس ٠٠ دنيا الناس ٠٠ وتفاهاتهم ٠٠ واقتتالهم السخيف من أجل ٠٠ المجد والشهرة والمال ، وأشياء أخر لا قيمة لها ٠٠

من هنا نشأ عنده ذلك « التضاد » الرهيب بينه وبين الناس ٠٠ لكنه كان تضادا رخوا ٠٠ انكسر معه الشاعر ٠٠ وهيض جناحه ٠٠ أمام جبروت الأضداد الآخرين : الحياة ، الأحياء ، الجمال ، البشاعة ، الموت ٠٠٠

هيض جناحه لأنه لا يريد أن يقاوم هؤلاء وينتصر يريد أن يظلوا ضده ومعه !! فهو بحاجة اليهم ٠٠ بقدر ما هو ضدهم ٠٠ أو بقدر ما هم ضده ٠٠ المهم ألا يقضوا عليه ٠٠ أو يحرموه ٠٠ أو يبعدوه وليكن عطاؤهم نزرا قليلا ٠٠ أو مقاربا الصفر ٠٠ على ألا يكون الصفر ذاته ٠٠ كيف لا ٠٠ وهم مادة شعره ، وقوام حياته ٠٠ شاؤوا أم أبوا ٠٠ رابطة

جدلية قامت بينه وبين الاشياء والاشخاص ·· لكنها رابطة ضرورية لبقائه على قيد الحياة ·· لتعبث به الحياة ما تشاء ·· شريطة الا تميته بضربة قاضية ·· بل تدعه يحيا على مهل ·· على أطراف وجوده ·· ووجودها ··

فما سر هذا الاكتفاء اليسير ، وما هي أسباب ونتائج ذلك الانحراف أو الشذوذ العصبي مع أن الانسان الشاعر فيه ظل بكامل وعيه وصحوه الوجداني وألقه الروحي ، واعتداده بنفسه لدرجة التباهي والاستعلاء ، لكنه تباه واستعلاء كسيف ·· خجول ؟!

لندع علم النفس الحديث يجيب : يقول البروفسور ادلر واضع أسس علم النفس الفردي في سياق حديثه عن قانون التعويض : « ان شعور الانسان بأنه دون غيره (٤٨) من أعظم الدوافع الى العمل وبذل الجهد ، وان الغريزة المتسلطة ، هي غريزة السيطرة والتطلع الى العلو · وعندما يعجز الشخص عن اثبات ذاته ، واكتساب النفوذ

(٤٨) وهو ما يسمى بالدونية في الترجمة العربية .

الاجتماعي الذي يصبو اليه، نظرا لعيوبه الجسمانية خاصة كقصر القامة ، أو قبح الهيئة ، أو أية عاهة من احديداب أو شلل أو ضعف في النظر ، أو عي في اللسان ·· الخ ·· فانه يلجأ الى سبل مختلفة من « التعويض » قد تؤدي به أحيانا الى التفوق والقيام بأعمال جليلة ، وأحيانا أخرى الى أن يصطنع في سلوكه أسلوبا شاذا كالقسوة والاستبداد في ضعاف البنية ، أو المكر في قصار القامة مثلا (٤٩) ·

ومن سبل التعويض : أحلام اليقظة ·· وهي احدى طرق الفرار من الواقع · تلعب المخيلة دورا هاما في هذا الشأن ·· فاذا تعذر تحقيق الرغبات بطريقة فعلية واقعية · فما أسهل تحقيقها في عالم الوهم والخيال ! وليست أحلام اليقظة في حد ذاتها ضارة دائما ، فقد تمهد الطريق الى ابتكار وسائل جديدة لحل المشاكل التي تواجه المرء ·· ولكن اذا استسلم المرء لها وقطع الصلة بينه وبين العالم الخارجي ، ولجأ الى برجه العاجي · فقد يتحول هذا الانزواء والانطواء على النفس الى حالة شاذة

---

(٤٩) اقرأ قصة محمود تيمور : رجل رهيب ص ١٥٥ من كتاب فرعون الصغير ·

شبيهة بالحالات المرضية أو مؤدية اليها (٥٠) ٠

هذه الحالات كلهـا تنطبـق على ابن الرومي الرجل ، وابن الرومي الشاعر :

أ ــ فشعوره بالدونية ، على اضطراب أعصابه وهزاله نتيجة المصائب التي حلت به ، لم يمكنه من العمل وبذل الجهد ، كما لم ينم فيه غريزة السيطرة والتطلع الى العلو (٥١) كما يقول ادلر ٠ فمـاذا حدث ؟

ب ــ حدث ان عجز ابن الرومي الرجل عن اثبات ذاته (والتعبير لادلر دائما) واكتساب النفـوذ الاجتماعي الذي صبا اليـه في محاولات الشبـاب الأولى ٠٠ وكان سبب ذلك آفات جسدية اعترته مثل اسراع الصلع الى رأسه (ومشيته التي يهرول فيها) على حد قوله وضعف بصره نتيجة سوء التغذيـة وتوتر أعصابه وسوداوية تكاد تكون قاتلة قلبت له

(٥٠) للتوسع اقرأ : التعويض ص ١٧٩ من كتاب الدكتـور يوسف مراد : مبادىء علم النفس العام . دار المعارف ط٧ ١٩٧٨ القاهرة .

(٥١) sublimation

قيم الاشياء والاشخاص والألوان فخلقت في مزاجه ما يسمى بالطيرة والوسوسة التي لم تصل والحمد لله الى حد الهلوسة Hallucination وذلك الاحساس الفاجع بالغربة عن المجتمع ·· وهنا تدخل الشعر مرة أخرى لينقذ هذا الانسان التاعس (٥٢) الذي حرم من كل شيء الا من نعمة التعبير والاحساس · وهذا ما عناه ادلر بسبل التعويض المختلفة التي يلجأ اليها العاجز عن اثبـات ذاتـه في المجتمع ·· تلك السبل التي « قد تؤدي به أحيانا الى التفوق ، والقيام بأعمال جليلة » ·· وهل أدعى الى التفوق من مهماز الشاعرية الحقة ، وهل أجل من صناعة الشعر عملا يعتد به ويفاخر ؟! ويتابع ادلر قوله : « وأحيانا أخرى الى أن يصطنع في سلوكه أسلوبـا شاذا كالقسوة والاستبداد في ضعاف البنية ، أو المكر في قصار القامة مثلا » ·· أما ابن الرومي فقـد اصطنع أسلوبا شاذا ·· مع مشوهي البنية وبشعي السحنة ·· لكنه كان أسلوب الهجاء المقذع والتشهير

---

(٥٢) كما تدخل مع ابي نواس فأنقذه وكما يفعل الفن دائما مع ضحايا المجتمعات الفاسدة . للتوسع انظر كتابنا : ابو نواس مجدد أم شعوبي ؟ الصادر عن دار مكتبة الهلال بيروت، ١٩٨٠ . المؤلف

الكاريكاتوري الفاضح الذي هو في نظرنا أدهى وأمر من « القسوة والاستبداد الارهابي الذي يعتمد على القوة الجسدية أو النفوذ التسلطي المخيف ·

جـ ـ أما أحلام اليقظة التي هي احدى سبـل التعويض ـ كما قال ادلر ـ فقد عاش عليها ابن الرومي ، بل فيها انزوى الشاعر ، فرارا من الواقع، حين راحت المخيلة ، وهي ذات الدور الأول في تكوين عالم الحلم ، تعوض عليه ما فقده من عالم الواقع·· يوم حاول جاهدا تحقيق رغبـات نفسه التواقـة وأعصابه المشتاقة وبطنه الشرهة البوهيمية الأكول « التي تأكل نفسها ان لم تجد ما تأكله » ·· فلـم يوفق ·· فراح ـ في عالم الحلم التعويضي ـ يعيش مع شعره ومعانيه وصوره ·· غير أن ابن الرومي ظل على البرزخ ·· بين حافتي العدم والوجود ·· يد له على الدنيا ·· ولكنها يد قاصرة خجول ·· ويد له على أحلام يقظته ·· وهي يد خلاقة جسور فلم يقطع الصلة نهائياً بينه وبين العالم الخارجي ، رغم لجوئه الى برجه العاجي ·· في الواقع : الى بيته ينزوي فيه لا الى برج عاجي فوق الضباب ·· فلم يؤد به الأمر الى المرض أو الهستيريا بل الى حالـة مرضية كادت أن تؤدي به الى الهلاك ـ كما يشير

ادلر ــ ويتدخل الشعر مرة ثالثة لينقذ الرجل المنهار ٠٠ ولولاه لما سمعنا بانسان اسمه ابن الرومي ــ رغم انسحاقه ــ متعلقا بأذيال الحياة كطفل صغير ٠٠ يهمس في أذن الجمال وشوشات ولا أروع ٠٠ ولا أصدق ٠٠ كما يصرخ في وجه البشاعة صرخات ولا أوجع ولا أوقع في النفس وفي ذائقة الفن ! كأنه كان لا يريد للحياة ــ رغم عقوقها معه ــ أن يشوهها القبح ٠٠ أو يسيء الى فتنتها منظر كئيب ٠٠ فكافأته ــ دون أن تدري ــ بالخلود ٠

حقا ما قاله الشاعر الطليعي أنسي الحاج : « عند كل زيارة شاعر يتغير العالم قليلا أو كثيرا ٠٠ وعند زيارة ابن الرومي المتواضعة للعالم تغيرت أشياء كثيرة فيه : عالمه (على الأقل) كان الشعر فيه تقليدا وتكسبا وهجاء أخلاقيا ٠٠ ولم ينقلب فنا في أكثر موضوعاته الا على يدي ابن الرومي ومعاصره أبي نواس ٠٠ لقد التقى هذان الشاعران الكبيران في الروح التجديدية وفي ٠٠ الهروب ٠٠ من المجتمع المزيف ٠٠ ذاك الى الخمرة والطبيعة ٠٠ وهذا الى الطبيعة واستماع الغناء والتهام أطايب المأكولات ٠٠ وقبل كل شيء : الهرب من البشاعة الى الجمال ٠٠ ومن الأخر ٠٠ الى نفسه والى سلاحه

الوحيد في دنيا توحده ·· وعالم أحلامه : الشعر ··

كما هربا من صناعة ابن المعتز وبديعات مسلم وظلا لصيقين بعفوية الأسلوب وطلاقة التعبير ·· يستجيبان للتجربة المشبوبة ، والمعاناة الملتهبة بالحلم والخيال دون سواهما ··

واذا كان ابن الرومي قد لجأ الى ما يسمى في علم النفس الحديث « بالتبرير الجدلي » أي الى تبرير المواقف العاطفية بالجدل اللفظي أو اللعب على الألفاظ واستقصاء المعنى الى آخر مدلولاتـه ورموزه ·· فما ذلك الا تغطية لفشله الذريـع في تحقيق ما يريد من المجتمع ·· الا أن هذا التبرير وذاك الاستقصاء أفادا الشاعر ولم يفيدا الشعر ·· أفادا الشاعر من حيث أتاحا له العيش طويلا معهما مع عالم المعاني والأخيلة ·· لكنهما أضرا كثـيرا بالشعر ، اذ جعلاه موضوع جدل ومناقشة وضرب حجج وبراهين ومماحكة وتفسير ·· وبتعبير آخر جعلاه أقرب الى النثر الخطابي منه الى الشعر · فبهتت معه التجربة وبردت العاطفة ، وانحدر ابن الرومي في مطولاته الى السفح في حين ارتفـع في مقطوعاته الى القمة ·

أما أبو نواس فقد نجا مما وقع فيه أبو الحسن، وخاصة في خمرياته (٥٣) .

شاعريته وفنه :

قلنا أن ابن الرومي لم يكن شاعرا مبدعا في مطولاته حين راح يفلسف الشعر أو بالأصح يمنطقه ويجري فيه مجرى الاسترسال والاستقصاء . على أنه في الفلذات والمقطوعات يبرز شاعرا حقيقيا ، شاعرا لماحا يجيد مداعبة الألوان والاصوات والتهاويل والرموز في حديث حواري تلويني يبث فيه كل مشاعره وأوجاعه : فهو يستريح في الشعر ويستروح في الطبيعة : صديقيه الأوحدين .. بعد أن حرم صداقة الناس والمجتمع : مع الشعر يستريح أو يتحدث مرتاحا .. ومع الطبيعة يتداخل معها في رومانسية حالمة تذكرنا بلامارتين ودهفيني حيث تطيب النجوى .. وتتم المشاركة الوجدانية فاذا الاثنان واحد .. البحتري وابن المعتز وقبلهما ذو الرمة وامرؤ القيس (٥٤) وأمثالهم من شعراء

---

(٥٣) لتفصيل ذلك انظر كتابنا: ابو نواس: مجدد ام شعوبي؟ الصادر عن مكتبة دار الهلال بيروت ١٩٨٠ .

(٥٤) في جزء كبير من معلقته حيث يصف انحدار السيل من عالية جدا فيجيد لكنه لا يبدع ..

الطبيعة : أعطونا لوحات وصفية للطبيعة الضاحكة أو الباكية أو الغاضبة لكنهم وقفوا عند حدود المشاهدة الخارجية ٠٠ واعتبروا الطبيعة كأنها مستراح « يجففون فيها عرقهم » على حد تعبير العقاد ٠٠ واكتفوا بالتصوير الفوتوغرافي ٠٠ أي بالنقل الحرفي لمظاهر الطبيعة ٠ والفن كما يقول أرسطو هو « ابداع ما لم تستطع الطبيعة ابداعه (٥٥) » ٠٠ لا الوقوف عند المحاكاة وحدها وابن الرومي كان فنانا مع الطبيعة وشاعرا رومانسيا لا مصورا فوتوغرافيا وحسب ٠٠ لأنه معها كالطفل الرضيع يتشبث بصدر أمه ليبقى يمتص رحيق الحياة الطهور ٠٠ ثم يغفو ملء جفنيه ٠٠ فالفرق ــ اذن ــ واضح بين من ينظر ، الى الشيء ، بالعين، ومن ينظر بالروح والوجدان وكل الحواس ٠٠٠

اليك هذه المقطوعة أو الفلذة الحية من فلذات ابن الرومي يقذفها في صميم الطبيعة فتحركها بألف صوت ولون وحركة فاذا بالجميع : الشاعر والشعر والطبيعة كأنهم في مهرجان :

---

(٥٥) فن الشعر لارسطو : ترجمة عبد الرحمن بدوي ٠

حيتك عنـا شمـال طاف طائفها
بجنـة نفحـت روحـا وريحانا
هبت سحيرا فناجي الغصن صاحبه
موسوسا وتداعـى الطير اعلانـا
ورق تغنـي علـى خضر مهدلـة
تسمو بهـا وتمس الأرض أحيانا
تخال طائرها نشـوان من طرب
والغصن من هزه عطفيـه نشوانا

فمن تحية ريح الشمال ، مطوفة بالخميلة ، الى هبوبها في السحر ، موقظة الأغصان الناعسة ، الى تناجي هذه الاغصان بوسوسة هامسة ، الى تهافت جماعة الطير بعد هجعة هانئة .. ثم تداعيها لتعلن عودة الحياة من جديد بالتغريد .. الى تماوج فروع الشجر مثقلة بالطير .. الى تلك النشوة العارمة التي مازجت كل ما في الخميلة من طير وغصـن وشجر .. صورة حية كثيفة .. تكشف عمـا في كيان الشاعر من انتشاء بمفاتن الطبيعة .. والتقاء حميم بأشيائها التي تسري في روح واحدة موصولة الأمشاج بروح ابن الرومي الهائمة التواقة .. لاحظ الدقة في انتقائه ذلك الجزء من الطبيعـة الهادىء الوادع بعيد منتصف الليل .. (هبـت

سحيرا) ليرسل اليه تلك الريح الشمالية الباردة ..
وكأنها شيطانة من شياطين الليل تنفث السحر في
ذلك المكان الهاجع فاذا كل ما فيه يتحرك ويتداعى
ويرقص .. ويتناجى .. وينتشي .. ويحيا ..
ثم ينسحب الشيطان الساحر .. بعد اعلان المهرجان
ولعمري .. أن ذلك الشيطان .. ما هو الا ابن
الرومي نفسه في توقه الشديد الى أن يحيا من جديد
هنا في الطبيعة .. بعد أن مات هناك .. في المجتمع
انها عملية تداع وجداني .. كثرت أصداؤه
وصوره في شعر ابن الرومي .

وهذه قطعة أخرى أروع وأخلد بين روائع
الشعر الرومانسي العالمي :

انها رحلة صيد .. رحلة ولا كالرحلات !

بكيت فلم تترك لعينيك مدمعا
زمانا طوى شرخ الشباب فودعا

بخلين تما بي .. ثلاثة اخوة
جسومهم شتى وأرواحهم معا

اذا ما دعا منا خليل خليله
بافديك .. لباه مجيبا ، فأسرعا

بداية مأساوية ترهص لمـا هو أدهى ! كانوا ثلاثة ، أيام الشباب ، أرواحهم مؤتلفة وان تفرقت أجسامهم ·· اذا دعا أحدهم رفيقيه لسهرة ·· أو رحلة ·· لباه مسرعا ·· وفداه بروحه ·· وابن الرومي لا يتمالك من البكاء على صحب حبيب تولى ·· وعهد تقضى ولن يعود ·· ويمضي الثلاثة في رحلتهم الى اصطياد الطيور بادئا بشرح الموقف وتصوير المشهد :

طرائح من بيض وســود نواصع
تخــال أديم الأرض منهن أبقعا

نؤلف منها بـين شتــى ، وانمــا
نشتــت مــن ألاّفها مــا تجمعا

فكم ضلعن منهــن مزمــع رحلة
قصرنا نواه دون ما كان أزمعــا

وكم قادم منهــن مرتــاد منــزل
أناخ بــه منــا منيــخ فجعجعــا

هنالك تغدو الطير ترتاد مصرعا
وحسبانها المكــذوب يرتاد مرتعا

تؤوب بها قــد أمتعتك وغــادرت
من الطــير مفجوعــا به ومفجعا

فظل صحابي ناعمين ببؤسها
وظلت على حوض المنية شرعا

رومانسية انسانية :

ثم ينتهي الى وصف العودة عند غروب الشمس بما لم يسبق اليه من المشاعر الانسانية والتأمل البعيد :

وقد رنقت شمس الأصيل ونفضت
على الأفق الغربي ورسا مذعذعا(٥٦)
وودعت الدنيا لتقضي نحبها
وشول(٥٧) باقي عمرها فتشعشعا(٥٨)
ولاحظت النوار وهي مريضة
وقد وضعت خدا على الأرض أضرعا
كما لاحظت عواده عين مدنف
توجع من أوصابه ما توجعا
وظلت عيون النور تخضل بالندى
كما اغرورقت عين الشجي لتدمعا

---

(٥٦) متفرقا .
(٥٧) نقص .
(٥٨) تبدد .

ترى .. هل هذه رحلة صيد .. أم رحلة في شعاب الزمن ، وصروف الأيام ؟! هل اصطاد الثلاثة طيورهم وعادوا ليتلذذوا بشي لحمها ؟ هل ظل الوصف وصفا .. أم اخترق الشاعر حجب الطبيعة والطير .. حتى انتهى الى الانسان في صراعه مع نفسه وقدره وجلاديه ؟! .. هذا الاحساس الفاجع بالموت .. بالانقضاء .. بسرعة زوال اللذة .. والحياة .. يلازم ابن الرومي في كل مواقفه .. حتى رحلة الصيد تنقلب في عينيه مشهدا مأساويا فاجعا .. اذ سرعان ما تحولت الفرحة الى مأتم جنائزي حين هاله تساقط الطيور صرعى بلا ذنب .. وما جماعة الطير هذه سوى تلك الجماعة البشرية التي تتساقط في عصره وفي كل عصر صرعى الظلم والتسلط والقهر .. وهكذا انقلب المقطع من تصوير لرحلة الصيد ، الى تصوير لظلم الانسان وبطشه ، وتحجر قلبه ، واتخاذه من تلك المخلوقات الضعيفة الآمنة في أوكارها وسيلة لهو وتلذذ ، غير عابىء ببؤسها ، وشقائها وتشتت ألاّفها .. فكم رحلة قطع هذا الانسان الظلوم على الطير .. وكم أسرة شتت .. وآمال حطم .. ومراتع حولها الى مصارع ... ثم : أليست الاقدار تفعل بالانسان

ما يفعله أولئك الصائدون بالطيور ؟! أليس وراء هذه الصور رمز للانسان الضعيف أمام الاقدار العاتية التي تتحكم بمصيره ، وتتصرف بشؤونه ؟!.

أليس في صميم هذه المشاهد الفاجعة ابن الرومي نفسه في انكساره .. في انهزامه أمام قدره .. في رحمانية قلبه ولوعته أمام الشقاء البشري المنعكس على ذاته وشقائه .. في حين أنه واحد من تلك المجموعة البريئة التي تريد أن تحيا كما تهوى بلا عائق من ظلم .. أو قسوة .. أو استغلال .. تريد أن تحيا كما تحيا جماعة الطير .. دون أن يزعجها صياد بليد .. أو قناص سادي غاشم .. ها هنا تكمن عالمية هذا الشاعر في مقدرته على التحليق ، وتجاوز حدود الزمان والمكان والمناسبة باختراق صفاقة المادة .. وجدار الصورة الحسية المحدودة ..

يذكرني ابن الرومي في روائع أوصافه ، ودفق انسانيته ، وطهارته ، وصدق مشاعره ، بشعراء الوصف الأوروبيين .. وخاصة ألفرد ده ميسه ، ودهفييني حيث تحضرني قصيدة هذا الأخير في « موت ذئب » اثر اصابته برصاصة قاتلة من صياد

جسور ٠٠ والشـــاعر الانكليزي الوصـــاف وورد وورث ٠٠ في قصيدته « الحاصدة » الصبية ٠٠ هؤلاء الشعراء ، وعلى رأسهم ، ابن الرومي ، قد فهموا حقيقة الشعر وأدركوا أبعاده ٠ هذه الحقيقة التي تجعل من الشعر وسيلة لادراك حقائق الوجود، دون أن ينقلب الى تنظير وفلسفة ٠٠ ودون أن يتحول الى مصنع كلام ، واجترار معان ، أو تكرار صور وتلاوين جوفاء ٠٠

وينهي ابن الرومي قصيدتـــه بوصف الشمس الغاربة فيأنسنها لينقل الينا مشهدا أو رمزا لمـــا يحمله ذلك المنظر عند الغروب من معان انسانية ٠ اننا مع شمس ابن الرومي وروضه : مـــع شمس مريضة شاحبة ، صفراء اللون (كالورس المذعذع) أشرفت على الموت ٠٠ فراحـــت تودع الدنيـــا ، وزهرات الروض بنظرات كئيبة ملتاعة ٠٠ وها هي الزهرات يتجاوبن معها فتغرورق عيونها بدمـــوع اللوعة على فراقها ٠٠ كما فعلت هي في وداع جنازة الطير عند المساء حين وضعت خدا ضارعا علـــى الارض تمرغه بالتراب أسى ولوعة على موت من كانت هي سبب حياته ٠٠

وتكتمل المأساة ·· حين يعود رفاقه وقد أصبحوا خارج اطارها يتلذذون بأكل لحوم الطير بعد قتلها ويعود هو بأحزانه التي زادتها عليه أحزان تلك الرحلة الكئيبة ··

ويتوالى تفاعل ابن الرومي مع أشياء الطبيعة ورموزها ، تفاعلا وجدانيا وثيقا ، يجعله لا يفرق، حين ينظر اليها ، بين حالاته وحالاتها ·· فربيعها ربيعه ، وخريفها خريفه ، وهرمها هرمه ·· وهي دائما مهبط وحيه ، ومجلى ذكرياته :

يذكرني الشباب وميض برق
وسجع حمامة وحنين ناب
يذكرني الشباب جنات عدن
على جنبات أنهار عذاب
وكانت ايكتي ليد اجتناء
فعادت بعده ليد احتطاب !

ما أشبه الشباب بوميض برق خلب ·· أو سجع حمامة آمنة على ايكها ·· أو حنين ناقة الى فصيلها ·· أو جنات عدن تجري من تحتها وعلى جنباتها الأنهار ·· فكيف لا يتذكر الند الند ، ويستدعي النظير النظير ؟!··

ثم ينقلب الاستدعاء والتداعي الى مأتم يشيع فيه الشباب الى مثوى الشيخوخة الاخير ·· وسلام على الايكة والجنى ·· سلام على الطبيعتين في الخميلتين ·· أيام الجنى والشباب ·· أيام أمرع الربيعان بالخصب والثمر ·· أما الآن ·· فقد زال كل شيء ولم يعد للحطابين سوى الهجوم ·· والاحتطاب ·· انه ، على الاقل ، احساس عميق «حمله الخيال الى العين عبر الصورة الشعرية(٥٩)» ·

أما سر الحياة المكنون في باطن الارض ، وبوح الربيع به فابن الرومي خير من يصغي اليهما في مناجاة حلوة :

لم يبق للأرض من سر تكاتمه
الا وقد أظهرته بعد اخفاء ··

ونستمع اليه يناغم بين الطبيعة والحياة ، مناغمة فيها الكثير من وجدانه الأبوي ، وروحه العاشقة :

---

(٥٩) ابن الرومي : دراسة عامة ص ٧٠ ط٢ جورج غريب دار الثقافة — بيروت ١٩٧٣ ·

برياض تخايـل الأرض فيهـا
خيـلاء الفتـاة في الابـراد
منظـر معجـب تحيـة أنفـس
ريحهـا ريـح طيـب الأولاد

وواضح أن الشاعر هنا ، لا يكتفي بالمناغمة ، أو المزاوجة بين الألفاظ والصور ، بل يضفي عليها جميعا من حالاته النفسية ، والذهنية ،والشعورية، ما يجعله يسمو على جميع من تقدمه ، أو عاصره من المصورين والرسامين ·· فالقضية عنده ، كما يبدو ، ليست قضية مقابلة بين الطبيعة والحياة ، أو مفاضلة بين الجمال البشري اعتمادا على مباراة صناعية ·· بل هي قضية أسمى بكثير من أن تكون كذلك ·· انها قضية اندفاق كياني على كل مـا يوحي بالجمال ، أو يذكر به ·· ومسألة انعتاق وتحرر نفسي من المجتمع وظلم ناسه ·· وتطهـر تام من دنس المدنية وأوضارها وأوزارها ··

وليست الطبيعة ، في النهاية ، سوى ذلك المظهر العجيب ، والملاذ الحبيب لكل من دنسه المجتمع ، وقسا عليه وحرمه ·· فما بالك بابن الرومي الذي تهالك على جمالات الحياة ، كبيرها وصغيرهـا ،

بسيطها وخطيرها . فردته خائبا مدحورا ، ما بالك به وقد تشبث بها رغما عنها ، ورضي بالقليل القليل منها ، ألا يرتاح ، والحالة هذه ، لكل هاتف تهتف به الطبيعة ، وكل جميل ، ممرع ، خصب ٠٠ ألا يراها ، وقد حرم من غنج الجميلة الحقيقية ، تختال مثلها بألف لون ولون يزركش فساتينها ٠٠ ألا يراها ، وقد حرم من طيب رائحة الأطفال حين تخطفهم الموت برعما اثر برعم ، تزخر بمشاهد البراعم من كل جنس ، والورود من كل نوع وكأنها قارورة طيب اندلقت فأرسلت شذاها تحية نسائمية لكل أنف ! تماما « كريح طيب الأولاد » ؟!

وواضح أننا لا نجد في مقطوعات ابن الرومي أية صناعة لفظية مقصودة لذاتها ٠ فهو في شغل شاغل عنها ، لا لأنه لا يجيدها ، وهو المثقف لغويا وعلميا ودينيا ، بل لأن له مع الكلمة الشعرية شأنا غير شأن الآخرين معها ٠٠ أولئك يزخرفون ويتلهون أما هو فيساوره همان : هم خلق عالم آخر خاص به ، بواسطة الشعر ٠٠ ليحيا به من جديد بدلا من ذلك العالم الذي حرم منه ٠٠ وهم مقيم هو أن يفلت منه الجمال فلا يتخطفه قطعة قطعة ، مشهدا مشهدا ، فلذة فلذة ، واللذة فلا يلتهمها التهاما ،

والقبح فلا يداعبه ويحاوره ويرسمه ثم ٠٠ يقضي عليه ٠ ثم يحييه من جديد أروع وأمتع ٠٠

لكل هذا شغل ابن الرومي بالقيم التعبيرية ، لا بالعبارة ، فلا كلمة جوفاء ، ولا صورة شوهاء ٠٠ الكل يمتليء ٠٠ والكل يوحي ٠٠ والكل يشارك ٠٠ ولا غرابة ٠٠ فابن الرومي نفسه نسمة عليلة من نسمات الشعر الرومانسي العربي القديم يذكرنا دائماً ، أو ، في الأصح ، نذكر من خلاله لامرتين وشاتوبريان ودهفيني وورد وورث المبهورين مثله بالأشياء ، الحالمين بوهم الصورة وظلال الأسطورة ٠

المرأة والطبيعة :

ان ارتباط ابن الرومي بالمرأة ، فكرة المرأة ومقارنتها بالطبيعة ، دليل على كونه المشتهى ٠٠ وعلى كون الجمال عند ابن الرومي هو ذلك المشتهى الذي لا يحد ٠٠ انكساراته الدائمة ، أمام تعليل الذات وتفسير العلائق الانسانية ، تسبغ على وصفياته ذلك الصليل الحزين ٠٠ وأحيانا كثيرة تلك الهينمة البليلة الآتية من بعيد ٠٠ من أصداء تلك الانكسارات المتداعية في وجدانه ٠٠ وحينما نتأمل قليلا في شعره الوصفي نجد أن هناك نوعا

من المعادلة فيه : هي معادلته مع العالم ٠٠ معادلة شهوته المبتورة بالجمال ٠٠ تمنيه المكسور بالمرأة ، بالطبيعة ، بالفجر ٠٠ فجيعته بالموت ٠٠ والغروب، واصفرار أوراق الشجر ، بتساقط شعر الرأس ٠٠ بالبشاعة ، بالخيانة ٠٠ بالـ ٠٠٠٠٠٠٠ هـذه المعادلة التقابلية المزدوجة هي وليدة وهم يوشيها ، يعطيها النشوة والتألق والدفء الكامن في شعر ابن الرومي ٠٠ لكن أي وهم ، تُرى ، يساوره ؟

انه وهم حلوله في مشتهاه ٠٠ وتلاشيه ٠٠ حلوله في رحلة صيد ، في روضـة عنـد الغروب ٠٠ في مهرجانه الهازج قبيل الفجر ، كما رأينا ، ولربما كان تلاشيه وحلوله هما اللذان يمنحان « غبطته » أو لذته صفة الديمومة والتجدد ٠٠ كما يحولان براءته الى دهشة وانشداه متواصلين ٠٠

ابن الرومي يحتمي بالجمال :

هذا الانسان المنهار عصبيا ، المكسور الخاطر ، الفاشل حتى النهاية ٠٠ ابن الرومي هذا ، يلجأ الى الجمال ، الى العالم المشتهى ، يحتمي به ، يتوارى فيه ٠٠ يغيب حتى التلاشي ٠٠ وبالتعبير الصوفي ،

حتى الفناء والحلول ·· ذلك لأن ابن الرومي خارجه ، خارج ألذ عوالمه مفضوح ، مكشوف ، معرى ·· من مجتمع يعبث به لأنه لا يفهمه ·· فترى الشاعر يهرب منه لحظة المواجهة ·· حتى اذا آنس غفلة من العابثين أقدم متسللا كاللص ·· فهو في ذعر دائم ·· وتصادم دائم ·· وهروب دائم ·· باتجاه الجمال ·· أي جمال ·· لا ليثبت رجولته ·· أو يؤكد وجوده ·· بل ليحتمي به ·· ليعيش معه بلا ذعر ولا خوف ·· وهناك تجده انسانا آخر ·· لأن حالة الشعر تنقلب معه الى نشدان نيران خارقة حارقة ·· من أجل حياة نابضة ·· مرتفعة الى ما هو فوق ·· متناسيا عالم « الكون والفساد » ··· الذي هو منه ، ولو الى حين ··

من أجل هذا نفهم سر انجذاب ابن الرومي للحياة ·· بكل نهمه وتوقه ·· وللطبيعة بكل آلامه وأوجاعه وآماله ·· انجذاب طوعي حينا ·· وقسري أحيانا ·· وفي الحالين تجد الشاعر مدفوعا بكل همته وأشواقه نحو ما دفع اليه ··

هكذا يجب أن نقرأ شعر ابن الرومي الذي يصف فيه الفجر كولادة عظيمة ودائمة للأشياء ·· أو على حد تعبيره « مهرجانا لها » ···

ابن الرومي والآخر :

عرفنا موقف الشاعر من الحياة حيث بدا بين الناس مهجورا ٠٠ أو لعبة يُعبث بها ٠٠ لكن من الانصاف أن نقول أن موقف الشاعر من الانسان هو غير موقفه من الحياة ٠٠ لقد كان ابن الرومي يحمل حنينا عميقا للانسان ٠٠ وكان يحاول العبور الى دنياه ٠٠ فيؤوب مهزوما ٠٠ لكنه لا ييأس ٠٠ فيعاود الكرة ٠٠ فيرد ، أو يدفع ، أو يُهمل ٠٠ ثم يعاود ٠٠ وهكذا ٠٠ وتفسير ذلك حنينه الذي لا يرد للانسان ٠٠ حتى أنه يؤنسن الأشياء التي لا تحمل صفات الانسان ٠٠ فقصيدته الرائية التي يتحدث فيها عن « الانســان الصديق » وانبهاره، بملامح النشاط عند الاشخاص : كلاعب الشطرنج وداحي الرقاق أو الفران ، وصانع الحلوى ٠٠ كل ذلك تعبير صادق من حنينه الجارف الى الانسان ، ومعايشته ٠٠ وكره شديد للوحدة التي هي ساعة الفجيعة عنده ٠٠ فهو مأخوذ بمـا يشبه الذعـر والنفور من كل ما يبعده عن الأخر ٠٠ والآخـر الاجمل والأوفى والأحب ٠٠ وحين كان يضطر الى لزوم بيته لم يكن ذلك حبا منه بالوحدة على الاطلاق بل تطيرا مما يراه أو يسمعه خارج ذلك البيت ٠٠

وما يكاد ينتهي النشاز في سمفونية الحياة اليومية حتى يندلق اندلاقا الى الأحياء ·· كل الأحياء خلا أولئك الذين يكلفونه ما لا يطيق ·· ثم يتسلـل بهدوء ·· وكاللص الى أقرب حانة ·· ويفضل أن تكون تلك التي تغني فيها وحيد ·· لا ليبثها لواعج حبه وقد كان يهواها حقا ·· بل ليستمع اليها من ركن بعيد في الحانة ·· ويتملى صوتها ويدخل في أعماقه ويعيش هنيهات على أنغامه ·· حتى اذا انتهت من اداء الصوت (أو اللحن) ودوت القاعة بالتصفيق وتقدم المعجبون بورودهم وتهانيهم انسل هو راجعا من حيث أتى ، لا يلوي على شيء سوى صدى ذلك الصوت يتردد في حناياه ناسيا صاحبته أو يكاد ·· وما يلبث لحظات في بيته حتى يأخـذ أوراقه ويستدعي وجدانه وأفكاره ويستوحي قلبه وفنه فيخط قصيدة في تلوين ، صوت وحيد ولا أروع !

نظرة على القصيدة :

للجمال في ذائقة ابن الرومي سر وسحر خاص فهو ليس الجمال الذي يُرى فيملأ العين ·· كما أنه ليس الجمال السهل البسيط ·· بل انه الجمال

الذي يملأ الكيان والوجدان بعد أن يبهر العيان .

ابن الرومي المثقف يقيم الجمال علميا ونفسيا وحضاريا .. يتذوقه تذوقا عميقا بل تذوقا حلوليا ، ان صح التعبير ، كالغلاة من الصوفيين الذين يحلون ـ بعد المجاهدات ـ في الله ... ويفنون في الذات الكبرى .. ثم هو يتذوق الجمال بمقدار ما ينفر من القبح .. يتذوقه ويحاول أن يكشف سر اللذة التي يحدثها في النفس . حتى الأصوات له معها حديث طويل هو أقرب الى التحليل والتعليل والتلوين منه الى مجرد التلذذ بسماعها.. وعندي أن سبب ذلك نفسي قبل أي شيء آخر : فهو ينسحق من دنو نهايات الأشياء ، من انطفاء توهج الحياة في الأحياء .. تجفل ذكرياته عن بداياتها فينهار وجدانه .. ويعتري أعصابه بعض التقلص والتوتر لمجرد حلول وهم الموت في الحياة..

قال في وحيد وصوتها :

وغرير بحسنها قال صفها قلت: أمران هين وشديد
يسهل القول انها أحسن الأشياء طرا ويصعب التحديد

فكأنه عالم من علماء « الاستيتيك » يحاول أن

يضع نظرية في علم الجمال وتحديد الجميل ٠فجمال وحيد سهل التعريف ، لأنه جمال غير متكلف ٠ وهو سهل اذا قيس بغيره ٠٠ أما اذا أردنا تحديد عناصره صعب ذلك علينا ٠ وهذه خاصة خالدة من خصائص الجمال أشار اليها ابن الرومي : ان الجمال ليس صفة معينة في أجزاء الجميل ٠ وانما هو علاقة انسجام وتكامل بين الأجزاء كلها ٠ كما أن القبح علاقة تنافر بين الأجزاء ٠

ويشير الشاعر الذواقة الى عنصر آخر من عناصر الجمال وهو ان الجمال لا ينتهي ٠٠ والاستمتاع به لا يقف عند حد ٠٠ فكأنما هو يتجدد في كل لحظة فيحدث في النفس لذة دائمة ٠٠ أنت أمام الجميل في منطقة ممغنطة ٠٠ تتجاذبك ، في كل لحظة تأثيراته ٠٠ فأنت مأخوذ باستمرار ممغنط باستمرار ، شئت أم أبيت ، فكيف اذا كان هذا الأنت ٠٠ شاعرا متوترا خلقة ؟!٠

ليت شعري اذا أدام اليها
كرة الطرف مبدئي ومعيد
أهي شيء لا تسأم العين منه
أم لها كل ساعة تجديد

ولو قال « كل لحظة » لكان أقرب الى الصواب هذه الصورة هي ، في الميزان النقدي العادل ، أرقى وأعمق من صورة أبي نواس :

يزيدك وجهه حسنا   اذا ما زدته نظرا ..

ولا يبعد أن يكون أبو نواس قد أخذها أو اقتبسها من معاصره ابن الرومي، ثم صاغها أبو علي صياغة مضغوطة جديدة .. لا سيما وان ابن الرومي كان هو وشعره مشاعا للآخذين والمقتبسين، ان لم نقل السارقين ...

واذا ما مضينا قدما مع قصيدة ابن الرومي في وحيد وصوتها ، وجدنا أمورا كثيرة جديدة على الشعر العباسي يومذاك .. هذا الشعر الذي كان وقفا على المدح والهجاء والغزل التقليدي ما عدا أبا نواس الذي أطلقها ثورة تجديدية في الشعر : مضمونا واتجاها ومواقف (٦٠) ، منها : ان نوعا جديدا من الغزل قد اهتم به ابن الرومي وهو التغزل بالقيان والتغزل بأصواتهن أيضا . الأمر

---

(٦٠) للتفصيل انظر كتابنا : ابو نواس مجدد أم شعوبي الصادر عن دار مكتبة الهلال ١٩٨٠ بيروت .

الذي يعكس مظهرا جديدا من مظاهر العصر وهو : ازدهار فن الغناء والرقص ، بحيث أصبحت هذه الفنون غرضا من أغراض الشعر يتناوله الشعراء بالوصف والتحليل . كما يذكرنا ذلك بعصر ابن أبي ربيعة الذي ازدهر فيه هذا النوع من أنواع الغزل الحضري الحر .. ولكن لفترة قصيرة ، وفي بيئة محدودة ولسياسة مقصودة .. أما في العصر العباسي الأول والثاني فقد أصبح مثل هذا الفن مظهرا من مظاهر الحضارة الوافدة ..

ويتابع ابن الرومي وصفه لصوت وحيد ، مرهفا السمع اليه .. بل مشركا ذوقه وحواسه كلها معه فكأن هذا الصوت الشجي لم يعد صوتا رخيا لينا وحسب .. بل أصبح شيئا يتذوق ، بل شيئا يرى بالعين فيملأ حدقتها وشيا وزخرفة :

تتغنى كأنها لا تغني
من سكون الأوصال وهي تجيد
مد في شأو صوتها نفس كاف
كأنفاس عاشقيها مديد
وارق الدلال والغنج منه
وبراه الشجى فكاد يميد ..

فيه وشي وفيه حلي من النغم
مصوغ ، يختال فيه النشيد ..

تجسيد فني اشتهر به ابن الرومي ، وزاد فأنسن وجرد ..وانقلبت القصيدة كلها صلاة(٦١) في محراب الشاعر يرتلها ويعيد من ترتيلها على مسامع .. الكون والعاشقين .. لا على مسامع وحيد التي قلما اكترثت لما يقول هذا العاشق المسكين ..

غير أن ما يؤخذ على شاعرنا في هذه القصيدة الطويلة (٦٢) أنه لم يغادر متردم الشعراء الجاهليين في أوصافهم للمليحة ولم يأت بشيء جديد .. حتى كدنا نشك في صدق معاناته مع وحيد . فبقدر ما يبدع في وصف الجميلة .. بقدر ما يخفق في وصف وحيد ، فكأن هذه الجميلة لم تعد هي وحيد بالذات .. بل أصبحت كل جميلة تتحلى بهذه الصفات العامة المشتركة ... ابتداء من الظبية الجاهلية .. مرورا بالقمرية الأموية

---

(٦١) انظر نماذج في النقد الادبي لايليا حاوي ط٢ ٣٧٧ — دار الكتاب اللبناني — بيروت بدون تاريخ ..
(٦٢) حوالي خمسين بيتا .

وانتهاء بالغادة العباسية ·· بل الغانية الحديثة (الأرتيست) في كباريهات بيروت أو باريس ·· هذا من ناحية الأسلوب ، والصدق الاخلاقي ·· أي صدق حبه لوحيد ·· فلو كان يحبها حقا لأعطانا لوحيد صفات مميزة ·· ومذاقا فريدا ·· وعطرا خاصا بها ·· أما صدقه الفني فلا مراء فيه · فهو ، كما قلنا سابقا ، انسان مذعور من قرب نهايات الاشياء خاصة أمام الجمال ·· ولذلك تراه يطيل الحديث عنه ، ويستغرق فيه ، يفلسفه في محاولة يائسة لتخليده ··

ان تجربة عميقة تعيش في داخل الشاعر هي تجربة الهارب من فوضى ذاته الى تنظيم داخلي يجده أو يجسده في حلوله في الجمال ··

ابن الرومي لا يمكن أن نفهمه من أسلوبه الخارجي ·· بل من كل أسلوبه : أي من ذاتيته ، وتكوينه النفسي والجسدي الخاص ·· من مزاجه وكيفية تذوقه للأشياء ·· انه في الواقع لا يتلقى ايحاء الاشياء وهمسها الجمالي فحسب ·· بل يخلقها في ذاته من جديد ·· غروب الشمس مثلا والفجر ، وقبيل الفجر أو السحر ·· المشمش

الأصفر ٠٠ ألوان قوس السحاب المتداخلة ٠٠ كلها فصول معاشة في ذاته ٠٠ فصول يعيد تنظيمها من داخله وداخلها ٠٠ ثم يدخل اليها مرة ثانية ونهائية ويبقى معها كالعابد المتمتم في محرابها ، بكلمات مفهومة وغير مفهومة ٠٠ فماذا يفعل ، وهو المقبل ضعيفا ، سوى أن يسجد أمام العالم ٠٠ أمام جمالات العالم ؟٠٠ ويأتي بعدها الحزن ، في النشيج الحزين علامة انكسار [illegible] الدا[illegible] [illegible] جانب ٠٠ وعلامة ارتباطه بالنشوة ا[illegible] [illegible]ـه المعذبه العفوية من جانب آخر ٠٠

أما سبب ضعف أسلوبه الخارجي فهو انشغاله بأمرين هامين من أمور الخلق الفني عنده :

أ ــ تشبثه بتقصي المعاني وملاحقة تفريعاتها حتى النهاية ٠

ب ــ استغراقه في التجربة الشعورية وتلقي ايحاءاتها في ذهول يكاد يكون تاما ٠٠

بالاضافة الى سرعة تجاوبه مع التجربة فما يكاد بصره يقع على شيء حتى يبادر الى تسجيل تاثيراته عليه ، في مباشرة وعفوية تجعلانه غير قادر على

الالتفات الى ما يقول ٠٠ حتى اذا صحا من التجربة والانخطاف ، برر ما وقع فيه من ضعف التراكيب وهزال الألفاظ بحجج وأمثلة ينتزعها من الطبيعة أحيانا ومن المنطق :

قـولا لمن عـاب شعر مادحـه
أما ترى كيف ركـب الشجر
ركب فيه اللحاء والخشـب اليابس بينـه الثمـر
قـد كـان أولى بـأن يهـذب
ما يخلق رب الأرباب لا البشر

فالعفوية ومصدرها الصدق ليست كل ما تبقى في الذاكرة من المشاهدة لتكون حديثا دقيقا عـن الأشياء ٠٠ لأن ابن الرومي ـ الى هذا ـ مفعـم بالحياة لكونه انسانا شعوريـا ، يتلقـى الولادة الجديدة للأشياء مبهورا بالمشاهدة المتجددة بكـل حرارتها ٠٠ وبكل نبضها وموسيقاها ، ليفسرها في أعماقه ٠٠ ثـم على أوراق ٠٠ فيأتي شعـره « بصريا » جدا ان صـح التعبير ٠٠ بمعنى أنـه « طازج » المشاهدة دائما ٠٠

الحداثة في شعر ابن الرومي :

ذلك التوحد بين الاشياء ومع الاشياء يعطي شعر ابن الرومي أكثر من بعد واحد ·· يعطيه أربعة أبعاد : اللون ـ الشكل ـ الزمن ـ الشعر ـ وهذا ما يمنح الصورة الرومية شمولية لم تتح لشاعر في عصره أو قبل عصره ·· كما يمنحها تفردا ومذاقا خاصا ·· اذ تأتي محملة باللحظة التي عاشها : كالفجر حيث يكون مهرجان النسائم وتداعي الطيور والاغصان ·· وكالغروب حيث يكون الموت الرومانسي ·· والظهيرة أو الهاجرة حيث ترقد السآمة ·· والشكل ، أو أحجام الاشياء وخطوطها ومساحاتها ، عند ابن الرومي ، يبدو نديا بالحركة ، مضمخا برائحة خاصة (الخباز ـ صانع الزلابية ، الموز ··) أما اللون فيأخذ عند ابن الرومي علامة مميزة : فهو في قوس السحاب والألوان المتداخلة فيه ، وريح الشمال الطائفة بالخميلة بعد منتصف الليل ، يعبر عن فهمه للألوان وارتباطها بالضوء الشاحب المنبثق من ذاته ··

حاول ابن الرومي أمام أبعاد صورته الاربعة أن يذيب هذه الابعاد في ذاته ·· يدعها تتداخل

في بعضها ، تموت في بعضها ٠٠ لتحقق عفوية صورته وانسجامها ٠٠وحيويتها النابضة٠٠ وهكذا برزت الصورة الرومية كاسرة حواجزها ، متألقة بانجذابها الى الشكل : كالطبيعة والمرأة ٠٠ تائقة الى الحلول في هذا الشكل ، حيث يتوج الشعر بنشوة خارقة ، كتلك النشوة التي تأخذنا ونحن نتملى آثار « فان كوخ » الذي يشبه ابن الرومي من نواح كثيرة ٠٠ يشبهه في حيرته ودهشته وانهماره على الألوان والاصباغ والأضواء ٠

ومما يزيد شعر ابن الرومي قربا منا ، أي حداثة : تعلقه الشديد بالصورة وابتعاده عن صيغ التشبيه قدر الامكان ٠ والفرق كبير بينهما : ذلك أن التشبيه ــ كما يقول أدونيس (٦٣) « يجمع بين طرفين محسوسين ٠ انه يبقي على الجسر الممدود فيما بين الاشياء ٠ فهو لذلك ابتعاد عن العالم ٠ أما الصورة فتهدم هذا الجسر ، لأنها توحد بين الأشياء ، وهي اذ تتيح الوحدة مع العالم تتيح امتلاكه ٠٠٠ فهي من هذه الناحية ، الاشياء

---

(٦٣) زمن الشعر ط٢ ص ١٥٤ ادونيس ــ دار العودة ــ بيروت ١٩٧٨ ٠

ذاتها ، وليست لمحة أو اشارة تعبر فوقها أو عليها ، وامتلاك الاشياء يعني النفاذ الى حقيقتها فتتعرى، وتتلألأ في النور ، تصبح القصيدة القائمة على هذه الصورة أشبه بالبرق الذي يضيء جوهر العالم ودخيلاءه . هكذا تكون الصورة مفاجأة ودهشا .. تكون رؤيا ـ أي تغييرا في نظام التعبير عن هذه الأشياء .. » ونعتقد ان ابن الرومي في صورته ذات الابعاد الاربعة لم يكن بعيدا عما ذهب اليه أدونيس .. سواء في التعبير عن الرؤيا أو الرؤيا ذاتها ..

وحين نؤكد على قوة ابن الرومي في الريادة والكشف : ريادة الموضوعات المتحررة من كل قيد ، والكشف عن مخبئات الأشياء ، أي عن أسرارها .. والوقوف أمامها بدهشة وذهول وخوف من وهم النهاية .. ومحاولة اكتشاف أشياء جديدة في الاشياء القديمة .. حين نؤكد ذلك في شعر ابن الرومي نكون قد أثبتنا مقدار حداثته وقوة ذلك الشعر على اختراق حجب الزمان والمكان ليصل الينا مقبولا وأثيرا ...

والحداثة في الشعر عموما ، هي أن يضيف

الشاعر بُعدا لم يكن معروفا في القديم ·· وقد أضاف ابن الرومي أبعادا أربعة ، كما رأينا ، لا بعدا واحدا ···

والحداثة «ترتبط بغنى التجربة الابداعية(٦٤)» ولم يكن بين الشعراء العباسيين أغنى ولا أكثر ابداعا من شعراء قلائل من بينهم ابن الرومي ··

وحين رفض ابن الرومي الدخول في سباق الشعر الملكي ـ الخليفي ·· وأهاب به حسه الحضاري الى الارتماء بشوق في أحضان الطبيعة وأحضان العاديين من الاصدقاء وغير العاديين ·· حين رأى نفسه مساويا بل متفوقا على الآخرين ·· راح يسخر ويعاتب ويصارح ويهجو ممن لا يقدرون مواهبه وينعى على المجتمع مصيبته بحاكميه من خلفاء و « شرط وكتاب » على حد قوله :

أتراني دون ألالي بلغوا

ثم ان هناك نواحي كثيرة تقرب شعر ابن الرومي من الحداثة · يقول أحد منظري الحداثة ، في

(٦٤) المصدر نفسه،ص ١٧٠ ·

الشعر (٦٥) « ان الحداثة هي حرية الرؤيـا في ابصار ما تريد » ولقد كان ابن الرومي حرا في ابصاره ما يريد ·· حرا في احتضانه وتسجيـل مظاهر نشاطه ·· حرا في التعامل مع « الحياة » فيه استبعادا لفكرة الموت : موت الشاعر والشيء المحتضن ···

ويقول المنظر نفسه : « ان الحداثة ، هي حرية الوجدان في اعطاء الشيء المعنى الذي يختار » · وهذا فعلا ما حرك وجدان شاعرنا في اعطاء الشيء المعنى الذي يختار ·· والذي لم يخطر على بال ·· فحين أعطى صوت وحيد صفات وخصائص فريدة : من سجو وهدوء وحلي ووشي وزخرفة الخ ·· لم يكن أدناها يخطر على بال انسان في عصره ولا في عصرنا ··

ويقـول منظـر الحـداثـة الاول الشـاعر أدونيس (٦٦) : « تعني الحداثة ـ فنيا ـ تساؤلا

---

(٦٥) انسي الحاج : مجلة مواقف ص ١٠٥ وما بعدها ـ العدد ٣٥ .
(٦٦) مجلة مواقف ص ١٤٢ العدد ٣٦ .

جذريا يستكشف اللغــة الشعرية ويستقصيهــا ، وافتتاح آفاق تجريبية جديدة في الممارسة الكتابية، وابتكار طرق للتعبير تكون في مستوى هذا التساؤل. وشرط هذا كله الصدور عن نظرة شخصية فريدة للانسان والكون » الى هنا ينجح ابن الرومــي في اعتبارنا شعره حديثا الى حد مــا .. حين نلاحظ تساؤلاته حول اللغة الشعرية وأسلوب الكتابــة الشعرية وتبرير ذلك بما عند الطبيعة من فوضى تأليفية .. ولكنها تساؤلات لم تكن جذرية بــل تبريرية .. أما « ابتكار طرق للتعبير تكــون في مستوى هذا التساؤل ـ كما يقول أدونيس ـ فهذا ما لم ينجح فيه ابن الرومي على الاطلاق لأن نظرته الى الانسان والكون كانت مضطربة .. أما حــين يقول صاحب « مواقف (٦٧) » : ان لحظة الحداثة هي لحظة التوتر ، أي التناقض والتصادم بين البنى السائدة في المجتمع ... » الى هنا نجد ابن الرومي يمتلك هذه اللحظة : لحظة التوتر فقد طال تناقضه وتصادمه مع البنى السائدة في مجتمعه .. كمــا طال تناقضه وتصادمه مع مفهوم الآخرين للفــن

---

(٦٧) المصدر نفســـه .

والشعر والجمال والقبح ، ومفهومه هو ٠٠ مع تأثرهم ٠٠ وتأثره هو ٠٠ وهكذا ، فاننا نجد ابن الرومي دائما في خانة « الحداثة » ، مهما تشددنا ، على الاقل ، بالنسبة لشعراء عصره : انه في خانة بشار وأبي نواس وبعض أبي تمام والمتنبي وأبي العلاء ٠٠ حيث لا يمكن وضعه في خانة مسلم أو البحتري أو أبي فراس ، أو الشريف الرضي ٠٠

شعر الثقافة والعقل :

من أبرز خصائص ابن الرومي في عملية الصنيع الشعري أنه يصدر في ما يقوله ويحس به عما يلي :

أ ــ سرعة الالتقاط للمعنى أو الصورة ٠

ب ــ الاحساس العميق بهما ، أو التفاعل الشديد معهما ٠

جـ ــ تدخل العقل والثقافة ٠٠ بمعنى أن العقل لا يدع العاطفة تنساب عفويا بل نراه يكبح من جماحها بالتحليل والمقارنة وضرب الامثال حتى تبرد فورة الشاعر بتأثير برودة العقل : نلاحظ ذلك في المدح خاصة حيث يخرج الشاعر فيه عن المألوف ويتنكر له ٠٠

د ــ كثرة التشخيص الى حد الانسنة والتجريد .

هـ ــ التقصي الفني ، ويعزوه بعض المحللين الى الوراثة المثلثة التي يحملها ابن الرومي : فقد جمع الى تعمق الآريين في الفكر ، تفوق الساميين في الخيال ، والى براعة الروم في التصور قوة الفرس في التصوير .. أما طه حسين فيعزو ذلك الى ثقافة ابن الرومي الاسلامية اليونانية بالدرجة الأولى ..

و ــ القاء الحوار بين المعاني .. وربما كان هذا من تأثير وراثته اليونانية .. اذ قلما نجد شاعرا عربيا أصيلا استعمل مثل هذا الحوار (٦٨) :

وقد برز ذلك بشكل واضح في همزيته المطولة التي مدح فيها صديقه أبا القاسم الشطرنجي ، وقد انقلب المدح فيها الى عتاب ولوم وترجح (٦٩) بين المدح والذم :

---

(٦٨) سليمان البستاني ــ مقدمة الالياذة

(٦٩) يقال ترجح لا تأرجح . وهي من الاخطاء الشائعة في ايامنا هذه . خاصة في لغة الصحف الى جانب خطأ =

يا أخـي أين ربع ذاك اللقـاء
أين ما كـان بيننا من صفـاء
أين مصداق شاهد كان يحكي
أنـك المخلص الصحيح الاخاء
شاهد مـا رأيـت فعلـك الا
غير مـا شاهـد لـه بالزكـاء
كشفت منك حاجتـي هنـوات
غطيـت برهـة بحسن اللقـاء

هذه الهفوات أو الاخطاء اليسيرة هـي التـي سيشخصها ابن الرومي ويبث فيها الحياة ثم يجري بينه وبينها حوارا يقوم على الأسئلة والأجوبة في اطار من المداعبة والغمز من قناة الصديق :

قلت لمـا بـدت لعيني شنعـا
رب شوهـاء في حشـا حسنـاء

= جديد هو دان بدل ادان بمعنى الادانة او الاتهام . فحين نقول دانه نرتكب في الواقع خطاين . خطا في الاضافة، فلا يقال دانه بل دان له اي خضع ومنه كلمة ديـن بمعنى الخضوع للـه . ودان له بالـولاء اي اعترف الخ .. وخطا في المعنى المقصود . (انظـر لسان العرب مادة دين) .

قلن : لولا انكشافنا ما تجلت
عنك ظلماء شبهة قتماء

قلت : أعجب بكن من كاسفات
كاشفات غواشي الظلماء

هذا الحوار بين المعاني أو « الهنات » هو ما تفرد به ابن الرومي دون سائر شعراء عصره ، أما الاطالة والغوص على المعاني فيشترك فيهما مع الشعراء المثقفين وخاصة مع أبي تمام الا أنهما يختلفان في الأسلوب وطريقة التعبير ٠ أبو تمام حريص كل الحرص على التصنيع اللفظوي والمعنوي ٠٠ وابن الرومي حريص على ألا يحرص وبتعبير أصح : مهمل للتعبير الشعري ٠٠ لا يهتم به الا بقدر ما تساعده ثقافته اللغوية على ذلك ٠٠ وتأمل هذه الشطحة الموفقة في تشخيص معنى المكر أو الدهاء ٠٠ في لعب الشطرنج حيث يأنسن ذلك المكر ليصبح له دبيب كدبيب المدام في الاعضاء :

لك مكر يدب في القوم أخفى
من دبيب المدام في الاعضاء

وكان صورة المقابلة بين تأثير الخمرة وتأثير المكر ،

لم تكتمل عند ابن الرومي ، فراح يضفي على ذلك المكر صورة أكمل وأبعد غورا :

أو مسير القضاء في ظلم الغيب
الى مـن يـريـده بالتـواء

مكر غريب وصورة أغرب : كيف يمكن للدهاء أن يشبه ، في سيره الى قلوب اللاعبين ، بأنه :

كمسير القضاء في ظلـم الغيب
الى مـن يـريـده بالتـواء

انها ، حقا ، حداثة في الفكر وفي الخيال حين يلبس الشاعر معنى من المعاني دلالات جديدة وصـورا أكثر جدة ، هي في نظرنا ريادة جديدة ، وعلى حد تعبير منظري الحداثة : اضاءات جديدة تسلط على المعنى والصورة فتكسبهما تألقا أخاذا على دروب الكشف والابداع ··· ويستأنف الحوار أكثـر ديناميكية وحياة بين الشاعر وبين الهنات الهينات :

قد أفدتنني مع الخبر بالصاحب
أن رب كـاسـف مستضـاء
قلن : أعجـب بمهتـد يتمنى
انـه لـم يـزل علـى عميـاء

كنت في شبهـة فزالت بنـا عنـ
لك فأوسعتنـا مـن الازراء

وتمنيـت أن تكـون على الحـ
يرة تحـت العمايـة الطخيـاء

قلت : والله ليس مثلي من ودضلالا، وحيرة باهتداء

غير أنـي وددت ستر صديقي
بـدلا بـاستفـادة الأنبـاء

قلن: هذا هوى، فعرج على الحق، وخل الهوى لقلب هواء
الى آخر هذه الحوارية المدحية ، التي انقلبت في لا وعي الشاعر الى مصارحة واتهام وعتاب وتأنيب تارة بالمحاورة والمداورة ، وتارة بالمباشرة ٠٠ ويظل الشاعر أسير عالمه الجديد ، لا يبرحه ، عالم رسمه بنفسه ولنفسه ٠٠ ولم ينس أبدا هذا الصديـق الكبير والغاية التي من أجلها أنشأ قصيدته ٠٠ وقد جاء تأثير حب الصديق وايثار الشاعر له غالبا على كل شيء فعاد يداعبه ويعاتبه كما داعب الهنات وعاتبها وشبه مكره تارة بدبيب الخمرة ، وتـارة بسير القضاء ، وتارة بدبيب الملال في مستهامين ، الى غاية من البغضـاء ٠٠ و « سريـان الملـل في المستهامين حتى ينتهي بهما الى البغض من أخفـى

الخفيات » ٠٠ كما يقول أحد النقاد (٧٠) وهو ولوج كلي الى أعمق أعماق النفوس العاشقة ٠٠ لا سيما المراهقة ٠٠ وبقاء حلولي في جو القصيدة يكاد يشبه الفناء الصوفي ٠٠ واني لأتصور ابن الرومي حين رسم آخر صورة في مطولته يكاد يغمى عليه ٠٠ فساعة نهاية العيش مع معانيه وصوره وأحلامه هي ساعة الفجيعة حقا ٠٠ فماذا يبقى من ابن الرومي اذا انتزع من أعماق عالمه الشعري ٠٠ الى السطح ؟ لا شيء ٠٠ ولعل هذا ما يفسر سر ارتمائه بعيدا في أحضان الاشياء والمعاني والصور مخافة أن يبقى على السطح أو السفح فنخسره ٠٠

أما الموضوع فقد خرج عن معدلاته المعروفة وأصبح أشبه ما يكون بما نسميه اليوم « قصيدة النثر » والسبب دائما نفسي ، في نظري ، أكثر منه ثقافيا ٠ فقد طالما أرجعه الباحثون الى تأثير الثقافة والعقل والمنطق لما وجدوه في شعر ابن الرومي من وحدة موضوعية « ترافقها وحدة فنية تتسلسل فيها المعاني تسلسلا منطقيا ، وتتطور من مقدمات الى نتائج يؤكدها بالبراهين والحجج ، وتربط بينها

(٧٠) ايليا حاوي : ابن الرومي : فنه ونفسيته من خلال شعره ص ٣٤٠ دار الكتاب اللبناني ١٩٥٩ .

روابط عقلية (٧١) ... » .

هذا صحيح ، ولكن الأصح هو أن ابن الرومي المهزوم اجتماعيا ، المهجور ، المكسور الخاطر ، من الناس .. كان يحمل في حناياه حنينا عميقا للانسان ــ كما تقدم القول ــ وحين لم يجد هذا الانسان في دنيا الواقع راح « يحيا » معه في عالم فنه وشعره ، يحيا معه ، كما يهوى ، وكما يراه في رؤاه ... ولهذا أطال الوقوف معه .. فطالت قصائده .. خاصة المدحي منها .. ونراه ، حين لا يجده مباشرة ، يتوجه اليه عبر الأشياء والمعاني فيؤنسنها تارة ويجسدها أو يجردها .. وحين حرمه القدر والمجتمع من المرأة جسدها في لا وعيه وعاش معها ــ سلبا أو ايجابا ــ في عالمه الفني ذاك مع الاشياء من شجر وثمر وحبل وولادة وقشور .. لقد أحب ابن الرومي أن يحول عالمه هذا الى واقع .. فلم يستطع بالطبع .. فآثر البقاء معه حتى النهاية .

هكذا يمكن أن نفسر مطولاته بأسبابها النفسية العميقة ، لا بمجرد فعل الثقافة والمنطق وحدهما ..

---

(٧١) نازك سابا يارد : ابن الرومي شاعر الحس والعاطفة والخيال ص ١٥٩ بيت الحكمة ــ بيروت ١٩٦٩ .

أما سهولة أسلوب شاعرنا الى درجة الضعف والاسفاف والوقوع في أخطاء نحوية وصياغية ، فليس مردها الى اهتمامه بالمعنى وانصرافه الكلي الى تقصيه وشرحه فحسب بل الى سهولة الموضوعات التي كان يتناولها · كوصفه مثلا للجمال ، وقالي الزلابية والخباز ، وصاحب اللحية الطويلة البشعة في وجه عمرو ·· وتلذذه بوصف بعض المأكولات والفواكه ·· وهذه السهولة ، في نظر الفن الصحيح فضيلة وميزة بدأها بشار حين أنزل الشعر العربي، لأول مرة ربما ، من برجه العاجي ومن قصور الخلفاء الى مواخير الخلعاء ·· وخانات الحمير ·· ومطبخ رباب ·· حتى الأحلام الذهبية لم تعد ، في حس بشار ، وقفا على البشر، وكذلك الشهادة والاستشهاد : فهذا حماره يغادر الدنيا شهيد حب حمارة صبية عند باب الاصبهاني ·· فيأتي طيفه في المنام مطالبا بشار بالثأر منها ···

فكيف بابن الرومي لا يكون تلميذا أمينا في تلك المدرسة البشارية الواقعية المحببة ، هل تريده أن يتفلسف أمام قالي الزلابية ، أم يلغز أمام عثنون عمرو أو لحيته الطويلة فيشبهها بكمية مكثفة من خيوط الظلام ·· أم بمخلاة الحمار ؟! علما بأنه

لم يبخل بالصناعة اللفظية والمحسنات البديعية في همزيته وغير همزيته ·· أما السفسطات الصرفية أو النحوية فاليك هذا التبرير من صاحبها ، ويكفيه أمانة وصدقا أنه أحس بها قبلنا وقبل ناقديه :

قولا لمن عـــاب شعـــر مادحـــه
أما ترى كيف ركب الشجر ··
ركب فيه اللحـــاء والخشب اليا
بس والشـــوك دونـــه الثمـــر
وكان أولى بـــأن يهـــذب مـــا
يخلق رب الأرباب لا البشر .! ··

انه يفلسف عيوب شعره التركيبية ، في سخرية ملغوزة ، رادا اياها الى الطبيعة الكونية نفسها ·· فليس كل ما خلق الله تاما ·· لقد خلق القبيح الى جانب الحسن ، والشر الى جانب الخير ، فهـــل يلام الانسان الضعيف اذا جاء عمله ناقصا ؟! ··

واذا كان الناس لا يتعرفون الا على سقطاتـــه فلستر عجزهم عن فهم روائعه ·· هذا شأنهم ·· وليس ضروريا أن تفهم عليه الكلاب والقردة ··· ما دام هو يحس بروعة شعره وكذلك ذوو العقول والأفهام :

شعري شعر اذا تأمله الانسان
ذو الفهم والحجى عبده

وهو لا يستطيع اجتراح المعجزات ليفهم من لا يفهم، وهو ليس نبيا يستطيع افهام البهائم والطيور « سليمان قاهر المردة » ! :

ولا أنا المفهم البهائم والطير
سليمان قاهر المردة
ما بلغت بي الخطوب رتبة من
تفهم عنه الكلاب والقردة ...

ومن أبرز وجوه العمل العقلي عند ابن الرومي، الى جانب الهمزية الشطرنجية ، قصيدته البائية في مدح أحمد بن أبي ثؤابة التي بدأها بمقدمة طالت حتى بلغت تسعين بيتا ... كل ذلك من أجل أن يصور خوفه من السفر الى ممدوحه .. يقول في مطلعها :

دع اللوم ان اللوم عون النوائب
ولا تتجاوز فيه حد المعاتب
فما كل من حط الرجال بمخفق
ولا كل من شد الرحال بكاسب

بداية لم تكن مألوفة في موازين عصره الاخلاقية المزيفة ·· اذ لا يجوز في عرفهم أن يأمر شاعر ممدوحه بألا يعتب عليه ، أو يلومه في تأخره عن المجيء اليه ، ناصحا اياه أن يكتفي بالعتاب اللين ، ضاربا له الأمثلة في شكل حكمة تقريرية بسيطة ملخصها : ما كل من أقدم فاز ، وما كل من أحجم ·· وماذا يفيد ركوب الخطر اذا خسر الانسان حياته ···

أما نحن فنشعر في قرارة نفوسنا ان ابن الرومي يشعر ، في قرارة نفسه ، انه أسمى وأعلى من ابن ثوابة هذا بالرغم من ان شاعرنا كان بحاجة اليه ، والى من هو دونه ، لخصاصته واضطراره أحيانا الى طلب رغيف ·· لكنه حين يقابل بين الرغيف ، أو العباءة ، وبين مشقات السفر ولو الى الكوفة أو البصرة أو حتى سامراء فمن حقه أن لا يسافر أو يغادر حيه في بغداد ·· لينعم هؤلاء بثرواتهم وليتمتعوا بها على حساب ملايين الفقراء أمثال ابن الرومي وغير ابن الرومي ·· ولينعم شاعرنا بعالمه الشعري وحده ·· يكفيه من عالمه : البراءة والطهر والحلم والرؤى الجميلة ، ويكفيهم من عالمهم :

الأنانية ، والبخل ، والرجس ، والظلم ، وحقارة النفس ..

ثم يمضي في تصوير خوفه من سفر البر والبحر، وما جره عليه هذا الخوف من اضطراب نفسي وحذر دائم بأبيات تعتبر آية في المصارحة والتحليل النفسي العميق لهواجسه وخصائصه النفسية فلأول مرة نجد شاعرا عربيا ينتقد نفسه ويحلل عيوبها هذا التحليل الدقيق الصادق المشحون بدفقات وجدانية ملتاعة ، ووقوف انكساري حزين أمام المصير المجهول :

ومن يلق ما لاقيت في كل مجتنى
من الشوك يزهد في الثمار الأطايب
فأصبحت في الاثراء أزهد زاهد
وان كنت في الاثراء أرغب راغب
حريصا جبانا ، أشتهي ثم انتهي
بلحظي جناب الرزق لحظ المراقب
تنازعني رغب ورهب كلاهما
قوي وأعياني اطلاع المغايب
فقدمت رجلا رغبة في رغيبة
وأخرت رجلا رهبة للمعاطب

أخاف على نفسي وأرجو مفازها
وأستار غيب الله دون العواقب
ألا من يريني غايتي دون مذهبي
ومن أين ؟والغايات بعد المذاهب!

لقد استطاع ابن الرومي أن يخرج من عقله ، اذا صح التعبير ، أو من موضوع العقل والتفسير الى جو آخر ، هو الجو النفسي الحزين الاثير لديه . كان المعنى الاساسي الذي يرغب في عرضه وشرحه هو أنه انسان يحب لذائذ الحياة وأطايبها ، ويحب الثروة ويتمنى الحصول عليها .. ولكنه لا يجرؤ ، لعلة فيه أو علل ، على السعي في سبيلها .. الا أنه لم يكتف بعرض هذا المعنى عرضا موجزا ، بل راح يسهب فيه ، ويضرب عليه الأمثلة ، محللا لنا نفسيته المضطربة ، وأعصابه المنهارة ، ولم ينته الا بعد أن تقصى آخر فكرة شعت أمامه من سراج العقل .. كان هذا هو المعنى المقصود في أول المطاف .. أما في نهايته فقد استطاع الشاعر الملهم أن ينقلنا معه في انجذاب وجداني الى أن نقف معه أمام المجهول ونهتف مثله في أعماقنا ذلك الهتاف الوجداني المرير :

ألا مـن يريني غايتـي دون مذهبي
ومن أين ؟! والغايات بعد المذاهب!!

ويستمر ابـن الرومي في رحلته الوجدانيـة الطويلة ، مبررا عدم قيامه بتلك الرحلة النهرية التي كان يزمع القيام بها الى ممدوحه .. مصورا متاعب السفر في البر والبحر ، مسهبـا مسلسلا للأفكار ، ضاربا للامثلة في ثمانية وعشرين بيتا ، حتى يكاد يخرج نهائيا من نطاق الشعر الذي يعتمد اللمح الخاطف في زعم نقاد عصره ، لا سيما صديقه اللدود البحتري الذي كان يغمز من قناة ابن الرومي في قوله :

والشعر لمـح تكفـي اشـارتـه
وليس بالهذر طولت خطبـه ..

لم يكن ذو القروح (٧٢) يعلم ما
المنطـق مـا شأنه ومـا سببه ..

---

(٧٢) ذو القروح امرؤ القيس . سمي بذلك لما سببته له عباءة مسمومة زعم ان جوستنيانس الخامس ملك قسطنطينية البسه اياها حين علم بعلاقة غرامية قامت بين امرىء القيس وابنته ..

كأن ذا القروح يجب أن يبقى مثالا يحتذى في الشعر وغير الشعر .. سامح الله البحتري ما كان أقصر نظره .. أما نحن فلن نسامحه اذا كان يصدر في قوله عن قناعة .. أما اذا كان يريد أن يرد هجوم ابن الرومي عليه في هجائه له فقد نسامحه بعض الشيء :

الحظ أعمى ولولا ذاك لم نره
للبحتري بـلا عقـل ولا أدب

لا بأس .. واحدة بواحدة والبادىء أظلم .. هذا في المجال الاخلاقي . أما في المجال الفني فليسمح لنا أبو عبادة بألا يقـف أمـام ابن الرومي الا في « السينية » وحدها .. أما في نطاق الشعر الوجداني المتحرر من كل قيد الا قيد العاطفة والخيال والانهمار بكل الذات وكل الكيان على المعنى والصورة حتى لينقلب مدح ابن أبي ثؤابة الى قطـع وجدانيـة ولوحات فنية .. ثم يكون أضعف ما فيها المدح .. فذلك شأن ابن الرومي الخبير الكيميائي الفريد وحده الذي يعرف سر الأصباغ والألوان والدهان وسر الروح والعقل الذي يمازج بينهـا جميعـا وينصب عليها جميعا فاذا هي حية تسعى بين أيدينا

وأيدي الخلود ...

أثر الثقافة وانعكاس العصر :

وتظهر ثقافة ابن الرومي الواسعة والمكثفة في كثرة الحجاج في شعره والمجادلة المنطقية ، كما تظهر في كثرة ما يورد من أسماء الكواكب ، والفلاسفة ، والرياضيين ، والكيمياء ، والتلويح ببعض المعتقدات المذهبية الشائعة في زمانه .. ومن آثار الثقافة الوحدة الموضوعية في كل موضوعات شعره، حيث تبرز قصائده متماسكة متسلسلة ، فكل قصيدة تشكل وحدة قائمة بذاتها ، وليس البيت الشعري الواحد ، شيمة الجاهليين ومن حذا حذوهم من الاسلاميين والعباسيين وبهذا خرج على المألوف عند الشعراء التقليديين فأنكروا نهجه وعدوه شذوذا ، كما فعل معاصره البحتري حين عد شعر ابن الرومي : هذرا وثرثرة !!..

آراؤه وخواطره في الحياة والأحياء :

أصبح واضحا لدينا أن ابن الرومي كان من أشد الناس تعلقا بالحياة ، وكرها للأحياء ، لنمط معين منهم ، ما عدا المرأة ، رغم تلونها ، فهو من

أخلص المتعبدين للحياة عبادة حب شديد فيه كثير من العشق واللصوق والتفاعل : هذا الحب ناتج ـ كما رأينا ـ عن خوفه الشديد من الموت وكل ما يرمز اليه أو يدني منه ·· حتى الألوان الطبيعية كانت به نفرة من الاصفر فيها لأنه يذكر بالموت · لذا هجا « المشمش الملعون » وبكى غروب الشمس لأن الصفرة والغروب يذكرانه بالموت المبكر الذي داهم أولاده الثلاثة ·· وفتك بأبيه وأمه وأخيه وزوجته الواحد تلو الآخر في سلسلة رهيبة من العدم المتتابع ·· هو نفسه أصبح من جراء ذلك حيا ميتا ·· متهافت الجسد خائر القوى ·· ولولا الشعر الذي أنقذه لمات مع الميتين ·· حتى ولو ظل حيا ·· الشعر وحده آنسه فأنقذه وخلصه وأنساه ثم ·· خلده ·· كما كان شاعرنا حساسا متطيرا لدرجة أنه كان يكره كل نشاز في الحياة ، وفي الطبيعة ، يكره القبح في الاحياء لأنه في نظره ، شيء مضاد للحياة المتمثلة في الجميل ·· ويكره العوسج (أو الشوك) لأنه شيء مغاير للورد والليونة والحب ·· الجميل يدعوك ·· يجذبك ·· يناديك ·· والقبيح يعاديك فورا ·· يبعدك ، يكرهك ·· الورد يغمرك ·· يطهرك ·· يهتف

بك ٠٠ ينساب عبيره اليك قبل أن تشمه وأثنـاء الشم وبعد الشم ٠٠٠ العوسج : يخدشك ٠٠ يهرب منك وتهرب منه ٠٠ يحرمك من اللذة ٠٠ والغبطة والحب ٠٠

وابن الرومي محب عطوف : يحب الحب لذاته ويحبه لأن شبكة عينيه لا تريد أن يرتسم عليها أي لون من ألوان العدم ٠٠

أ ـ تهالكه على اللذات الحسية والشهوية ببطن جاهلية وذائقة حضارية عباسية ٠٠

ب ـ وسواسه وتطيره ونفوره من كل ما يرمز الى زوال الحياة ٠

ج ـ خوفه وجبنه من الغد ، والمجهول ، والاغتراب المادي (اذ يكفيه ما فيه من غربة معنوية) ٠

د ـ جزعه الشديد على فقدان الشبـاب وزهرة العمر ، لأن في ذلـك فقدانا للقدرة علـى الاستمتاع بالحيـاة ٠٠ ولذلك فقد بكـى الشباب بكاء مرا ، ورأى في زواله عذابـا دائما ٠٠ بل موتا بطيئا هو أقسى من الموت نفسه :

وفقد الشبـاب الموت يوجد طعمـه
مرارا ، وطعم الموت بالموت يفقـد

بل :

كيف العزاء ، وما في العيش مغتبط
ولا اغتباط لأقـوام يموتونـا ..

فليبك فاقد الشباب شبابـه بالدم بدلا مـن الدموع :

لا تلح من يبكـي شبيبتـه
الا اذا لم يبكهـا بـدم ..
لسنـا نراهـا حـق قيمتهـا
الا أوان الشيـب والهـرم
كالشمس لا تبـدو فضيلتها
حتى تغشـى الارض بالظلـم
ولـرب شـيء لا يبينـه
وجدانـه الا مـع العـدم

حتى حب الوطن ينظر اليه ابن الرومي مـن خلال الشباب ، وذكريات الشباب ، ومراتع الصبا والطفولة ، ومسارح اللهو والحب البريء :

ولـي وطـن آليـت ألا أبيعـه
والا أرى غـيري لـه الـدهر مالكـا
وحبـب أوطـان الرجـال اليهـم
مآرب قضاها الشباب هنالكا (٧٣) ..

وغير خاف ان الوطن الذي يعنيه الشاعر هنـا ليس الوطن ، كما نفهمه اليوم بمعناه الأوسـع ، وانما هو يعني المكان الـذي يولد فيـه الانسان ويدرج ، ويشب ، ويلهو .. فاذا بأشيائه كلها : المطارح والدروب والاشجار والعصافير ، والاثمار، حتى الحجارة جميعها يحمل له صورا ، ورمـوزا وأطيافا وذكريات « لمآرب قضاها الشباب هنالك » ومن الصعب نسيانها أو تناسيها فكيف ببيعها ...

ويبرز ابـن الرومي ، مرة أخرى ، حديـث النظرة ، حديث الموضوع الشعري الذي طالما تعاور

---

(٧٣) واضح انه يقصد بالوطن هنا المنزل الذي كان يسكنه والتي حاولت امراة ، يوما ، ان تسلبه اياه او تشتريه منه .. وقد سمي البيت وطنا لان الانسان يستقر فيه من وطن بالوطن يطن وطنا اقام به . وطن نفسه على الامر : أعدها لفعله ، واقرها عليه . والبلد : اتخذه وطنا اي مستقرا الخ .. (انظر محيط المحيط مـادة وطن) .

على غيره الشعراء من مدح وهجاء أخلاقيين ومن بكاء ورثاء وغزل وطرد .. وقلما ذكروا كلمة وطن على شفاههم وفي وجدانهم مغتربين كانوا أم مقيمين .. حتى اذا جاء القرن الرابع الهجري .. واغترب العربي عن أوطانه .. بل أصبح غريبا فيها .. تحرك وجدان المتنبي والمعري والشريف الرضي بالرائع من تلك الفلذات الوجدانية الوطنية ، وكان أحلاها تلفت قلب الشريف الرضي مذ خفيت عنه أطلال الأحبة :

وتلفتت عيني فمذ خفيت عني الطلول تلفت القلب

وأغلاها وأقربها الى الحس الوطني السليم « سحائب المعري » التي لا يريدها أن تمطر في أرضه اذا كانت لا تريد الامطار في غيرها :

فلا هطلت علي ولا بأرضي
سحائب ليس تنتظم البلادا

مفهوم اللذة عند ابن الرومي :

يظهر أن ابن الرومي لم يكن أبيقوريا في فهمه للذة ، بل كان بوهيميا حسيا شرها . أبيقور يفرق بين أنواع من اللذات والآلام .. فهناك لذات تنتج

آلاما ، وآلام تعقبها لذات ٠٠ وأفضل اللذات عنده هي التي لا يعقبها ألم ، وهي اللذات الروحية والفكرية ويسميها أبيقور السكونية ٠ أما ابن الرومي فلا فرق عنده بين أنواع هذه اللذات ٠ كلها واحد ٠ وكلها ينبع من اللذائذ الحسية ويصب في قناة واحدة هي بطنه ٠٠ مرورا بحواسه الخمس جميعا ٠٠ غريزته متلمظة باستمرار ، لسانه متمطق أمام الأطايب على الدوام ٠٠ أنفه أنف كلب يشم على أمتار ٠٠ أما أذناه فأذنا فرس أصيل مرهفتان لتلقي أي لحن وأي صوت : يرتاح للمطرب منها ، وينفر من قبيحها وناشزها ٠٠ بل يغضب على صاحبه ويهجوه ٠٠ حتى أنه يهجو من وما لم يتعرض له بسوء ٠٠ يهجو المهجويين بطبيعتهم ٠٠ لكأنه محامي الجمال والمدافع عن التناغم في الطبيعة والناس ٠٠ وعيناه ؟ ماذا في عينيه ؟ زئبق رجراج ؟ أم حدقة صافية لا تفتأ تتلقى انعكاسات الاشياء وظلال الاشخاص سلبا وايجابا ٠ رضا وقبولا ، شوقا وهتافا ، أو غضبا ورفضا ، كرها وصراخا ٠٠ ومصارحة جارحة ٠٠ حتى وهو يتلقى السم في قطعة حلوى من انسان مزور ، حقير (٧٤) يقولها

(٧٤) هو القاسم بن عبيد الله .

صرخة متهكمة جارحة : ليست طريقي الى النار ••

ويداه ؟ أتصور يديه •• واحدة على أنفه ـ كالهر حين يصارع الأفعى ـ وواحدة للمدافعة •• أو الصفع ان استطاع •• كما أتخيلهما مستعدتين دائما لاحتضان كل حبيب ، في أبوة رحيمة •• وردة كان هذا الحبيب ، أو طفلا معافى أو مريضا •• قطعة حلوى ، أو موزا ، أو زلابية •• أتخيلهما نحيلتين ، راعشتين تتناولان في رضا طفولي أي عطاء •• حتى ولو كان دينارا واحدا •• ضاحكا في سره أنه استطاع انتزاع هذا الدينار ممن لا يساوي دينارا •• فهو يلتذ في ذلك وتهدأ سورته •• أما المماطلة ، ولو من أجل عباءة ، فهو يكره ذلك • لا سيما اذا كان المماطل صديقا حميما كأبي القاسم أو ابن أبي ثؤابة •• لكن لا بأس •• ليماطلوا ما شاؤوا •• أليس هذا مدعاة الى انشاء المطولات الشعرية فيهم •• ألم يكونوا ـ في مماطلتهم ـ سببا للذته الفكرية والنفسية والفنية في التعبير والتعيير والتشفي وتعرية الاصدقاء ؟!

وتبقى لذة ابن الرومي الحسية هي الاساس ، منها ينطلق الى لذائذه المعنوية الأخرى وبها يتسم

التلاقي مع الآخرين أو التنافر والتصادم .. ثم الانفجار ...

تأمل هذا الابداع في تصوير أشواقه ومواجده التي لا ترويها أو تحيط بها المتعة الحسية :

التي وما كان مقدار الذي بي من الهوى
ليشفيه مما تلثم الشفتان ..

ثم هذه الهمسة الوجدانية الرائعة ، أو الخلجة من خلجات الكيان الذائب عشقا وحلولا :

كأن فؤادي ليس يشفي غليله
سوى أن يرى الروحين يمتزجان

أليست هذه لذة روحية أبيقورية سمت بابن الرومي ، في احدى شطحاته الغرامية الى مرتبة الصوفيين ؟ لكنه سرعان ما يرده عصبه الى الاشتهاء الحسي ، القريب التناول ، فيبقى لاصقا بالمادة المشتهاة لصوقا غريبا ، وحين يغني لذته معها يدخل في أعماقها ، كما جزئياتها ، واصلا أعماقا بأعماق ، وجزئيات بجزئيات ، حتى تتشيأ به ، ويتشيء بها .

وهكذا يمضي ابن الرومي في تصوير لذائذه التي تربطه بالحياة ، ولولاها لما كان حيا ولا كان شاعرا وأحبها لديه الحسي .. أما العصي فيورث الألم وبالتالي يدني من الموت .. لذلك فضل كل متعة أو لذة تنسيه شبح الموت وتطيل

عمره أو تروي شبابــه ·· وشبابه مستمد مــن شباب الحياة نفسها ، متحد معه متفاعل به : فشباب الطبيعة شبابه وربيعها ربيعه ·· وهرمها هرمه ·· وهو يكرهه ويتحاشاه ويهرب منه باتجاه الربيع ليحتمي به وينساه ··

حقا لقد كان لابن الرومي عقل حضري وذائقة فنية متقدمة ، وحس مديني مرهف لكن جسده كان جسدا جاهليا في التهامه اللذات التهاما ·· فــي اقتناص ما تيسر منها ··

وباختتام الحديث عن مفهوم اللذة عند ابــن الرومي نختتم الجانب الايجابي من فلسفته ، اذا عددنا آراءه وخواطره في الحياة والأحياء فلسفة ·· أما الجانب السلبي فنستطيع أن نسميه بالفلسفة العدمية ·

الفلسفة العدمية :

مصيبة ابن الرومي أو بالأصح فضيلته أنه كان أشد انفتاحا على حقيقة الوجود ، ومصائر الناس ، بينما الباقون لاهون بتفاهاتهم وتكالبهم في غبــاء مطبق وجهل كثيف ·· من هنا عد هؤلاء ابن الرومي

متطيرا ومتشائما ٠٠ وأشهد أن هذا ما كان تشاؤما وما كان تطيرا ٠٠ واذا كان لا مفر من هذه الصفات فليكن تشاؤمه تطيرا منهم ومن مقابحهم وسوءاتهم وغباواتهم ٠٠ وليكن تطيره اغراقا منه في الحساسية لكثرة ما يراه كل يوم من نشاز وقبح وبشاعة ٠ والسبب دائما هو : الصحو الدائم والوعي الكامل لما يجري تحت سمعه وبصره من ظلم ، وقسوة ، واستغلال ، وقتل وحرمان ٠٠ وماذا يفعل الشاعر أمام كل هذه المخازي ، وهو الحر والصريح والحساس ، المفرط الحساسية ؟ لا شك ، سيبدو مغايرا وبالتالي متصادما مع واقع يرفضه ٠٠ واقع أقل ما يقال فيه انه مقلوب ، في نظر ابن الرومي ٠٠ الأغبياء في مراكز الاذكياء ، والاذكياء من أمثاله في مراكز ٠٠ اللاشيء ٠٠ والحياة نفسها تافهة كمحطة للعيش السعيد ٠٠ انها في الواقع دار شقاء وبلاء رغم ما تحمله في مظاهرها من لذائذ عابرة ، ومتع زائلة ٠ ويضرب على ذلك مثلا طريفا : هو بكاء الطفل ساعة يولد لاحساسه الغريزي بما سوف يواجه من صروف الأيام :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها
يكون بكاء الطفل ساعة يولد ٠

وكان طبيعيا أن ينعت بالمتشائم ، وبالطائر المغرد خارج سربه ‥ كأن التغريد لا يحلو ولا يطرب الا مع أسراب التافهين ‥ ومتى كانت قولة الحق شؤما أو نذير شؤم ؟‥ وخير للشاعر المجيد أن يقف أمام أشياء الحياة وحقائق الوجود وقفة المتأمل الصادق الوجدان من أن يقف وقفة الكاذب المداهن المموه للحقيقة ، المتستر على الزيف ، الذي يقلب الفجيعة الى مهزلة ‥ ويخدرنا بأكاذيبه وتمويهاته .

من هنا يتم التصادم مع المجتمع الفاسد ، وتكتمل القطيعة بين الموهوبين مرهفي الاحساس وبين المغلقين من الناس ‥ ويكون الاحساس الفاجع بالغربة : غربة عن الحياة رغم حب الحياة ، وفجيعة بالآمال والقيم ، رغم الامتلاء بها ‥ والشوق الى تحقيقها ‥

ويا لها من غربة باردة برودة العدم حين يكون الشاعر رهيف الحس صاحي الوجدان مثقل العقل بالمعرفة ‥ فلا الحياة تتسع لآماله ، ولا الناس يوسعونها له ‥ بل يزيدونها ضيقا وتفاهة ‥ والعمل ؟ الموت كالغرباء ‥ أو انهمار الوجدان بالنشيد أو النشيج الجنائزي الحزين اعلانا لعدمية

الحياة : باطل الأباطيل ... ويموت ، بعد ذلك ، كل شيء ويبقى النشيد .. وحي ألوهة ورمز خلود ...

هذه الفلسفة العدمية قال بها شوبنهور في أواخر القرن التاسع عشر وملخصها بالنسبة للسعادة ان قيمة السعادة من القيم البالية وغير الثابتة ، وبالتالي لا وجود لها .. ان سعادة يسبقها عدم (قبل التحقيق) ويتلوها عدم (بعد التحقيق) لهي سعادة دنيوية غير ثابتة . وكذلك هي اللذة .. نستنتج كل مقومات فلسفة ابن الرومي من مطولاته حين يرتفع عن المناسبة الخاصة ، عن حاجته الشخصية (كما في الهمزية) الى التأمل البعيد في حاجات الناس ومصائرهم وقيمة الحياة نفسها خاصة مع من يزيدونها تفاهة ورعونة .. حين يرتفع بحسه الصافي وحدسه المتألق الى مشارف الوجود بين طرفيه والانسان بين عدميه : قبل أن يوجد وبعد أن يولد .. فاذا به ، بدل العبث بنفسه ومصيره ، يعبث بنفوس الآخرين ومصائرهم .. لم يعد يرى ما هو فيه من بلاء وفقر وغربة بل أصبح يرى بلايا الناس وفقرهم وغربتهم في هذا الوجود العدمي القاتل .. في تلك الحياة الفارغة وكأنها هاوية

سحيقة مليئة بالجماجم المفرغة الاحداق ، الفاغرة فم الرعب والدهشة والموت ·· وهكذا ينقلب الشعر من تصوير للحاجات الدُنيا ·· الى تصوير لمأساة الدنيا ·· من مدح أو هجاء أو تله بسفاسف الأمور الى صلوات في هيكل الوجود ·· حيث تثور النفس وتغتلي ـ في لحظات التأمل الصافي ـ بالرائع المضيء بومضات الشعر العالمي المثير ·· وشتان بين من يقع على فراغ مطمئن ملونا أزمته ·· وبين من يقف على شفير هاوية الوجود مغنيا أزمة الوجود معلنا عدميته والرعب القاتل الذي يلف الانسان في تلهفه الدائم الى بصيص من نور اليقين ·· تلهف سرعان ما يختنق ، أو يلفه الظلام أمام صفاقة الوجود وتفاهة الموجود ·· ثم تبرز الحقيقة بعد موت طالبيها فاذا هي وهم وضلال ·· وتبرز السعادة قبل موتهم ·· فاذا هي سراب خادع لا يلبث أن يزول ·· وتبقى صحراء الوجود بلا ماء ولا دماء ···

وبين مد وجزر وتأمل وانكماش ، وضياء وظلمة ، ووهم ويقين ·· تغتني تجربة الشاعر ويصفي شعره بمصفاة الفلسفة ويرقى الى العالمية هناك حيث « يصبح الشاعر رفيق الانسان في صراعه

لتحقيق نفسه وللعثور على حقيقته وحقيقة الكون وما وراء الكون (٧٥) » .

ويعود ابن الرومي ، في مطولاته ، ليهوي من عليائه ملتصقا بالأرض وبضرورات العيش ولجاجة الحاجة .. قدماه غارزتان بالحضيض ، ويداه ضارعتان الى السماء ، وعيناه شاخصتان الى .. المجهول تحاولان أن تكشفا ذلك العدو المتوهم الذي هو تارة الحظ وتارة الدهر ، وتارة الانسان ، لكن . ابن الرومي يبقى شاخصا معهما لا يرى شيئا .. ويظل الوهم والرعب والحيرة تلاحقه في غدوه ورواحه .. وكلما قرب من الموت زاد جزعه وكثرت وساوسه .. حتى اهمال صديقه الشطرنجي له ، يفسره الشاعر على أنه تخل من القدر عنه .. بل من الله .. وهذان : الله والقدر يتدخلان دائما ضده .. ويطاردانه .. فاذا ما لبى أبو القاسم حاجته أعلن انتصاره عليهما .. لكن أبا القاسم سرعان ما يعود انسانا عاديا ، في نظر ابن الرومي ، فيصيب شاعرنا نوع من الاحباط أو الاستلاب ..

---

(٧٥) ابن الرومي ص ٢٧٥ ايليا الحاوي ١٩٥٩ دار الكتاب اللبناني — بيروت .

ويحار في تفسير هذا الصديق المتناقض . في وفائه وعقوقه ، في صدقه وكذبه ، في وضوحه وغموضه غير أنه يظل مهما يكن انسانا ٠ والانسان في رأي شاعرنا معروف بخداعه وزيفه وتلبيسه ٠٠ يلبس ثوب الصديق ، ويحمل قلب العدو وغدره ٠٠ فحذار ، حذار ، منهم ٠٠ يقول لنا في تقريرية حكمية مباشرة :

عدوك من صديقك مستفاد
فلا تستكثرن من الصحاب

اذا انقلب الصديق غدا عدوا
مبينا ، والأمور الى انقلاب

ولكن ، قلما استكثرت ، الا
وقفت على ذئاب في ثياب

هنا يبدو ابن الرومي واعظا ٠٠ أكثر منه شاعرا ٠٠ حيث لا تبدو العاطفة الا في ظلالها الباهتة ٠٠ الباردة ٠٠ ولكي تكتمل أطراف العدمية بعد افراغ الوجود من معانيه الايجابية ٠٠ واسقاطا للانسان من انسانيته وعدم جدوى وجوده بعد هذا يعلن الشاعر : ان الوجود كله صدفة

عمياء .. وان الدنيا مسرح للمحظوظين الأغبياء وان للحظ سحرا كسحر الكيمياء :

ان للحظ كيمياء اذا ما مس كلبا أحاله انسانا

وطبيعي أن يستتبع ذلك — في المجتمع — فوضى مثالية في توزيع الثروة — مثلا — وأن يصل الى المراتب العالية كل غبي .. (من شرطة ومن كتاب ..) وأن يقصى عنها كل موهوب :

أتراني دون الألى بلغوا الآمال من شرطةومن كتاب

لعل هذا الشعور بالغبن الاجتماعي هو أمر مستغرب من مثل ابن الرومي .. غير الملتزم بقضايا الانسان وتطور المجتمع والعدل ، والحرية وما أشبه .. كما هو مستغرب في مثل عصره المحكوم بالعقلية الأوتوقراطية والمونارشية المطلقة .. لكنها لحظة صحو على الواقع المرير من وجدان متفجر دائما بأحاسيس انسانية راقية .. وجدان شاعر يقف باستمرار في مواجهة الحياة .. يراقب .. يقارن .. يستغرب .. يرفض .. يعلن رفضه ثم تهدأ سورته .. ويستكين ..

حقيقة المرأة في نظر ابن الرومي :

رغم ما اتصف به الشاعر من اهتمام بالمرأة

وحب لها ، وعلى الأخص لنوع معين من النساء كالمغنيات مثلا والراقصات ·· فاننا نلمح في شعره أنه كان في جهد معها ومعاناة ، وصراع خفي حينا ، وظاهرا أحيانا · لهذا انقلب ساخطا عليها ، ثائرا على تلونها وتقلبها : فهي سر غامض بالنسبة اليه ، وعالم مليء بالغرائب والعجائب ·· يرى فيها صور الطبيعة ومناخ الأقاليم السبعة ·· في تبدل حالاتها ومناخاتها ·· بل هو يرى الشخصيتين متماثلتين في بواطنهما ، لا في مظاهرهما فحسب :

ولا يدمن على عهد لمعتقد
أنى ، وهن كما شبهن بستان
يميل طورا بحمل ، ثم يعدمه
ويكتسي ، ثم يلفى وهو عريان

وللمرأة نصيب كبير في الآداب العالمية القديمة ، وخاصة أدب الطبيعة ·· فعندما يذكرون خصب الطبيعة ، وعطاءها ـ كما في الأدب الهندي مثلا ـ يشبهونها بالأم رمز العطاء والخصب والحنان ·· وفي العهد القديم رموز كثيرة بهذا المعنى ·· ولكن ابن الرومي ـ كعادته ـ لا يرى سوى الجانب السلبي من الحياة والأحياء نظرا لسوء مزاجه وظلم المجتمع

له ، فلا يعتبر المرأة الا رمزا للتحول والتقلب بين جدب وخصب ، وربيع وشتاء وصيف وخريف ·· وهي الى المزاج الصيفي الحارق أقرب ·· فكيف نتخذ منهن ـ نحن الرجال ـ قرينات لنا ؟ ان ذلك من العجب !

ومن عجائب ما يمنى الرجال به
مستضعفات لنا منهن أقران ··

لكن ابن الرومي ، المتخاذل دائما ، غير ثابت المواقف يلقي سلاحه أخيرا ، على قدمي المرأة مستسلما ثم يهتف :

بل هي العيش لا يزال متى أستعـ
رض يبدي غرائبا ويعيد ··

وجدير بالملاحظة ، أن آراء ابن الرومي في المرأة مستوحاة من معاناته وجهده مع نوع معين من النساء اللواتي أتيح له أن يتعرف اليهن في حانات بغداد الشعبية أو المتوسطة كالمغنيات والجواري والساقيات وهؤلاء يجنحن ، عادة ، نحو التقلب بحكم عملهن ولا يصلحن للحب الصحيح أو الزواج ··

وما همنا رأيه في المرأة ·· ما دمنا ننظر اليه وهو يراقب العالم ·· فنجده قادرا على النشيد ، أو النشيج · هذه النشائدية (ان صح التعبير) هي التي جعلت رؤاه المذهلة ، الغريبة في رهافتها وذهولها ·· شيئا يمكنه أن يتنفس بالشكر الحزين والشجى الأليم ·· لكن · يجب ألا ننسى ، في التقييم الفني الأخير ، مدى ارتباط ابن الرومي بالمرأة · هل هو مع المرأة ، للمرأة فحسب ؟ أم لأنها صلة ارتباط جميلة بالطبيعة الجميلة ·· بذلك العالم المشتهى الذي كونه ابن الرومي لنفسه وعاش في داخله ، ينشد فيه الجمال الأوسع ، ويقارن بين مختلف أنواعه ، ويتلذذ بالاستعراض والمقارنة ؟! هذان الاستعراض والمقارنة ، أو هذه المعادلة هي الأساس في شعره ·· في أنسنته للجمال والاشياء ·· ومن ثم الغناء في ذلك المشتهى ، أو الحلول فيه ··

والجديد في غزله أنه لا ينظر الى الحبيب ، كما نظر الاقدمون والمعاصرون ، بل سرعان ما يحول حدقته الى تذوق شيء جديد في المرأة المشتهاة : صوتها ·· فاذا بنا لا نعرف من وحيد مكامن الجمال فيها : من قوام ولون وعينين وشفتين ·· وغدائر بالتفصيل ·· حتى الغنج والدلال ينسبه لصوتها

لا لقوامها أو لأي شيء آخر فيها ·· ولا عجب ، فالصوت في ذائقته ، لم يعد مجرد صوت رخيم أو رخي؟·· بل أصبح انسانا نحيلا « براه الشجى فكاد يميد » ورقق من حاشيته الدلال والغنج ··

حقا ان ابن الرومي شاعر مميز مغاير في شخصيته وشاعريته لمفاهيم عصره وشعراء عصره انه ، حقا ، ذلك الطائر الذي غرد خارج سربه ، فحلق وأبدع ·· وغردوا هم داخل السرب فتشابهت أصواتهم فلم يحلقوا ، ولم يبدعوا ··

صحيح انه جاراهم في مطالع غزله ، فمر مرور الكرام على مكامن الجمال في وحيد وبستان وسواهما ، لكنه سرعان ما تحرر من التقليد وأسرع الى التوقف عند صوت وحيد ·· فأطال وأطنب مدققا ومحللا ومشركا جميع حواسه في تذوق هذا الصوت الفريد ··

ـ لقد غنى ابن الرومي لنفسه ، لعالمه المشتهى ، ولم يغن لحساب غيره كالببغاء الملقن ·· لم يشأ ، أو لم يستطع ، أن يكون عقله في أذنيه ، أو أن يكون امعة في بلاط بليد تحت نزوة خليفة مجنون··

ومن هذا المنطلق الخاص ·· من عالمه المشتهى

المترع بالعذاب في الحب ، يصبه حبيب هاجر ويتلقاه ، بل يُسقاه محب عاشق ·· من تلك التجربة الوجدانية الذاتية انطلق ابن الرومي الى رحاب التجربة الانسانية المريرة ·· فاذا هو يمثل – في معاناته – معاناة القلوب البشرية في صراعها مع الحب من أجل امتلاك الحبيب ، والجمال من أجل احتواء الجميل ·· وقد يصبح مثل هذا الصراع مأساويا حين يقف العقل في جانب ،والقلب في جانب ، العقل مؤيدا من الواجب والمصلحة والتقاليد ، والقلب مؤيدا من ·· الله ·· من القدر الغلاب واللواعج الغرامية المحتدمة ·· فلا مهادنة ·· ولا رضوخ لسلطان العقل ولا وسطية ، ولا استسلام (*) ·

نتلاقى ، فلحظة منك وعد
بوصال ، ولحظة تهديد
قد تركت الصحاح مرضى يميد
ون نحولا ، وأنت خوط يميد
لي حيث انصرفت منها رقيق
من هواها ، وحيث حلت فعيد

---

* حقا ما قاله باسكال : ان للقلب اسبابا ، لا يدركها العقل
Le coeur a des raisons, que la raison ne connait pas ..

عن يميني وعن شمالي وقدامي
وخلفي ، فأين عنه أحيد

سد شيطان حبها كل فج
ان شيطان حبها لمريد ..

العقل يصور حتمية المأساة في الحب ، والقلب يحترق فيها طائعا مختارا ..

العقل يحذر من الشرك .. والقلب يقع فيه .. رغم المحاذير ..

العقل مصمم على الخلاص وله مبرراته . والقلب مصمم على الانتحار وله أسبابه .. وكلاهما يجهل منطق الآخر .. أو يتجاهله (٧٦) ..

وهكذا يختصر ابن الرومي دراما الحب .. في

---

(٧٦) الا يذكرنا هذا الموقف الانساني في التعامل مع الحب والحبيب بمواقف ابطال كورني في « السيد » وسينا وحيث نشهد صراع العقول والقلوب ، الشرف والواجب من جهة ، والحب من جهة اخرى ثم الانتصار الكاسح للعقل والواجب . وبمواقف ابطال راسين في فيدر واندروماك وبايزيد وعثليا حيث ينتصر القلب في جبرية لا مفر منها ؟ انظر ترجمتنا لسائر هذه المسرحيات الصادرة عن دار الكتاب اللبناني ، بيروت المؤلف

تلك المسرحية الكونية الكبرى ، ويقــدم نفسـه قربانا على مذبح عشتروته ٠٠ حتى اذا انتهينا من داليته ، وقبل أن ننتهي ، أحسسنا أنه قد ارتفع، الى مصاف العشاق الكبار في العالم ٠٠ ومعنى ذلك أنه شاعر يمكنه دائما أن يحول تجربته الذاتية الى تجربة عامة ، وبتعبير أصح ، بامكانه أن يوجـز مأساة الانسانية كلها في صراعها مع أقدارها ٠٠ اننا لم نعد نرى وجه ابن الرومي المنسحق المكدود، بل وجه الانسانية المنسحقة المكدودة : وحيد هي القدر ٠ وابن الرومي العائش دائما في جبريـة الوجود ٠٠ هو الضحيــة ٠٠ وعزاؤه أنــه ليس الضحية الأولى ٠٠ ولن يكون الأخير ٠٠ ولعل أروع ما في داليته الابيات التجريدية التالية :

ضافني حبـك الغريـب فألـوى
بالرقـاد النسيب فهـو طريـد
عجبـا لـي ان الغريـب مقيـم
بـين جنبـي والنسيب شريــد
قد مللنا مـن ستر شيء مليـح
نشتهيــه فهـل لـه تجـريـد
هو في القلب وهو أبعد من نجم
الثريا فهو القريـب البعيـد ٠٠

نسيبه وحبيبه تلك الاغفاءة اللذيذة التي كان ابن الرومي بحاجة اليها في واحة وجوده ، وصحراء عيشه ·· طلبها في دنيا الواقع فحرموه منها فراح يغفو في عالمه المشتهى ·· ينـام ملء جفنيـه في شعره ، في رؤاه ، في نسيمات السحر تهب مع ريح الشمال ·· اغفاءة نالها ابن الرومي بعيدا عـن الناس ·· لكن ذلك كان قبل « وحيد » ·· وها هي تأتي لتسرق منه اغفاءته الحبيبة ·· أو نسيبته ، كما يسميها ، فيتسهد ، ويتنهد ، ويحيا بعيدا عن بعيدين : الاغفاءة وسارقتها ·· ومن عجـب أن سارقة الاغفاءة ساكنة في قلبه لكنها بعيدة عنه بعد الثريا عن الثرى ·· بينما الاغفاءة شريدة عـن جفنيه وقد كانت ملء جفنيه ·· انه عناء الشاعر في الحب كعنائه في الحياة ·· وما وحيد سوى الوجه الآخر لحياة طال شقاء الشاعر معها وفيها ·· وطال عذابه ·· فراح يغنيه ويتعبد لـه كسيرا مهيض الجناحين ، كل مناه منه أن يطول عذابه معه لتطول لذته ·· فهو انسان يهنأ بشقائه ، ويشقى بهنائه·· يترجح ، على الدوام ، بين « رغب ورهب » ورجاء ويأس ، وموت وحياة ·· مشدودا ، باستمرار الى

وترين متوترين : وتر الاشتهاء الدائم ٠٠ ووتر الشبع الذي لا يروى ٠٠٠

هجائيات ابن الرومي ـ الهجاء الفني :

نسارع الى القول بأن ابن الرومي أول شاعر لم يتعامل مع المهجو أخلاقيا وبشكل مباشر ٠٠ فلا اقذاع ، ولا تهشيم أعراض ، ولا سباب ، شيمة المثلث الأموي ٠ تعامل مع المهجو فنيا ٠٠ نظر اليه من خارج فرأى فيه نشازا ، أو نتوءا بارزا لا ينسجم مع طبيعة الاشياء ويسيء الى الجمال والى احساسه المرهف والمرهق الذي يدفع بصاحبه في جبرية طاغية ، الى الانتقام ، فيشن هجوما صاعقا على « الصورة النشاز » ، أو « النتوء البارز » فيعمل فيهما ريشته وألوانه وتضخيماته التجسيدية ويصب عليهما ظلاله النفسية ورؤاه وأحلامه وهواجسه ٠٠ فاذا بمجموعة الخطوط والألوان الشعرية تخرج عن كونها هجائية عادية الى أن تصبح رسما كاريكاتوريا ساخرا ، ولوحة فنية رائعة ٠٠ واذا بنا نتعرف الى نفسيات شخوصه المهجوة المعقدة من خلال الدهن واللون والخط الخارجي البارز ٠٠ وهكذا نشهد ولادة « فن » في الهجاء جديد ٠٠ يقوم

على ابراز العيوب الجسدية الخارجية من أجل ابراز العيوب النفسية الداخلية .. تماما كما فعل الجاحظ في بخلائه حين ضخم حركات بخيله وتصرفاته الخارجية توصلا الى فضح دخيلائه ومكامن النقص فيه ، والتواء مفاهيمه وتناقض قيمه (٧٧) .. وكما يفعل رسامو الكاريكاتور اليوم .. ان طبيعة الفنان وروح الفنان هي الطاغية على الصورة الهجائية أو اللوحة المشوهة، بالاضافة الى روح السخرية والرغبة في الانتقام والتعبير عن تأذيه مما يرى ويشاهد .. في الأولى يبدو وكأنه يعوض على نفسه ما أصابه من غدر الزمان ولؤم البشر ، فيروح يعبث ويداعب ويفضح ويجسد العيوب في الناس وفي الطبيعة . ثم هو لا يملك الا أن يشاهد ويتأثر ويصور ، كما أنه يملك تلك القدرة الهائلة على الانجذاب الى كل شيء ناتىء أو شاذ في الحياة والأحياء .. وحتى الأشياء له معها معاتبات واتهامات .. اذا كانت رموزا لما يكره .. الى جانب كل هذا شعوره بالظلم والحيف اللاحقين به من المجتمع .. مما ولد عنده

---

(٧٧) انظر البخلاء ورسالة التربيع والتدوير للجاحظ .

انكسارا دائما وحسا « متوفزا » على حد تعبير العقاد ٠٠ فنراه يلجأ الى التخفيف عن نفسه بالتنكيت والتشويه واللعب بالناس كما لعبوا به ٠٠ يقول بروكلمان : « وفنه في الهجاء يعتمد في المرتبة الأولى على العيان والمشاهدة ، فهو يلمح بالنظرة الحادة النقائص والعيوب الجسمانية على وجه الخصوص عند خصومه فيصوغها في هجاء مرير لاذع ٠ فكأنه يتشفى ممن أساؤوا اليه بتشويه سحنات من لم يسيئوا اليه ٠٠ » حتى ان وسواسه وتطيره قاداه الى أن يرى القبح في كل كائن ، وفي كل مكان ٠٠ فهذا العوسج ماذا تراه قد أساء الى ابن الرومي ليهجوه ؟ لعله قد وخزه وهو يمر بازائه ؟ لا ٠ بل لمجرد انه لا يحمل ثمرا ٠٠ أو لعله أحد مقابح الوجود المرفوض لديه ٠٠ وأحد شواذات الطبيعة المقبولة عنده :

فما للعوسج الملعون يبدو بلا زهر ولا ثمر نراه !

انه لا يطيق أن يرى الجدب والقحل والعقم في حبيبته الطبيعة ٠٠ يريد أن يراها طبيعة ربيعية مثقلة بالجنى مزهوة بالشباب ، لذلك فهو يصرخ في وجه العوسج : كفاه لؤم مجناه كفاه !٠٠ وفكرة

الموت الحقيقي أو الموت البطيء تراوده باستمرار الى درجة أنه لم يكن ليستطيع رؤية ما يذكره بـه كصفرة المشمش مثلا ·· فينصب عليه هاجيا ·· لا لشيء الا لأن لونه أصفر ! والاصفرار لون من ألوان الموت :

اذا ما رأيت ، الدهر ، بستان مشمش
فأيقـن ، بحـق ، انــه لطبيـب
يغـل لـه مــا لا يغـل لــربـه
يغـل مـريضـا حمـل كـل قضيـب

ووجه عمرو ·· بماذا أساء اليه وجه عمرو حتى ينقض على صاحبه تشويها وتجريحا ؟! كل ما فعله عمرو النصراني هذا أنه كان يمنع ابن الرومي من الدخول على الوزير ·· ولو أنصف ابن الرومي لهجا الوزير الآمر ·· لا عمرو المأمور ·· لكـن عمرو بوجهه الطويل وسهولة هجائه والعبث بـه آمن للشاعر من هجاء الوزير ·· وأغنى مادة للريشة الصناع :

وجهك ياعمرو ، فيه طول وفي وجوه الكلاب طول
مقابح الكلب فيك طرا يزول عنهـا ولا تزول

وفيه أشيـاء صالحات حماكها الله والرسول
فالكلب واف، وفيك غدر ففيك عن قدره سفول
وقد يحامي عن المواشي وما تحامي ولا تصول
وأنت من بيت أهل سوء قصتهم قصـة تطـول
وجوههم للورى عظـات لكـن أقفاءهم طبـول
مستفعلن فاعلن فعول مستفعلن فاعلن فعول
بيت كمعناك ليس فيه معنى سوى انه فضول!

أمامنا لوحة فنية رائعة ، وتحليل نفسي يكاد فرويد يقصر عن مجاله ·· تحليل يعتمد علـى المقارنة بين مظهرين أو وجهين خارجيين توصلا الى حقيقتين داخليتين تنم عنهما الحركات والسكنـات والسمات ··

بدأ الشاعر ـ الرسام بعرض اللوحة عرضـا منطقيا ·· وكأنها قضية من قضايا المنطق : وجـه عمرو فيه طول : هذه حقيقة ·· وفي وجوه الكلاب طول ·· وهذه حقيقة : اذن عمرو يشبه الكلب في وجهه ، وبالتالي في مساوئه جميعا ·· دون محاسنه والكلب قد يقلع عن مساوئه ·· لكن عمرو يصر عليها ويتشبث بها ·· وفي الكلب « أشياء صالحات » ليست في عمرو طبعا وجبلة ·· حماه الله منها ،

ورسوله ، والمؤمنون ٠٠ كالوفاء ، والدفاع عن القطيع وحمايته من الذئاب ٠٠ فالكلب ـ اذن ـ أشرف سلوكا وطباعا من عمرو الغادر الخامل القاعد ٠٠٠

هجاء مركب في الصورة الكثيفة : لقد هجاه ثلاث مرات : الأولى حين قارنه بالكلب ٠٠ والثانية حين انحدر به الى ما دون صفات الكلب ٠٠ والثالثة حين رفع الكلب عنه درجات ٠٠ مبالغة فنية ونفسية جاءتا لارضاء تلك الحاسة الشهيرة عنده وهي حاسة انجذابه الشديد الى كل ما يبدو ناتئا وبارزا وبكلمة : مدهشا وهكذا كان القبح القبيح يفعل فعله في اثارة كل حواس ابن الرومي ومشاعره ٠٠فينهال على القبيح تشويها وتحقيرا الى أن يجعلنا نحن نشاركه تلك الدهشة المرعبة ٠٠ والغريب أننا لا نتقزز من هجائياته ، ولا نتبرم ٠٠ بسبب ذلك الأسلوب الساخر الضاحك الخبير بمداعبة هؤلاء الذين هجتهم الطبيعة قبل هجائه لهم ٠٠ وكأنه يعتذر لهم عما فعله في تشويههم ٠٠ فما ذنبه هو ان كان يحمل ريشة ملهمة تجذبها المشاهدات الشاذة والسحنات البشعة كما يجذبها الجمال ٠٠ وما دام المهجوون موجودين في كل مكان ٠٠ أمامه ووراءه

وعلى جنبيه ؟٠٠ مع كل بشاعاتهم وحقاراتهم ٠٠

ثم هو في تجربته الداخلية ومعاناته في الحياة مع أمثالهم ، كان في هجائه لهم يفسر لنا حقيقة الناس حين يتوارون خلف ألف ستار من ستائر المال والجاه والمنصب ٠٠ أو حين يدعون كذبا أنهم الأصفى والاحسن والاجمل ٠٠ كأن يريد دائما أن يقيم تلك المعادلة بينه وبين العالم ٠٠ لعله يرضى عن نفسه ٠٠ فتأتي البشاعة ٠٠ لتبعده عن اقامة تلك المعادلة ٠٠ حين يجد نفسه هاربا من فوضى ذاته ٠٠ فيكر عليها ليبعدها عن طريقه الى تلك المعادلة ــ المحاولة ٠٠ اذ هو في هاجس تنظيم داخلي يجده شاعرنا في حلوله في الجمال ٠٠ وكما كان شاعرنا يتلقى ايحاء الاشياء وهمسها الجمالي فيخلقها في ذاته من جديد ٠٠ فان مشاهد الجمال والقبح هي ــ في الواقع ــ فصول معاشة يعيد تنظيم جوانبها الايجابية والسلبية في ذاته ٠٠

كان يمكن أن يقف مع عمرو عند التشويه الشخصي له : مظهرا ومخبرا ٠٠ ولكن الصورة لا تتم ولا تكتمل الا بتكشيفها وملاحقة أصول عمرو حتى الجذور ٠ فهو يعلم ان عمروا هذا قد ورث

عن أهله الأدنين صفات غير مشرفة يمسك عن ذكرها ٠٠ ليترك لخيالنا نحن أن نتصور تلك القصة : قصة أهل عمرو على النحو الذي نريد ، حين قال :

وأنت من بيت أهل سوء   قصتهم قصة تطول ٠٠

مكتفيا بذكر بشاعتهم الجسدية التي تعكس بشاعاتهم الخلقية :

وجوههم للورى عظات   لكن أقفاءهم طبول ٠٠

ثم يأتي ــ بعد أن استكمل صورة عمرو بكل ظلالها وألوانها وخلفياتها الى النهاية المحتومة والنتيجة المرتقبة لمثل هذا الانسان ٠٠ فاذا هي اللاشيء ٠٠ أو الصفر ٠٠ ان وجود عمرو وعدم وجوده سيان تماما كتفعيلة وزن البيت : مستفعلن فاعلن فعول ٠٠٠ واذا كان له من وجود في هذا الوجود فهو الفضول الذي لا غناء فيه ٠٠٠

الهجاء الاجتماعي :

وهكذا يعكس لنا شاعرنا الرسام الكاريكاتوري ودون أن يشعر جانبا كبيرا من جوانب المجتمع

الفاسد حيث يكثر فيه أمثال عمرو من التافهين والخاملين والامعات ..

كما يثبت مرة أخرى مقدرته الخلاقة في التصوير والتلوين والسخرية والدعابة والعفوية .. وهتك الأسرار .. كل ذلك لأنه هو نفسه ضحية لعبة الجمال والقبح في الحياة .. جمال علمه وبراءته وحبه .. وتنكر المجتمع لكل هذه القيم ولكل حامليها وممثليها ... وقبح الانسان الغبي الذي يدعي العلم والمعرفة والبراءة والحب .. ومع هذا يجده ابن الرومي في أعلى المناصب .. تهابه الناس وتقدره .. ويجد نفسه ـ لصراحته وصدقه ـ في أسفل سافلين .. لدى مجتمع لا يقدر الا الأقوياء ، ولا يعترف الا بالجلادين .. فحق لشاعرنا المفجوع بآماله أن يهجو الناس جميعا ، حاكمين ومحكومين ، اذ قد يكون عمرو المسكين أقلهم بشاعة وهوانا .. وأن يهجو الدهر ، أو الحظ ، الذي يسفل العالي ويعلي السافل حتى لكأن هؤلاء السافلين ـ العالين « جيف تطفو فوق الماء » على حد تعبيره :

فليطر معشر ويعلو فاني
لا أراهم الا بأسفل قاب

لا أعد العلو منهم علوا
بل طفوا يمين غير كذاب

جيف أنتنت فأضحت على اللج
ة ، والدر تحتها في حجاب

وطبيعي أنه هو وأمثاله الدر الذي يرسب تحت اللجة ·· وأصحاب الحظوظ جيف تطفو عليها ·· وان ظهر للأغبياء العكس ··

انها معاناة مريرة كان الشاعر محور الصراع فيها مع القدر ·· الاسم الآخر لله ·· فبدلا من اتهام الله مدبر الكون بالظلم أو الجور يلجأ الفاشلون أو المفشّلون الى تسميته بالقدر حينا ، وبالحظ أحيانا ·· ليسهل اتهامه ، ومصارعته ·· دون أن يتهم الشاعر أو الشاكي بالكفر والالحاد (٧٨) ··

صورة الأحدب المضغوطة :

وهذه لوحة فنية ونفسية رائعة اكتملت في بيتين اثنين :

---

(٧٨) ابن الرومي : فنه ونفسيته من خلال شعره ص ٨٢ ايليا الحاوي ، دار الكتاب اللبناني — بيروت .

قصرت أخادعه (٧٩) وغار قذاله (٨٠)
فكأنه متربص أن يصفعا

وكأنما صفعت قفاه مرة
وأحس ثانية لها فتجمعا ٠٠

بدأ ابن الرومي برسم صورة للأحدب واقعية ومضغوطة على عمق في السبر والتحليل ، منذ شطر البيت الأول : رجل قصير الاخدعين ٠٠ أي قصير ما بين المنكبين ٠٠ قذاله غائر : أي قصير ما بين الرأس ونفرة القفا ٠٠ تكاد رقبته تختفي ٠٠ ثم اتبع صورة الاحديداب الشديد بصورة نفسية متممة : هي صورة التربص والخوف : فكأنه متربص أن يصفعا ٠٠ ثم رسم ـ في البيت الثاني ـ صورة ثالثة للأحدب ، تؤكد الثانية ، وتزيد عليها عنصري : الانكماش : (وكأنما صفعت قفاه مرة ٠٠) والتجمع : (فأحس ثانية لها فتجمعا ٠٠) ٠

---

(٧٩) الاخدع : عرق في العنق . وهو شعبة من الوريد ، وهما اخدعان غير ظاهرين (محيط المحيط) .

(٨٠) القذال : جماع مؤخر الراس (محيط المحيط) .

صورة أخرى رحبة ووارفة الظلال :

لحية الحمار :

ان تطلّ لحية عليك وتعرض
فالمخالي معروفة للحمير
علق الله في عذاريك مخلاة
ولكنها بغير شعير
لو غدا حكمها الي لطارت
في مهب الرياح ، كل مطير
ألقها عنك ، يا طويلة ، أولا
فاحتسبها شرارة في السعير
ارع فيها الموسى فانك منها
يشهد الله في اثام كبير
أيما كَوسج يراها فيلقى
ربه بعدها صحيح الضمير
هو أحرى بأن يشك ويعزى
باتهام الحكيم في التقدير
ما تلقاك كوسج قط ، الا
جور الله أيما تجوير
لحية أهملت فسالت وفاضت
فاليها تشير كف المشير

ما رأتها عين امرىء ، ما رآها
قط الا أهـــل بـــالتكبــــير
روعة تستخفـــه ، لم يرعهـــا
من رأى وجه منكر ونكير (٨١)
فاتـــق الله ، ذا الجلال ، وغير
منكرا فيـــك ، ممكن التغيـــير
أو فقصر منها ، فحسبك منهـــا
نصف شبـــر علامـــة التذكـــير
لو رأى مثلهـــا النبـــي لأجرى
في لحى النـــاس سنـــة التقصير
واستحب الاحفاء ،فيهن، والحلـ
ـق ، مكان الاعفـــاء والتوفـــير

بادىء بدء نلاحظ أن هجائياته الفنية والنفسية تترجح بين مثان ومثالث أو أكثر قليلا ، وبـــين مقطوعات ٠٠ لا تصل حد المطولات على كل حال ٠٠ وذلك وفقا لحالة المراقبة عنده وصفاء المخيلة ، وتوتر الاعصاب ٠٠ فاذا كان في حالة نصف هادئة (وما كان ابن الرومي هادئا في يوم من الأيـــام)

---

(٨١) ملاكان يحاسبان الانسان في القبر ويحضرانه للمحاكمة الكبـــرى ٠٠

ألهمته ريشته رسوما هجائية قصيرة جدا ــ كما رأينا ــ تاركا لخيالنا اكمال الرسم ٠٠ وقلما فعل ذلك ٠٠ أما اذا كان متوتر الاعصاب ، معكر المزاج، وقد يعكر مزاجه أي شيء ٠٠ فانك لتجده واثبا وثوب المستميت ، ممعنا في الشيء ، أو الانسان المهجو تهشيما وتجريحا وانتقاما ٠٠ فلا يدعه الا بعد أن يقذفه بكل الصور والنعوت حتى يميته ٠٠ ويرتاح ٠٠ لكن هذا الشيء أو هذا الشخص لا يموت تحت ريشة ابن الرومي بل يحيا من جديد أحب الى النفوس وأقرب الى الافئدة مما كان عليه في دنيا الواقع رغم ما أصابه من جراح ، ومن عري فاضح ٠٠

ومرة أخرى يتدخل الشعر لينقذ الاثنين : الهاجي والمهجو ، من العدم المحتوم ٠٠ يخلقهما من جديد خلقا آخر يتأبى على الموت ويتحدى العدم٠٠

ولعمري ماذا كان سيصيب ابن الرومي من الحياة والأحياء ، على ضعفه وتهافته ، وقلة حيلته وتطيره ووسواسه ٠٠ سوى أن يمر فيهما كالسراب، لو لم يكن شاعرا ٠٠ لقد تحدى بالشعر عدمية الوجود ٠٠ ثم خلد بالشعر عدمية الموجود ٠٠ حتى

البشاعة كانت تزهو وتضحك بين يديه ٠٠ لعلمها أنها سوف تخلد معه وتأخذ مكانها في متحف الفن الناطق ٠٠

نعود الى صاحب اللحية الحمارية ٠٠ فماذا نرى فيها ؟ : نرى ابن الرومي بكل ألوانه وظلاله النفسية وآلامه ونزوات الكبت فيه تأخذ ــ كلها ــ مكانا في هجائيته ٠٠

يدخل الشاعر ، على غير عادته ، بجرأة وتوثب ورغبة في المداعبة ٠ وكما فعل مع « وجه عمرو » قدم موجزا لنشرة أخبار اللحية وصاحبها : انها لحية طويلة عريضة كمخلاة الحمار ٠٠ ولكي لا يتبادر الى ذهننا أنها مخلاة محترمة ملأى بالشعير سارع الى نفي ذلك معلنا ــ في البيت الثاني ــ انها مخلاة فارغة حتى من ٠٠ الشعير ٠٠ ليفسح في المجال الى تخيل امتدادها عرضا وطولا ٠٠ لأن الملأى بالشعير تكون مضغوطة الى تحت أي طويلة فقط ٠٠ هذه المقارنة تعتمد منطقا سوفسطائيا يوهم بصحة التشبيه والمقارنة حتى اذا وجدناهما بين انسان وحمار تمت الفضيحة ٠٠ وكان الخزي والعار لانسان انحدر الى مستوى الحمير في هيئته مع

لحية فاضت واستطالت وعرضت حتى لكأنه ما عني بشيء في حياته عنايته بها ·· حين حصر احترام الناس له بها ·· فكان أحقر من حمار ·· وكان الذين يحترمونه لأجلها أحقر منه ·· أين يبرز كل هذا مع ان ابن الرومي لم يشر اليه من قريب أو بعيد ؟ يبرز هذا اذا قرأنا بين السطور ·· وعلمنا كم كان شاعرنا يعاني من عقدة النقص في بنائه الجسدي لا سيما بعد أن تقدمت به السن وتراكمت عليه المصائب وقعد به الوسواس والخوف والمرض : تساقط شعر رأسه ولبس العمامة مضطرا « لتستر ما جرت علي من الصلع » كما يقول ، وأصبح يغربل في مشيته على حد تعبيره :

انلي مشية أغربل فيها آمنا ان اساقط الاسقاطا

وطبيعي ، والحالة هذه ، أن لا تكون له لحية كثة فياضة كلحية البحتري مثلا أو لحية صاحبه هذا الذي انتقم منه لنفسه ·· اذ كيف يحرم ، وهو الشاعر المرموق ، والانسان المثقف الحساس الأبي ، كيف يحرم من لحية سوية وهيئة مرضية ، وقوام معتدل وجسم صحيح ·· في حين يتمتع بكل هذا انسان غيره لا يداني مواطئ قدميه مرتبة وشأنا ؟!

وتراه مع هذا موضع احترام الآخرين ؟! حقا ان الدهر لخؤون ، والقدر لغشوم ، وتبا لها من حياة يعيش فيها الموتى من البشر ، ويموت فيها الأحياء أمثاله !!

فهل بعد هذا يلام ابن الرومي على تشبثه بلحية صاحبه وتحقيره من خلالها ·· وامعانه في السخرية منه ومن قلة عقله وكثرة شعر لحيته ؟ انه يريد أن ينتقم من الناس جميعا بشخص صاحب اللحية الذي انقلب رمزا لغباء جميع الناس وحقارتهم ·· لا سيما غباء تلك « الجيف الطافية » ويحسبها الناس عالية الشأن والمكانة فيحترمها ·· ويقدرها الخلفاء والرؤساء فيقدمونها ويقلدونها المراكز العالية ··

كما أن في خيال شاعرنا دائما طيفا للحية صديقه اللدود البحتري ·· فقد طالما هجاها وهجا صاحبها علانية ·· ولعله هنا لا يقصد بحامل لحية كمخلاة الحمار الفارغة سوى أبي عبادة ·· ومع هذا فهو الشاعر الأول في بلاط المتوكل يحمل نقيصتين مرذولتين يراهما صاحبهما فضيلتين هما : حقارة النفس وغزارة اللحية ···

ولقد بدا الشاعر هنا ، لشدة حنقه وغضبه ، انه لا يهجو صاحب اللحية ليسخر أو يعبث الا بقدر ما يريد أن يرضي ضميره المتعب ومعاناته المريرة مع الفارغين والأغبياء .. حتى ليكاد يتميز غضبا وثورة متمنيا لو أتاح له القدر أن يتحكم بمصائر الناس وهيئاتهم فينتفض ـ فعلا ـ على مثل هذه اللحية فيجتثها من جذورها ويلقي بها وبصاحبها في الجحيم أو في مهب الرياح ..

لو غدا حكمها الي لطارت   في مهب الرياح كل مطير

الواقع انه ليس في هذا البيت نكتة أو سخرية ناعمة تنبع من ضمير رضي وانسان خلي .. بل انها لسخرية تكمن وراءها مأساة مروعة يعيشها الشاعر ، ونهم شرس تنطوي عليه نفسه حين يرى مثل هذا الانسان الحقير تهون عليه كل صفات الانسان واهتماماته ولا تشغل باله سوى .. لحيته وتربيتها .. وتنميتها .. حتى تذهب طولا وعرضا كأنه يريد أن يذهب في الشهرة الزائفة والمجد المزور طولا وعرضا .. ولا رأسمال له سوى لحيته « يا لها من مهازل تلك التي لا نكاد نضحك منها

حتى نرثي لها ! (٨٢) » ان ظلالا نفسية كثيفة وتجارب كثيرة ومعاناة مريرة تمور كلها وتزخر تحت كل حرف ، وكل كلمة ، وكل صورة من هذه الهجائية الغنية الرائعة التي يبدو ان معانيها قد اختمرت طويلا في خيال ابن الرومي وكيانه وضميره وها هو الآن يصبها دفعة واحدة على لحية صاحبه فيغمرها سخرية ويضمخها لعنات حتى ليكاد صاحبها يخرج من اطار الزمن ليضحك على نفسه أولا ويعتذر لابن الرومي عن حقارته ثانيا .. شاكرا له تلطفه حين حشره ـ بالشعر ـ بين الخالدين ..

أما الأسلوب الساخر الضاحك في ظاهره الباكي في باطنه ، والذي اشتهر به شاعرنا ، فقد اعتمد هنا على التضاد ونوع من الازدواجية في مواقف الهاجي بالنسبة الى نفسه ومواقفه بالنسبة الى المهجو .. ابن الرومي الهاجي يبكي حين يبدو ضاحكا .. والمهجو يضحك حيث يجب أن يبكي . أما التضاد فحين ينسب ابن الرومي أخطر النتائج لأحقر الأمور . فالاثم كبير أمام اطالة اللحية ، وفساد الضمير ينتج عن رؤيتها .. وكاننا نزني

(٨٢) هتاف مأساوي للشاعر الفرنسي الفرد ده ميسيه .

حين نشاهدها ·· أو نكفر ·· وبالكفر والتجوير والتجديف قد يقع فيه الكوسج (٨٣) لحظة يلقاها وقد سالت وفاضت ·· والسيل والفيضان انعكاس نفسي لمسيل وجدان الشاعر وفيضانه بالنعوت والصور حتى يغمر مساحة اللحية كلها وصاحبها ويفجأنا بهتاف : الله أكبر في لا وعينا تماما كما هتف كل من رآها لأول مرة صائحا : الله أكبر ! أعوذ بالله من شر ما أرى ! تضاد قائم على الدهشة والاستغراب يثيرهما أتفه الأمور وأبسط المشاهد ! في حوارية من جانب واحد ·· والمهجو صامت لا يتكلم الا بعد أن ينتهي منه الشاعر ·· فننفجر مع المهجو ضحكا واعجابا وازدراء من جانب ·· ويبقى الشامت الاكبر والرسام الاعظم وحده ·· في الجانب الآخر ·· حتى اذا أدركنا عمق مقاصده وبلاغة فنه وقفنا كلنا الى جانبه ·· مكبرين روعة تصوره لمأساة الوجود كله الكامنة في اختلال الموازين واضطراب القيم من خلال اللحية الفياضة والعقل النزر والنفس الحقيرة (٨٤) ·· وما أكثر مثيلاتها

(٨٣) الكوسج : الخفيف اللحية .
(٨٤) تذكرنا هذه اللحية بلحية الفيلسوف الانكليزي الساخر برنارد شو حين سئل: كيف ترى الحالة الاقتصادية =

في المجتمع الفاسد ، وخاصة في مجتمع طبقي أوتوقراطي كالمجتمع العباسي ··

ولكي يسد على صاحب اللحية أي باب من أبواب الحجاج والاحتجاج ، لجأ الشاعر أخيرا الى الدين·· ثم الى النبي محمد ·· فبعد أن جعل من ارسال اللحية منكرا يغضب الله ويكاد يكون كفرا !· لجأ الى الحديث النبوي القائل : حفوا الشوارب وعفوا عن اللحى ·· واستخلص العبرة التالية : لو رأى مثلها النبي لقلب قانون الاعفاء والاحفاء وقال بحلق اللحى واعفاء الشوارب ·· خشية أن يصبح المؤمنون كلهم على طراز هذا الانسان السخيف ··

وهكذا يصل ابن الرومي بصاحب اللحية الى أرض الواقع والاسلام الطبيعي مشيرا له الى أن المسلم الحقيقي هو الذي يّربي لحيته بمقدار ما يشير الى اسلامه وورعه ·· على ألا يتركها تسيل وتفيض وتتعاظم فيقع في النقيض وينقلب ايمانه كفرا وتجديفا وتجويرا ···

= في العالم ؟ فأشار الى لحيته الغزيرة وخلو رأسه من الشعر فقال : كثرة في الانتاج وسوء في التوزيع . اما صاحب ابن الرومي فكثرة في اللحية وقلة في العقل.

بمثل هذا التعبير والتصوير التصاعدي وملاحقة المعنى في تراكمية تفصيلية أتم ابن الرومي رسم اللحية الضخمة وصاحبها رسما قلما وفق اليه غيره من شعراء الهجاء · فمن تقريرية نثرية في البداية ومنطق بارد الى تأزم وعمق وفلسفة نفسية قائمة على التحليل بالمقارنة وضرب الشواهد واستفراغ المعنى من كل مرادفاته ومراميه ، والصورة من كل ظلالها ·· كل ذلك في وحدة فنية متراصة تربط النهاية بالبداية ربطا حضاريا ولغويا محكما ·· ولا ينسى ابن الرومي الرمز الى « الحالتين » التي يحياهما كلا الهاجي والمهجو ·· وما هما عليه من توتر وضعف وشعور بالنقص ·· وما هو عليه شاعرنا من نهم لا يرتوي ، وجوع لا يشبع الى مثل هذه المشاهد الغنية ·· تماما كشرهه الى التهام المآكل الدسمة ··

في هذا المجال : مجال الروح الساخرة السابرة Esprit Satirique يقصر عن مجال ابن الرومي كثيرون في الشرق وفي الغرب · ويبدو لي واضحا ومؤكدا أن ابن الرومي لو عرف فن الكوميديا الشعرية لفاق أريسطوفان ولابيش وموليير بدرجات ··

النقد الذاتي :

لأول مرة نجد شاعرا عربيا يصارح الناس وذاته بنقد ذاته ويحلل نفسيته في معرض اعتذاره لأحد أصحابه هو أحمد بن أبي ثؤابة عن السفر اليه ٠ أما الاعتذار ـ المقدمة فقد طال حتى بلغ تسعين بيتا ٠٠ قبل الوصول الى لب الموضوع وهو الطلب من ممدوحه أن يثيبه ، وهو مقيم ، وأن يعفيه من الذهاب اليه ، حيث سيتكلف ما لا يطيق من أهوال البر والبحر ٠٠ (وأي بحر يقصد ابن الرومي ؟! انه نهر دجلة لا أكثر ولا أقل !) ٠٠ بل انه يأمر صديقه أبا العباس بألا يعتب عليه أو يلومه في تأخره أو اقلاعه عن المجيء اليه ، ناصحا اياه أن يكتفي بالعتاب اللين ، ضاربا له الأمثلة في شكل حكمة تقريرية بسيطة ملخصها : ما كل من أقدم ربح ، وما كل من أحجم خسر ٠٠ وماذا يفيد ركوب الخطر ، اذا خسر الانسان حياته :

دع اللوم ان اللوم عون النوائب
ولا تتجاوز فيه حد المعاتب

فما كل من حط الرحال بمخفق
ولا كل من شد الرحال بكاسب ٠٠

ثم يمضي في تصوير خوفه من سفر البر والبحر وما جره عليه هذا الخوف من اضطراب نفسي ، وحذر دائم .. بأبيات تعتبر آية في المصارحة والتحليل النفسي العميق لدخيلائه هو وما ينطوي عليه من نقائص وعاهات .. وهو ما يسمى اليوم بالنقد الذاتي ومحاسبة النفس واعلان ذلك على الملأ :

ومن يلق ما لاقيت في كل مجتنى
من الشوك يزهد في الثمار الأطايب
فاصبحت في الاثراء أزهد زاهد
وان كنت في الاثراء أرغب راغب ..
حريصا جبانا أشتهي ثم أنتهي
بلحظي جناب الرزق لحظ المراقب
تنازعني رغب ورهب كلاهما
قوي وأعياني اطلاع المغايب
فقربت رجلا رغبة في رغيبة
وأخرت رجلا رهبة للمعاطب
أخاف على نفسي وأرجو مفازها
وأستار غيب الله دون العواقب
ألا من يريني غايتي قبل مذهبي
ومن أين ؟ والغايات بعد المذاهب !

فالمعنى الأساسي الذي يرغب في ابدائــه هو أنه انسان يحب لذائذ الحياة وأطايبها ، ويحب الثروة، ولكنه لا يجرؤ على السعي في سبيلها لما قد يتعرض له من مخاطر ٠٠ الا أنه لم يكتف بعرض هــذا المعنى عرضا موجزا ، بل راح يسهب فيه ، ويضرب عليه الأمثلة محللا لنا نفسيته المضطربة المركبة ٠٠ ولم ينته الا بعد أن تقصى آخر الفكرة ، وكل ما يتولد عنها من صيغ والتماعات ذهنية ٠٠ وواضح أن هذا التقصي هو من عمل العقل المثقف الــذي يقلب المعنى على مختلف وجوهه ، اذ يملك القدرة على استخراج جميع جزئياته بما يختزنه هــذا العقل من معرفة ويتميز به من قوة على السبــر والكشف ٠٠ فكيف اذا صاحب هذا العقــل نفس مركبة كنفس ابن الرومي التي ترى ما لا يــراه الآخرون وتهجس بما لا تهجس به النفوس السوية أو البسيطة ٠٠ هنا تتظافر القوتان العقل والعاطفة عند الشاعر فاذا بنا أمام نموذج رائع وفريد في النقد الذاتي الصريح القائم على تصوير الهواجس كما هي ، وكما يحس بها صاحبها دون تورية أو تغطية أو اصطناع ٠٠ مع أنه في موقف المادح المحتاج الى « مثوبة » صاحبه مهما كانت ٠٠ لكن الصدق

مع النفس جعله يقعد عن السفر اليه ويبقى في منزله ببغداد يجتر أيامه ويلعق خصاصته ٠٠ تاركا للمتزلفين أن يكذبوا أمام ممدوحيهم ما شاؤوا ٠ أما هو فلن يفعل ذلك ، واذا كانت المسألة مسألة تقدير ووفاء من الممدوح فلتكن الجائزة أو الاكرامية بدون الوقوف على الاعتاب ٠٠ انه حس متقدم من ابن الرومي على عصره ٠٠ وليس حسا ملتويا كما رأى بعض النقاد المعاصرين (٨٥) بالتواء نفسية صاحبه وتشاؤمه الذي « يجعله ينظر الى شجرة الحياة المتثاقلة ، المتهدلة ، اليانعة ، فيتغامض عن الثمر الشهي ، الجني ، ويمضي في التحديق بأشواكها ، حتى تعروه بدوار التحديق ، وتنهال عليه الأشواك » ٠٠ الخ ٠٠

على هذا الأساس نكون كمن يطلب من الشاعر أو الاديب أن يساير ويداهن ويحمل مباخر المديح الكاذب من أجل الحصول على ثمار « الحياة المتثاقلة ، المتهدلة ، اليانعة ٠٠ » فاذا اعتصم

---

(٨٥) انظر كتاب ابن الرومي : فنه ونفسيته من خلال شعره ص ١٥٥ لايليا س. الحاوي — دار الكتاب اللبناني ١٩٥٩ ٠

بكرامته نتهمه بالشذوذ والانحراف والسوداوية والأمراض النفسية المختلفة ·· صحيح ان ابن الرومي كان مصابا بكل هذه العاهات الجسدية والنفسية لكنها أمراض لم تكن من الخطورة بحيث تقضي عليه كانسان وكشاعر ·· لقد ظل انسانا وظل شاعرا ·· ولكنه كان بالنسبة الى عصره المختل انسانا شاذا ·· ومريضا ·· من هنا ريادته ·· ومن هنا أصالته حين غاير ورفض وشذ ·· فلا يجوز أن يأتي ناقد في القرن العشرين ، وينظر اليه بمنظار القرن التاسع ·· فيسمي احجامه ، بعد اقدامه ، شذوذا « تخوفا من خطر مجهول يحدق به ·· دون أن يكون ثمة خطر ·· » هذا ليس نقدا لشاعر يصارحنا بكل عفوية وصدق انه كذلك وأكثر من ذلك ·· النقد الفني الصحيح يكون بتقييمنا لهذه المشاعر التي صرح بها الشاعر : ما مدى صحتها · ما مدى نجاحها في التعبير عن المعاناة أو المأساة التي يحياها الشاعر ، وبالتالي ما هو مدى قربها منا وملامستها لمشاعرنا الخاصة · وهل الانسانية بحاجة الى شعراء صادقين في التعبير عن احتراقهم وحرقتهم أمام الحياة والقهر الكوني والمجتمعي كابن الرومي ·· أم الى شعراء كذبة من

طراز البحتري ؟ ٠٠ أما « لوثة » ابن الرومي كما يسميها ناقدنا الجليل فنتركها لفرويد وتلامذته يحللونها في مختبراتهم ويضعون لها نظريات جديدة حين يجدونها « حالة » وليست مرضا ٠٠ حالة هي فوق المألوف ودون الجنون ٠٠ بدليل أنها ساعدت شاعرنا على الاستيحاء والهمس ٠٠ ثم البوح والتعبير العبقري عن أقصى وأعمق المشاعر الانسانية من خلال تجربته الدامية ، وفجيعته بنفسه وبانسان عصره ٠٠ ما همنا نحن اذا كان ابن الرومي قد عاش معقدا « تتضور فيه أفاعي الحقد والنقمة والثأر » على حد تعبير الناقد المذكور ما دام قد أعطانا ذلك النتاج الشعري الخصب العميق من وحي تلك الأفاعي ٠٠ وحبذا ، يا صاحبي ، تلك الأفاعي في حقدها النبيل على كل شاذ في عصرها ٠٠ كفانا امعات في أدبنا القديم وببغاوات ٠٠ اننا اليوم بحاجة الى شعراء مجانين ومرضى مبدعين وصادقين ٠٠ على أن يكون عندنا شعراء أصحاء ولكن كاذبون ومقلدون ٠٠

ومما يؤسف له ، من ناقد معروف ، أن ينظر الى ابن الرومي دائما بمنظار أسود وأن يلقي على نفسيته أضواء التحليل البسيكولوجي بمقاييسه

الحديثة التي لا تنطبق انطباقا كليا على حقيقة عقد شاعرنا وأمراضه ·· الأمر الذي جعله ينسى، أو يكاد ، النظر الى ابن الرومي بمنظار النقد الفني الحديث وكشف مكامن الروعة في شعر هذا الشاعر الخلاق الذي تقدم شعراء عصره بأشواط وغرد فعلا وبامتياز خارج سربه ·· ولو استعمل هذا المنظار لما غفل عن روعة هذا البيت على الاقل:

ألا من يريني غايتي دون مذهبي
ومن أين والغايات بعد المذاهب

بيت مثقل بهتاف الوجدان أمام المجهول ·· هتاف حار بالمعاناة ، ملتهب بالفجيعة والرهبة من المصير ، خرج عن المناسبة الضيقة الخاصة ·· وارتفع لهبه الى أن يصبح هتاف الانسانية بأسرها أمام ما يقض مضجعها من ألم مكبوت ومأساة حبيسة تتشاغل عنها بالولادة والتوليد والفن والعمل ، والسعي والحلم ·· لعلها تتحدى الموت بالخلود ··

ونمسك عن باقي القصيدة فأكثرها مصارحات واعتذارات وأوامر وتمنيات ·· وكلها يحمل قسطا كبيرا من هواجس الشاعر وعواطفه المتشابكة ومواقفه المعقدة والمتناقضة ·· كما يحفل بالوحدة ،

الموضوعية التي جعلت من ابن الرومي خطيبا أكثر منه شاعرا في مطولاته على الأخص •• فانقلب شعره وثيقة حاشدة بملامح العصر وحضارته وثقافته ومصطلحاته •• وتناقضاته ••

وتسألني : وبعد لماذا أطال ابن الرومي كل تلك الاطالة في شعره حتى خرج به أحيانا عن مستوى الشعر الجيد ؟•• فأقول : كان ابن الرومي كسمكة القرش لا تعيش الا في البحر •• ولا تملك الا أن تؤذي •• أو تموت •• وابن الرومي لا يعيش الا في بحر شعره •• ولا يتنفس الا تحت الماء •• حتى اذا خرج الى اليابسة •• الى الناس •• اختنق ••

رثائياته :

ان من عاش المأساتين : مأساة اختلال المجتمع ، ومأساة القهر الكوني لا بد له الا أن يصبح هو مأساة بحد ذاته •• فاذا أنشد شعرا جاء نشيده نشيجا •• أو كان مؤلم الانشاد •• مريره ••

وابن الرومي المغاير •• المنبوذ من المجتمع •• يدخل الى الناس كاللص •• والى الحياة كطفل طردته أمه لكثرة ما شد على ثدييها فجرحهما ••

فلا الأم تنساه الى الأبد ولا الطفل يمكنه أن يحيا بعيدا عنها ٠٠ لا بد من وسطاء الخير ، وصلات الوصل الطيبين : الاصدقاء ، الثروة ، الأولاد ، المآكل الشهية ٠٠ هؤلاء هم وسطاء الخير كانوا ٠٠ لكن الرجل في ابن الرومي أخفق في الاحتفاظ بالأصدقاء ، ولم ينجح في تحقيق الثروة ٠٠ حتى أنه أضاع ما ورثه من أبيه (مزرعة ومنزل) فلم يبق له ــ ولو مؤقتا ــ سوى الأولاد والمآكل الشهية فانكب على الجميع ضما وشما وقضما وتقبيلا وارتواء حتى التخمة والاشتهاء الدائم ٠٠ وكان هذا « الجميع » هو الرمز الوحيد الباقي الذي يذكره بأنه حي ، وبأن الحياة موجودة فعلا لا وهما نعمة لا نقمة ٠٠ ويلتفت ابن الرومي فيرى النعمتين الباقيتين تتبددان من حوله نعمة نعمة ولقمة لقمة وتتساقط الفلذات فلذة فلذة (٨٦) فيتساقط مع الأولى باكيا ٠٠ ومع الثانية لاهثا ٠٠ من هذا

---

(٨٦) يقال ان اولاد ابن الرومي الثلاثة قد ماتوا وهم اطفال لانه رزق بهم وهو شيخ هرم ضعيف البنية سقيم الاركان .. فجاء الاولاد الى الدنيا وهم مرضى الهزال الطبيعي الى جانب سوء التغذية وسوء التربية .. المؤلف

المنقلب الموجع والوحشة الجديدة انطلق رثاء الوالد الثاكل ، فكان طبيعيا أن يأتي قطع كيان متداع ، ووجدان مزعزع ، وقلب مفجوع ٠٠ رثاء هو الدموع الغزار تستحيل كلمات ٠٠ ثم ان ابن الرومي ، قبل تساقط الفلذات ، انسان يذعر من الوحدة ٠٠ فهي ساعة الفجيعة عنده كما قلنا ، ينسحق من دنو أجل كل شيء ٠٠ وتجفل ذكرياته وأحلامه ٠٠ وينهار وجدانه ٠٠ اللون الاصفر يراه من بعيد ، في المشمش ، في الشمس الغاربة ، في نهايات الاشياء ، فيذعر ، ويتذكر ، ويبكي ! كيف به الآن وقد رآه بين يديه وحواليه ، وفي صميمه ؟! هل يملك هذا الانسان العائل والأب الثاكل ، ومستودع الفواجع ، سوى الشعر يسكب فيه آلامه وينفس به عن أحزانه ؟ ٠ وهكذا كان مصدر رثائه والباعث عليه من أصدق وأعمق مصادر الرثاء العربي ٠٠ لا يضاهيه في ذلك سوى رثاء الخنساء لأخيها صخر وحتى رثاء الأخوة يظل في ميزان الصدق الاخلاقي أدنى من رثاء البنوة ٠٠ فكيف اذا كان هذا الرثاء متعلقا بأطفال هم في عمر البراعم ؟ وبشاعر أبوي الانجذاب الى كل جميل وبريء ؟ موت أطفاله كان يمثل في أعماق وجدانه الشعور بالذنب بل بالجريمة

فهو الذي أنجبهم ضعفاء ، مثله ، ومهزولين ..
فماتوا سراعا .. اذن ليبكهم دما .. وليبك نفسه
لوعة وحرقة وندما .. وتتجمع الفجيعة لديه من
كل جانب : من الحياة والأحياء والأحباء .. فأين
يكون العزاء وبمن يلوذ الشاعر المسحوق ؟ وقد
ألحد بيديه ، أمس ، طفله والعزاء ...

ابنـي انـك والعـزاء معـا
بالأمس لف عليكمـا الكفـن

أولادنـا أنتـم لنـا فتـن
وتفـارقون فأنتـم محـن ..

مـا أصبحَت دنيـاي لي وطنا
بل حيـث دارك عندي الوطن

ولقد تسلـي القلـب ذكرتـه
انـي بـأن ألقـاك مرتهـن

ويعز العزاء حقا مع الطفل الأخير في وداعه
الأخير .. لم تبق في حس الوالد ، الا هنيهات
وتلتقي العلة بالمعلول .. والقاتل بالمقتول ..
ويسدل الستار على الكارثة .. بعد أن يتطهر
الشاعر من ذنوبه بمطهرة الشعر وصدق الشعور..

ونقرأ قصيدته في رثاء ولده الأوسط (محمد) فنلقي الوالد اياه : انسان معذب منذ البداية ، لعب به القدر حتى النهاية ·· كان حين يقسو عليه يهرب الى عالمه المشتهى ·· الى أشيائه الصغيرة الجميلة ·· يختبىء منه بها ·· يناجيها ، يداعبها ، ينسى معها آلامه ·· وها هي هذه الاشياء الصغيرة الجميلة ·· أشياؤه الاصغر والاجمل : أولاده يتخطفهم الموت من بين يديه ··· فماذا بقي له من عالمه المشتهى ذاك : لا شيء ·· لا أحد !! وتقفر صحراؤه من واحاتها ، شيئا فشيئا ·· ومن رياضها وحتى من « بستانه » الوحيد (٨٧) ومن وحيد (٨٨) وينتصب قوس السحاب ، هذه المرة ، أمام عينيه فلا يرى فيه الا لونا واحدا هو السواد على حافة هاوية سحيقة ! نقرأها فنجد الشاعر — على عادته أمام الفجيعة — يرثي نفسه ويصور وحشته المضاعفة ·· كما نلاحظ أن التفجع فيها قد خف رنينه وان ظل أنينه خافتا في البكاء الصامت ··

---

(٨٧) بستان : مغنية احبها ابن الرومي ثم رثاها اصدق الرثاء .

(٨٨) وحيد : مغنية احبها ايضا شاعرنا ولا سيما صوتها . وله فيه وفيها غزل رقيق ودقيق ·· كما راينا

فكأن دموع عينيه قد جفت أو احترقت ليحل محلها قلبه ووجدانه وكيانه كله :

بكاؤكما يشفي ، وان كان لا يجدي
فجودا ، فقد أودى نظيركما عندي (٨٩)
ألا قاتل الله المنايا ورميها
من القوم حبات القلوب ، على عمد
توخى حمام الموت أوسط صبيتي
فلله كيف أختار واسطة العقد
على حين شمت الخير من لمحاته
وآنست من أفعاله آية الرشد
طواه الردى عني فأضحى مزاره
بعيدا على قرب قريبا على بعد
لقد أنجزت فيه المنايا وعيدها
وأخلفت الآمال ما كان من وعد
وقد قل بين المهد واللحد لبثه
فلم ينس عهد المهد اذ ضم في اللحد
ألح عليه النزف حتى أحاله
الى صفرة الجادي عن حمرة الورد (٩٠)

---

(٨٩) يخاطب عينيه .
(٩٠) الجادي : الزعفران .

وظـل علـى الأيـدي تساقط نفسـه
ويذوي كما يذوي القضيب من الرند

فيا لك مـن نفس تسـاقط أنفسـا
تساقط در مـن نظـام بـلا عقـد

عجبـت لقلبـي كيـف لم ينفطر لـه
ولو أنه أقسى مـن الحجـر الصلـد

وانـي وان متعـت بابنـي بعـده
لذاكره مـا حنت النيب في نجـد ..

وأولادنـا مثـل الجـوارح أيهـا
فقدنـاه كان الفاجـع البـين الفقد

هل العـين بعد السمـع تكفي مكانـه
أم السمع بعد العين يهدي كما تهدي؟!

ثكلـت سـروري كلـه اذ ثكلتـه
وأصبحت في لـذات عيشي أخا زهـد

أريحـانة العينـين والأنـف والحشـا
ألا ليت شعري هل تغيرت عن عهـدي

كأنـي مـا استمتعـت منـك بضمـة
ولا شمـة في ملعـب لـك أو مهـد

الام لمـا أبـدي عليـك مـن الأسـى
واني لأخفـي منك أضعاف ما أبـدي

محمــد مــــا شـــيء توهــم سلـــوة

لقلبـــي الا زاد قلبـــي من الــوجــد

أرى أخــويــك البــاقيــين كليهمـــا

يكونان للأحزان أورى من الزند (٩١)

اذا لعبــا في ملعـــب لــك لــذعــا

فؤادي بمثل النــار عن غير ما قصــد

فما فيهمــا لــي سلوة ، بــل حــرارة

يهيجانها دوني وأشقى بها وحدي ..

ويمضي وجدان الشاعر ، من المطلع حتى الختام في هذيانه وبكائه الصامت ، الناطق ، كما يمضي عقله في ايرادالآراء والتلفيقات الفكرية المختلفة ، عله يجد منفسا لمصيبته وتعزية لقلبه .. فلا يجد سوى أن يخاطب ابنه الميت في محاولة لاحيائه .. ولو في وهم المخيلة ولهفة الذاكرة الى استعادة الشم والضم وامتلاء العينين بنور الحدقة ، واشتهــاء الأصغرين للحياة .. الطفلة،تدب من جديد ..

---

(٩١) اورى : اكثر ايقادا واشعالا . زند النار قدحها . والزند عند اهل المدن : قطعة من الفولاذ تضرب على حجر او يضرب الحجر عليها فتنقدح النار . وعنــد الاعراب خشبة تضرب بخشبة فتنقدح النار من شدة احتكاكهما . (محيط المحيط) .

وتبعد عن الوالد المفجوع « صفرة الجادي » ووحشة اللحد ·· ورهبة الموت ·· وتقرب له حمرة الورد في تألق الوجنتين ــ البرعمين ·· وحيوية الحركة ــ البكر في ملعب الطفل ومهده ، واشراقة بشائر « الخير » من اطلالته وبسمته وبراءته ·· وذكائه ويتصاعد هذيان الوالد حتى يبلغ في نشيجه حد النشوة الباكية أو البكاء المنتشي ·· فقد دخل نهائيا في عالم الفجيعة بالشعر ·· الى أن رده الواقع المرير الى عدمية وجوده ·· فشهق ملتاعا وودع ·· على أمل اللقاء مع ابنه هناك ··

أما أسلوب الرثائية فقد ترجح بين بديعيات خفيفة الوقع ·· وبين انسيابيه تعبيرية متحررة وهذا هو شأن ابن الرومي دائما ·· لكنه سرعان ما يدخل في لعبة المعاني وتقصيها هاربا من بديع مسلم وتقنيات ابن المعتز ·· مستجيبا لأمرين هامين : أصالته وذائقته الخاصة ··

رثاء البصرة :

مرة أخرى يدخل ابن الرومي عالم الحداثة حين يتحرر من موضوعات الروتين العربي فلا تستقطبه

وتستنزف نشاط شاعريته وتلهفه الى الافضل والاجمل ·· ها هو يسمو ، في رثائه للبصرة ، الى مصاف الريادة والعالمية · فقد طالما أتخم الشعر العربي القديم رثاء مصطنعا ·· وتقليديا في أكثره كما اتخم مدحا مزورا فأساء الى انسانية المادح حين كرس صنمية الممدوح ·· كما قدس طبقية مجتمعية بغيضة ·· أما الهجاء الاخلاقي فغالبا ما كان قذفا وشتائم سوقية اختفى فيها التعبير الفني أو انحدر حتى الصفر ·· الى أن نهض به الجاحظ في الأدباء وابن الرومي في الشعراء · والوصف والطرد والغزل كلها موضوعات كان فيها شاعرنا فريدا من نوعه : تمثلا ورمزا وهمسا واستقصاء وتجربة ·· جديدا في تعامله مع الكون والانسان والمجتمع ·· غير مفهوم ـ حتى اليوم ـ وعند الكثيرين في كثير من مزاياه النفسية والفنية والمعنوية · عد بعضهم شعره هلوسة ، والآخرون ثرثرة ·· أو في أحسن الحالات تقريرية نثرية جافة ·· ذلك لأنهم قاسوه بمقياس النقد العادي الكلاسيكي ·· ونظروا اليه بمنظار ضعيف العدسات أو معطلها (٩٢) فتجنوا

---

(٩٢) نستثني من هؤلاء الدكاترة طه حسين وعلي شلق في كتابه: ابن الرومي في الصوره والوجود والاستاذين: =

عليه وعلى حقيقة شاعريته · حتى ان منهم من ادعى اصابته بالعين ، أو المرض المفاجىء لمجرد التفكير بابن الرومي أو الخوض في الحديث عنه (٩٣) ·

رثاء البصرة مدخل جديد وفريد في دنيا الشعر العربي الكلاسيكي · انه أول رثاء لمعالم الحضارة من نوعه ، حلق فيه ابن الرومي تحليقا انسانيا راقيا تخطى فيه حدود الرثاء العربي المعروف ، وسما فوق العواطف الخاصة ، والمذهبيات الضيقة: فهو شيعي مشبوب الحب لآل البيت · وعلي بن محمد حارق البصرة (هو وأتباعه) شيعي علوي ·· أو مدعي الشيعية العلوية ·· كان حريا بابن الرومي، لو كان ضيق النظرة والعقيدة أن يمدح عليا هذا ويشمت بالبصرة ·· لكنه كان أرقى من ذلك المستوى بكثير وأشد استجابة لمشاعره الانسانية

= العقاد وايليا الحاوي . هؤلاء تناولوا ابن الرومي بجدية الباحث الموضوعي الحديث وحاولوا جاهدين الغوص على روائع ابن الرومي الشاعر ووفقوا الى اكتشاف الكثير من مزايا ريادته وتجربته الشعرية المشبوبة . ومعالجة مأساته معالجة نفسية عميقة ومنصفة . ككامل كيلاني مثلا .. وسواه ..

والحضارية . لا سيما وهو ذلك الانسان المذعور دائما .. المنهار أمام نهايات الأشياء .. تؤلمه ايلاما مأساويا رؤية الجمال يذوي .. في الطفل ، في المرأة ، في الطبيعة ، في الصوت ، في معالم الحضارة انسان مقبل ضعيفا على الحياة .. وكالعابد يسجد في هيكل اللذة والجمال فيها .. ولا يقوى على الوقوف .. حتى اذا شاهد الهيكل يتصدع ويتعطل كل ما فيه تأذى وهتف وانسحب مذعورا .. ويأتي الشعر بعد ذلك تعبيرا عن تأذيه ولهفته وحزنه ذاك وعلامة بارزة وناطقة من علامات انكساره الدائم من جهة ، وعلامة ارتباطه بالنشوة الحزينة العذبة من جهة ثانية ..

ولحظة سمع بحريق البصرة ـ عاصمة العلم والحضارة العربية قبل بغداد ـ ورووا له ما حل بها وبأهلها لم يتحرك فيه سوى شعور واحد هو الشعور الانساني والحضاري الذي تثيره وحشية الانسان القوي حين يصب وحشيته كلها على معلم من معالم العلم أو الحضارة أو البراءة أو الحياة .. كل ذلك مدفوعا ومشفوعا بفكرة الموت عنده وجبريته وعدمية الحياة التي ما ان تبدع « شيئا جميلا » حتى تسرع الى القضاء بيدها عليه :

ذاد عن مقلتي لذيذ المنام
شغلها عنه بالدموع السجام
أي نوم من بعدما حل بالبصرة، ما حل من هنات عظام
أي نوم من بُعد ما انتهك الزنج جهارا محارم الاسلام
ان هذا من الأمور لأمر
كاد ألا يقوم في الأوهام
لهف نفسي عليك أيتها البصرة، لهفا كمثل لهب الضرام
لهف نفسي عليك يا قبة الاسلام لهفا يطول منه غرامي
لهف نفسي عليك يا فرضة البلدان لهفا يبقى على الأعوام
لهف نفسي لجمعك المتفاني
لهف نفسي لعزك المستضام ..

. . .

بينما أهلها باحسن حال
اذ رماهم عبيدهم باصطلام
دخلوها كأنهم قطع الليل
اذا راح مدلهم الظلام
أي هول رأوا بهم أي هول !
حق منه يشيب رأس الغلام
اذ رموهم بنارهم عن يمين
وشمال . من خلفهم وأمام

كم أغصــوا من شارب بشراب

كم أغصــوا من طاعم بطعــام

كم ضنــين بنفســه رام منجى

فتلقــوا جبينـــه بالحســـام

كم أخ قــد رأى أخاه صريعــا

ترب الخد بــين صرعى كرام

كم أب قــد رأى عزيز بنيــه

وهــو يعلــى بصارم صمصام

كم مفــدى في أهلــه أسلمــوه

حين لم يحمــه ، هنالك ، حامي

كــم رضيع هنــاك قد فطموه

بشبا السيف ، قبل حين الفطام

كم فتاة مصونــة قد سبوهــا

بارزا وجههــا بغــير لثـــام

صبحوهــم فكابــد القوم منهم

طول يوم ، كأنــه ألف عــام

مــن رآهــن في المســاق سبايا

داميــات الوجــوه ، للأقــدام

مــن رآهــن يتخـــذن اماء

بعد ملــك الاامــاء والخــدام

• • •

عرجا صاحبي بالبصرةالزهراء

تعريج مدنف ذي سقام

فاسألاها ولا جواب لديها

لسؤال ، ومن لها بالكلام ؟

أين ضوضاء ذلك الخلق فيها

أين أسواقها ذوات الزحام

أين فلك فيها ، وفلك اليها

منشآت في البحر كالأعلام

أين تلك القصور والدور فيها

أين ذاك البنيان ذو الاحكام؟!

بدلت تلكم القصور تلالا

من رماد ، ومن تراب ركام

وخلت من حلولها ، فهي قفر

لا ترى العين ، بين تلك الأكام

غير أيد وأرجل بائنات

نبذت بينهن أفلاك هام

ووجوه قد رملتها اماء

بأبي تلكم الوجوه الدوامي !

وطئت بالهوان والذل قسرا

بعد طول التبجيل والاعظام

فتراها تسفـي الرياح عليها
جـاريـات بهبـوة وقتـام
خاشعـات ، كأنهـا باكيـات
باديات الثغور ، لا لابتسام ··

وتمضي القصيدة الى نهايتهـا حيث يختمهـا الشاعر بنداء تحريضي لمسلمي بغداد وغير بغداد النائمين مع خليفتهم ، المستسلمين للأمجاد الزائفة في حين يفتك « العبيد الطغام » باخوتهم البصريين يدعوهم فيه للاسراع في أخذ الثأر لمن بقي منهم ··

لأن الأخوة في الدين كالاخوة في الرحم :

عارهم لازم لكم أيها الناس ، لأن الاديان كالأرحام وقعودكم عن « اللعين » ضلوع معه في « الأثام » ·· فالبدار البدار ، والثأر الثأر ·· واشتروا الباقيات بالعرض الادنى ، وبيعوا انقطـاعه بالدوام ·· بيان يكاد يكون « استنفارا عسكريا » كما نقول اليوم ·· وقد وفق فيه شاعرنا حين ضرب علـى الوتر الحساس بالنسبة لمسلمي زمانه ·· ولا شك ان هذه القصيدة ـ البيان قد فعلت فعلها في نفوس المسلمين ·· لكن الانتقـام للبصرة تأخر قرابـة

خمسة عشر عاما بعد حريقها ·· حين جرد الموفق (٩٤) حملة على الزنج وصاحبهم بقيادة ابنه أبي العباس في البداية ثم لحق به عام ٢٦٧هـ » « وأخذت الهزائم تتوالى على الزنج فسقطت مدينتهم الثانية « المنيعة (٩٥) » ثم سقطت مدينة المنصورة، وفر منها سليمان بن جامع ·· وهكذا بين كر وفر، يطول شرحهما ، سقطت المختارة عاصمة صاحب الزنج ، واحتز رأس علي بن محمد ، ورفع على قناة ، وأدخل بغداد ، ووضع بين يدي خليفتها الفخري : المعتمد ·· ولسنا ، هنا ، لنحاسب ابن الرومي على اهماله ذكر أسباب ثورة الزنج وحرقهم البصرة وأنهم فعلوا ما فعلوا فيها انتقاما من جلاديهم ومستغليهم وأنهم لو لم يندفعوا مع قائدهم في ثورته لماتوا جوعا وعطشا وارهاقا ، ولقضوا تحت سياط الفقر والاذلال ·· اذ لا يطلب من شاعر أن يكون مؤرخا ومحللا سياسيا للأحداث · كل ما يطلب منه الصدق في التعبير عن معاناته ، أو تأثراته ·· وتصوير موقفه من الجوانب المثيرة في الحدث ، لا الحدث نفسه ··

---

(٩٤) الموفق : ابو احمد ولي عهد اخيه الخليفة ، المعتمد .

(٩٥) الطبري ج٨ ص ٦٣ .

وقد وفق ابن الرومي في ذلك حين سما بحسه وعاطفته وخياله الى آفاق انسانية رحبة حيث راح يبكي معالم الحضارة الاسلامية في هذه المدينة المميزة بما أنجبته من علماء وفقهاء وأدباء ولغويين (٩٦) ، ويرثي البراءة الذبيح ، والشيوخ المسنين الذين قتلهم « العبيد الطغام » كما يسميهم ، ولم يرحموا فيهم شيخوختهم ، حتى النساء والاطفال مثلوا بهم وبهن وأخذوهن سبايا لسيدهم ، وقضوا بالحريق والنهب والتدمير على كل معلم من معالم حضارة هذه المدينة العريقة ..

أمام هذا المشهد المروع لا يمكن للشاعر أن ينصرف الى ايجاد المبررات لهذا العمل البربري مهما كانت دوافعه .. لا يمكنه الا أن يتفاعل مع الجانب المأساوي منه ، ويتخذ منه ذريعة للتحريض على مرتكبيه (٩٧) . لا سيما وقد خرج الزنج نهائيا على منطق الثورة وقدسية أغراضها مما

---

(٩٦) ثورة الزنج ص ٥ ٤منشورات دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٦١ .

(٩٧) انه اول نداء يوجه الى « الشعب » لا الى الافراد كما كانت العادة . حتى في هذا المجال كان ابن الرومى رائدا ومتقدم النظرة ..

عجل بنهايتهم مع صاحبهم · يقول الباحث أحمد علبي استنادا الى تاريخ الطبري : أن هؤلاء الزنج قد بادلوا الدم بالدم ، فدحرجوا الرؤوس ، وفتكوا بأسراهم ، وخاضوا الدماء ، حتى أنهم تهادوا لحوم قتلاهم ! ويروي المسعودي أنهم أحرقوا المصاحف وسوى ذلك من المنكرات والجرائم ·· مما أثار حفيظة ابن الرومي ومشاعره الدينية ونسبي في غمرة الحدث الفاجع أن هؤلاء المستضعفين في الارض قد ثاروا على حكم بغيض لديه هو الحكم العباسي المستبد الذي أذله هو بخاصة ، وأبعده وأفقره ·· كما نسي علوية صاحب الزنج ، وانه مثله في الميل والعقيدة ·· أو ربما لم تخف على شاعرنا العالم ، المطلع على حقائق الفرق والاحزاب ، حقيقة هذا الخارجي الذي ادعى العلوية ادعاء توصلا الى مآربه ، فهاجمه شخصيا وكشف خداعه وزيف انتسابه لآل البيت :

لا هدى الله سعيه من امام (٩٨)
وتسمى بغير حق امام

---

(٩٨) الديوان : اختيار كامل كيلاني ص ٤٢٢ .

وهكذا ، جال شاعرنا العبقري وصال في رحاب البصرة المنكوبة وقدم لنا رثاء رائعا جديدا في بابه، لا يضاهيه في السمو وروعة التصوير وعمق الانسياب والانسجام مع جو الرعب والرهبة ٠٠ والدخول في عالم الذهول والانخطاف باتجاه التفاعل الحميمي مع الكارثة ، والذوبان الكلي في المأساة ٠٠٠ سوى تحفة فنية أخرى هي « سينية » البحتري (٩٩) ٠

ولا عجب أن يبدع ابن الرومي في تصور الموت وتصويره ، فهو ــ كما قلنا سابقا ــ الشاعر المذعور دائما من قرب نهايات الأشياء ٠٠ المنسحق جدا من وقوع الجمال بين شدقي الفناء والانطفاء ٠٠ والبصرة مظهر رائع من مظاهر النشاط البشري والعطاء الاسلامي السمح ٠٠ يفزعه بل يفجعه موتها على يد أجلاف « طغام » لم يفهموا من الثورة سوى رنين اسمها ٠٠ وهول قائدها ٠٠

كان يمكن أن يعذرهم ، وأن يؤلف في ثورتهم وصاحبها القصائد الطوال ، وابن الرومي فارس

---

(٩٩) انظر تقييمنا الجديد لرائعة البحتري في كتابنا : البحتري بين البركة والايوان الصادر عن دار مكتبة الهلال ــ بيروت ١٩٨٠ ٠

ميدانها ، بل وحتى الملاحم ـ كما تمنى الأستاذ أحمد علبي ـ لكن الثوار في طغيانهم وأعمالهم الانتقامية كانوا من الوحشية وحب الدماء بحيث لم يعودوا ثوارا في نظره ، ولا في نظرنا •• بل انقلبوا الى قتلة ساديين •• ومجرمين سفاحين •• يقتلون الأبرياء « ويتهادون لحومهم » !! كل فضيلتهم أنهم جسدوا روح المعارضة في الاسلام بعد ثورة الحسين بن علي ، ولو بفوضوية مثالية ، ومهدوا لقيام ثورات أخرى ، أنجح وأبقى •••

فلسفة الصورة عند ابن الرومي :

الصورة ، في بصر ابن الرومي ، انعكاس جديد للأشياء ، ولادة جديدة •• ولكي تكون المشاهدة حديثا دقيقا عنها ، يردها الشاعر الى أعماقه من جديد ، ليفسرها مرة ثانية ، وثالثة •• ورابعة •• الى ما هنالك من أبعاد للصورة في ولادتها الجديدة••

أما أبعادها فهي : اللون ، الشكل ، الزمن ، الشاعر •• أي « التوحد بين الاشياء ومع الاشياء » من هنا فرادة صوره وشموليتها ، وفوق هذا حركيتها وحيويتها ، أو بتعبير ابن الرومي نفسه

« تمهرجها » لأنها تأتي محملة باللحظة التي عاشتها، فيفجرها بكل صخبها أحيانـا ، وبكل تموجـات ظلالها : ريح الشمال قبيل الفجر ·· حين تهب في الخميلة: مهرجان·· الغروب حيث الموت الرومانسي والضراعة ·· والحنان : مهرجان ·· والنهار حيث ترقد السآمة : مهرجان يتهيأ ··

الشكل عند ابن الرومي مضمخ بندى معين ، بمائية معينة ، تثيرها حركة الخباز حين « يدحـو الرقاق » فنكاد نشم رائحة الخبز حين نتصور شكل الرغيف الذي « يدحوه » ·· وبائع الحلوى ·· والموز ··

أما اللون فيأخذ عند شاعرنا ـ الفنان علامـة مميزة : اللون عنده ليس أبدا تلاعب ريشة بأصباغ ولا هو ممازجة خارجية بينها ·· انه دائما لون شاحب ·· لأنه ينبع من أعماقه ويسيل على الريشة ليعكس لون الذات ·· في شحوبها ، وقلقها : وللقلق لون معين ·· وسوداويتها ·· وانبهار حدقتها ··

وابن الرومي الشاعر أمام أبعاد صورته مذوب لها في ذاته ·· لتتداخل في بعضها ثم تتلاشى لتبعث من جديد محققة عفوية صورته وانسجامها ···

وهكذا تكسر الصورة عند ابن الرومي حواجزها وتتألق حينما تتجاوز انجذابها الى الشكل ‥ كالطبيعة ، والطفولة ، والمرأة ثم الحلول في هذا الشكل حيث يتوج الشعر بنشوة خارقة ، كتلك التي نقرأها ونتمثلها ، حين نقرأ حلوله في صوت وحيد وذوبانه في صوت بستان ‥

وحين لا يصطدم بالحواجز ‥ أو حين تتحطم الحواجز بينه وبين الشكل ‥ وتموت المسافة ‥ نلاحظ ـ بالتأكيد ـ عملا شعريا متكاملا يحقق فيه الشاعر انسجاما غريبا بين الموسيقى المباغتة ، أو المنسابة في الشعر ، وبين رؤياه الشعرية ‥ أشواقا كانت ، أو حلما ، أو انكسارا دائما ‥ أو لهاثا أمام المشتهيات ‥

الصورة ـ اذن ـ عند ابن الرومي عمل فني مكثف بالداخل ‥

وابن الرومي ، وهو يراقب عالم الصورة اللامحدود ، يملك أن ينشد ذلك النشيد العجب ، الذي يرتله لنا حين يصحو من ذهول التصور والرؤيا حتى اذا أحس بأننا انتشينا معه تنفس بالشكر الحزين ‥

آفاق الحالة وأبعاد الرؤيا :

بعد أن دخلنا الى عالم ابن الرومي الخاص من خلال هواجسه ورؤاه وأشواقه ، ظهر لنا كم كان هذا الانسان « ملتهب الحواس » لكنّ التهاب هذه الحواس يأتي من « حريق داخلي » دائم الاشتعال تثيره شهوة لجوج كسيرة ٠٠ لا تلبث أن تتشكل في انهدامات موجعة أمام انطفاء نيرانه وموت أشواقه ٠ ثم انبعاثها من جديد ضمن حلقة جهنمية من التوتر المستمر :

حظ غيريَ من وصلكم قرة العين
وحظـي البكـاء والتسهيـد
ما تزالين ، نظرة منـك موت
لي بميـت ، ونظرة تخليـد
نتلاقى ، فلحظة منـك وعـد
بوصـال ، ولحظـة تهـديـد

ويعود الحس الملتهـب الى الاشتعال واشعـال الحرائق في جمال وحيد ٠٠ مما لا يخضع لمنطق أي خيال :

آوقد الحسن ناره في وخيد فوق خد ما شانه تخدير

سوى ذلك الخيال الرومي المرتبط دائما بما وراء الحدقة ·· بذلك الشوق الذي لا يحد ، واللهفة المتشبثة التي لا تموت ، والطلب المخمور الذي يتمطى الكيان له ويشرئب ·· انه عالم ابن الرومي الخاص الذي يبرر فيه الخيال والاشتهاء الدائما التحفز كل شيء في شبه ذهول مطلق عن الواقع : حريق فوق خد وحيد ؟ كيف ؟! المنطق التبريري هنا منعدم تماما ·· ويبرز منطق آخر هو : اللامنطق في عملية التمازج بين الحريقين حريق اللذة الدائمة الالتهاب ، وحريق الجمال الذي يلفح وجه الشاعر ليبعده عن جحيم الاحتراق في لهبه ·· غير أن الشاعر لا يكاد يبعده اللهيب حتى يجذبه الى مصدره كالفراشة المهومة حول السراج ·· أو كروح الصوفي اللاهثة وراء ذات الله ·· كلما زادت قربا زادت اشتعالا ولهاثا وحبا في الاحتراق ·· والفناء ··

أما ارتباط ابن الرومي بالمرأة ككيان مستقل فقد كان ارتباطا واهيا من الوجهة العملية ·· أي أن ممارساته كرجل معها كانت شبه معدومة ·· ومن هنا تجسدت لديه « فكرة المرأة » بمعنى أنه أصبح يتحدث عنها كفكرة ·· كفلذة حية من فلذات

الطبيعة الدائمة الاخضرار .. أو على الأصح الدائمة التحول والتبدل .. ولذلك نراه في شعره يتعامل معها كفكرة لا كانسان معين لاقى منه ما لاقى .. صحيح ان امرأة بذاتها أو اثنتين أو أكثر، هي التي أوحت اليه بما أوحت من غرابة، ودهشة، وتلون، وجمال موقوت، وخصب وجدب .. لكنه انتهى معها الى تحويلها الى « مثال » ثم أدخلها الى عالمه المشتهى وحل فيها .. وهذا ما يعطي حلوليته مغزاها التعادلي ـ ان صح القول ـ تعادل عالمه مع شهوته المبتورة، وتمنيه المكسور، المصطدم، في العالم الحسي، بالمرأة ..

مدار رؤياه : بين أنسنة وتجريد :

وهكذا يمضي ابن الرومي في أنسنة الأشياء والمعاني والطبيعة من عالمه التجريدي الذي لاذ به بعد أن هزمه عالم الناس، رغم تعلقه بهذا العالم أو بالأحرى تعلقه بجمالات هذا العالم ومشتهياته فهو بين اشتهاء واشتهاء : اشتهاء ممتنع، واشتهاء مستطاع .. حلوليته في عالمه تسمح له بالاشتهاء الدائم والمتجدد، واقباله المذعور على عالم الناس اقبال اللص .. يتيح له فرصة التسلل للقبض على

أي شيء ٠٠ ثم الانكشاف بسرعة والعودة اللاهثة الى عالمه من جديد ٠٠ والاختباء به ٠٠ من هنا كان شعره محملا دائما بتلك النشوة المذعورة التي لا تهدأ أو تكتمل الا بامتزاجها بالنشوة الكبرى في عالم الصفاء والنقاء ، الخالي من حقد الناس وعقدهم ، يتوج كلتا النشوتين وهم الحلول في الشكل ، حلوله في « اشكال » الجمال ٠٠ والشاعر بين تلقي ايحاءات الاشكال وهمسها الجمالي وبين محاولة خلقها في ذاته من جديد يحيا فصول الطبيعة الأربعة ، ويحييها أبهى وأجمل وأكثر حركة وحياة فليس غريبا أبدا ، والحالة هذه ، أن تتراءى له دائما المرأة ، فكرة المرأة ، في كل فصل من فصول الطبيعة ٠٠ لأن ابن الرومي انسان شعوري متحفز باستمرار لتلقي ولادات الصور ، وتشكلات الاشياء بكل زخمها وحرارتها ، وعذوبتها وموسيقاها ٠٠ ثم احالتها الى المرسم ٠٠ الى معمل التحليل والتفسير ليعطيها تفسيرات جديدة وألوانا جديدة تتناسب مع ما يجب أن تكون عليه هذه الاشياء ٠٠ وما دامت المرأة ترقد هادئة في أعماقه فلا بأس أن تولد من جديد من خلال الطبيعة ، ولا بأس على الطبيعة من أن تحاكيها تبرجا ودلالا ٠٠ وعلى هذا الاساس

وحده نفهم وصفه للطبيعة عند الربيع وتبرجها بألف لون ولون من ألوان المساحيق :

تبرجت بعدحياء وخفر   تبرج الأنثى تصدت للذكر

وليس في هذا البيت أي قصد بلاغي وان جاءت فيه تلك الاستعارة اللفظية الصريحة .. قلت أي قصد .. بمعنى ان الشاعر لم يقصد اليه قصدا .. بل هو يصف الطبيعة بما يثيره فيه ذلك الشعور الكامن فيه : شعور الحي المحروم الى الحي المثقل بالجنى والحب والاثارة : أي المرأة .. وتأتي الطبيعة حبيبا ثانيا لا يرى فيه الشاعر المقهور الفاشل في حبه سوى ظل ذلك الحبيب الأول ..

وحين يتصدى بالوصف للثاني تتداعى كل ذكرياته واشتهاءاته المخزونة فلا يقع الا على صفات المرأة يمنحها للطبيعة .. وحين يتحدى الاول أو يهفو اليه ، أو يصف حالاته تنهال كل صفات الطبيعة على عدسة وجدانه .. وكل حالاتها في فصولها الأربعة .. فاذا هي عين صفات المرأة (١٠٠) .

---

(١٠٠) لعل معاشرته لنوع معين من النساء هو الذي جعله يتصور المرأة كما تصورها .. ظانا ان كل النساء على شاكلة وحيد وبستان من بنات الحان اللواتي =

وهكذا يمتزج الاقنومان في اقنوم واحد هو الشاعر واذا بالأقانيم الثلاثة كل لا يتجزأ هو : المرأة ـ الطبيعة ـ الشاعر : والكل ثابت على أصله لا يريم الكل ما بين موح وموحى اليه :

أجنت لك الوجـد أغصـان وكثبـان
فيهـن نـوعـان تفـاح ورمـان
وفـوق ذينـك أعنـاب مهـدلـة
سود لهن من الظلمـاء ألوان (١٠١)
وتحـت ذلـك عنـاب تلـوح بـه
أطرافهن قلـوب القوم قنوان (١٠٢)
غصون بان عليها ـ الدهر ـ فاكهـة
ومـا الفواكـه ممـا يُحمـل البـان

= لاقى منهن ما لاقى . .ناسيا او متناسيا ان من النساء ايضا الزوجة الوفيـة ، والشقيقة التقيـة ، والام الرؤوم ، والحبيبة الملهمة ، وان من النساء من غيرن بعبقريتهن وجه التاريخ ! لكن الشاعر هنا يصـور « حالة » يعانيها ، لا فكرة عامة يعالجها .. وهـو مما لا يطلب من الشاعر على اي حال .. المؤلف

(١٠١) اعناب مهدلة : كناية عن ذؤابات الشعر المسترسل .

(١٠٢) العناب : البنان المخضوب .

ونرجس بات ساري الطل يضربه
وأقحوان منير النور ريان (١٠٣)

ألفن من كل شيء طيب حسن
فهن فاكهة شتى وريحان

ثمار صدق اذا عاينت ظاهرها
لكنها حين تبلو الطعم خطبان (١٠٤)

بل حلوة مرة ، طورا يقال لها
شهد وطورا يقول الناس زيفان(١٠٥)

يا ليت شعري ، وليت غير مجدية
الا استراحة قلب وهو أسوان

لأي أمر مراد بالفتى جمعت
تلك الفنون فضمتهن أفنان ؟!

تجاورت في غصون لسن من شجر
لكن غصون لها وصل وهجران ..

تلك الغصون اللواتي في أكمتها
نعم وبؤس ، وأفراح وأحزان

---

(١٠٣) ونرجس : اشارة الى العين . والاقحوان : الثغور الناصعة الثنايا .

(١٠٤) خطبان : جمع اخطب مر . ويقال امر من نقيع الخطبان .

(١٠٥) زيفان : سم قاتل .

يبلو بهـا الله قومـا كـي يبين لـه
ذو الطاعـة البر ممن فيـه عصيـان

ومن عجائب ما يمنى الرجـال بـه
مستضعفـات لنـا منهـن أقـران

ولا يـد مـن علـى عهـد لمعتقـد
أنـى ؟ وهـن كمـا شبهن بستـان

يميـل طـورا بحمـل ثـم يعـدمـه
ويكتسي ثـم يُلفى وهو عريـان ..

ومن غريب هذه « الحالة » التي يهـذي بهـا الشاعر كلما دخل عالم المرأة ان العقل يمسك بها ، ويحاول أن يبررها .. لكن العقـل هنـا ، ليس عقلانيا .. اذا جاز التعبير .. انه أسير العاطفة الجموح .. عقل مسكين لا يملك من حريته شيئا تتخذه العاطفة أداة لها عمياء .. وتنهمر عليـه الأحاسيس ويحيط به الحدس والهذيان والاشتهاء من كل جانب .. الى هنـا ، أي الى حد سيطـرة الأحاسيس يبرز ابن الرومي عملاقا في تصـوره وتصويره وهذيانه وشروده في أي عالم يدخل اليه من عوالمه .. لا سيما عالـم المرأة ـ الطبيعـة ، والطبيعة ـ المرأة .. وتراه حين يتحفز للاقلاع .. وبعد أن يقلع بقليل ، رائعا ومثيرا .. حتى اذا

وصل وأوغل في الوصول بردت العاطفة وخف التوتر وانقلبت « الحالة » « موقفا » واستراح معه الشاعر واسترخى ·· وراح « يقلب المعنى ظهرا الى بطن » في تقريرية يكاد « الشعر » أن يختفي معها ، والحالة أن تبرد ثم تتبدد وتنطفي ·· لكن علينا أن نعذر ابن الرومي دائما ·· فهو انسان منهزم اجتماعيا مقوقع في قمقم ضيق ·· وهو مع ذلك مقبل على المجتمع والانسان والحياة ــ كما رأينا ــ وبخاصة على كل جميل وطيب ولذيذ فيها ·· فماذا يفعل وكله استعداد وشهوة حتى النهم الجائع أو الجوع النهم ؟ لا بد له الا أن يلجأ الى الشعر لينقلــه الى عالمه الخاص ·· وهناك يمارس كل ما حرم منه من صبابات وأمنيات ··ولذات ·· ولقد قلنا ان ابن الرومي لا يجد نفسه ·· لا يكتشف حقيقته الا في عالمه هذا ·· الا في شعره ·· وكأن الشعر جــاء لينقذه ·· لينتقم له ·· ثم يطل منه ــ كالأمير ــ على المجتمع والناس جميعا ·· لا سيما المرأة ·· هاتفا لها : ها أنا قد أحييتك في الطبيعة ، وأحييت الطبيعة فيك ·· ها أنا قد خلدتك في شعري ·· وفي وهم حبي ··جعلت منك أميرة لا أسيرة ·· فلماذا تهونين على نفسك ·· وأنت من أنت روعة

وجمالا ؟!

كأني به يهتف هذا الهتاف من أعماقه ، من آوتار لهاته العطشى ..

وكل شعره ، حتى أمام القبح هتاف .. واشتهاء وأمنيات .. وبالتعبير الحديث : أحلام .. وأحلام يقظة .. تتوج بالفن .. « ان الشعر يغذي الحلم » كما يقول وليم بلايك ، وبالحلم والشوق تبنى الحضارات .. وابن الرومي كان حالما كبيرا .. وان كانت تنقصه أحلام القادرين ..

ومن رموز الطبيعة ارتقى الى رموز المرأة وأسرارها ..

ومن غابات الطبيعة دخل الى غابات المرأة .. لكنها كانت غابات موحشة ملأى بالذئاب ،والعقارب والثعابين .. أكثر منها ملأى بالبلابل واليمام والحساسين .. غير أن الشاعر استراح في عالمه هناك عالم المرأة ، على علاته ، وحل سعيدا فيه .. لكنه حلول اللاجيء الذي يحن الى وطنه الأول .. وابن الرومي بين حلوله في عالمه المشتهى وتلاشيه فيه .. وبين توقه الشديد الى المرأة ــ الواقع ــ يُكسب لذته صفة الديمومة والتجدد .. ويأتي معها الشعر

حاملا باستمرار حالة الشاعر المنكسر ، الحزين ، المفجوع بآماله ، والمقبل رغم كل شيء على ذلك العالم مكتفيا منه بالسجود أمامه ·· أليس هو على أعتاب الهيكل ؟ بلى · وهذا حسبه ·· أما الداخلون بأرجاسهم الى قدس أقداسه فلهم نقلة واحدة في الزمن ·· أما هو فله وهم الحلول ورمز الدخول·· وروعة الديمومة حيث تمتزج الأرواح ، وتكتمل النشوة في أحلى وأقصى مذاقاتها :

أعانقها ، والنفس بعد مشوقة
اليها ، وهل بعد العناق تدان ؟
وألثم فاها كي تموت حرازتي
فيشتد ما ألقى من الهيجان ··
وما كان مقدار الذي بي من الجوى
ليشفيه مما ترشف الشفتان
كأن فؤادي ليس يشفي غليله
سوى أن يرى الروحين تمتزجان ···

وحق لابن الرومي ألا يرتوي من الجمال ·· ليغني لنا ـ بعد كل هذا ـ أشواقه وشهقاته وآهاته وما أكثرها ·· بل وما ألذها وأبقاها ··

ومن قال ان كبار الشهداء ، في أي ميدان ،

يموتون ومعهم كل أشواقهم وأمانيهم ؟! حتى اذا
غنوها وبأي لحن ، أسلموها للسجل الأبقى ..
وماتوا ، دونها ، مطمئنين ...

ذلكم هو ابن الرومي في التحليل الأخير لأبرز
معالم شخصيته وفنه .. بالذوق والنهج الجديدين
أما النوافل فنتركها للذين يتلهون بالقشور من
المؤرخين ... الذين « أشبعوه » تأريخا .. وحاموا
حوله ولم يردوا .. و « سطحوه » ولم يسبروا ..
ليته يبعث حيا ليتولى هجاءهم عنا .. وليشبعهم
توبيخا ..

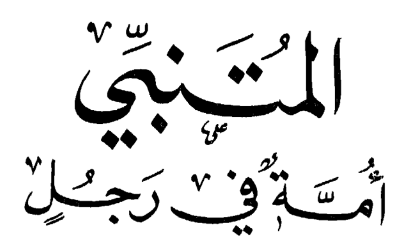
تم الكتاب

الفهـرس

المُتَنبِّي
أُمَّةٌ في رَجُلٍ

الموسوعة الأدبية الميسرة

٣



تأليف

الأستاذ خليل شرف الدين

منشورات
دار ومكتبة الهلال
بيروت

طبعة جديدة منقحة
١٩٨٧

بيروت - بئر العبد - شارع مكرزل بناية برج الضاحية
ملك دار الهلال تلفون ٨٣٦٩٨١ - ٤٦٣٥٥٧
ص.ب ١٥/٥٠٠٣ برقياً مكتهلال

استهـــلال

شاعر عربي اوحد غنى الامجاد الثلاثة :
مجد العروبة المنهار .. مجد الذات ـــ
الارادة .. ومجد الشاعرية ـــ الذروة ..
المؤلف

من اللاتشابه ، واللاانتماء ، انطلق المتنبي في مسيرته نحو المجهول ‥ فراود اللغز ، واكتشـــف الحقيقة :

الانسان اما أن يكون مغايرا ، وبالتالي مجابها واما أن لا يكون ‥ والشاعر فيه يرود الآفـــاق الصعبة ‥ يركب المستحيل من أجلها ، في حلم دائم وشوق مستهام ، ومعاناة مريرة ، يصوغها كلها في نشيد بطولي مثير ‥ ثم يمضي ، وقد اكتشـــف ذاته وغنى آماله وآلامه ‥ وما هم ان أضاع غاياته ،

ومات دونها ·· فقد ترك للأجيال غاية الغايات : ضجيج الذات ، وكبرياء الرجال في سمفونية دهرية هي نشيد الأناشيد ، يرتلها من بعده التاريخ ·· حتى تتحفز الأمة لتنشيء حضارتها ، وتبني مجدها ·

وهذا ما أراده المتنبي ، الرجل والشاعر ، حين خاطب نفسه وأمته طالبا منها أن تترك في الدنيا : دويا كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر ، اذ بدون ذلك الدوي لا يكون البعث ··

كان المتنبي حجرا كبيرا ألقي من حالق في بحر العرب الميت ·· فأحدث فيه تموجات عنيفة متتالية ثم أصبح هو تلك التموجات ·· وبقي البحر راكدا لكثرة ملوحته ·· لكن الى حين ·· فلم يصبح العرب « أكثر مشاركة في فهم الانسان والحياة واستشراف الكون (١) الا بتأثير أمثال أبي تمام ، وأبي نواس ، وأبي الطيب ، وأبي العلاء الذين أعطوا الابداع العربي بُعدَه الحضاري » ، والشعر العربي نبرته الأصيلة والحادة ·

---

(١) كما يقول ادونيس . انظر كتابه : زمن الشعر ط٢ ص ٣١٤ دار العودة ١٩٧٨ بيروت .

على أن المتنبي ، من بين هؤلاء وأمثالهم ، كان الأقوى نبرة ، والأشد تأثيرا ، وبالتالي ، الاسطع حضورا بيننـــا ·· لأنه كـــان الاقوى ، والاشد ، والاسطع تمردا وعقلانية ، وشخصية ، ووضوح رؤيا ، على استحالة في التحقيق ، واستعصاء على التسمية ··

من هنا ، كان تفرده ، ووحدانيته ، وأصالته ، الأمر الذي مكنه من اعطـــاء بُعد جديد للشعـــر العربي نفذ منه الى دائـــرة « الاستقطاب » حيث أصبح هو « قطبا » تتمحور حوله الناس والشعراء تماما كالقطب عند الصوفية ·· تسحرهم رموزه ، وتذيبهم عشقا وفناء مواجده ، ومجاهداته ··

ذلك البعد هو : ان الكلمة أو الصورة ، عند المتنبي لم تعد عادية ، باردة ، منتزعة بمهارة من بديع اللغة ، أي من خارج ·· أصبحت ما يمكن أن نسميه : الكلمة ــ المفاجأة ·· الطالعة من هدير داخلي صاخب : تهز ، تقهر ·· تزعج ·· النائمين في كهوف الخدر والموت ·· تماما كوجدانه وكيانه الزاخرين بضجيج الاقتحام والمغامرة ، حتى القتل لقد حمـّل المتنبي اللغة العربية كل ما تستطيع أن

تحمله ، بل فوق ما تستطيع من المعاني والرموز والأخيلة : حمّلها « عالمه » الجديد المشحون بكل الذبذبات والتوترات العالية ، والرؤى والأحلام والطموحات ·· وكلها صعب ومستحيل وأسطوري بهذا كله تجسدت ملامح ذلك البعد الذي عنيناه · وما كان نقاد عصر النهضة يسمونه « نفسا » حين نتعرف الى الشاعر لمجرد أن تسمع أول كلمة أو أول بيت من قصيدته ·· حتى ان لقب المتنبي نفسه يشير الى طبيعة شعره ·· كما يشير الى طبيعة حامله! اللقب بحد ذاته بيان ثوري !

حقا لقد كان المتنبي ممتلئا بكلمته ·· وكلمته ممتلئة به ·· لا فرق أن تراه ، أو تسمعه ، أو تقرأه ·

واذا كان يسيرا ، أن نضغط المتنبي في كلمات ، وهو جد عسير ·· نقول :

انه شاعر ، ولا كالشعراء ، غريب في الناس ، غريب في الشعراء · غريب في العصر ··

لأنه شاعر التمرد، والتوحد، واحتضان الذات ··

شاعر المجابهة واللاهروب ·· أمام العالم الهرم ··

خالق أمبراطورية للشعر العربي كان أبو العلاء من دعاتها ·· ورعاتها ··

عانى ، وتألم ، وتألق ·· حتى استحال لهبا أقدس ··

تشع به شاعرية عملاقة،وترسله في كل اتجاه··

عصره :

ما كاد النصف الأول من القرن الرابع الهجري يكتمل حتى رأينا الدولة العباسية تتنازعها عوامل انحلال شامل · وقعت الخلافة أيام المقتدر والقاهر، والراضي ، والمتقي ، والمستكفي ، والمطيع ·· تحت نفوذ البويهيين ·· فانقلبت بغداد عاصمة اسمية ·· بل مغارة لصوص ·· بعد أن كانت أيام الرشيد والمأمون عاصمة الدنيا ·· أما العاصمة الفعلية ففي الري حيث البويهيون الحكام الحقيقيون ، وفي حلب حيث الحمدانيون يحاولون أن ينشئوا الدولة ـ البديل ·· وفي الفسطاط ، بمصر ، حيث الاخشيديون يستقلون بمصر واليمن، وينازعون الحمدانيين السيطرة على سوريا ·· ويبدأ التنافس الاقليمي بين بلاطات هذه الدويلات،

وكثيرا ما تحول الى حروب وفتن داخلية . فكان من الطبيعي أن يكثر الأدعياء ، والدعاة ، والثائرون ، والمغامرون .. وأن يطمع بالعرب ، وهم على مثل هذه الحالة من التفسخ ، والانقسام ، كل حاقد أو موتور ، كالروم الذين أخذوا يغيرون على الثغور ، منطلقين من مركز تجمعهم بيزنطية (تركيا اليوم) حتى الزنج والاحباش ، ظلوا بعد انهيار ثوراتهم ، يغزون أطراف الدويلات العربية بين الحين والحين ، ولا يكفون عن اثارة القلاقل داخل كل دويلة ..

الحياة الاجتماعية :

لا شك أن الحياة الاجتماعية سوف تكون ، تبعا لذلك ، أدهى وأمر : انتشر الاقطاع واتسعت رقعته ، وكثرت المصادرات ، وعم الفساد في الدولة، والادارة ، والجيش ، وتوالت الضرائب المرهقة لكاهل الشعب الذي أصبح نهبا لكل طامع ، ووقودا لكل ثائر ، فبرزت المجاعة بأنيابها الزرقاء ، تفتك بالسواد الاعظم من الناس .. فكثر الشحادون واللصوص ، وقطاع الطرق ، كما كثرت ـ مقابل ذلك ـ الفرق والحركات الباطنة والظاهرة ، التي ترمي ، في أقلها ، الى اصلاح الحال عن طريق

الاستيلاء على الحكم : كالغدائية والاسماعيلية والقرامطة ، وكلهم من غلاة الشيعة ومتطرفيهم ، وكاخوان الصفاء والمتصوفة ، والزهاد الذين عاشوا مع أحلامهم وأفكارهم الهروبية بعيدا عن عالم أنكرهم فأنكروه ، عالم لم يعد ملائما الا للفاسدين والمفسدين ، والمغامرين ·· وتسألني عن الثروة ، أو ما يسمى اليوم بالدخل القومي ، أين طارت أو تبخرت ؟ انها في الواقع لم تَطِر ولم تتبخر الا من جيوب ذلك الشعب المسكين لتمتليء بها جيوب حفنة من الاقطاعيين والجنود وأمراء الدويلات ··

أما بغداد فقد أقفرت ، ولم تعد صالحة لايواء الشعراء والأدباء والعلماء ، بقله انتاجهم ومن ثم تصديرهم الى عواصم الامبراطورية العربية المترامية الأطراف ··

الحياة الادبية والفكرية :

من الملاحظ ازدهار الأدب والفكر والشعر ، خارج بغداد ، في نمو استطرادي محتوم ، رغم مظاهر الانحلال الاجتماعي والسياسي والاقتصادي

الآخذة بالتعاظم والاستشراء · وذلك لأسباب يقرها منطق التاريخ وتطور حضارة الأمة ، بعد أن تم التفاعل بين الحضارات عن طريق التعايش والترجمة ، وهضم المنقول عبرهما في العقل والذوق العربيين ·· غير أن آثار الفوضى السياسية والاجتماعية ، قد انعكست بشكل واضح على نتاج الأدباء والشعراء بخاصة ·· وعلى أفكار المفكرين ومناهج الفلاسفة بعامة ·· نتاج بدا ضخما وواسعا ، لكن في الكم لا في الكيف ·· فقل المبدعون حيث كثر المقلدون ، وظهرت حالة من التجوال وعدم الاستقرار على كثير من الأدباء والشعراء الذين اضطروا الى الضرب في الآفاق طلبا للأمان والشهرة والثروة هاربين من ظلام بغداد وظلمها ·· ومن أبرز هؤلاء الأفاقين كان المتنبي ·· ولعله الوحيد في هذا المجال احتضانا للذات وهربا بها بعيدا عن مواطن العسف والذل والاستكانة ، في بغداد أو الكوفة أو البادية ·· وهكذا جاء الأدب والفكر عامة، صورة صادقة للحياة في غناها وفقرها، في بؤسها وترفها ، في اضطرابها ولهوها ، في جدها وهزلها ·· لكنه كان غنى مسطحا وازدهارا أفقيا ــ كما قلنا ــ ولم يعد ــ بالتالي ــ مستهجنا بروز

أكبر عدد من المفكرين والأدباء والنقاد في مثل هذا العصر :

فمن الناثرين والمفكرين واللغويين والفلاسفة : ابن العميد والصاحب بن عباد والخوارزمي ،وبديع الزمان ، والاصفهاني ، والثعالبي ، والتوحيدي ، والفارابي ، والزجاج ، ونفطويه ، وابن دريد وسواهم ..

ومن الشعراء : الصنوبري مصور حياة القصور، وابن حجاج ممثل حياة المجون ، وأبو العلاء مجسد السخط والزهد والنقمة الشعبية العارمة على كل حاكم ظالم ، والساخر من أمجاد الانسان الباطلة ، والناقد الأدبي اللاذع .. والشريف الرضي نقيب الأشراف وممثل الطبقة الارستقراطية الطامحة الى استرداد ما تعتقده حقها السليب في الخلافة ، تهذي به في شعرها ، وتتحدث عنه في ندواتها وناديها .. وأبو فراس ينشد الروح العربية الفروسية الصافية ، والوجدانيات الصادقة ، وأول شاعر رومنسي عند العرب غنى تجربته المرة غناء ملكيا أبيا . حتى كشاجم طباخ سيف الدولة كان شاعرا ! وأخيرا ، المتنبي الذي يأتي على رأس كل هؤلاء ،

ويعكس كل جانب من جوانب العصر ·· ويتخطى الآفاق المحدودة ··

فلا عجب أن يكون شعر المتنبي وحياته مرتبطين بحالة عصره وبيئته أشد الارتباط · أضف الى ذلك عوامل النشأة الخاصة والمزاج الخاص ، والاستعداد الموهوب ·

نسبـه :

تشوب نشأة المتنبي بعض الشوائب ، أو بعض الغموض ان شئت ، ولكن الثابت ان أباه الحسين الجعفي كان فقيرا يسقي الماء بالكوفة ، وقد لقب بعيدان السقا ·· ولما شب المتنبي ، وكثر حساده راح هؤلاء يعيرونه بأبيه ، نافثين سمومهم بلسان أحد متشاعريهم حين قال :

أي فضـل لشـاعـر يطلـب الفضـ
ل مـن النـاس بكـرة وعشيـا
عـاش حينـا يبيـع في الكوفـة المـا
ء وحينـا يبيـع مـاء المحيـا ··

وهو يقصد أباه طبعا ·· ولقد كان المتنبي يخفي نسبه المضعوف بتعاليه وافتخاره بنفسه وحدها :

ما بقومي شرفـت بل شرفـوا بـي
وبنفسـي فخـرت لا بجـدودي

كما كان يتهرب حين يسأل عن حقيقة نسبه أو انتسابه ..

وحق له أن يفعل ذلك في عصر هذه مقاييسه ونظرته الى عظمائه .. كأن الفضل لا يكون الا لمن تحدر من أرومة أريستوقراطية مرموقة ..

ومن المؤسف أن ينبري بعض الناشئين من أصحاب النظرة العرقية ، أو المذهبية الضيقة (١) ليعلن على الملأ نسبا جديدا للمتنبي فيه من الغرابة وضيق الأفق ما فيه . وكل غاية هذا الناشىء أن يرد للمتنبي اعتبارا أنكره عليه حساد عصره .. هذا الاعتبار كامن ـ على زعمه ـ في نسب المتنبي العلوي ، وفي أنه ابن محمد المهدي المنتظر ، أو الامام الثاني عشر ـ عند الشيعة الامامية ـ وتكون

---

(١) انه أحد المتادبين الناشئين الذي علق على كتاب عبد الغني الملاح : المتنبي يسترد اباه . المنشور في جريدة النهار البيروتية بتاريخ ١٩٨٠/٤/١٥ والذي تبنى فيه فرضية المؤلف بأن يكون المتنبي هو حفيد الامام الثاني عشر .. واعتبرها حقيقة ثابتة ... المؤلف

النتيجة أن أبا الطيب هو الامام الثالث عشر . وكان كل مـا اعتمده صاحبنـا كتاب لعبد الغني الملاح ، بعنوان : المتنبي يسترد أباه .. فاعتبره وثيقـة نادرة .. وبمثابة حكم ـ قانون (١) معلنا المتنبي الامام الثالث عشر !.. هكذا وبكل بساطـة .. ولا نقول بكل براءة .. جاهلا أو متجاهلا ما وراء آراء السيد الملاح من غايات .. حتى هـذا الملاح « التائه » لا يجزم بانتساب المتنبي الى الامام الثاني عشر .. بل يطلقها فرضية قابلة للأخذ والرد .. أما السيد جحا فقد سارع الى اعتبار الفرضية قانونا وأعلنها حكما قاطعا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .. فكان ملكيا أكثر من الملك .. واذا كان همه أن يرد عبقرية وبلاغة المتنبي الى عبقرية الامام علي وبلاغته .. فقد أساء الى الامام علي أولا ، والى المتنبي ثانيا ، والى التقييم الصحيح للمواهب ثالثا ، والى نفسه أخيرا ..

ـ اذ أن بلاغة الامام علي ليست ارثا عرقيـا

---

(١) كما جاء على لسان الاستاذ نسيب نمر في رده الحاسم على فرضية الملاح واعتبارها من ذاك المتأدب المذكور حكم ـ قانون . للتفصيل انظر رد الاستاذ نمر المنشـور في جريدة النهار البيروتية بتاريخ ١٥/٥/١٩٨٠ .

يسري الى ذراريه وحدهم عبر الأصلاب والارحام ٠٠ انها أوسع من ذلك بكثير : تغمر بنورها كل موهوب مستعد للتلقي والانبهار شأن كل فن راق ، أو علم أصيل ٠٠ والمتنبي واحد من الموهوبين القلائل الذين استقوا من ينابيع البلاغة العربية على اختلاف أنواعها وأعماقها ٠٠ وكان ماتحا كبيرا ٠٠

ـ ثم ان يكون المتنبي بليغا لا لشيء الا لأنه علوي ٠٠ فذلك من فسولة الرأي وتهافته بمكان ٠٠ ما رأي السيد جحا اذا ثبت ـ وهو ثابت ـ ان المتنبي ليس حفيد الامام الثاني عشر ٠٠ هل يبطل أن يظل بليغا في نظره ؟!٠٠

ـ أما كون المتنبي متشيعا ، وان أمه همدانية صريحة النسب ، وان أباه الحسين من جعفى المعروفة بتشيعها ، وان الشاعر عايش العلويين في محلة كندة في الكوفة وان الكوفة مهد التشيع ، وان أباه أدخله ، وهو طفل ، المكتب العلوي فيها ٠٠ ثم ذهب به الى البادية حيث يكثر غلاة الشيعة ٠٠ فان كل هذا ليس دليلا على أنه ينتمي بالقربى الواشجة الى الامام الثاني عشر !!

وهذا صاحب كتـاب « أعيـان الشيعة (١) » المتخصص في تحقيـق أنساب الشيعـة والمتشيعين لا يذكر شيئا مما ذهب اليه الملاح والمعجب ببدعته ، وكذلك صاحب كتاب « وفيات الأعيان » واليتيمة ، ولسان الميزان ، والأنساب ، ومحاضرات المستشرق ماسينيون الذي يعتبر حجة في تحقيقاته الاسلامية(٢) كل هؤلاء وأمثالهم يجزمون بتشيع المتنبي وولائه لآل البيت ومدحـه لبعض أئمتهم ٠٠ لكـن أحدا منهم لم يشر الى تلك « البدعة » من قريب أو بعيد. أولا لأنها تسيء الى الشيعة الامامية الاثني عشرية والى صميم عقيدتهم ٠٠ وثانيا لأنها تثير ـ اليوم ـ خلافات عقدية ومذهبية نحن يغنى عنها ، كما أنها تسيء الى العقيدة الشيعية نفسها (٣) ٠٠

---

(١) للعلامة المحقق الشهير السيد محسن الامين الذي افرد للمتنبي ـ في المجلد الثامن مـن موسوعته الاسلاميـة الكبرى ـ قرابة ١٦٠ صفحة .

(٢) قطع هذا المستشرق بتشيع المتنبي فقط .. ولم يشر الى بدعة انتمائه للامام الثاني عشر ولو تلميحا .. وطـالما استمعنا اليـه يحاضر في السوربـون بباريس (اوائل الخمسينات) عن المتنبي ونسبه ، وغير المتنبي ، فلـم يذكر مرة ان ابا الطيب هو حفيد محمد المهدي المنتظر !!

(٣) كما قال الاديب هادي سليم (النهار ١٩٨٠/٤/٢٩) : « لان العقيدة الشيعية مبنية على وجود اثني عشر اماما معصوما اخرهم لا يزال منتظرا قدومه ليملأ الدنيا عـدلا

وعلى أي حال لن يضير المتنبي أن تكون عبقريته نابعة من ذاته ·· وبلاغته من بيئته ، وتحصيله وذكائه ·· وشاعريته من موهبته الخلاقة ومزاياه الخارقة ·· وطموحه الى تجاوز بؤس الأب ، والنسب المضعوف ، والفقر المقيم ·· بل ان ذلك مما يشرفه أكثر ـ في نظرنا ـ ويجعله أقوى تأثيرا، وأبقى على الدهر ·· (١)

حياته :

هو أبو الطيب أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكندي الكوفي المعروف بالمتنبي · وعلى رواية ابن خلكان وابن حجر في الميزان : هو أحمد بن الحسين بن مرة بن عبد الجبار الخ ·· ولد بالكوفة في محلة كندة سنة

= اذ ملئت جورا . فهل يمكن زيادة عددهم الى ثلاثة عشر في حال ثبوت نسب المتنبي المزعوم ؟! »

(١) كفانا متاجرة بالعرقيات والمذهبيات ، وحماسا طائفيا رخيصا .. فما اساء الى الاسلام كما اساء مثل هذه العقليات ..

٣٠٣ ومات قتلا سنة ٣٥٤ قرب دير العاقول أو النعمانية ، وكان في طريق عودته من فارس الى بغداد الى الكوفة • أمه همدانية صحيحة النسب وكانت من نساء الكوفة المرموقات •• سئل المتنبي عن نسبه فقال : أنا رجل أخبط القبائل ، وأطوي البوادي وحدي ، ومتى انتسبت ، لم آمن أن يأخذني بعض العرب بمطالبة بينها وبين القبيلة التي انتسبت اليها ، وما دمت غير منتسب الى أحد فأنا أسلم على جميعهم ويخافون لساني ••

قال ابن خلكان : « وهو من أهل الكوفة ، وقدم الشام في صباه ، وجال في أقطاره ، واشتغل بفنون الأدب ومهر فيها ، وكان من المكثرين في نقل اللغة والمطلعين على غريبها وحوشيها ، ولا يسأل عن شيء الا استشهد فيه بكلام العرب من النظم والنثر ، حتى قيل ان الشيخ أبا علي الفارسي صاحب الايضاح والتكملة قال له يوما : كم لنا من الجموع على وزن فِعلى ؟ فقال المتنبي على الفور : حِجلى وظِربى • قال الشيخ أبو علي : فطالعت كتب اللغة ثلاث ليال على أن أجد لهذين الجمعين ثالثا فلم

أجد ٠٠ (١) ويؤكد الثعالبي ما ذهب اليه ابن خلكان من شدة تمرس المتنبي باللغة والشعر والأدب فيقول : « هو كوفي المولد ٠٠ لكنه شآمي المنشأ بها تخرج ومنها خرج نادرة الفلك ، وواسطة عقد الدهر في صناعة الشعر ٠٠ الخ » توفي أبوه وهو ما زال حدثا فأدخلته جدته لأمه المكتب العلوي بالكوفة حيث أخذ قسطا من الشعر والأدب واللغة ٠ لكن حياة طلاب المكتب ونمط عيشهم وسلوكهم لم تكن لتروق له قال له، يوما، أحد رفاقه: ما أحسن هذه الوفرة (٢) فقال صارخا ـ ولعله أول شعر نطق به :

لا تحسن الوفرة حتى ترى
منشورة الظفرين يوم النزال
على فتى معتقل صعدة
يعلها من كل وافي السبال

وما لبث أن ارتحل الى الشام ليتمرس باللغة يأخذها من مصادرها في البادية ٠٠ ومن ثم

(١) حجلى ج حجل وهو طائر يسمى القبج . والظربى ج ظربان على وزن قطران وهي دويبة منتنة الرائحة .
(٢) الوفرة : شعر الراس الكثيف المنسدل على الكتفين .

« ليتمرس بالآفات » على حد قوله :

تمرست بالآفات حتى تركتها
تقول أمات الموت أم ذعر الذعر !

تقرمطه :

اتصل في البادية بقبائلها الثائرة ، وعلى رأسها قبيلة كلب ٠٠ التي كانت تحمي الحركة القرمطية (١) ، والمرجح أن المتنبي تأثر بهذه الحركة ، وظهر أثر ذلك في شعره ، وفي سلوكه ٠٠ ويبدو أن تقرمطه لم يطل ، وانتهى على غير ما يشتهي الطرفان ، وسرعان ما وجدناه ينتقل الى بغداد ، ليرتحل بعدها الى بادية الشام ٠٠ ثم أخذ يتصل برؤساء القبائل والاغنياء ويمدحهم ، ويبيع شعره « في سوق الكساد » كما يقول ٠ وهكذا ظلت نفسه النزاعة الى المجد عطشى لا يروى ظمأها عند هؤلاء ، فاشتدت نقمتها ، واغتلت بنيران ثورة مكبوتة ٠٠ وحين أتيح له ، في البادية ، أن يتصل

---

(١) وهي حركة تنسب الى منشئها قرمط بن حمدان ، تهدف الى الاصلاح الديني والاجتماعي والسياسي وتتوسل العنف في سبيل ذلك . للتفصيل انظر : مع المتنبي لطه حسين ص ٩٠ .

بقبائل بني كلب وكلاب وجد عندهم استعدادا للتمرد ، فادعى بينهم النبوة ٠٠ وزعم لهم أن وحيا ينزل عليه ، وأن له معجزة ٠٠ أو معجزات ٠٠ منها حبس المطر (١) وان له قرآنا خاصا به ٠٠ جاء فيه : « والنجم السيار ، والفلك الدوار ، والليل والنهار ، ان الكافر لفي اخطار ٠٠ الخ ٠٠ » هذه الرواية يذكرها ابن خلكان على علاتها ٠٠ كما يروي الثعالبي خبر نبوءته على وجه آخر ٠٠ ومهما يكن مقدار صحة الروايتين ، فالذي يهمنا استنتاجه هنا هو ان المتنبي أراد استغلال الظرف لعله يصل الى ما يريد من جاه ومال وشهرة ولعله يخفف من غليان تلك الثورة المكبوتة في نفسه ٠٠ لكن الظرف عاكسه ، وكانت وسائله أضعف من همته ٠٠ فانتهى الى الأسر بعد معركة غير متكافئة ثم الى السجن على يد أمير حمص من قبل الاخشيديين لؤلؤة الغوري ٠ ولولا مجيء وال آخر هو ابن

(١) او ما يسمى بصدحة المطر : وهي حيلة سحرية تعلمها ابو الطيب من عرب اليمن توهم بايقاف المطر عن مكان معين . انظر : ذكرى ابي الطيب بعد الف عام ص ٥٦ وفي هذا الكتاب اخبار كثيرة عن معجزات المتنبي .. والاصح : عن حيله وبراعاته في ايهام القبائل بأنه نبي مرسل .

كيفلغ لما خرج الفتى الثائر من سجنه . ومن قصائده التي قالها في سجنه مستخفا بالمرض والعذاب هذان البيتان :

كن أيها السجن كيف شئت فقد
وطنت للموت نفس معترف
لو كان سكناي فيك منقصة
لم يكن الدر ساكن الصدف ..

بعد خروجه من السجن وقد مكث فيه سنتين أقلع المتنبي عن اللجوء الى الثورة المسلحة وادعائه النبوة ، ولجأ الى السلاح الاقوى : الشعر مكتفيا به وسيلة أنجع للوصول .. فراح يضرب في الآفاق العربية ، وخاصة البلاد الشامية مادحا أمراءها . اتصل بالأمير العربي بدر بن عمار في طبريا فمدحه ولقي عنده حظوة وتقديرا ، الا أن الحساد سعوا بينهما ، فآثر المتنبي الارتحال من طبريا الى الرملة ، وكان عليها محمد بن طنج ، فمدحه ، ثم قصد طرابلس فبعلبك ، فأنطاكية ، وكان عليها أبو العشائر الحمداني نسيب سيف الدولة . فقدم أبو العشائر المتنبي الى سيف الدولة أثناء زيارته له . فأعجب الأمير الحمداني بالشاعر واصطحبه معه الى حلب..

في بلاط سيف الدولة : (٣٣٧ ـ ٣٤٦)

نشطت في هذا البلاط حركة علمية وأدبية ولغوية ، لم تشهدها أية عاصمة عربية أخرى في عصر الدويلات · كان الأمير الحمداني نفسه عالما وأديبا الى جانب كونه فارسا ومجاهدا كبيرا لعله المدافع الوحيد عن حوزة الاسلام يومذاك ·· لذا رعى الأدباء وحاول أن يحشد منهم في بلاطه أكبر وأضخم عدد ممكن ، ينافس به بغداد التي بدأت تقفر من رجال الأدب والفكر ، فاجتمع في بلاطه من الشعراء فحولهم ، كأبي فراس والمتنبي ، وأبي العباس النامي وكشاجم (طباخ سيف الدولة ··) ومن النحويين وعلماء اللغة أفذاذهم كأبي علي الفارسي ، وابن خالويه (مربي الأمير) ، ومن الفلاسفة سيدهم الفارابي ، ومن الاطباء عشرون طبيبا ·· وجد المتنبي في بلاط سيف الدولة هذا الجو الرفيع الذي كانت تتوق اليه نفسه ، ووجد المناخ العربي الصحيح ، والرجل الذي حلم به في صباه : الرجل القائد والقدوة ، فلم يستطع أن يكونه ، أول أمره ، لنقص في الأداة والوسيلة لا لنقص في الرجولة والكفاءة والاستعداد · ثم فتش عنه في غير سيف الدولة من ممدوحيه ، وما

أكثرهم .. فلم يجد سوى أشباح له لا أشباه .. حتى اذا تلاقيا صورة ومثالا انقلب الخيال واقعا والحلم حقيقة وامتلأ كل منهمـا بالآخر ، وأحس المتنبي بأن عهدا جديدا قد بدأ في حياته ، وان أيام الفقر والتشرد قد ولت الى غير رجعة .. أقبل على سيد البلاط اقبـال من وجـد نفسه .. وحظي بضالته ..

يروى أن المتنبي قد اشترط على سيف الدولة ألا يكلفه ما يكلف به الشعراء من تقبيل الارض بين يدي الأمير ، ومن انشاده الشعر وهو واقف ، وأن يكون هو شاعر البلاط الأول .. لتكون له الجائزة الأولى .. وان سيف الدولة قبل بكل هذه الشروط راضيا .. وهكذا لزم المتنبـي سيـف الدولة تسع سنين كانت حافلة بالأحداث الحربية من جهة سيف الدولة والأدبية من جهة المتنبـي ، والمؤامرات من جهـة الحساد . انقسـم البـلاط الحمداني الى حزبين ظاهرين : حزب يؤيد المتنبي في شعره وشخصه ، وحزب يشجب تصرفاته ويكشف سرقاته .. وحزب ثالث مستتر وراء العفة والشرف هو حزب خولة أخت سيف الدولة المعجبـة جـدا بالمتنبي شاعرا وربما حبيبا ..

ومهما يكن من أمر فقد قال المتنبي في سيف الدولة أجمل شعره ، وأصدقه ، وأرقاه ، ولعله من أجمل الشعر العربي القديم على الاطلاق ، كما سنرى عند التقييم . ذلك لأن شبح التكسب كاد يغيب في غمرة الاعجاب المتبادل . وان نفس المتنبي طابت ، في حلب ، واستقرت ، ونضج الفكر والوجدان ، والقلب .. أحس لأول مرة بالخفقان فلم يجد أمام الشاعرية الا أن تتدفق .. والعبقرية أن تبلغ مداها ..

زد على ذلك أن سيف الدولة كان يصحب المتنبي في بعض غزواته وحروبه مع الروم ، فما أن ينقشع غبار المعارك ، نصرا أو هزيمة ، حتى ينبري الشاعر ـ الفارس واصفا تلك المعارك المنتصرة وصفا لا أدق ولا أروع ،فيجيزه سيف الدولة ويغدق عليه العطايا حتى انه أقطعه مرة قرى في ناحية معرة النعمان .. وفي الغزوات الفاشلة ضد الروم ، كما حدث عام ٣٣٩ هجرية كان المتنبي ينصب نفسه خطيبا في شعره أمام رجال الأمير يجدد فيهم العزيمة على معاودة القتال وانتزاع النصر من الأعداء . وكان يبدع في الحالين لصدق وفائه للأمير وايمانا منه بأنه المنافح الوحيد عما تبقى من

ديار الاسلام ، ولعمق معاناته وتمرسه بالحدث ·· بالاضافة الى شعور خاص يحمله المتنبـي لسيف الدولة : كون الأمير علويا ·· وعلويا مميزا ·· مما جعل سيف الدولة لا يملك الا أن يكرم المتنبي ويزداد تعلقا به وتفضيلا له على سائـر شعراء بلاطه ·· الأمر الذي كان يثير سخط خصومه من جديد ·· ويشتد الموقف حرجا بالنسبة لسيـف الدولة أمام الفريقين · أولا : لأن على رأس خصوم المتنبي أبا فراس ابن عم الأمير وقائدا من أبرز قادة جيشه ، رباه منذ قتل والده وكان ابن ثلاث سنـوات ، واحتضنه ودربـه على فنون القتـال وادخره للأيام الصعبة ، بالاضافة الى أنه شاعـر البلاط الاول قبل قدوم أبي الطيب ·· زد على ذلك ابن خالويه مربي الأمير وأستاذه الذي كـان يساند أبا فراس في حربه المعلنة ضد المتنبي ·· فكيف يضحي سيف الدولة بالمربي والمُربى ؟ هكذا وبسهولة ومن أجل من ؟ من أجل انسان يتعـالى ويتعالى كلما غالى الأمير في تكريمه وتقديمه ·· لكن الأمير يحبه ويعجب به ·· ويحتاج اليه ·· حتى لقد أصبح ، رغم كل شيء ، جزءا لا يتجزأ من الأمير والامارة ، بل أداة ضخمة من أدوات الحرب

والنصر ·· فما العمل ؟ وهل من حل وسط ؟ أم لا بد من ضحية ؟

قرر سيف الدولة ، بادىء بدء ، أن يغضي على الأذى يأتيه من قبل المتنبي ، والحرج يأتيه من أبي فراس وجماعته ، كسبا للموقف وانتظارا لتراضي الطرفين ·· لا سيما وهو في الواقع بحاجة الى الجميع في حروبه الداخلية والخارجية انطلاقا من امارة محدودة المساحة والامكانات المادية والبشرية فلا بد ، على الأقل ، من أن يكون الوضع الداخلي فيها متماسكا ومنسجما ·· لكن سياسة المرونة والمهادنة لم تدم لتمسك كلا الطرفين بمغالاتهما وايغالهما في العداء والوقيعة ·· فيقرر سيف الدولة ، على مضض ، أن يضحي بالمتنبي : ذلك الحبيب المزعج ·· الذي لم يحسن الاحتفاظ بقلب الأمير ·· لشدة امتلائه بذاته واستغراقه في كبريائه ·· وهو اذا كان يرى شخصا ، أو شيئا عظيما فمن خلال تلك الذات ، وهذا الكبرياء ·· عدسته ، على عكس حقائق الفيزياء وعلم الحيل ، لا تكبر الاشياء والاشخاص ، رغم بلوريتها وضخامتها ·· يشج رأسه بمفتاح يخرج من كم ابن خالويه ·· ويسكت سيف الدولة على ايذاء

الشاعر ، ولأول مرة لا يحرك ساكنا ••• ويتماسك كبرياء المتنبي ليفسح المجال أمام الوفاء ومشاعر الحب والولاء تنطلق بعفوية الشاعر المقتدر عبر هذا البيت العائر المرتجل :

ان كان سركم ما قال حاسدنا
فما لجرح اذا أرضاكم ألم

وسلام على حلب وسيدها ، وداعا أيها الأمير الأثير : ان حلب لم تعد « تنبت العز » بعد أن فقدت فيها حبيبين على الاقل •• هنيئا لك حسادي وحسادك •• الطامعون في الامارة من بعدك •• الذين سيقاتلون من أجلها ابنك وخليفتك أبا المعالي لكنهم بسيف طمعهم سيقتلون (١) ••

في مصر :

أقام المتنبي في مصر يمدح كافورا الاخشيدي ، وينال جوائزه ، وفي جنبيه خافق لا يحمل سوى

(١) اشارة الى ان ابا فراس ما كاد سيف الدولة يموت حتى جيش جيشا لمحاربة ولي العهد ابي المعالي شريف ، لكن القائد التركي قرغويه كان اسبق من ابي فراس فداهمه ، وبدأت معركة جرح فيها الشاعر .. لكن قرغويه احتز راسه وحمله الى سيده في حلب ..

حبين : حب سيف الدولة ، رغم الجفاء الاخير ، وحب الولاية والمجد ·· ولعل كافورا قد لاحظ ذلك ، فراح يمنيه بالولاية (١) ويماطل ويسوف ، فأخذ المتنبي يتضايق ويتذمر ويشكو ويعاتب ، ويجاهر في ذلك في شعره وأمام أصفيائه ·· وأخيرا انفجر الموقف ··وصمم الرجلان على فك الارتباط المزيف الذي يصل بينهما · كافور باحتجاز المتنبي ومنعه من مغادرة مصر ·· والمتنبي بتدبير خطة للهرب تحت جنح الظلام ·· وأثناءها ، اعتل أبو الطيب وأصابته حمى الملاريا (٢) ولم تغادره الا بعد أن غادر هو مصر هاربا بكرامته وحريته ·· أو ببقاياهما ·· يروى عن كافور أنه قال للمتنبي بعد أن ألح عليه في طلب الولاية : « أنت في حال الفقر وسوء الحال وعدم المعين سمت نفسك الى النبوة ·· فان أصبت ولاية ، وصار لك أتباع فمن يطيقك » ؟ كأن الولاية لا تصلح الا لصغار النفوس أمثال هذا « الكويفير » « العضروط » ·· قال الوحيدي : « كنت بمصر وبها أبو الطيب ، ووقفت

---

(١) يقال ان كافورا عرض على المتنبي ولاية صيدا وصور فرفض ··

(٢) عرفنا انها حمى الملاريا من تشخيص المتنبي لها فيقصيدته اللامية المشهورة .

من أمره على شفا الهلاك ، ودعتني نفسي لحب أهل الأدب الى أن أحثه على الخروج من مصر . وكان هو مستعدا لذلك ·· الخ ·· » ولحظ ذلك منه كافور فخاف ان هو أطلقه أن ينقلب عليه بالطعن والهجاء ، لا سيما وهو المستبد بحكم مصر دون ملكها الحقيقي ، وفيه من المطاعن الخلقية والنقائص الخلقية ما يوفر للمتنبي مادة هجائية دسمة ·· فأحكم الحصار حول الشاعر بما بثه من عيون وأرصاد ·· لكن المتنبي تمكن من الفرار فجر يوم عرفة سنة ٣٥٠ هجرية (١) فقصد العراق مارا بمحاذاة سيناء ، وانتهى الى الشام بموجب خطة محكمة رسمها مع بعض أصدقائه وبعض الأعراب ، وقام هو بتنفيذها ·· قال يصف اقدامه وخلاصه بأبيات تضج بروح الاباء والاستعلاء على

(١) اقام المتنبي في مصر اربع سنين وستة اشهر . والجدير بالذكر ان شاعرنا بدأ بالشكوى والتذمر من وعود كافور العرقوبية بعد ثلاثة اشهر من قدومه عليه ، حتى لحظة مثوله بين يديه قال قصيدته الشهيرة : كفى بك داء .. وفيها من الحنين الى سيف الدولة اكثر مما فيها مدح لكافور .. كما سوف نرى .. ونراه بعد ذلك لا ينشىء في مدح « استاذ » مصر سوى قصيدتين اثنتين . انظر كتاب : ذكرى ابي الطيب بعد الف عام للمحقق عبد الوهاب عزام ط٢ ص ١٣٩ — ١٤٠ دار المعارف — مصر ١٩٥٦ .

كافور وأشباه كافور المنتشرين في كل مكان :

لتعلم مصر ، ومـــن بالعـــراق
ومن بالعواصـــم اني الفتى ..
واني وفيـــت ، وانـــي أبيـــت
واني عتوت على من عتـــا ..

ثم أطلق في كافور أقذع أهاجيه ..

في العراق :

وصل المتنبي الكوفة في ربيع الاول سنة ٣٥١ وأقام فيها حيث جدته لأمه ثم هبط بغداد ، وكان فيها معز الدولة البويهي ، وكان وزيره المهلبـــي يأمل أن يمدحه المتنبي ، ولكن أبا الطيب ترفع عن مدحه فأغرى به « متشـــاعري » بغداد الناقمـــين الحاسدين ، فراحوا يتبارون في هجائه . فلم يجبهم، وقال : « اني قد فرغت من اصابتهم بقولي لمن هم أرفع طبقة منهم في الشعراء :

أرى متشاعرين غـــروا بذمي
ومن ذا يحمـــد الداء العضالا
ومن يك ذا فـــم مـــر مريض
يجد مرا بـــه الماء الزلالا ..

وبقولي :

واذا أتتك مذمتي من ناقص
فهي الشهادة لي بأني كامل

وقد أقام أبو الطيب في العراق زهاء ثلاث سنين ·· ومكث في الكوفة لا يزور بغداد الا لماما وعلى حذر واستخفاء (١) ·

في شيراز :

ورد على المتنبي ، وهو في العراق ، رسالتان ، احداهما من سيف الدولة يطلب منه العودة الى حلب، فاعتذر المتنبي لعلمه ان الجو هناك لا يزال كما تركه قبل أربع سنوات مشحونا بحسد الحاسدين ومكتظا بالخصوم من كل نوع ·· وكانت الرسالة الثانية من ابن العميد ، يدعوه لزيارته في أرجان ، فقبل المتنبي الدعوة ومضى اليه ، فتلقاه أحسن لقاء · وكانت شهرة المتنبي ، حينذاك ، قد سبقته

---

(١) يقول صاحب كتاب ذكرى ابي الطيب بعد الف عام ص ١٦٤ : « لسنا ندري كم مرة ذهب الى بغداد ، والروايات تصف قدومه الى بغداد واقامته بها مرة واحدة . وسنرى ان بغداد لم تكرم مثواه فأحسبه ما ذهب اليها من بعد ، الا في طريقه الى فارس سنة ٣٥٤ » .

الى بلاد فارس ، بعد أن ملأت الدنيا العربيـة ، وشغلت الناس ، حتى أصبح كل أمير عربي ، وغير عربي ، يتمنى لو يزوره المتنبي ، ويقول الشعر فيه ٠٠ وما كان للمتنبي العربي الصريح المتحمس لعروبته أن يسعى الى مدح أمراء الفرس وقادتهم الا نكاية « بمسلمي الغرب » على حد قول طـه حسين (١) الذين لم يحسنوا وفادته ولم يبلغوه ما أراد من جهة ، ولم ينهضوا بأعباء الدفـاع عـن الاسلام من جهة أخرى ، فلجأ الى « مسلمي الشرق » لأنهم أقدر على تكريم أمثاله ، وأقوى في الدفاع عن حوزة الاسلام ٠ ثم ان المتنبي ، الى جانب كل هذا ، بل قبل كل هذا ، يريد أن يعلن سيادته على مملكة الشعر العربي ، في المشرق الاسلامي ، كما في مغربه ، وان له هو دون سواه الصولجـان ، والعمادة يمنحها له هؤلاء لا ليكرموه أو يشهروه ٠٠ فهو لم يعد بحاجة الى تكريمهم وشهرتهم ٠٠ بـل ليكرموا به أنفسهم ويخلدوا ذواتهم عبره ٠٠ وفي تقديري ، ان هذا هو الصواب في الميزان الفنـي الصحيح ٠٠ ذلك ان فعل الشعر أقوى من فعـل السيف ، وذكره أبقى من ذكره ٠٠ بل ان مجـد

(١) مع المتنبي ص ٣٥٨ دار المعارف ــ مصر ١٩٤٩ ٠

السيف ما كان له أن يخلد الا اذا أتيح له شاعر يعرف كيف يغنيه و يعليه (١) ومن هنا نحن نختلف مع نقاد أوائل هذا القرن ومحققيه الذين اختلفوا في : أيهما خلد الثاني : سيف الدولة أم المتنبي ؟ (٢) منهم من قال : سيف الدولة .. ومنهم من جزم بالعكس .. وكثيرون ترجحوا بين الاثنين .. أما المستشرق الفرنسي ريجيس بلاشير فقد انتهى ، بعد تردد ، الى القول بالحرف الواحد : Tous les deux vont de paire : أي ان كلا الأمير والشاعر يشكلان ثنائيا واحدا ..

ونسارع نحن الى القول ، بلا جدل أو مناقشة ووفقا للتقييم الفني الحديث : المتنبي هو الذي خلد سيف الدولة ...

---

(١) ان احداث التاريخ المصرية ما كان لها ان تتألق في وجدان الانسانية ، او تصبح مثالا وطنيا يحتذى لو لم يتح لها شاعر كبير .. حتى العادي منها يمكن للشاعر ان يرتقي به الى مصاف المثال بما يثير فيه من عناصر الاسطورة ، ورموز الملحمة . كما فعل — مثلا — شاعر فرنسا الاكبر فكتور هوجو في ملحمة الدهور La légende des siècles التي خلد فيها اعمال نابليون بونابارت الحربية .. وكما فعل شعراء الملاحم جميعا .. المؤلف

(٢) كطه حسين وعبد الوهاب عزام وسواهما .

ذلك لأن سيف الدولة البطل ـ الاسطـورة ، والانسان ـ المثال ، والرجل السبرمن ، الرائـع منتصرا ومنهزما ، الأخيلي كرا وفرا وشمائـل الذي « تمر به الابطـال كلمى هزيمة » سيـف الدولة هذا ، هو الخالـد لأنه فوق وهم الواقـع ، وفوق حس المادة ، ورعونة الزمن ، وحكم التاريخ، سيف الدولة هذا هو من صوره المتنبي وجسد فيه المثال والأسطورة ، وحلم الاجيال المسحوقة التواقة الى البطل ـ الرمز والانسان ـ المثال ٠٠ ودع عنك غايات المتنبي الرجل ، والعنعنات ، والنوافل التي نظر طه حسين من خلالها الى هذا الشاعر العملاق فلم يجد فيه سوى شاعر حقير متسكـع وصولـي لا أكثر !! (١) أين منه ترفع أبي العـلاء واباؤه وعفته ٠٠٠ لا أدري بأي المقاييس كان يقيس عميد الأدب العربي أبا الطيب : أبالمقياس الاخلاقي وهو فاسد ونسبي ، أم بالمقياس الاقليمي الأشد فسادا كيف يمكن أن نستخرج روائع بشار وأبي نواس اذا نظرنا الى شعرهمـا مـن خلال كفرهمـا أو زندقتهما ٠٠ وهل للفن أن يخضع للاعتبـارات الاخلاقية والدينية ؟! سامح الله عميدنا وغفر له ٠٠

---

(١) مع المتنبي ص ٢٨٥ وما بعدها .

سيف الدولة هذا هو الذي خلد كما أراده الشاعر لا كما أراده الواقع : أمير يقتطع آباؤه امارة الموصل ثم ينهزمون عنها ·· ويأتي هو فيقتطع لنفسه امارة حلب كأبي العشائر في أنطاكية وبدر ابن عمار في طبريا والاخشيد في مصر ، والبويهيين في الري : أسلاب وأشلاء أمبراطورية يقتطعها هؤلاء ويمضون في تقاتلهم وتناحرهم ·· ولا يلتفتون الى العدو المشترك الا لماما ·· صحيح ان سيف الدولة كان أكثرهم التفاتا وحماسا ومنافحة لكنه لم يكن من البطولة والعظمة بحيث يسمو الى كبار الغايات كاعادة توحيد الامبراطورية الاسلامية ، ولم شمل المسلمين ، ورأب صدعهم ·· حتى امارته لم يستطع حماية حدودها دائما ·· ومطامحه لم تكن لتتجاوز تلك الحدود ·· أمير حلب اذن بطل عادي أسير الزمن والمادة يموت كغيره من الابطال ، ولو على مخدة من غبار المعارك ·· هذا الأمير العادي هو الذي نقله الشاعر الى اللاعادي ·· الى الأسطورة والرمز والمثال ·· فخلد بهذا ، وبهذا وحده ، اذ هو الذي لا يزال حيا بيننا ·· لا ذاك الأمير العلوي المحدود البطولة ، المحدود الغايات ··

وصحيح أيضا أن سيف الدولة وفر للشاعر مادة ضخمة ينطلق منها الى الآفـاق الملحمية الرحبـة فيخلد بها حين يجيد غناءها ‥ ولكن الأصح أيضا ان الشاعر المبدع لا يعدم مادة ينطلق منها ، ولو لم تكن هذه المادة سيف الدولـة بالذات ‥ ومـن الشعراء العمالقة من « يخلق » المادة خلقا ثم يبث فيها الحياة ‥ ثم يرتقي بها الى مستوى الخارقة أو الملحمة ، أو الأسطورة ‥ مثل هؤلاء الشعراء هم الخالدون المخلدون ‥

نهاية المطاف :

ومن ارجان سار المتنبي الى شيراز قاصدا عضد الدولة ، فتلقاه بالترحيب والتكريم ، ونظم المتنبي فيه ثماني قصائد فأجزل له العطاء . ثم قفـل عائدا الى بغداد بعد أن تلقى نبأ وفاة جدته التي ماتت فرحا بلقاء الحفيد اثر تلقيها رسالة منـه يخبرها فيها بقدومه اليها :

أتاها كتابي بعد يأس وترحة
فماتت سرورا بي فمت بها غما

وبعد أن تضايق من وجوده هناك بين قوم لا يفهمون

لغته ولا يفهم لغتهم ، وان أحسن أمراؤهم وفادته وفتنته روائع الطبيعة في شعب بوان : (١)

مغاني الشعب طيبــا في المغاني
بمنزلة الربيـــع من الزمـــان
ولكن الفتـــى العربي فيهـــا
غريب الوجه واليد واللســان
ملاعب جنــة ، لو ســار فيهــا
سليمـــان لســار بترجمـــان !

وهو يعني بالفتى العربي نفسه • قفل أبو الطيب مثقلا بثروة كبيرة ، وخلع وهدايا ، وكتب كثيرة •• وفي طريقه الى الكوفة برز له فاتك الاسدي العيني في نحو عشرين رجلا • وكان مع المتنبي ابنه الوحيد محسد (لا محمد كما تقرأ خطأ) ، ونفر مــن غلمانه • فجرت معركة قصيرة غير متكافئة ، انتهت بمقتل الشاعر الكبير وابنه وبعض غلمانه •

(١) الشعب : منفرج بين جبلين . والمراد هنا شعب بوان ، وهو موضع عند شيراز كثير الشجر والمياه تعد من جنان الدنيا . قال ابو بكر الخوارزمي : منتزهات الدنيا اربعة مواضع : غوطة دمشق ، ، ونهر الابلة ، وشعب بوان ، وصغد صمرقند .. الديوان : شرح الشيخ ناصيف ج٢ ص ٤٥٢ ــ دار صادر ــ دار بيروت ١٩٦٤ . وفراديس لبنان ؟! يبدو ان صاحبنا ابا بكر لم يسمع بها .. المؤلف

وهكذا قضى أبو الطيب ، على مقربة من سواد بغداد ، وفي مكان يدعى دير العاقول في ١٧ رمضان سنة ٣٥٤ وخبت شعلة نفس طالما كانت نزاعة الى المجد ، تواقة الى تحقيق وجودها رغم أنف الزمان والقدر ..

عروبتــه :

البحث هنا لا يدخل في علم الأجناس والأعراق. فليس لنا الآن أن ندخل فيه مخافة ألا نخرج منه .. كل ما نريد أن نفعله ، هو أن نقرر واقعا لا شك فيه : أن المتنبي كـان عربـي النشأة والسلوك والموقف ، اعرابي المزاج والذوق الفني ، بدوي العيش والمأكل والمشرب واللباس والتعامل مـع المرأة أما وزوجة وحبيبة .. فقد كانت ثقافتـه موزعة بين المدينة والبادية .. أما عاداته ، وروحه ، وعواطفه فريفية صحراوية ، لم تستطع المدينة ، أو المدائن التي حل فيها أن ترقق طباعه أو تسلس شكيمته ، أو تلين أسلوبـه الشعري ، خاصـة في الغزل ، وتقربه من حياة الحاضرة والحضر ، وما فيها من ليونة العيش ، وأشياء الحضارة الوافدة : كالخمرة ، والخمارة ، والقينـة ، والغلاميـات ،

واللهو على أنواعه : كارتياد الحانات ودور الرقص والعبث والمجون ، ولعـب الشطرنـج ، والنرد ، وسباق الخيل والديكة ٠٠ مع ان لركوب الخيـل عنده غرام وأي غرام ٠٠ لكن ليس للسباق ، بل لاقتحام الهول وخوض الغمرات وهو على متنها ٠٠ كان اذن انسانا غريبا في المدينة ، مهما طال مكوثه فيها ٠٠ قريبا من البادية مهما بعد عنها ٠٠ يعتبر نفسه ضيفا في المدينة لا مقيما ٠٠ وحين فرضت عليه الاقامة في المدينـة (فسطاط مصر) حُمّ ، ومرض ٠٠ وما لبث أن هرب تحت جنح الظلام ٠٠ والى أين ؟ الى الصحراء ٠٠ ثم الى الكوفة ٠٠ ثم الى ٠٠ المجهول ٠٠ المهم أن ينأى عن جو المدينة ٠٠ أي مدينة ٠٠ فكيف اذا كانت هذه المدينة يسكنها كافور ، وأمثال كافور ٠٠

المدينة في لا وعيه : مستقر ومقر للقاعدين ، والمخنثين ، والهجناء ٠٠ وقد ساعده واقع المدن العربية ، آنذاك ، لا سيما بغداد والفسطاط على ذلك ، بما آلت اليه هذه الحواضر الاسلامية من تفكك ، وانهيار ، وغلبة الأعاجم عليها ٠٠ ثم هو ما أوذي في مكان كما أوذي في المدن ٠٠ البادية ، اذن ، وفي وعيه التام ، هي البديل عن عرب هجناء

هناك ، مولدين خانعين ·· الى عرب ، هنا ، أصلاء ثائرين أحرار ··

أما الشعور القومي العربي ، فقد ظهر عنـد المتنبي في أرجان والري ، وشيراز ·· مع أنه قصد الى أمرائها قِصدا ، وكرم تكريما لائقا ، ونعـم بمفاتن الطبيعةَ في شعب بوان ·· غير أنه ، رغم كل شيء ، ما لبث أن حن الى ديار العروبة والى مسقط رأسه الكوفة ، وطفت مشاعره العربية فيه على كل شعور آخر :

ولكن الفتـى العربـي فيهـا
غريب الوجه واليد واللسـان

وهكذا سارع الى مغادرة الري مدفوعا بمشاعر شتى ، منها ذلك الشعور بأنه غريب بين قوم غرباء رغم أنهم مسلمون ·· وبأنه قد آن له أن يرتاح في بلده وبين بني عشيرته ·· غير آبه بالمحاذير التي نبه اليها ، والتي لقي مصرعه بها ··

وما دمنا قد ألمحنـا الى أن الانتماء القومـي لا يكون بالنسب الصريح وحده ، ومن أين لنا نحن العرب جميعا ـ وغير العرب ـ هذا النسب الصريح

المتواتر ؟ فحق للمتنبي ، وهو الذي يشك في نسبه الأدنى ، أو تشوبه بعض الشوائب ، أن يفتخر بأنه العربي الأول الذي فهم ذلك ، وأدرك أن عروبته نابعة من احساسه بتوهجها في ذاته أولا ، وفي أولئك الجدود العرب الذين شرفوا به ٠٠ مع أن كل ناطق بالضاد يفخر بهم ويشرف :

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي
وبنفسي فخـــرت لا بجدودي
وبهم فخر كل من نطق الضـا
د وعوذ الجاني ، وغوث الطريد

انتماء قومي بـدون نسب صريح يتسلســل بوضوح عبر الأصلاب والارحام ٠٠٠ اذ يكفــي ، وفي المفهوم الحديــث ، أن يشعــر الانسان ــ أي انسان ــ شعورا عقلانيا ، وعاطفيا ، ومصلحيا ، بأنه ينتمي الى هذه الأمة أو تلك ، وأن مصــيره مرتبط بمصيرها ، وأنه ليس غريبا عن أرضهــا وتاريخها وتراثها وعاداتها ، ولغتها ، بل هو منها في الصميم الى درجة الاستشهاد من أجلها اذا لزم الأمر ٠٠ وهذا ما كان يشعر به المتنبي ، أو ببعضه على الأقل ، ويتغنى به ، خاصة وأن العروبة قد

خبا نورها ، في أيامه ، وغلبت على أمرها ٠٠ حتى اذا التقى ببعض رموزها من الرجال هتف لهم وتغنى ببطولاتهم ، وان خيبوا أمله ، ووقفوا دون غايته ، في كثير من الأحيان ، كأبي العشائر ، وبدر بن عمار ٠ أما سيف الدولة فقد ملأ خياله وأرضى ذلك الشعور الدفين فيه : شعور العزة والكرامة العربية التي داسها الأعاجم بأقدامهم ٠٠ وها هو ينبري لاستردادها منهم ، بالثورة المسلحة ان استطاع ، وبالاثارة وضرب المثل والقدوة ، واحياء القيم والتغني بها وتجسيدها في ذاته ، وقد استطاع الى حد كبير ، رغم طغيان المطامح الشخصية والآنية ٠٠ فقد كان ممتلئا « بالأنا » امتلاء كاسحا سد عليه ، في كثير من الأحيان ، منافذ مشاعره العربية والانسانية الصافية ٠٠ واذا كان بعض المحققين(١) يرد حماسه العربي ، وانتسابه لأجداده العرب ، الى أنه يريد أن يخفي انتسابه الأدنى ، فيعوض بفخره بنفسه وبجدوده العرب ، عن فخره بأبيه وأمه وجديه ٠٠ فنحن نرى ، على أي حال ، ان عروبة المتنبي ومشاعره القومية لم تكن بحاجة الى

(١) انظر كتاب طه حسين : مع المتنبي ص ٢١ وما بعدها .

كل تلك التبريرات نظرا لنشأته الصارمة ومزاجه الحاد ، وكرهه الشديد لكل أعجمي نازع العرب والمسلمين حقهم في الخلافة والسيادة . ومن هذا المنطلق نفهم شعوره بالتوحد والغربة في أمة (عربية) تداركها الله .. لا لكونها عربية ، أو لأنه لا ينتسب اليها .. بل لأنها أمة هانت عليها كرامتها ، وأسلمت أمرها لمن كانوا خدما لها .. أما هو فلا يزال يحمل الحس العربي الصافي والنخوة العربية الأبية .. فلا بد من التغاير والتضاد ، ولا بد من الامتياز .. وحين شتم وشمت ، فما ذاك الا لأنها رضيت بالهوان واستكانت اليه . وها هو يرى بأم العين مشهدا يثير في نفس العربي الأبي مشاعر التقزز والقرف واليأس : رجلان عربيان يتشاجران على « جرذ » مقتول بعد أن سحباه من ذيله الى شوارع بغداد أو الكوفة .. فيهتف وجدانه بألم مرير : يا لهوان العرب ! لقد قنعرا من البطولات الكبرى المأثورة عن آجدادهم ببطولة « قتل الجرذ » أيام انحدروا الى مستوى هذا الحيوان المسكين :

لقد أصبح الجرذ المستغير
أسير المنايا صريع العطب

رمـاه الكنـانـي والعـامري
وتلاه للوجه فعل العرب ! (١)
كـلا الرجلـين أتلـى قتلـه
فأيكمـا غـل حـر السلـب ؟
وأيكمـا كـان مـن خلفـه
فان بـه عضـة في الذنـب !

يا لها من سخرية تلك التي ما نكاد نضحك لها حتى نبكي منها ! (٢)

ويا لهوان العرب ، مرة أخرى ، نرددها مـع المتنبي حين انقلبوا الى أقزام ، في عصر قزم..

تمايز لا شذوذ :

من هنا كانت الغربـة القاسية التي عاناهـا ويعانيها كل انسان متقـدم على عصره ، ابـاء وشموخا ومطامح .. ومن هنا الشعور بالامتياز.. والاحساس العميق بالتغيير تحت أي شعار ، وبأي

(١) قال : الكناني والعامري .. ولم يقل الاعجمي مثلا .. والكنيتان عربيتان كما هو واضح ..
(٢) هتاف مرير منسوب الـى الشـاعر الفرنسي الرومنسي المعروف : الفرد ده ميسيه .

وسيلة ٠٠ قرمطية متطرفة كانـت الوسيلة ، أو شيعية وسطا ، والغاية : اصلاحية شعبية أو شخصية ذاتية ٠ المهم عنده ألا « يتشابه » مع الآخرين ، أو يتماثل ، ففي التشابه في مثـل عصره انسحـاق وانهيار ثم موت بلا قيامة ٠٠

أما « الشذوذ » الذي ينسبه عميد الأدب العربي الى المتنبي ــ الصبي ، فنحن لا نعتبره شذوذا بل امتيازا ٠ يقول العميد (١) : « ان شعور المتنبي ــ الصبي بهذه الضعة ، أو بهذا الضعف من ناحية أسرته وأهله الأدنين ، قد كان العنصر الاول الذي أثر في شخصية المتنبي ، وبغض اليه الناس ،وفرض عليه أن يرى ان حياته بينهم لم تكن كحياة أترابه ، ورفاقه ، وانما كانت حياة يحيط بها كثير مـن الغموض ، ويأخذها كثير من الشذوذ ٠٠ رأى نفسه « شاذا » لأمر ليس له فيه يد ، وليس له عليـه سلطان ، ففكر تفكير الشاذ ، وعاش عيشة الشاذ ٠٠ ثم انضمت الى هذا العنصر عناصر أخرى سيظهرها لنا شعره : فكونت هذه الشخصية التي لم نستطع أن نفهمها ٠٠ ولا أن نحللها الى الآن » ٠٠٠

(١) طه حسين في كتابه : مع المتنبي ص ٢٥ .

لست أدري لماذا نسمي الاحساس المبكر بالامتياز عند هذا « الصبي » شذوذا !

ومتى كان التغاير مع البيئة الفاسدة ، والناس الفاسدين شذوذا ، والتأبي على الحقارة انحرافا ! هل كان يرضي « العميد » لو أن المتنبي ـ الصبي ، خنع مع الخانعين ، وقعد ، في الكوفة ، يسمع من فم السخفاء والأدعياء والمخنثين ، مغامزهم ، في نسبه ، ولا يردها ، بل متى كان النسب الوضيع ، أو المشكوك فيه مدعاة الى السكوت عنه ، وعدم الثورة عليه ؟! وحين يفكر صبي أبي كالمتنبي تفكير الكبار، وتغلي فيه مراجل الأبطال ، فيثور على واقع « ليس له فيه يد » على حد تعبير « ألعميد » ويغادر الكوفة غير آسف حاملا آلامه وآماله العراض ، محتضنا ذاته الى مطارح يراها أرحب وأكثر استعدادا لنصرته وفهمه .. حين يفعل الصبي ذلك نسمي تفكيره شذوذا ؟!...

يكفي أن ينطلق الانسان المميز والرافض الى عالمه الأرحب ، وينأى عن عالمه الضيق لكي يكون انسانا غير عادي ، انسانا ثوريا وانقلابيا ، يريد

أن يحقق ذاته كما يشاء ، وأن يفعل « شيئا ما » من شأنه أن يغير به واقعه ، وواقع الآخرين ..

واذا كان عميد الأدب العربي .. قد تجنى على المتنبي كثيرا حين اعتبره مجرد انسان متقرمط .. يغالي في قرمطيته .. بل رجلا انتهازيا يترجح بين العنف والاسلاس ، وفقا لغاياته الضيقة .. فان عميد علماء النفس « فرويد » يبرر له مسلكه قائلا ما ملخصه : « ان الشعور بالدونية Sentiment de moindre valeur يتولد عند المرء من جراء عملية التنشئة النفسية والاجتماعية الأولى ، أي العوامل التربوية والحضارية ، كأن تتفتح عينا « الصبي » على بيئة فاسدة ، وأبوين بائسين لا يشرفه الانتساب اليهما ، مما يولد عنده دافعا عظيما للعمل وبذل الجهد ، وينمي غريزة التسلط والسيطرة ، والتطلع الى العلو Sublimation ، وعندما يعجز عن اثبات ذاته ، واكتساب النفوذ الاجتماعي الذي يصبو اليه (بسبب عيب ما) فانه يلجأ الى سبل مختلفة من التعويض ، قد تؤدي به ، أحيانا ، الى التفوق والقيام بأعمال جليلة ،وأحيانا، الى أن يصطنع في سلوكه أسلوبا مغايرا .. وأن

يعيش « أحلام اليقظة » وهي أبرز طرق قانون التعويض ·· الخ ·· » ·

وهذا ، تماما ، ما كان عليه المتنبي ، وما حاوله جاهدا ·· فكانت سيرته ، وفقا لمفهوم فرويد ، طبيعية ومنسجمة مع ذاتيته وأهدافه البعيدة ·· أي ان سلوك المتنبي ، من الناحيتين السيكولوجية والسوسيولوجية ، كان طبيعيا جدا ، ولم يكن شاذا على أي حال ··

ونحن بدفاعنا هذا ، عن المتنبي ، قد لا ننصفه حق الانصاف ·· لكننا على الاقل نرد « غزوا » فكريا من قبل طه حسين وأتباعه حين أرادوا أن « يقزموا » التراث العربي بتقزيم نوابغه ·· ها هو « العميد » يريدنا أن نتقبل آراءه ، بتسليم تام ، على أنها بديهيات لا ترد ·· وفي هذا من الخطر على التراث وقيمه الثابتة ما فيه ·· الى جانب روح الهيمنة ، في التقييم ، والاتجاه الاقليمي أو العرقي ، في فهم شخصيات هذا التراث ·· الامر الذي نرفضه رفضا قاطعا ··

يقول نجيب محفوظ : « واذا سلمنا برأي ،

بلا اقتناع أو تفكير ، فهذا غزو ٠٠ واذا أخذنا أي رأي بتفكير واقتناع،فهذه ثقافة مشروعة » (١) ٠

أستاذوه : أين تثقف ، ومن ثقفه ؟

توارد أفكار :

أعرف كثيرين من أبناء منطقتي (٢) ممن كان لهم بعض همة المتنبي وموهبته ، تعلموا على أنفسهم حين حرموا من المدرسة ٠٠ « جمعوا الحـــرف » على السماع ٠٠ التقطوا الكلمات من الطرقات ٠٠ من قصاصات الجرائد والمجلات المهملة ٠٠ وما لبثوا أن اتقنوا لغتهم ٠٠ واستقام لسانهم ٠٠ ثم نطقوا بالشعر ، أو بالنثر ، فأبدعوا ٠٠

المتنبي من بيئة هؤلاء : أبوه سقاء ٠٠ وآباؤهم سقاؤون ، في مجالس عاشوراء ـ أو هم رعيان ، أو فلاحون يملكهم الاقطاعي مع الارض ٠٠ لكنهم كانوا يملكون أن ينظروا الى السماء بعيون صافية

---

(١) نجيب محفوظ : مقابلة مجلة روز اليوسف ـ القاهـــرة عدد ٦ نوفمبر ١٩٧٨ .

(٢) في قرانا الجنوبية ، قرى جبل عامل اللبناني .

مستشرفة .. يملكون أن « يدبكوا » ويغنوا ..
ويتكاثروا .. لياتي « آحمدهم » الموعود ، على
غرار أحمدنا ، يريد أن يتعلم .. أن يثور على
أوثان أبيه .. ثم يستشهد .. فداء القضية ..
ولتكن همته ، ونهمه الى المعرفة ، وكرامته زاده
وسلاحه الوحيد .. هذا ، والا فاستشهاد من نوع
آخر : « يتغرب » الى افريقيا : بادية سماوه جديدة
يهاجر اليها «لا|مستعظما غير نفسه .. ولا قابلا الا
لخالقه حكما » .. أحمدنا هو ابن الحسين في الكوفة،
ثم في بغداد ، ثم في البادية ، ثم في الطواف حول ..
المجد .. وأحمدهم (الجنوبي) هو أيضا ابن ..
الحسين .. في جباع وشقرا والنبطية وصور
والمجدل وخربة سلم وبنت جبيل (١) .. وشقيقات
لها كثيرات ..

---

(١) اسماء مدن وقرى في جنوب لبنان انجبت عددا مرموقا من الادباء والشعراء والعلماء والشهداء ، الذين وهبوا شاعرية المتنبي ، وفدائية الحسين ، وبلاغة علي ، واشتراكية ابي ذر . وها هو المجلس الثقافي للبنان الجنوبي يقود عملية احياء تراث هذا الجنوب اللبناني العربي الخصب ، وذلك بجمع الكتب والموسوعات والمخطوطات التي انتجتها كفاءات ادبية وعلمية وفلسفية من ابنائه ، في الماضي والحاضر ، فأنشأ ، في مركزه ببيروت ــ مكتبة « جبل عامل » لهذه الغاية . (وجبل عامل اسم اخر للجنوب اللبناني نسبة الى قبيلة عامل

اسمان متشابهان ، في لا وعي الزمان ، طوافا حول المجد ، والشهرة ، وتحقيق الذات ، وتحرير الكيان ..

متلازمان همة وطموحا وشاعرية ، وقضية !
وللجنوب اللبناني في كل عهد وعصر قضية .. وما أشبه الليلة بالبارحة ! على أن المتنبي كان أوفر حظا : وجد له أبا وجدة يدخلانه « المكتب العلوي » في الكوفة ليتعلم ، ويوجهانه الى العلماء والوراقين ، وما أكثرهم في الكوفة والبصرة ! وما أندرهم في الجنوب الذي فرضت عليه أيام الاستعمار العثماني عزلة ثقافية رهيبة .. وسيم أبناؤه اضطهادا عرقيا ومذهبيا لا مثيل له ..

التهمت ذاكرة المتنبي كل ما سطر في أوراق الوراقين « وكان علمه من دفاترهم (٢) » . ومعنى هذا ان موهبة المتنبي كانت أستاذه الأول قبل الأب

= او عاملة الغربية التي نزحت اليه ، قديما ، واستوطنته بالاضافة الى ما يقوم به رئيس المجلس الاديب المعروف الاستاذ حبيب صادق ورفاقه من نشاطات اخرى : كاقامة المحاضرات حول الجنوب والمعارض والندوات الخ ..
المؤلف

(٢) على حد قول الخطيب نقلا عن التنوخي عن ابي الحسن محمد بن يحي الزيدي .

وقبل الجدة ·· أما أستاذه الثاني فقد كان أبو الفضل : أحد متفلسفة الكوفة · قالوا : « وهوسه وأضله كما ضل ·· » (١) بدل أن يقولوا : فتح ذهنه ونمى فيه تساؤله وشكه · وقد نشأ هذا الفتى الطلعة شاكا ومتسائلا باستمرار حين جابه واقعا مؤلما ، وواجه عصرا من أعقد العصور ، وأكثرها تناقضا في كل شيء ، وأشدها فسادا في القيم والدين والاخلاق ·· وتكر سبحة « الأساتذة » الذين أتيح للمتنبي أن يختلف اليهم ويأخذ عنهم · وهم : اللغويون ، من أصحاب المبرد ، كالزجاج ، وابن السراج ، والاخفش الاصغر · ومن أصحاب ثعلب ، قرأ على أبي موسى الحامض ، وأبي عمر الزاهد ، وأبي نصير ·· ومن أصحاب السكري ، تتلمذ على نعطويه ، وابن درستويه / ثم أسعفه حظه فأتاح له لقاء « خاتم الأدباء ، وبقية النجباء ، عالم عصره ابن دريد (٢) » فأخذ عنه · ثم عن تلامذته : أبي علي الفارسي ، وأبي القاسم البغدادي ، وأبي

---

(١) للتفصيل انظر كتاب : ذكرى ابي الطيب بعد الف عام ط٢ ص ٣٩ — عبد الوهاب عزام — دار المعارف بمصر ١٩٥٦ .

(٢) المصدر نفسه ص ٤٣

عمران موسى . وهكــذا عاش الفتى مع اللغــة والأدب والفقه ، في أرقى مظاهرها ، وأنبغ ممثليها .

وقبل أن يتوفى أبوه رحل به الى دمشق وبادية الشام ، هربا من هجمات القرامطة على الكوفة ، وردده في القبائل « فلم يزل ينقله من باديتهــا الى حضرها ، ومن مدرها الى وبرها (١) » حتى برع الابن النابه باللغة والشعر براعة قل نظيرها ..

أولئك جميعا هم أساتــذة المتنبي ومدربوه . وتبقى نفسه التواقة أستاذته الأولى والاخيرة ..

شاعر السفر : أو الطواف حول المجهول :

لأول مرة ، على مدار العصور العباسية كلها ، نجد شاعرا لا يقر به قــرار ، ولا « يتوظف » في بلاط خليفة ينقطع اليه مجترا أيامه ، وكلماته ، وصوره ، كالمتنبي . فتارة هو في الكوفة ، وتارة في بغداد ، سرا أو علانية ، وأخرى في الباديــة ، ورابعة في البلاد الشامية : دمشق ، اللاذقيــة ، أنطاكية ، حمص ، اللد ، الرملة ، طبريا ، حلب ،

---

(١) على حد ما جاء في اليتيمة للثعالبي .

جبل لبنان ·· وخامسة في الفسطاط بمصر ·· ثم في دمشق من جديد ، والكوفة ، وبغداد · وأخيرا في بلاد فارس : ارجان ، الري ، شيراز ·· ثم في دير العاقول ·· وبعدها على القمة ·· أما الغاية من كل ذلك الطواف ــ القسري حينا والطوعــي أحيانا ــ فلم يفصح عنها تماما ، وان كان قد أفصح عنها ، سلما ، حين ادعى النبوة بين قبائل بني كلب ، وحربا ، حين جيش ما استطاع من القرامطة وزحف بهم باتجاه حمص · ثم أفصح عنها عند كافور فاذا هي « ضيعة أو ولاية » فهل كانت حقا ضيعة أو ولاية ؟ أم أنها ثورة بالمعنى الصحيح وخروج على السلطان الجائر أيام غليان الفتوة ؟ حتى اذا اختبر الأيام وتقدمت به السن « وتكسرت النصال على النصال » تقلصت الغاية وأصبحت لا تنال من أمثال كافور الا وعودا عرقوبية بضيعة أو ولاية ؟! انه القدر الغلاب حين يقزم العظيم فتتقزم الغاية · أما سيف الدولة فقد سد عليه منافذها وأنســاه اياها يوم تلاقى الند بالند ·· فاكتفى بالتلميح ــ أحيانا ــ دون التصريح :

يقولون لي ما أنــت في كــل قريــة

وما تبتغي ؟ ما أبتغي جل أن يسمى ··

ونحن نقول ان من كان في مثل همة المتنبي ومطامحه تقصر لديه الغايات والمسافات مهما كانت ويبقى هو الغاية والقدوة ·· والمدار ·· وحين يصل الشاعر الكبير الى غاياته المادية تموت على شفتيه الألحان وتجف ينابيع الشاعرية ويقتل الانسان فيه ·· وخير له ولنا ألا يصل ·· ليبقى لحنا شرودا ونفسا محترقة في أتون الآمال غير المحققة ·· أو ذاتا لاهثة ــ على الدوام ــ وراء المجهول ··

وها هو يصور لنا نفسه على حقيقتها : لا يكاد يخرج من معركة ·· حتى يدخل في معركة ·· ولا يقيم في مكان حتى يغادره الى مكان آخر « ينبت العز » أكثر من غيره وهكذا :

أوانا في بيوت البدو رحلي
وآونة على قتد البعير

أعرض للرماح الصم نحري
وأنصب حر وجهي للهجير

وأسري في ظلام الليل وحدي
كأني منه في قمر منير

ففي وهم المتنبي وحدسه أن الدنيا عراك وجلبة وضجيج ودماء ·· لمن كانت له مثل غاياته في مثل عصره ·· والقدر ·· والزمان ·· والأوثان ·· كلهم وقود ثورته وتحت رحمة مثقفه ···

أما أبعاد غاياته فيبدو انها خارج نطاق البعد الزماني ·· فليحطم هذا البعد اذن لينفذ الى عالم الأسطورة :

ولو برز الزمان الـي شخصا
لخضب شعر مفرقه حسامي ···

والصبر ـ كالاستقرار ـ لا يطيقه ·· لأنـه تمدد في الزمان واسترخاء ضمن اطاره ·· لذلك نراه في انتفاضاته الأولى يحطم الاطار ليخرج شاهرا سيفه :

لقد تصبـرت حتـى لات مصطبـر
فالآن أقحـم حتـى لات مقتحـم
بكـل منصلـت مـا زال منتظـري
حتى أدلت له مـن دولـة الخـدم

وفي وهم حلمه ، أو حلم يقظته ، انه أدال من

دولة الخدم ·· وغير واقع الحال ·· وأعاد للعرب المستخدمين كرامتهم في دولــة يرئسها أمثاله ·· لا أمثال ذلك الخليفة ــ الخادم ، القابع في بغداد ·· هذا والا :

فالموت أعذر لي ، والصبر أجمل بي
والبر أوسع ، والدنيــا لمن غلبــا

هناك يصبر الصابرون بعد الجهاد والاستشهاد لا قبلهما ·· ويحققون النعيمين ·· أما العيش بين أصنام الدنس والهوان فخير منه الموت ولكن بعد تطهير الارض من رجسهم :

ما زلت أضحــك ابلي كلما نظرت
الى مــن اختضبــت أخفافهــا بــدم
أسيرهــا بــين أصنـــام أشاهدهــا
ولا أشاهد فيهــا عفة الصنــم ··

وفي غمرة حماسه ويأسه ، وايمانه بأن السيف وحده هو السيد في دولة الكرامة والمجد يعلن كفره بدولة القلم والشاعرية ·· تلك التي أغناها ·· والتي لولاها ولولا نبوغه فيها لما خلدته الأيام :

حتى رجعت وأقلامي قوائل لي

المجد للسيف ليس المجد للقلـم

اكتـب بنا بعـد الكتاب بـه

فانما نحـن للأسياف كالخـدم

هنا يصور المتنبي « حالة » ولا يسجل موقفا ٠٠ فيبدع ٠٠ ونتراجع نحن حيال هذا الابداع عـن محاكمته ٠٠ ولومه ٠٠

مجالات الغاية الكبرى :

كانت سوريا أو البلاد الشامية ، مسرحا لتطلعاته وثوراته ـ باعتبار المتنبي في ثورة دائمة مع ذاته وعصره ـ فهو اذن شاعر سوري عيشة ومعايشة ، وصراعا ، وملاعب طموح ، ومطـارح غايات ، ومنطلق شاعرية ٠٠ وان كان عراقي النشأة الأولى٠ أمضى في الديار الشامية ، ثائرا وشاعرا ، ثلاثـة أرباع عمره : أهرق على سفوحها دم الجهاد ٠٠ وفي القلعة الحمراء وساحات حلب ، وبين يدي سيـف الدولة غنى البطولات العربية بأرقى وأصفى شعر الملاحم ٠

وهو شاعر العروبة الاكبر ، يوم سبقته شهرته

ـ بعد نضجه في سوريا ـ الى سائر الاقطار العربية الموزعة دويلات ، دويلات ٠٠ فكان مغني الآمال والآلام العربية الأوحد ٠ يحمل وحده هم ذاتـه وغاياته ، وهم العرب جميعا ٠٠ يرافقه ، دائما ، حس عربـي صـاف ، يدفعـه باستمـرار ، الى الاستنهاض ، ورفع الحيف عن نفسه وأمته ٠ ودع عنك ما وقع فيه من تناقض بين الغاية والواقع ، بين الرجل والشاعر ٠٠

حبه للكتب والمال :

علمنا كيف التهم المتنبي الفتى دفاتر الوراقين ، وأوراق العلماء التهاما غريبا ، وأتى على ما فيها من لغة وأدب وفقه وعلم وفلسفة وتصوف ٠٠ ثم تمثلها جميعا ٠٠ فظهرت آثارها في شمولية ثقافته وتعددها ، واتساع أغراض شعره ، وعمق معانيه ومراميه ٠٠ فكان طبيعيا أن يصبح الكتاب أنيسه وجليسه ورفيقه ، الى جانب حصانه وسيفه :

أعز مكان في الدنى ظهر سابح
وخير جليس في الزمان كتـاب

تلك كانت عدة الشعراء الفرسان ٠٠ فكيـف

بالمتنبي الذي يريد أن يبذ الآخرين ويمتاز عليهم ويقارعهم بهذين السلاحين الماضيين •• وأول كتاب حمله ديوانه الذي كان يدونه على أوراقه قصيدة قصيدة ، بعد أن ينقحها ، كل ليلة ، ويعرضها على من يثق بهم من الاصدقاء والعلماء • كما كان يحشد في خزانته كتبا وأوراقا مخطوطة يحملها معه أينما ذهب •• لذلك كان موكب رحيله يشكل قافلـة مثقلة بكل نفيس من كتب وأموال وهبات ثمينة • وقد بدا حرصه واضحا عليها جميعا •• وحق له ذلك بعد طول فقر وتشرد •• لأن من كان يعيش مثله في عصر « الجيف الطافية » على حد تعبيـر ابن الرومي ، والتي لها أن تكتنز الاموال وتحظى بالجاه •• و « للدر » أن يموت فقرا ، أو « يباع في سوق الكساد » جدير بأن ينتزع الدينار ممن لا يساوي دينارا •• ثم يحرص عليه حرصه على نفسه :

ولا مجد في الدنيا لمن قل مالـه
ولا مال في الدنيا لمن قل مجده !

هكذا كانت دنياه •• فليتعامل معها على هذا الأساس •• ما دام المال هو وسيلة الفارغين الى المجد

الكاذب . فليكن المال وسيلة « الممتلئين » أمثاله الى المجد الحقيقي (١) ..

من هنا كان حرص المتنبي على المال ، لا بخله .. فليس البخل أو الحرص من طبع الشعراء .. الا اذا دفعوا اليه دفعا .. وعلى أي حال ، فنحن ـ هنا ـ لا ننصب أنفسنا محامي دفاع عن المتنبي الرجل العادي الذي يتصرف ، اجتماعيا واقتصاديا ، كغيره من العاديين .. بل نحن بصدد اكتشاف الشاعر في المتنبي اللاعادي ، والمغاير ، والمميز ، والصراعي الانقلابي .. حتى اذا استطعنا أن ندخل « عالمه » المهيب أدهشتنا رؤاه وأحلامه وصوره .. وشعره

---

(١) وهناك مشهد اثر فيه اثناء يفاعته رواه الكثيرون ، وملخصه : انه راى وهو في الكوفة بائع بطيخ ، فطلب ان يبيعه « راسا » بأربعة دراهم ، كانت كل ما يملكه الفتى .. فنهره البائع ومنعه .. وبعد قليل نادته خادمة احد الامراء من شرفة قصر ، فهرع مع بطيخه كله ووضعه بين يديها ، ثم قفل راجعا دون ان يقبض الثمن .. تعجب المتنبي وقال للبائع : انا ادفع نقدا ، وصاحب القصر لا يدفع شيئا .. فأجابه البائع : صاحب القصر يملك اربعمائة الف الف درهم ، وأنت لا تملك سوى اربعة دراهم ... وسواء كانت الرواية ملفقة او صحيحة فان امثالها كان يقع في مثل عصر المتنبي .. بل ادهى منها وامر .. (مع التصرف بما رواه البديعي في الصبح المنبي ص ٨٣) .

كله يحمل عنصر الدهشة والمفاجأة ·· ووقفنا مذهولين أمام تلك الشاعرية العملاقة ، التي انتصبت وحدها ، في ذلك العصر،وعلى مدار عصور عديدة ، مشعة متألقة ، وبوهج حارق خارق ·· حتى اليوم ·· نعود الى حبه للكتب ، وشغفه بالمطالعة ، والاستزادة من المعرفة ، لنجد المتنبي « الذي لم يكن صاحب لهو وعبث » ميالا الى ملء فراغه بمطالعة الكتب يمضي معها أكثر لياليه ، منقبا مستزيدا (١) ، لا سيما في حلب التي كانت ، أيام سيف الدولة ، ناديا كبيرا من نوادي الأدب والشعر والنقد ، والثقافة على اختلاف ألوانها · فكان على المتنبي أن يبرز فارسا من فرسان النقاش العلمي واللغوي والادبي ، ورد الاتهامات ، ليملأ ، بكل هذا ، عين صاحب النادي ، كما ملأها ابداعا شعريا ، ويستقطب اعجابه ·· خاصة وأن سيف الدولة نفسه كانعالما ومتفلسفا وراوية وذواقة(٢) فلا يجوز لشاعر البلاط الحمداني الأوحد ، أن ينقلب مجرد مستمع حين تدار أحاديث اللغة

---

(١) مع المتنبي ص ١٨٥ ·

(٢) المصدر نفسه ص ١٨٥ ولا يستبعد مؤلف الكتاب ان يكون سيف الدولة ملما باللغة اليونانية الماما كثيرا او قليلا .. ومتقنا للغة الفارسية كذلك ..

والبلاغة والعلوم على اختلافها من فقه وحديث وفلسفة وتصوف • يجب أن يسهم مع المسهمين ، ويمتح مع الماتحين •• بل أن يكون متفوقا في كل حين •• وهذا ، بالفعل ، ما قام به شاعرنا أحسن قيام •• فأخصبت ثقافته ، وأمرعت ، ونضجت شاعريته ، ونضحت بالكثير من معطيات وتأثيرات تلك الثقافة المكثفة ، مضافا اليها تأثيرات ذلك الجو البطولي الملحمي الذي كان يوفره القائد العربي للشاعر ، كلما قام بغزو ، أو رد غزوا •• وهكذا تلاقى الندان : أميري بطولة شاعرة ، وشعر بطولي ، وكان جمع المال ــ المكافأة ، أو السخاء به أدنى غاياتهما :

ان هذا الشعر في الشعر ملك
سار ،فهو الشمس،والدنيا فلك
عدل الرحمن فيما بيننا
فقضى باللفظ لي، والحمد لك
فاذا مر بأذني حاسد
صار ممن كان حيا فهلك ••

شاعريته :

قلما اجتمعت الشاعرية الدفاقة الى الشخصية

المتعالية التواقة ، في شاعر ، مثلما اجتمعت في المتنبي الذي لا نستطيع بحال من الاحوال أن نفصل فيه بين الانسان الاجتماعي وبين الشاعر . كما استطعنا ذلك مع ابن الرومي مثلا .. ولعل الانسان الشاعر في المتنبي كان حصيلة بروز الانسان الرجل فيه .. الانسان الصدامي المغاير .. حتى الضجيج الموسيقي الصاخب ، والنشيج الكئيب المتمرد في شعره نابع من أغوار نفس أصيبت منذ كانت ، عفوا ، تميزت منذ كانت بمركب العظمة والشعور بالامتياز ، زاد من حدتهما عصر هو من أسوأ العصور العربية من حيث النظرة الى مثل شخصية المتنبي ومطامحه .. لذا شب على صراع دائم مع العصر بشخصية لا تعرف الهدنة ، أو الراحة ..

وقلما نشأ بين الشاعر الطليعي وعصره سلام دائم .. لأن الشعر الطليعي المتقدم كشف وريادة وتغيير ورؤية مستقبلية تهزج بالأفضل والاجمل من الحياة .. فكيف بالمتنبي المتخطي واللامهادن ! وكيف بعصره الفاسد ومجتمعه المقلوب ، قيما ومؤسسات ومفاهيم !! من هنا تنشأ الغربة ، ويتم الصدام بين عالمين متضادين هما في الواقع عالم واحد بوجهين مختلفين : وجه مرئي مكرور يحياه الناس

على علاتــه ، ووجــه غير مرئــي يــراه الشاعر الاستشرافي بكل توهجه وجماله وبراءته فيلونـه ويصوره ويحلم به ، ويدعو اليه •• وويل للشعراء المتقدمين حين يحلمون في عصر متحجر ، وعالـم لا يحلم •• عالم يقذف بين شدقي الحياة والموت ولا خلاص •• ولا وعد بخلاص •• لكن هذا الويل كثيرا ما انقلب على يد كبــار الشعراء الى خــير للانسانية عميم ••

شعر التمرد والرفض :

المتنبي أمام العالم الهرم قابض على بقايــا جمرات هذا العالم الخابية المغطاة برماد كثيف •• مقتحم لدائرة اللهب المتوقد تحتــه •• وكمزمزم مجوسي دار حولها ، ودار ، ثم اخترقها كالسهم الى الجانب الآخر •• معلنا انتصار الذات على الرماد على عدمية الوجود •• مشعلا من جديد جمرات العالم الهرم •• علها تتوهج ـ كما يريد ـ وتلتهب لكنها سرعان ما تخبو أو تختبيء تحت الرماد •• فالرماد أصبح من طبعها وطينتها ••

وتراه بعــد كل اختــراق يزمزم وحــده ••

وبدمدمة متصاعدة يعيد تنظيم العالم من جديـد برؤيا جديدة ·· موحدا بين عالم يرفضه وعالم يقبله ، ويحلم به ··

أما انكساراته وانحناءاته أمام العالم المرفوض فانكسار مطاوع ·· وانحناء مرن ولكنه ساخر ·· مهادن ولكنه غير عاجز ·· التوقف عند المتنبي ، استراحة محارب ·· معاودة تقويم ·· مراجعـة حسابات ·· التقاط أنفاس ·· مهماز انطلاق ، واختراق ، ومحاولة ·· ثم وثوب :

ـ فلا مبـــال ، ولا مـــداج ولا
وان ، ولا عاجز،ولا تكلة ··

ـ ولما صار ود النـــاس خبـــا
جزيت علـــى ابتسام بابتســـام

فان أمرض فما مرض اصطباري
وان أحمـــم فمـــا حم اعتزامي

فربتما شفيـــت غليـــل صدري
بسير ، أو قناة ، أو حسام ··

تحفز دائم حتى في صميم المرض ـ في مصر ـ

والأسر ·· (١) تلك كانت ، في مصر ، احـــدى انحناءاته ·· غير أنه تجاوزها ·· بعد معـــاناة وتصميم هائلين ·· حتى في هربه كان منتصرا ·· حين غنى معه حريته المستعادة ·· ودق النفير من جديد ·· وهذا معناه انـــه ظـــل محاورا لنفسه مناجيا لها ، عائدا الى أحضان ذاته ، بعـــد كـــل انكسار ، مستوحيا ومستنجدا ·· ولم تكن ذاته لتبخل عليه بكل ما أراده منها ·· وتنتخي شاعريته في كل موقـــف عصيـــب لتنطـــق عـــن الـــذات ، في ضجيج تصاعدي يتجاوز حدود الغاية ، ليلتقي ، على مشارف المستحيل ، بالحلم الكبير ·· ويلقي على مسامع الزمن نشيد الأناشيد : ان لا حـــدود للطامحين الأباة ·· وان هذا العالم الهرم غير صالح الا لحوافر خيولهم ·· وان العـــالم الحقيقي هو عالمهم الابدي الهازىء بلعبـــة الحياة والمـــوت ·· المتخطي للزمـــن القزم ·· الساخر من المتأطرين ضمنه ·· القاهر للعدم ·· والمنتصر أخيرا على الحياة كما هي في حدود الزمان والمكان ·· المبشر بحياة هي خارج الزمان والمكان ·· وعلى حد تعبير

(١) كان كافور قد منعه من مغادرة مصر .. وفرض عليه ما يسمى اليوم بالاقامة الجبرية ..

الشاعر الطليعي أدونيس: « شعر المتنبي وهو يتجهان صعدا في آفاق العظمة ، دون أن يبلغا عظمة أخيرة يرتاحان اليها ، ويقفان عندها • هكذا تبقى الحياة ، بالنسبة اليه ، شروعا دائما •• » (١) •

وشعر المتنبي ، الى هذا ، هندسة جديدة للعالم رائدة في خرائطها وتصاميمها ، تكشح النوافل •• تهزأ بالمهندسين التافهين المقلدين •• وبجرأة المهندس الرائد بنى عمارة للعالم غير محدودة الطبقات •• وفي كل طبقة « أوكسترا جاز » صاخبة لا سيما في الطبقات الأولى والوسطى •• أما في الطبقات العليا فأنت تسمع موسيقى « سلو » خافتة، منبعثة من سمفونية خلت من الصخب والنشاز والضجيج •• ولكن رنينا مرجعا ، يشبه الصليل ، لا يفتأ يتصاعد منها •• ذلك لأن شاعرية المتنبي نسغ نابض ، على الدوام ، وليست مجموعة أحاسيس تتعامل آنيا مع « المشهد » الخارجي •• ثم تخور بعد كل شبع لتعاود الاشتهاء •• شيمة ابن الرومي (٢) أمام المغريات الجمالية كالضم

---

(١) ديوان الشعر العربي ــ الكتاب الثاني ص ٢٠ .
(٢) انظر كتابنا : ابن الرومي او الاحساس الفاجع بالغربة الصادر عن دار مكتبة الهلال ١٩٨٠ بيروت .

والشم والتقبل والتقبيل ، والتهام « مواد » الجمال الحسية .. بل هي تعبير متوتر عن جزء حي من كيان يمسك دائما بناصية « البشاعات البشرية » . كالعجز والتواكل والجمود فيحولها الى امكان .. الى عملية احياء وتصحيح لمعطيات وقيم اجتماعية مزورة .. ترفض نفسها وتتعرى ـ بعد كل عملية ـ متمنية لو تظل على شفة المتنبي غناء ، أو حداء ، أو فلسفة ..

ولعل « المتنبي » هذا اللقب ، أو البيان الثوري ـ كما سميناه سابقا ـ قد منح صاحبه رمزا أو ايحاء ، لما يجب أن يتنبأ به الشاعر من عوالم ورؤى ، وبطولات أسطورية ، وامتيازات ، كانت كلها من وحي النبي فيه الذي حمل رسالة الكلمة العربية الأبية الضاجة ـ كذاته ـ المحملة بوهج الذات ، وصليل الطموح ، الى درجة الصراخ في وجه الرعونة ، والجمود ، والضياع التي أصبحت صفة ملازمة ، أو حالة ، للانسان العربي في عصره فلم يعد انسانا ، في نظره ، بل انقلب امعة « لوثن » أو وقودا لطامح أجنبي ، أو سلعة تباع وتشترى . أصبح صغيرا « وان كانت له جثة ضخمة » (١)

(١) الديوان ١ ص ٢٣١ .

وحقيرا أحقر من ذبابة •• ودهر ناسه ناس صغار
وان كانت لهم جثث ضخام •• نحن مع شعر المتنبي
نفاجأ ، دائما ، نهتز ، نثور ، نعيد المعادلة معه ••
نثور •• نسخر مــن عالم نحن فيــه لا شيء ••
منجذبين الى عالم هو فيه كل شيء •• نحن مــع
شعره في حالة تأهب ، ومجابهة ، ورفض ، وسخرية،
وتألم •• وأحيانا في حالة مجاهدة ، ومكابــدة ،
واستنكار •• واستجماع قوى للوثوب •• مثلــه
أو نكاد •• على عالمنا المهترىء ، وقيمنا المشوهة ،
الممسوخة •• ويبقى المتنبي أمامنا •• سابقا لنا
بأشواط ، متوحدا في ملكوت التعالي والشموخ ،
يعيينا السير في ركابه •• ننظر الى ملكوتــه أو
مملكته ، من عالمنا الترابي ، ولا نستطيع اللحاق••
لكن شعاعا آسرا وهاجا يظل يشدنا اليه ، ويصلنا
به •• وشاعريته المتألقة ، وذاته الطاغية همــا
مصدر ذياك الشعاع •• وما من شاعر « يرغمك »
على حبه حبا عقلانيا كالمتنبي •• بعد جدل تبريري
لكل موقف من مواقفه •• فهناك شيء من السحر
والشعر •• في شخصه •• يسمو بك عن كل موقف
مضاد •• تجاه تهافته ، أحيانــا ، وسقوطه ••
لأنك حين تستطيع أن تدخل محراب ذاته وشاعريته

لا تملك الا أن تدهش ، ثم تعجب ، ثم تنسى كل شيء ...

مهماز الشاعرية :

شاعرية المتنبي فجرها « السفر » في الارض ـ كما ألمحنا ـ والغربة عن الناس ، كما هم ، الى الناس كما يحب أن يكونوا .. بل هي نتاج خيبات السفر وترجحه في غربته بين ألم وأمل .. ونزوحه الشديد الى عدم « الاعتراف » بالفشل .. ونهوضه من بين « الرغام » لمعاودة السير بين الركام و « الطغام » .. محكوما ، على الدوام ، بعقدة الوصول .. ولا وصول .. والعظمة .. ولا عظمة تتجسد في غاية .. أو غاية تعكس بصيص عظمة !. من هنا تفجرت شاعريته ، وانهمرت في غنائية رائعة موصولة بين نشيد ، ونشيج .. هما قوام ملحمة خالدة : ملحمة الفجيعة بالآمال الضائعة .. والمطامح التي لا حدود لها .. يحملها شاعر عربي أصيل .. مات الجميع .. أما هو فانه يولد عندنا كل يوم .. وحتى حين لم يسافر في الارض كان المتنبي في سفر دائم في نفسه ، في آفاقه ، في أعماقه .

المتنبي والآخر :

المتنبي « خليله نفسه » (١) ٠٠ ورفيقه ذاته ، ونسبه يبدأ به ٠٠ وظهيره مثقفه ، وكتابه ديوانه ، لا أحد فوقه ٠٠ والكل تحت ٠٠ حوافر حصانه ٠٠ ودون همة انسانه وبيانه ٠٠ في عصر امحت فيه « الجماعة » وغاب الآخر ٠٠ وسادت « الفردية » فحق للمتنبي أن ينفرد ، ويحتضن ذاته ٠٠ وينطلق منها اليها ٠٠ ويحلم بدويلة الافراد ٠٠ وفي احتضان الشاعر لذاته وتأبيه كان يحيي « الانسان المتفوق » فيه ٠٠ الانسان فوق العادي أو « السيبرمن » ولكي لا يدعه ينحدر الى العادي ٠٠ أو يتقوقع داخل نفسه كالشرنقة ، راح يفتش لها عن نظير خارج الذات ٠٠ ومن هنا كان اتصاله بالآخر ٠٠ لا ليذوب فيه ٠٠ بل ليتعاونا على خلق « السيبرمن » العربي المفقود ٠٠ ولكن هيهات ! وأعياه السفر حين لم يجد ذلك النظير ٠٠ وحين وجد بعضا منه في سيف الدولة هتف له من الأعماق ٠٠ وغنى كما لم يُغن من قبل ٠٠ ولا من بعد ٠٠ خف التكلف في « سيفياته » بل امحى ، وبرز الصدق

---

(١) الديوان ص ٣٥٩ ٠

وحرارته ،والعفوية ووضوحها ،والاصالة وعمقها، كما خفت البداوة وجفافها ، حين لم يعد « الآخر » شيئا منفصلا عن الذات ·· والحلم أصبح فلذة من كيان ·· وانقلب سيف الدولـة ، مـن موضوع خارجي ، الى أفق ·· الى امتداد نفسي ·· أو مرآة تعكس بصفاء وشفافية ، كل سمات الشاعر وصفاته وأحلامه ·· وهكذا غاب البطل ـ الشخص ليبرز البطل الاسطورة ـ لم يبق من سيف الدولة علي بن حمدان سوى ظلاله ورموزه وملحمية بطولاته ·· وكلها من صنع الشاعر ، وبالنتيجة ، لم يبق سوى المتنبي ··

هذا الآخر الغريب الأثير ، ذاب أو كاد ، تحت وهج المتنبي ·· فكيف بالآخر البعيد الحقير !·· حقا لقد كان المتنبي ، كما قال عنه شارح ديوانه ابن جني : « فلم يزل في زمانه وحده ، بلا مضاه يساميه ، ولا نظير يعاليه ، ولا يواضح نفســه الا نفسُه ، ولا يتوجس الا جرسه ·· » وهذا معناه ، في نظرنا ، فرادته في الشعراء ، وريادته في المحدثين وتقدمه على عصره بأشواط ·· وهكذا وجدناه مع الآخر ، « لا يواضح نفسه الا نفسه » ·· حـين

يرتقي هذا الآخر الى أن يصبح جزءا هاما من تلك النفس ..

وقد يكون « الآخر » في لا وعي الشاعر ، « شيئا » أو رمزا ، أو معنى كالقلق الصديق ، والحلم الرفيق ، والمفازة الأليفة ، والحرية الحمراء المشتهاة .. والموت ـ الخلاص .. ولكن بكبرياء تسحق اللعبة وتتجاوزها الى الخلود :

تمرست بالآفات حتى تركتها
تقول أمات الموت أم ذعر الذعر ! (٢)

المتنبي والمرأة :

نأسف أن نسجل على المتنبي جفاف نظرته الى المرأة .. ان لم نقل ضعفها وتناقضها .. ويبدو ان حس البداوة الذي طبع حياته وتصرفاته ، كان وراء تلك النظرة التي أقل ما يقال فيها أنها ليست

---

(١) تاريخ النقد الادبي ، لاحسان عباس ص ٢٧٩ .
(٢) تمرس به تحكك . يقول : تحككت بالافات في الاسفار والحروب ، حتى تعجبت من سلامتي ، وثباتي بينها ، وقالت : هل مات الموت ، ام خافت المخاوف ، فان هذا الرجل لم يصب ، ولا جبن عن الاقدام : شرح اليازجي . انظر الديوان ١ حاشية صفحة ٣٦٩ .

حضرية أو حضارية ·· فقد اختفت فيها القيم المدينية الحديثة القائمة على اعتبار المرأة محورا وأساسا فاعلا في المجتمع ·· لا كمية مهملة، أو سلعة ، أو وسيلة متعة عابرة ·· حتى في عصره ··

هنا ، لا أرى في المتنبي سوى ذلك الفارس الجاهلي الذي تطغى عليه فرديته ، وتغور في كيانه امكانية التحسس باعتبار الجماعة ·· وشفافية الجمال ، ومقدرة الجميل على الايحاء ·· فلا يرى في الحبيب سوى جسده ، يرتوي منه لتكتمل به بطولته ، وتتم له الممارسة والامتلاك ·· في كل شيء ··

حتى ان الشاعر الجاهلي والاسلامي توقف عند المرأة ، وعبر عن مشاعره تجاهها ، وسما بها — أحيانا — الى درجة العذرية ، والتقديس ، واعتبرها جزءا هاما من حياته ، أكثر بكثير مما توقف عنده المتنبي ··

ولعل حالة نفسية معينة كانت تلح عليه وتدفعه في ذلك الاتجاه ، مضافة اليها تلك «الجفوة البدوية» التي ميزته ·· عنيت بالحالة النفسية تلك التي

ولدتها سيرة الأبوين ·· ولا سيما الأم ·· التي صمت المتنبي عن ذكرها صمتا كاملا ·· ولم يذكر سوى أمه ·· أي جدته التي كفلته ·· ذكرها حين ماتت « سرورا به » كما تقدم ، ورثاها بايجاز كلي ·· وباستعلاء واضح :

ولو لم تكوني بنت أكرم والد
لكان أباك الضخم كونك لي أما ·· (١)

وهذا ما أورثه ألما دفينا انطوى عليه ، وحاول جاهدا أن يكبته ، وأن يخفي أسبابه ، بالتسامي ، والبطولة ، والشعر ··

وما مرت المرأة ــ الأم في كيانه ، وعلى لسانه ، الا كانت الجدة هي المقصودة ·· أما الأم فدونها ألف حجاب ··· وهكذا : جفوة عن المرأة ·· وجفوة عن الرجل ·· وتوحد ·· واستعلاء ·· غير ان قلب المتنبي وان أصبح ، بعد هربه من مصر ·· « صخرة لا تحركها تلك المدام ولا هذي الأغاريد » على حد قوله ، فقد خفق للحب ، في يوم من الأيام ،

---

(١) لتفصيل ذلك انظر كتاب : مع المتنبي لطه حسين ص١٧ .

ولكن على استعلاء واستحياء وحذر .. وذاق حلوه ومره ، حين كان في البادية ، الا أن همة الفتى صرفته عن ذلك الى غايات أخرى .. ثم خفق قلبه ، مرة ثانية ، بحب خولة أخت سيف الدولة ، على ما يرجح الثقاة (١) ، ولكنه كان حب اعجاب متبادل ، أكثر منه غراما .. ولعله تحول الى غرام مكبوت ، لم يسمح الموقف الحرج باعلانه ، ولا سوغته مشاعر التقدير للأخ الشقيق .. فظل دفينا ومات مع خولة ، ثم مات مع المتنبي بعد أن نمت عليه دموعه في رثائه لها ، وفي القصيدة التي مطلعها :

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر
فزعت فيه بآمالي الى الكذب
حتى اذا لم يدع لي صدقه أملا
شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

نجد الاعجاب يغلب عليه الحب .. لكن الاعجاب وحده لا يبكي .. الحب وحده هو الذي يبكي ، ويدمي ، ويميت ..

---

(١) انظر : المتنبي لمحمود شاكر (المقتطف ج١ مجلد ٨٨ ص ١٣٠) وان كان طه حسين ينفي اعتبار علاقة المتنبي بخولة علاقة حب .. انظر : مع المتنبي ص ٢١٢ .

وما كل من يهــوى يعــف اذا خــلا
عفافي ، ويرضي الحب والخيل تلتقي

والمتنبي ، على أي حــال ، انسان مهيأ لجلائــل الأعمال ، ومآثر الابطال ، لا للتميع ، والتصابي والمجون :

تركنا لاطــراف القنا كــل شهــوة
فليس لنــا الا بهــن لعـــاب ..

لغيره أن يعشق الجسد .. أما هو فيعشق الروح :

وأغيد يهــوى نفســه كــل عاقــل
لبيب ، ويهــوى جسمه كل فاســق

انها أخلاق الشاعر الفارس الذي يجعل الحب بعضا من أمجاده .. اذا أتيح له أن يعشق فعلا .. ثم ان هذه الأبيات الغزلية جاءت في ثنايا قصائد مدحية ، أو فخرية ، أو هجائية ، أو رثائية ، ولم تــأت مستقلة في قصيدة غزل ، لتصور حالة عشق عاناها شاعر متيم .. ولكنها خطرات وجدان أمام معاني الجمال ، لا أمام الجميل .. فهي ليست تعبيرا عن حب حقيقي ، بقدر ما هي فلسفة خاصة ، ورأي ، يعلنه شاعر بدوي كبير .. واذا كان لا بد مــن

تشبيب عام بالجمال والجميلة ، ففي لا وعي المتنبي دائما صورة محببة لهاتيك « البدويات الرعابيب » اللواتي رآهن في البادية ، وعايشهن أيام الفتوة ٠٠ ولعله تزوج بواحدة منهن ٠٠ لم يأت على ذكرها ، في شعره ، وما أنجبه منها ، الا تلميحا :

ـ الحسن يرحل كلما رحلوا
معهم ، وينزل كلما نزلوا

في مقلتي رشأ تديرهما
بدوية فتنت بها الحلل

ـ وما شرقي بالماء الا تذكرا
لماء به أهل الحبيب نزول

يحرمه لمع الأسنة فوقه
فليس لظمآن اليه سبيل

ـ أحب حمصا الى خناصرة
وكل نفس تحب محياها

حيث التقى خدها وتفاح لبنا
ن ، وثغري على محياها (١)

---

(١) ذكرى ابي الطيب بعد الف عام ص ٢٣٤ .

الجو المشتهى دائما جو بادية ، وهي هنا بادية الشام (من حمص الى خناصرة ٠٠) وما تفاح لبنان سوى التماعة ذهنية ، ومقابلة فنية يستدعيها تداع وجداني وفكري ٠٠

وحين يقـارن المتنبي بين الجمالين : الحضري والبدوي ، يفضل تلقائيا البدوي منه ، لطبع فيه وتطبع ٠٠ وما دام الغزل عنده ليس نتيجة معاناة في الحب ، ولا هو تعبير عن حب امرأة بعينهـا ، انما هو تصوير لموقف ، أو ابداء رأي في الجمال عامة ٠٠ فمن الطبيعي أن نرى المتنبي ينحـاز الى طبعه البدوي فيفضل الجمال الصحراوي ، علـى الجمال الحضري ، لما فيه من براءة ، وطبيعيـة ، وطهر ٠٠ وها هو يطلق هذه المقارنة ، وهو في مصر بعيدا عن البادية ، زمانا ومكانـا ، وبـين يدي « أستاذ مصر » كافور في مطلع قصيدة مدحية :

من الجـآذر فـي زي الرعابيـب
حمر الحلى والمطايا والجلابيب ؟
كم زورة لك في الأعراب خافيـة
ادهي،وقد رقدوا،من زورةالذيب
أزورهم وسواد الليل يشفع لـي
وانثني ، وبياض الصبح يغري بي

ما أوجه الحضر المستحسنات بـه
كأوجه البدويات الرعابيب ..(١)

حسن الحضارة مجلوب بتطرية
وفي البداوة حسن غير مجلوب

أين المعيز من الآرام ناظرة
وغير ناظرة، في الحسن والطيب(٢)

أفدي ظباء فلاة ما عرفن بها
مضغ الكلام ،ولا صبغ الحواجيب

ومن هوى كل من ليست مموهة
تركت لون مشيبي غير مخضوب

صور منسوخة ، للجمال البدوي ومكرورة ، وللجمال الحضري سلبية ولا قيمة لها .. كنا ننتظر من شاعر كالمتنبي أن يلين الجمال من طبعه وغريزته، وتصقل الحضارة ، أو العيش في الحاضرة ، من

---

(١) الرعابيب جمع رعبوبة وهي الطويلة الممتلئة .
(٢) المعيز جماعة المعزى ، والارام جمع رئم وهو الظبي الخالص البياض . وناظرة : مقبلة . يشبه نساء الحضر بالمعيز .. ونساء البدو بالارام . ويقول : اين موقع المعيز من الارام مقبلة كانت او مدبرة .. انها تفضلها وجوها وقدودا واعجازا .. وتعلوها حسنا وطيب ريح. انظر الديوان شرح اليازجي ص ٣٠٦ .

مفهومه للجمال ، ومن ذائقته الفنية .. لا أن يبقى أسير ماضيه في البادية ..

ثم ان هذا ليس غزلا .. انه محاضرة فاشلة فنيا في المقارنة والتقييم ، وان كان لها نصيب من الشعر والصدق ، فهو تلك الظلال النفسية المخزونة في قرارة الشاعر والتي استطاع عبرها أن يطلق حنينه الى أجواء البادية الحبيبة ، وما فيها من حب عف ، وجمال بريء وتقدير للبطولة والشاعرية .. خاصة ، وقد أطلقها ، وهو في حالة الفجيعة والخيبة ، واليأس من سكان المدن ، حاكمين ومحكومين ، نساء ورجالا .. حيث يكمن الغدر ، والخسة ، والحسد ، والجحود ، والميوعة ، والتصنع والذل ، والاستسلام ..

أما بواكير صبواته ، وهو في البادية ، ففيها صدق واثارة وروعة . قال في صباه ، وهو أول هتاف وجداني أمام الجمال :

بابي من وددته ، فافترقنا
وقضى الله بعد ذاك اجتماعا

فافترقنا حولا ، فلما التقينا
كان تسليمه علي وداعا

وقال واصفا نحول جسده ، وقد براه الهوى ، في مبالغة محببة :

أبلى الهوى أسفا يوم النوى بدني
وفرق الهجر بين الجفن والوسن

روح ترددني مثل الخلال اذا
أطارت الريح عنه الثوب لم يبن (١)

كفى بجسمي نحولا انني رجل
لولا مخاطبتي اياك لم ترني

ودع عنك مطالع الغزل في قصائده المدحية التي يجري فيها على الطريقة الجاهلية ، والاسلامية ، فليس فيها من الغزل شيء ، اللهم الا الصناعة ، والتقليد .

المتنبي والخمرة :

ان من عاش للمغامرة .. والثورة .. والدوي وتضريب أعناق الملوك .. وان ترى له الهبوات السود والعسكر المجر .. وتحقيق ما لا يُحقق ..

(١) مع المتنبي لطه حسين ص ٩٥ .

من عاش لبناء مجده على رؤوس الرماح ··
وصهوات الخيل ·· لا يمكن له أن يحسب المجد زقا
وقينة ، بعد أن آمن به وحصره « بالسيف والطعنة
البكر » ··

لا يمكن له ، بل لا يسمح لنفسه ، أن يصبح من
« أهيل زمانه » وينحدر الى مستواهم ميوعة وتخنثا،
واستسلاما ، ومعاقرة خمرة :

أذم الى هـذا الـزمـان أهيلـه
فأعلمهـم فدم ، وأحزمهم وغـد
وأكرمهم كلب ، وأبصرهم عـم
وأسهدهـم فهـد وأشجعهم قـرد
ومن نكد الدنيا على المرء أن يرى
عدوا له ما من صداقتـه بـد

فهو في « نكد » ومغالبة ، ومعاناة مريرة مع ناس
عصره ، وقد كانوا فعلا كما ينعتهم ·· فهل يتردى
في مستنقع الهوان والذل كما يتردون ·· وتبرز
الخمرة ، في لا وعيه ، سبيلا مغريا الى التردي ··
والسقوط ·· فليتماسك ·· ولينأ عن الخمرة ما
استطاع ·· الا اذا ألح عليه صديق عزيز ، وأقسم
بالطلاق ان لم يشرب :

وأخ لنا بعث الطلاق ألية (١)
لأعللن بهذه الخرطوم (٢)
فجعلت ردي عرسه كفارة
من شربها ، وشربت غير أثيم

والا اذا تراكمت الهموم ، وكان في فراغ قاتل ..
لكن الخمرة تعجز عن تسليته وتعزيته :

فؤاد ما تسليه المدام
وعمر مثل ما يهب اللئام ..

أما في صباه فقد كانت له خمرته الخاصة : رضاب الكوفيات ... ورضابه :

يترشفن من فمي رشفات
هن فيه أحلى من التوحيد !

والمتنبي حيال الخمرة يسجل موقفا ..ويستعمل منطقا جدليا تبريريا : لا يمكنه أن يضاد نفسه وطبعه ، وفهمه للحياة .. لا يمكنه أن ينقلب من ساخر بهذه القيم الحضارية الممسوخة ، الى موضع

---

(١) الية : الالوة ، والالية ، والاليا : القسم ج الايا .
(٢) الخرطوم من صفات الخمرة .

سخرية ، ومحط ازدراء ، اذا سمح لنفسه بمعاقرة الخمرة ..

ثم هو ، بالرغم من تأبيه ، وتعاليه ، وعزوفه عن اللهو ، والمرأة ، والخمرة ، قد نهشته الكلاب المسعورة ، ووجد حساده منفذا الى شخصه .. حتى اذا أعياهم ، نفذوا الى نسبه ، وأهله ، ومن ثم الى شعره ، وحطوا من قدر شاعريته .. فكيف اذا تهتك وتبذل ، وسكر .. واذا كان لا بد للفتى من نشوة ، فبالحب الكتوم ، ومن سكرة فبالسر ، لا بالعلن ، وعلى مقدار ..

وكان للمتنبي ، قبل كل هذا ، وبعده ، خمرة تسكره .. خمرة من نوع آخر أسمى — في حسه — وأبقى .. انها خمرة المجد ، والغايات المستحيلة ، والبطولة ، والشاعرية ، وتقديس العقل ، والصحو التام في كل لحظة . فهل يسمح للخمرة أن تذهب بهذا العقل وذلك الصحو :

وأنفس ما في الفتى لبه وذو اللب يكره انفاقه ..

ومن بين غايات الشاعر البقاء الحميم مع جو

« القوة ، والسيطرة على العالم وتغييره ٠٠ » (١)
أبو نواس فلسف الحياة والأحياء ، والكون
ـ كالخيام ـ من خلال الخمرة ٠٠ (٢) أما المتنبي
فقد فلسف الحياة والأحياء والكون ، من خلال نفسه
وعقله ، و « تمرسه بالآفات » ٠٠ واستبدل الخمرة
المادية بخمور أخرى معتقة في خوابي الافكار
الرائدة ، والادمغة المبدعة ، والشعراء الماضين ٠٠
كسقراط ، وأرسطوطاليس ، وأبي تمام ٠٠ فكان
معاقرا لها دون سواها ، وحين انتشى بها واستوحى
منها جاء بالرائع من الحكمة ، والخالد من الشعر
فأسكرنا معه ، وأسكر الأجيال ٠٠

فالخمرة المادية ـ اذن ـ لسواه ٠٠ حتى ولو
كانوا الأحبة :

لأحبتي أن يملأوا بالصافيات الأكؤبا
وعليهم أن يبذلوا وعلي ألا أشربا
حتى تكون الباترات المسمعات فأطربا ٠٠

---

(١) كما يقول ادونيس . انظر ديوان الشعر العربي ج٢ ص ٢١ .
(٢) انظر كتابنا : ابو نواس : مجدد ام شعوبي . الصادر عن دار مكتبة الهلال ١٩٨٠ بيروت .

هناك ، مع السيوف الباترات ، يطرب وينتشي ، بصليل المشرفيات ، وتضريب أعناق الملوك ــ الأوثان ، والظالمين الطغاة ··

وواضح أن هذا هو السبب في اجتنابه الخمرة لا الوازع الديني على الاطلاق ·· فلم يكن المتنبي يقيم وزنا للطقوس الدينية ·· كما يفعل المتعبدون القانتون ·· فله من قرمطيته وهمومه ، وصراعه مع الزمن ما كان يصرفه عن ذلك ·· على أنه لم يكن من المجدفين أو الكافرين ·· كما يحلو لبعض النقاد أن يفسروا قوله في صباه :

يترشفن من فمي رشفات
هن عندي أحلى من التوحيد !

وما فهموا أنها تمنيات ، ورؤى حلوة من فتى مراهق ، تثيرنا روعة التعبير عنها ، ولا يهمنا معناها ·· مرة أخرى نقول لهؤلاء : لا يطلب من الشاعر المفتون بالجمال ، أكثر من هذا ·· سواء صور الواقع ·· أو لون الخيال ·· انه يصور حالة، ولا يقرر مبدأ ، أو يسجل موقفا ·· واذا حوسب فمن قبل النقاد الفنيين وحدهم ، لا من قبلكم ·· يحاسبونه على مقدار اجادته في تصوير تلك

الحالة ، ومدى تفاعله معها ، وصدقه ٠٠ لا على معانيه ٠٠

المتنبي والفخر :

لكي لا يفقد المتنبي توازنه تجاه العالم والآخر، أقام تلك المعادلة الدائمة بينه وبينهما ٠٠ مع رجحان كفته هو في كل موقف ٠٠ حتى في مواقف الانكسار والحاجة ٠٠ وكانت المعادلة الأولى في فخره بنفسه وهو لم يزل صبيا يافعا ٠٠ أمام الانكسار الأول : نسبه المضعوف ٠٠ يجيب هاتفا هذا الهتاف الوجداني الرائع :

أنا ابن من بعضه يفوق أبا البا
حث،والنجل بعض من نجله ٠٠
وانما يذكر الجدود لهم
من نفروه ، وأنفذوا حيله
وليفخر الفخر اذ غدوت به
مرتديا خيره ، ومعتقله
جوهرة تفرخ الكرام بها
وغصة ، لا يطيقها السفلة
ان الكذاب الذي أكاد به
أهون عندي من الذي نقله

فلا مبـال ، ولا مـداج ، ولا
وان ، ولا عاجز ، ولا تكلة ..

فيحسم الموقف .. ويخرس السفلة .. واذا كان لا بد من نسب أيها الجهلة ، فأنا عربي ابن عربي : أنتمي الى اليمانية في أشرف أصولها :

قضاعة تعلـم اني الفتـى الـ
ـذي ادخرت لصـروف الزمان
ومجدي يدل بنـي خنـدف
على أن كل كريم يمـان (١)

ويعود الى ذاته ، وصفاته فتنهمر « الأنا » قوية جارفة تغطي كل شيء .. وتكتسح كل شيء :

أنـا ابـن اللقـاء ، أنا ابـن السخاء
أنـا ابن الضراب ، أنا ابن الطعـان
أنـا ابـن الفيافي ، أنا ابـن القوافي
أنا ابن السروج ، أنا ابن الرعان (٢)

---

(١) خندف : امراة الياس بن مضر ينسب اليها احد فخذي مضر . ان مجدي يدلهم على ان كل كريم يمني من قبائل اليمن لاني انا منهم . الديوان : شرح اليازجي ج١ ص ١٣٢ .

(٢) الرعان : جمع الرعن : وهو انف الجبل . يريد الجبال الشاهقة . المصدر نفسه .

طويــــل النجــــاد طويــل العمـــــاد
طويــل القنــاة ، طويــل السنــــان
حديــد اللحــاظ ، حديــد الحفــاظ
حديــد الحســـام ، حديــد الجنــان

لقد انقلب هو نفسه كل شيء ‥ وأمحى الزمان والمكان والآخرون ‥ وتمحور الوجود كلــه في « جبهة المتنبي » وجيشه و « أناه » ‥ وتمـت سمفونية الزحف :

أهزوجــة في الأنــــا هـــــذه
تفل الحديــد ، وتبلي الجديد
وتعلــي على الكــون راياتــه
وتزجي الجنود ، عديدا عديد
وجيِّش مـــن نفســــه أمــة
تثور على أمــة من عبيــد ! (١)

هكذا يبدو أكثر شعر شبابه : تهيوءا لثــورة ، أو تخيلا لها ، أو خروجا مظفرا منها ‥ قال الثعالبي: « يجشم نفسه أسفارا أبعد من آماله ، ويحمــل آمالا أكبر من مجاله » ‥ فقد سدت عليه نفسه

(١) بتأثير سمفونية الزحف فينا انشأنا هذه الاهزوجة ــ المؤلف

منافذ الرؤية المباشرة للأشياء والاشخاص ٠٠ فرأى ما لا يُرى بالعين المجردة ٠٠ وبحدقتي نسر نظر الى السفوح ، حيث بغاث الطير تصطاد بعضها ٠٠ ولا تهوم الا على الحشرات ٠٠ اضطره الظرف الى الهبوط ٠٠ والى التهويم ٠٠ ولكن بغاث الطير تكاثرت حوله ٠٠ وأرادت أن تنال منه ٠٠ وبرفة من جانحيه بددها تبديدا ٠٠ وراح يهوم في آفاق أرحب ٠٠ مفتشا عن جماعة النسور ٠٠ فلم يجد سوى نسر واحد يعشش في أبراج قلاع حلب ٠٠ وحوله في ملاعب الكرامة والتحدي العربي فراغ كبير ٠٠ فانضم الى السرب ٠٠ وتلاقى النسران وملأا الفراغ ٠٠ وبرزت الى الوجود أمبراطوريتان: أمبراطورية السيف وأمبراطورية الشعر :

شاعر المجد خدنه شاعر اللفظ
كلانا رب المعاني الدقاق (١)

أمبراطورية سيف أخرجها الشاعر الملحمي من اطار الزمن ، من مداها المحدود بنصف قرن الى مدى القرون كلها ٠٠

---

(١) هذا البيت من قصيدة قالها المتنبي في مدح ابي العشائر نسيب سيف الدولة (الديوان ص ٤٤) وقد اوردناه هنا ، لمطابقته لموقف الشاعر والامير وحقيقتهما .

وكان طبيعيا حين يمدح الندنده ألا يكون مدحه عاديا كغيره من المدائح ·· بل أن يبرز الفخر من خلاله ·· فالصفات التي يمدحها الشاعر الكبير في نده ، هي الصفات نفسها التي يراها الشاعــر في ذاته ووجدانه ·· انه يحمل امام الملك (الأمير) « فؤادا من الملوك » :

وفؤادي مــن الملــوك وان كــا
ن لسانــي يلفــى من الشعراء

فهو يكاد يضيق بلقب شاعر ·· لأنه ــ فعلا ــ أكبر من شاعر ·· بالمفهوم والاعتبار القديمين للشاعر الذي كان ينظر اليه ــ في عصر المتنبي وما تلاه من العصور ــ على أنه انسان متكسب ·· متسكع على أبواب الآلهة ·· هانت عليه كرامته وشاعريته ·· حتى جــاء المتنبي فغــير المقاييس والاعتبــارات بشاعريته العملاقة وكبر نفسه ، وأعــاد للشعر والشعراء اعتباره واعتبارهم ·· في كثير من مواقفه الأخيرة ــ أيام النضج وعمق التجربة ــ ودع عنك بعض ما اضطر اليه من هبوط ·· فمقياسنا لا يتتبع الهنات ــ النوافل ــ بل يتتبع مصادر مياه الشلال وما فيه من صفاء ، ويطرح المساقط والاكدار ··

وهكذا دار فخر المتنبي ، أكثر ما دار ، حول الشعور العارم بالتفوق واللاتشابه ، وحول الاحساس المتعاظم بوجود كامل مزايا البطل : الشاعرية والفروسية والترفع عن الدنايا ، وهي صفات الأمير القائد أكثر منها صفات لشاعر عادي خاصة وأن شاعرنا قد عاش هذه الصفات ومارسها طوال عمره ٠٠ لا سيما أيام التحدي والمجابهة ٠٠ للزمن ، والظرف ، والقدر ، والآلهة ٠٠٠

حقا ٠٠ لقد كان دأب المتنبي ـ مراوحا بين حالين : تصفو له الحياة حينا وتضطرب أحيانا ٠٠ فاذا صفت تغنى بالمجد والعظمة ٠٠ واذا اضطربت نقم ، وشكا ، وهدد ٠٠ وسارت حياته على هذا القدر في طرفيه ٠٠ فكانت ، سلسلة من هتاف العز ، وصراخ الألم ٠٠ ومن أناشيد الكبرياء الذي صفاه اليأس ، وبلوره العذاب ٠٠

المتنبي والمدح :

اتخذ المتنبي من الشعر وسيلة لتحقيق ذاته ، واثبات وجوده ، وصموده وسط الزعازع والانواء، وللوصول الى غاية الغايات : الحكم والسلطان ٠٠ لكن الغاية ذهبت وبقيت الوسيلة ٠٠ وكان هذا

خيرا لنا وله وللانسانية جمعاء ٠٠ كما سبق القول ٠٠

مدح المتنبي عددا وافرا من الآلهة ، وأنصاف الآلهة ٠٠ ومن هم دون ذلك بكثير ، وباع شعره في أسواقهم ، ورضي بالدينار الواحد ثمنا للقصيدة ينتزعه ـ أيام الفتوة والفاقة ـ ممن لا يساوي دينارا ٠٠ ثم لم يرض بآلاف الدنانير أيام عرف نفسه وشاعريته ٠٠ تقوم طريقته في المدح على ميزتين :

١ ـ مزج المدح بالفخر ٠

٢ ـ ان الصفات التي يطلقها على ممدوحه هي صفات تقليدية لا جديد فيها ، كان الاقدمون يمتدحونها في السيد ، أو الملك ، أو الخليفة : كالكرم ، والشجاعة ، والشهامة ، وحسن الرأي ، وأمثالها من صفات المروءة العربية ٠

أما اذا طلبنا منه صدقا في مدحه عامة ، فلن نجد سوى ظلال باهتة ٠٠ هي في الواقع ، ظلال صفاته هو ، أو ما يدور في وهمه انها موجودة في ممدوحه ، على شيء من التلفيق والكذب والمبالغة ٠٠ لذا قلما

عثر أبو الطيب على انسان يملأ العين ويستحق مديحا صادقا الا سيف الدولة ٠٠ فكلهم ظلمة ، جهلة أوثان :

ولا أعاشر من أملاكهم أحدا
الا أحق بضرب الرأس من وثن ٠٠

ولكنه كان مضطرا الى مدحهم وممالأتهم لاسباب شرحنا أكثرها ٠٠

أ ـ مدحه لسيف الدولة : العاطفة الصادقة :

لم ينظم شاعر عربي في ملك أو أمير مقدار ما نظم المتنبي في سيف الدولة ٠٠ فقد انقطع اليه ، وقصر شعره عليه ، طيلة تسع سنين ، حتى عرف له فيه أكثر من ثمانين قصيدة ٠

والمتنبي وسيف الدولة ، من الثنائيات الضخمة في تاريخنا الادبي والقومي ٠ حتى ذهب « بلاشير » الى القول : « لولا سيف الدولة لما عرف المتنبي » ٠٠ وقد صح العكس في نظرنا (١) ٠٠ والى حد كبير ٠٠

---

(١) بررنا ذلك في الصفحة ٤١ و ٤٢ من هذا الكتاب .

اذ لم يكن علي بن حمدان مجرد أمير ، في شعر المتنبي ، أو انسان مجاهد ٠٠ بل لقد انقلب بطلا أسطوريا خالدا ٠٠ وطالما أحب المتنبي مزج الأسطورة بالحقيقة ، وأراد أن يجعل من الاسطورة واقعا ٠٠ وكذلك المتنبي لم يكن مجرد شاعر متكسب ٠٠ وانما كان في الجو الذي تاقت اليه نفسه ، وتصوره خياله ٠٠ كان يرى في سيف الدولة كثيرا من الخصال الحبيبة الى نفسه ، الأثيرة لديه ، فيصورها معجبا بها ، مهتزا لها ، صادقا في تلوينها وتضخيمها ٠٠ وكانت شخصية سيف الدولة متعددة الجوانب ـ كما سبق وقلنا ـ رائعة المواقف ٠٠ فتعددت لذلك موضوعات مدح المتنبي لها ، وكانت رائعة مثلها ٠٠ ولا بدع فقد كان سيف الدولة مجاهدا حقا ، وشجاعا ٠٠ وكانت حياته حربا متواصلة على الروم ، في الخارج ، وعلى الاخشيديين في الداخل ، ورد العصاة والمتمردين في امارته الى الطاعة والنظام ٠٠ وقد صحبه المتنبي ، واختبر بنفسه عظائم الحرب ، وأهوال الوقائع : رأى الجيوش في ساحة الحرب ، وخاض غمار القتال مع المجاهدين ٠٠ فذاق معهم مرارة الهزيمة ، كما ذاق لذة النصر ٠٠ فأبدع في وصف كل ذلك غاية

الابداع ·· ولربما كان في لا وعيه انه هو صاحب الامارة وقائد جيوشهـا ·· وليس مجرد شاعـر مراقب من الخارج ·· يرسم المعركة بعد هدوئها·· يقول ابن الأثير : « انه اذا خاض في وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها ، وأشجع من أبطالها ، وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها ، حتى تظـن الفريقين قد تقابلا ، والسلاحين قد تواصلا » ·· ولعل ابن الأثير كان يشير الى ما ذهبنا اليه من صدق معاينة الشاعر ومعاناته ··

ومن خوالد سيفياته الملحمية ، قصيدته الدالية التي أنشدها في عيد الأضحى سنة ٣٤٧هـ والبطل والشاعر على فرسيهما في ميدان حلب :

لكـل امرىء مـن دهـره مـا تعودا
وعادة سيف الدولة الطعـن بالعـدى
هو البحـر خض فيـه اذا كان ساكنا
على الدر ، واحـذره اذا كان مزبدا

لقد بدأ القصيدة ــ كما ترى ــ بالمدح ، دون أن يوطىء لها بمقدمة ، كما كان يفعل الشعراء الأقدمون ، وكما كان يفعل المتنبي نفسه ، في أكثر مدائحه ، قبل اتصاله بسيف الدولة ··

وهذا ، يعني ، بالميزان النفسي ، ان الممدوح يملأ على المادح كيانه ومشاعره ، فلا حجاب بينهما ولا مقدمات •• ولا تحايل لفظي على المباشرة •• والدخول ••

ويمضي المتنبي في مدح الأمير ، ذاكرا انتصاره على ابن الدمستق ، وقسطنطين من قادة الروم وأبطالهم ، منبها اياه باشارات لطيفة الى عدم التمادي في العفو عن المتمردين ، من القبائل ، ثم ينتقل الى تهنئته بالعيد :

هنيئا لك العيد الذي أنت عيده

وعيد لمن سمى وضحى وعيدا

فالمتنبي لا يهنيء سيف الدولة بالعيد •• بل يهنيء العيد بسيف الدولة الذي هو عيد العيد ، وعيد المسلمين جميعا •• وفي هذا تعريض بالخليفة القابع في بغداد ، عن طريق التلميح ، الذي سرعان ما ينقلب تصريحا ؛ حين يحرض سيف الدولة على مثل هذا الخليفة (١) قائلا :

---

(١) كانت الخلافة في بغداد — ايا م المتنبي — نهبا لكل طامع من فرس وترك وديلم . ينصبون المقتدر ، وهو ابن ثلاث عشرة ، ثم يقتلونه (رغم ارتدائه البردة النبوية) =

فواعجبا من دائــل أنت سيفه
اما يتوقى شفرتــي ما تقلــدا
ومن يجعل الضرغام للصيد بازه
تصيده الضرغام فيما تصيــدا
وما قتل الاحرار كالعفو عنهم
ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا
اذا أنت أكرمــت الكريم ملكته
وان أنت أكرمت اللئيم تمردا
ووضع الندى في موضع السيف بالعلى
مضر كوضع السيف في موضع الندى

وواضح ، انه يسخر من الخليفة الذي يحمل سيفا يوشك أن يقتله .. ويرسل للصيد جارحا يوشك أن يصطاده .. كما يغري سيف الدولة ، بأولئك المتمردين الذين عفا عنهم فأبطرهم العفو ،واصطنع معهم الحلم فظنوه عجزا . ومما يلاحظ في هــذه الأبيات ان المتنبي كان يشعر شعورا قويا بمعانيها ،

= شر قتلة .. ويأتون بأخيه القاهر (تأمل الاسماء!) وهو كهل ، لا نفع منه ولا ضر .. وقد انتهى — كغيره — نهاية مأساوية (انتهى شحاذا ..) ثم الراضي .. ثم المتقي .. ثم المستكفي .. للتفصيل انظر : الحضـــارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرة — ادم ميتز ج١ ص ٣٤ وما بعدها .

فاذا بها تتدفق هذا التدفق التلقائي الغزير ، كما يظهر النضج الفني لدى المتنبي ، وخصب الشاعرية، فاذا كثير من أبيات القصيدة حكم متلاحقة ،أصبحت سائرة عبر الاجيال ، قوية الحضور في وجداناتهم ·· يتمثلونها ـ مع شقيقات لها كثيرات ـ كلما التقت المواقف ، وسمت الوقائع الى مشارف الفلسفة ··

وما يكاد المتنبي يفرغ من المدح والتعريض بالخليفة ، في بغداد ، وبالثائرين داخل الامارة حتى يعود الى نفسه ـ كعادته ـ فيوفيها حقها من الفخر ، والتعالي ، والشكوى من الحساد ·· مستنجدا بسيف الدولة لرد حسد الحساد وكبتهم ، لا لأنه غير قادر على ردهم ·· بل لأنهم أقرباء الأمير ، محسوبون عليه ، ومن طباع الفارس ، والشيم العربية ألا يطعن الصديق من الخلف :

أزل حسد الحساد عني بكبتهم
فأنت الذي صيرتهم لي حسدا
وما أنا الا سمهري حملته
فزين معروضا ، وراع مسددا
وما الدهر الا من رواة قصائدي
اذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا

فسار به من لا يسير مشمرا
وغنى به من لا يغني مغردا
ودع كل صوت غير صوتي فانني
أنا الطائر المحكي،والأخر الصدى
تركت السرى خلفي لمن قل ماله
وانعلت أفراسي بنعماك عسجدا
وقيدت نفسي في ذراك محبة
ومن وجد الاحسان قيدا تقيدا

على هذا الطراز الرفيع ، يجري المتنبي في مدائحه لسيف الدولة ، يرفده الواقع الغني ، من جهة ، والخيال الرفيع ، والروح التواقة الى الذرى من جهة أخرى ٠٠ والاعجاب الصادق ، من جهة ثالثة ٠٠ ذلك ، ان الصفات التي يمتدحها في سيف الدولة ، ليست غريبة عن أمير حلب ٠٠ فقد كان سيف الدولة حقا ذلك الأمير العربي المجاهد ، الذي يحمل وحده عبء الدفاع عن الثغور العربية الشمالية ، أمام غزوات الروم وأحقادهم التي فجروها في حروب متواصلة ، ومعارك دامية ، انتصر سيف الدولة في أكثرها ٠٠ وكان مثالا أوحد للصمود العربي طوال نصف قرن ٠٠ فاذا امتدحه المتنبي بذلك ، وفوق ذلك ، فهو يصور واقعا

لا خيالا •• وكانت الخلافة الفعلية بيد الأعاجم يتصرفون بها ، وبالبلاد ، وكان المتنبي يتوق ، فيما يتوق ، الى تخليص الحكم من يد الأعاجم •• فاذا طلب من سيف الدولة القيام بهذا الامر ، فهو يصور أمنية عميقة في نفسه ••

وهناك نمط آخر للمتنبي في المدح يطغى عليه الفن والتكسب ، والعاطفة المزورة ، التي يحاول فن المتنبي جاهدا اخفاءها •• هذا النمط هو مدائحه في كافور ••

مدائح كافور : الفن أو الصناعة اللفظية :

غادر المتنبي حلب ــ كما علمنا ــ وهو يحمل في نفسه ألوانا من الخيبة ، والمرارة ، واليأس ، وقصد كافورا الاخشيدي في مصر (١) ممنيا نفسه بولاية ،

(١) هو ابو المسك كافور بن عبد الله ، حبشي الاصل ، اسود اللون ، شديد السواد بصاصا (٢٩٢هـ. يكبر المتنبي باثنتي عشرة سنة) كان عبدا لرجل من اهالي مصر اسمه محمود بن وهب بن عباس . اشتراه منه ابو بكر محمد بن طفح بثمانية عشر دينارا .. وفي رواية ثانية انه وهبه اياه دون مقابل .. اعتقه ابن طغج وابقاه في خدم بيته .. ثم رقاه الى رتبة « اتابك » اي مربي ولديه.. ونسب اليه كافور فقيل: كافور الاخشيدي.. =

أو ضيعة يمنحه اياها كافور ·· بعد أن هبط من
علياء أحلامه في حلب ·· قصده ، يوم لم يكن من
سبيل لديه الا اليه ·· فأكره نفسه على مدحه ·

= وبعد وفاة سيده هذا ، قام بتدبير المملكة احسن قيام باسم ولديه : انوجور وعلي . توفي علي ، وكان ابنه ابو الفوارس احمد دون العاشرة . احتج كافور بصغر سنه ، فاستقل بالملكة ، واظهر خلعا جاءته من الخليفة المطيع ، وكتابا بتكنيته ، وعهدا بتوليته على مصر والشام والحرمين . وركب في الموكب الرسمي ، ونودي به ملكا على مصر سنة (٣٥٥ هـ) . نشط في توسيع رقعة مملكته ، وبسط نفوذه ، مستفيدا من تضعضع الدولة الحمدانية ، وضعف الخلافة ، مظهرا ذكاء نادرا ، وحسن تدبير وادارة ، وعلو همة .. حتى قال الذهبي : « كان عجبا في العقل والشجاعة » . وقال عنه ابن خلكان : « كان يدعى له على المنابر بمكة والحجاز جميعا .. وكانت ايامه سديدة .. جميلة » ! حكم فعليا ٢٢ سنة ورسميا سنتين واربعة اشهر . وكان ممن نافس امراء الدويلات على تشجيع الادب والعلم وايواء الشعراء النابغين .. وهذا ما دفع بالمتنبي الى القدوم عليه .. للتفصيل انظر : دائرة المعارف ج ٧ ص ٤١١ وما بعدها . اما لقب « استاذ » الذي اطلق على كافور وعرف به ، فهو لقب عرف ، في المشرق للوزراء . كان ابن العميد يلقب به ، على رواية مسكويه ، وغير ابن العميد ، على رواية ابن تغري بردي . انظر : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرة ج١ حاشية صفحة ٤٥ — ادم ميتز . اما اليوم فيطلق ، في القاهرة ، على الحوذي !. وفي لبنان وسوريا يطلق على المدرس بوجه عام ، وعلى المثقف ايضا . كما يقال : الاستاذ الدكتور لمن كانت له مكانة علمية تتجاوز حدود الدكتوراه . المؤلف

فجاء مدحه له مصطنعا ، يحجب الفن فيه ، برودة العاطفة ، وكذب الاحساس ·· ولم يكن المتنبي صادقا ، الا في هجائه لكافور ، بعد أن انقلبت المودة المؤقتة ، وانقطعت الصلة الواهية بينهما ··

وعلى أي حال ، فقد مدح المتنبي كافورا بثماني قصائد ، دارت جميعها حول الصفات المألوفة في المدائح العربية عامة ·· ما عدا صفتين اثنتين هما : اللون ، والبطولة العادية ·· وقد لجأ المتنبي الى مقدرته اللغوية والشعرية لاستنباط رموز صالحة للون الاسود ، ومعان مناسبة لبطولة العبد تخرج بها عن مستوى العادية الى مستوى البطولة الخارقة ·· ولكن تصريحه بطلب الولاية أفسد عليه كل رموزه ، ومعانيه المدحية المستنبطة ، ولم تنطل الحيلة على كافور ، نظرا لحدة ذكائه ودهائه من جهة ، ولأن المتنبي أسرع في الطلب ، والمكاشفة ، من جهة ثانية ·

وهكذا ظهرت في مدائحه لأستاذ مصر مزايا جديدة كثيرة نحصرها فيما يلي :

أ ـ التصريح في طلب الملك ، والالحاح عليه ··

ب ـ التذمر الدائم من ابطاء كافور في تنفيذ ذلك

جـ ـ الشكوى الدائمة من الحياة في مصر ، وحنينه الى حياته السابقة في حلب ، وفي البادية ، حنينا مشوبا بشيء كثير من النقمة على سيف الدولة ولكنها نقمة ممزوجة ببقايا حب واعجاب للأمير الحمداني ، لم يستطع المتنبي اخفاءها تماما ٠٠
وها هي أولى قصائده ، في مدح كافور ، تحمل لنا أكثر خصائص فنه :

كفى بك داء ان ترى الموت شافيا
وحسب المنايا ان يكن أمانيا ٠٠

تمنيتها ، لما تمنيت ، أن ترى
صديقا فأعيا ، أو عدوا مداجيا

اذا كنت ترضى أن تعيش بذلة
فلا تستعدن الحسام اليمانيا

فما ينفع الأسد الحياء من الطوى
ولا تتقى حتى تكون ضواريا

حببتك قلبي ، قبل حبك من نأى
وقد كان غدارا فكن أنت وافيا

واعلم آن البين يشكيك بعده
فلست فؤادي ان رأيتك شاكيا

اذا الجود لم يرزق خلاصا مـن الأذى
فلا الحمد مكسوبا ، ولا المال باقيـا
خلقتُ الوفاً ، لو رجعـت الى الصبـا
لفارقت شيبي موجع القلـب باكيـا

لقد استهل قصيدته بمخاطبة نفسه ، واصفا آماله وآلامه ، معلنا بكل كآبة يأسه من الناس الذيـن عايشهم •• وواضح أنه يشير هنا الى سيف الدولة فلم يجد فيهم صديقا يخلص له الحب •• أو حتى عدوا يداجيه ، أو يداريه •• فأصبح الموت أمنية يتمناها للخلاص مما هو فيه •• مع ان الموت كان يموت رعبا منه •• ويذعر الذعر •• وهو يعنف نفسه ، أشد تعنيف ، على استسلامه ، ورضـاه بالأمر الواقع ، ويؤنبها على حنينها لمن لا يستحق حنينا •• ووفائها لمن ليس جديرا بالوفاء •• وهو يرى سيف الدولة غادرا فينكر دموعه ان جرت في أثره •• ولكنه يبرر هذه الدموع بما فطر عليه من وفاء وولاء ••

تلك كانت حال المتنبي حين اتصل بكافور : فهو ناقم على سيف الدولة ، لما أصابه منه ، وهـو في الوقت نفسه يحن الى الأمير ويحبه •• وتصطرع

هاتان العاطفتان في الشاعر المفجوع : قلب يحن الى صفيه الغادر ، وارادة تحاول اطفاء هذا الحنين ..
ثم يلتفت أخيرا الى كافور .. وفي هذا ما فيه من ارتباك وسوء تصرف غير مقصود .. قائلا له :

وجرد ، مددنا بين آذانها ، القنا
فبتن خفافا يتبعن العواليا

قواصد كافور توارك غيره
ومن قصد البحر استقل السواقيا ..

فجاءت بنا انسان عين زمانه
وخلت بياضا خلفها ومآقيا ..

فتى ما سرينا في ظهور جلودنا
الى عصره ، ألا نرجي التلاقيا !

أبا المسك ذا الوجه الذي كنت تائقا
اليه ، وذا اليوم الذي كنت راجيا

الى أن يقول :

ومن قول سام لو رآك : لنسله
فدى ابن أخي نسلي ونفسي وماليا !!

وغير كثير أن يزورك راجل
فيرجع ملكا للعراقين واليا !!!

تستوقفنا في هذه المدحية الكافورية الأولى ، أمور كثيرة ، منها :

أ ـ ان سيف الدولة حاضر في مدح كافور ·· فالمتنبي يمدح كافورا من خلال نقمته على سيف الدولة : ومن قصد البحر استقل السواقيا ·· لقد انقلب الأمير الحمداني العظيم وسيلة ، بعد أن كان غاية : ساقية بعد أن كان بحرا ·· وأصبح كافور هو الغاية ـ البحر ·· وانسان عين زمانه ·· اشارة الى سواده ·· وبياض العين لا قيمة له بدون سوادها ··

ب ـ سواد كافور : واجهت المتنبي مشكلة سواد كافور ·· وكأنما قد عزم على مجابهتها ، منذ البداية ، وحلها ، ليتخلص من هذا الحرج ·· فاذا به يعرض لهذا اللون الاسود ، ويحتال ليستخرج منه معنى من معاني الفضل والامتياز ، فيجعل من صاحبه انسان عين زمانه ، كما رأينا ، ومدعاة لفخر السود على البيض ·· وهو يتكلف من أجل ذلك الصور والاستعارات الباردة المعقدة التي لا نصيب لها من العاطفة ، حتى ولا من الفن ·· اللهم الا ذلك الجهد الفكري والخيال المستنفر

لجعلها معقولة ومقبولة من كافور ومنا ·· ولكن هيهات !

جـ ـ المبالغة والتكلف : ويمضي المتنبي في اجهاد نفسه وكد ذهنه ، واستدعاء كل مهاراته ليخترع لكافور معاني ، وصورا مقبولة يخفي بها حقيقة موقفه منه ·· مثال ذلك : تصويره لشوقه الى لقاء كافور حين جعل هذا الشوق أصيلا يجري في الأرواح منذ كانت في عالم الغيب ، قبل عصور وعصور ·· ومثاله أيضا اشارته الى قصة سام وحام ونسلهما ·· تلك القصة التي لا تخطر على بال ·· والتي وراءها خيال قادر كان يمكن أن يوظف لانشاء الملاحم والأساطير ·· لو كان العصر غير العصر ، والرجال غير الرجال ·· كل ما أراده من القصة وقول سام (الابيض) لأبنائه البيض ، لو أتيح له أن يرى كافورا : هذا ابن أخي الاسود ، أي كافور ، يا لروعته ! بأبي هو وأمي ! وفداء له نسلي ونفسي ومالي !! كل ما أراده هو أن يصور جمال كافور وعظمته المزعومة ، وتبرير شوقه اليه ·· فتأمل !

د ـ التصريح المفاجى في طلب الولاية : لم ينتظر

المتنبي حتى يستقر به المقام في مصر ليلمح الى طلب الولاية ، ولم يتريث ليدرس نفسية ممدوحه ومن أين تؤكل كتفه •• فتأتي الولاية ـ ان أتت ـ كمكافأة ، لا كضريبة •• وهكذا فضحت الغاية كل ما احتاله في الوسيلة •• ومن الطبيعي ، أن يفاجأ كافور بمثل هذا الموقف المكشوف من المتنبي ، وهو الذكي الفطن ، كما رأينا ، فيضمر له السوء والمماطلة في سره ، وان أعلن الخير •• وراح المتنبي ، بعد ذلك ، يذكر كافورا بالولاية ، تارة بالرفق ، وتارة بالعتاب • مثال ذلك قوله :

أبا المسك هل في الكأس فضل أناله
فاني أغني ، منذ حين ، وتشرب ؟!
وما طربي لما رأيتك بدعة
لقد كنت أرجو أن أراك فأطرب ؟!

ولا يخفى ما في البيت الثاني من براعة تجعله يحمل معنيين : معنى المدح ، ومعنى الهجاء •• وعلى مثل هذا البيت استند المتنبي ، فيما بعد ، حين قال ، بعد تركه كافور انه كان يسخر منه يوم كان يمدحه ••

المتنبي والهجاء :

قبل أن نسترسل في تقييم هجاء المتنبي من الناحيتين النفسية والفنية ، نود أن نقدم دراسة موجزة عن الهجاء ، أو السخرية في الأدب ، لنتمكن ، على ضوئها ، من فهم هجاء المتنبي أو سخريته ومقدار حظها من الفن ..

السخرية في الأدب : لمحة موجزة :

للسخرية في الأدب مصادر وبواعث كثيرة منها :

- شعور الساخر بنوع من الامتياز ، والتعالي عمن يسخر منهم .
- احساس الشاعر بالغربة والانفصال عمن يسخر منهم ويفضح شذوذهم ..
- حماس الساخر للقيم الجديدة المضادة ، واسباغ صفة القداسة عليها باستعارة صفات ونعوت القيم القديمة للقيم الجديدة ، كما فعل أبو نواس في صفة الخمرة التي جعل منها آلهة ذات أسماء حسنى :

اثن على الخمر بآلائها وسمها أحسن أسمائها (١)
وهي آلهة يسجد لها ··

ـ موهبة الرسم بالكلمات ·· وتشويه السحنات بتضخيم المعايب الجسدية ـ كما فعل ابن الرومي (٢) ـ وهو ما يسمى اليوم بفن الكاريكاتور، توصلا الى ابراز المعايب النفسية·

ـ وللسخرية لونان: لون كئيب كارب ناتج عن احساس عميق بالكارثة والانسحاق وعبثية الوجود والموجود ·· فتأتي السخرية، وكأنها المنقذ الوحيد، أو المجسد الوحيد للشك في كل شيء ·· حتى الذات والشعر ـ كما عند ابن الرومي وأبي العلاء ـ وأمثالهما ·

ولون بهيج، ضاحك مضحك، يكتفي بالمداعبة، وتحليل ظواهر الاشياء، والاشخاص، وما أصابهم من خلل وانحراف، توصلا الى فضح الانحراف الباطني، والتخلخل النفسي ـ كما عند الجاحظ، وابن الرومي، وأصحاب المقامات الى حد ما ـ

(١) انظر كتابنا : ابو نواس : مجدد ام شعوبي . الصادر عن دار مكتبة الهلال ١٩٨٠ بيروت .
(٢) انظر كتابنا : ابن الرومي : او الاحساس الفاجع بالغربة الصادر عن دار مكتبة الهلال ١٩٨٠ بيروت .

أسلوبها :

وأسلوب السخرية ـ دائما ـ هو أسلوب الاثارة الذي يتوسل مختلف أنواع التضاد في التعبير ، كالطباق ، والتورية ، والتجنيس ، واستعمال المنطق الجدلي السفسطائي ٠٠ وكلها أنماط بديعية تمثل معنيين أو أكثر ، وبامكانها أن تثير فينا عاطفتي الضحك والبكاء في آن ٠٠ على أن تكون المقدرة على الاضحاك هي الغالبة (١) خاصة في الكوميديا ، حيث يجب أن يختفي في الملهاة الوجه المأساوي لمواقف الشخصيات المنحرفة ، فنضحك من حيث كان يجب أن نبكي ـ كما قال ألفرد ده ميسيه ـ (٢) أو كما قال المتنبي في هجاء كافور :

وماذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكا !

غاية السخرية : أما غاية السخرية والساخرين فكامنة في الرغبة الملحة في الانتصار على الأشياء

---

(١) للتفصيل انظر ترجمتنا لمسرحية البخيل لموليير ط ١ ص ١٦ وما بعدها ، الصادرة عن دار الكتاب اللبناني ١٩٦٧ بيروت . تحت عنوان : روائع الادب الفرنسي الكلاسيكي .

(٢) المصدر نفسه ص ١٦ .

الناشزة ، والاشخاص المعقدين أو المشوهين : أي مرضى النفوس ·· وهي قد تحمل عنصر التحدي ، والشماتة ·· الا أنها تحمل ـ ويجب أن تحمل ـ الشوق الى التقويم ، والرحمة بالآخرين ·· وعدم الانتقام منهم ، أو من الحياة ، عبرهم ·· كما كان يفعل ابن الرومي في أكثر أهاجيه ··

السخرية الضاحكة ابداع : وفي السخرية الضاحكة شجاعة وذكاء ومهارة ، كثيرا ما دفعت بالشاعر ، أو الكاتب ، الى السخرية من نفسه ·· وقد عد موليير أدباء السخرية الضاحكة من « محسني الانسانية ، وأطبائها » ·· لكن روسو يخشى ، من هذا الفن ، على الناشئة ، اذ يحبذ لها ، دون أن يشعر ، الرذيلة ويبعدها تلقائيا عن الفضيلة حين يوغل في تصوير الرذيل والرذيلة ، متناسيا الفاضل والفضيلة (١) ·

روح السخرية وصناعة الملهاة : يقول ليون شانصوريل : (٢)

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٧ ..
(٢) صاحب كتاب : تاريخ المسرح الذي قمنا بترجمته الى العربية عام ١٩٦٠ . صدر عن منشورات عويدات ـ بيروت .

« منذ فجر المسرح الى يومنا هذا ، ومنذ كانت الاحتفالات الدرامية الأولى حتى مأساة : « ايشيل وكلوديل » منذ الأقاصيص البدائيـة المعروضـة بواسطة شخصيات تمثيلية ، الى الازمنة الحديثة ، حيث ظهرت بمعناها الجديد كما ظهر على المسرح احياء الأحداث ، والتشخيص بالحركات ، والمواكب الاستعراضية ، وحوادث التاريخ ..

ومن نشوة الكرامين ، والفلاحين في عربداتهم الساخرة ، الى فتنة الملهـاة الارستفانية ، ومـن التمثيليات التهريجية ، الى ملاهي موليير وتابعي طريقته ، ومن مسرحيات القرون الوسطى بمختلف أشكالها ، الى استعراضات الكباريه في أيامنـا ، وظهور الشخصيات التهريجيـة الثابتة في سائـر البلدان مرورا باسكاناريـل الايطالـي ، والكلون الانكليزي ، وغينيول الفرنسي ، وقراقوز التركي ، حتى شارلي شابلن ، دون أن ننسى البوليشينيلا ، والبونش .. الخ .. (١) عبر كل هـذه الأدوار التاريخية ، والشخصيات الشهيرة في عالم الكوميديا كانت روح السخرية هي المهيمنة والرائدة .. وهي

(١) للتفصيل انظر المصدر نفسه ص ٨ وما بعدها .

روح متأصلة في الانسان منذ كان ، تظهر في الافراد، كما تظهر في الجماعات ، ورائدها دائما التنفيس عما في باطن الانسان من هموم وآلام واحساس عميق بالفاجعة •• وكأن الانسان الساخر يرد بها ضربات القمع ، والاضطهاد ••

وجاء في كتاب : ديوان الشعر العربي (ج ٢ ص ن) تعريف للسخرية للشاعر أدونيس جدير بالتسجيل هنا ، وهو : « السخرية منفى ، فيه يشك الشاعر بالآخر ، ويشك بنفسه •• المجتمع يسحق الشاعر بلا مبالاته وانكاره ، فيسحقه الشاعر بأن يسخر منه ، ويحتقره • ان السخرية في الشعر العربي تحل ، أحيانا ، محل التراجيديا •• وهي ، عدا ذلك ، تخبىء حنينا عميقا الى الشفاء الروحي ، وحلما بنظام آخر في العالم ، حيث يجد الضحك والبكاء ، الفرح والحزن ، أشكالها وايقاعاتها الطبيعية •• » وقد « تتجمع كلها (أي كل ألوان السخرية) في نوع جديد هي ما نسميه : سخرية الرصانة الفاجعة ، كما تمثلت في شعر أبي العلاء المعري » •

وبما أن الفلسفة العلائية الساخرة متأثرة الى

حد كبير بمفهوم المتنبي للحياة والأحياء وبمواقفه الساخرة المتعالية ·· فيمكننا القول ان هجاء المتنبي لكافور جاء تجسيدا كاملا لتلك السخرية التي عناها أدونيس وسماها : سخرية الرصانة الفاجعة ، حيث تنقلب ملهاة العبث واختلال القيم ، الى مشهد مأساوي كئيب يبكي فيه الشاعر نفسه والآخر والمصير والقدر ·· أما عناصر الاضحاك في سخريته تلك فلا نكاد نقع على خيوط مشعة لها ·· نحن مع المتنبي ، في سخريته ، لا نضحك كما ضحكنا مع ابن الرومي ، ولا نفحص الأرض بأرجلنا ، كما فعلنا مع الجاحظ في نوادر بخلائه ·· بل نكاد نبصق معه على التفاهة والتافهين وعلى الحياة والناس أجمعين ·· بعد أن نرثي له ونأسى لمصير الكبار حين يضطرون الى العيش مع الصغار ···

وما كان أجدر من أبي نواس وابن الرومي والجاحظ والمتنبي وأبي العلاء بصناعة الملهاة على اختلاف أنواعها ، لو عرف العرب فن الكوميديا حق المعرفة ·· فلم يكن ينقصهم الخيال ، ولا التحليل ، ولا السخرية · ولكان عصرهم ومجتمعهم رفداهم بمختلف أنماط الشخصيات المنحرفة ، والقيم

المزورة ، فقد كان من أغنى وأعقد العصور العربية على الاطلاق ، سواء في القرن الثاني والثالث والرابع الهجري ، أو ما بعد هذه القرون، غني في عقده ، معقد في غناه وترفه وقيمه وحضارته ...

في مثل هكذا عصور تنشأ الملهاة وتبرز السخرية .
يقول جورج ميريديث ، في كتابه : دراسة حول الملهاة ، واصفا ظاهرة انتشار السخرية في الأدب ، خاصة تلك التي تمتاز بالحكمة والاعتبار ،والدعابة الخبيثة ، قائلا : « انها تظهر كلما أصبح الناس غير متزنين ، ومتصنعين مدعين ، ومنافقين متبجحين بما يعلمون ، ومفرطين في رقتهم .. وكلما خدعوا أنفسهم ، أو اندفعوا على غير هدى ، أو تكالبوا في تأليه ما أحبوا ، أو انتهوا الى غرور تافه ، وكلما تبنوا المستحيلات ، وخططوا دونما تقدير ، وتآمروا بجنون ، ونادوا بآراء لا يؤمنون بها ، وهتكوا حرمة العادات التي تلزمهم بالتقدير المتبادل ، أو كلما أهانوا العقل السليم ،والعدالة المنزهة، أو تظاهروا بخفض جناح الذل ، وكلما تآكلهم الغرور أفرادا

وجماعات » .. (١)

ألم يكن ناس عصر المتنبي كهؤلاء الذين يصفهم ميريديث ؟ وعلى نحو أسوأ !

ألا يحق له ، حين يسخر منهم ، أن يبكي عليه وعليهم ؟! ألم يكن يرثي نفسه والانسانية جمعاء حين هجا كافورا ؟ وأمام وجه الحياة الأسود ، وفي صميم الشعور بالمأساة ، لا يمكن للمتنبي أو لسواه أن يَضحك ويُضحك (٢) ساعة تتفجر السخرية المرة من كيانه وعبر يراعته ..

هجاؤه لكافور :

بعد محاولة الالتحام الفاشلة بين المادح

---

(١) للتفصيل ، انظر ترجمتنا لكتاب : تاريخ المسرح ص ١١٣ — ليون شانصوريل منشورات عويدات ١٩٦٠ بيروت .

(٢) لا نستطيع — هنا — ولا نريد عرض فلسفة فيزيولوجية للضحك ، كي لا يخرج بنا البحث عن نطاقه ، ونكتفي بالاشارة الى نوعين متمايزين للضحك : الضحك البريء ، او الضحك المغتبط .. والضحك المتهجم اللاذع ، او الضحك الملتزم . وقريب منه ضحك المتنبي المتجهم الذي تطل منه الشماتة والتشفي والاقذاع بأقسى وافسى صورها ..

والممدوح : بين الابيض والاسود •• كان لا بد للمتنبي ان ينفجر ، أخيرا ، ويصب جام غضبه الساخر ، أو سخريته الغاضبة ، لا على كافور وحده بل على الانسانية جميعا •• ويرى السواد في كل شيء من خلال سواد هذا العبد الزنيم •• وتبدأ المأساة ــ المهزلة •• ويصب المتنبي حقده الدفين ، ويعكس له كافور الناس أجمعين ، فيمسك بتلابيبه ويهشمه •• وكأنه يمسك بتلابيب كل انسان أسود العقل واللون والضمير ، وقف ضده ، وصده عن غايته ••

من هنا ، ولهذا الموقف ، نحس في هجائه لكافور الصدق ، كل الصدق ، والحرارة ، كل الحرارة والشهوة في الانتقام •• حتى الموت ••

والمتنبي ــ في هجائه عامة ــ يغتسل ، حتى التطهر ، من أوضار ما لحق به من دنس الآخرين •• وهو لم يتخذ الهجاء ــ كالمدح ــ للتكسب •• بل لمجرد الانتقام من حساده ، ورد الاعتبار لنفسه بعد تطاول التافهين عليها •• كما أنه ، في الأساس ، يحمل بذور الرفض ، والشك ، والنقمة على كل شخص ، وكل شيء ، وعلى لعبة الحياة والموت

نفسها ... ولهذا كله كثرت في قصائده عامة ، وأهاجيه خاصة ، صيغ التصغير ، والتحقير ، والتشويه ، والهجاء الاخلاقي الذي ينتزع صوره من قاموس المتنبي الخاص ...

أما أشهر أهاجيه ، وأبرعها ، فتلك التي قالها في كافور أثناء تهيؤه للهرب من مصر .. ويبدو أنه قالها ليلة عيد الأضحى :

عيد بأية حال عدت يا عيد
بما مضى أم لأمر فيك ، تجديد
أما الأحبة فالبيداء دونهم
فليت دونك بيدا دونها بيد
يا ساقيي ، أخمرا في كؤوسكما
أم في كؤوسكما هم وتسهيد
أصخرة أنا ؟ ما لي لا تحركني
هذي المدام ، ولا تلك الأغاريد
ماذا لقيت من الدنيا واعجبه
اني بما أنا شاك منه محسود

لأول مرة نجد الانسان المنسحق ، في أبي الطيب ، يطغى على الانسان الثوري فيه .. ها هو ينشج ،

بدل أن ينشد ، يرثي نفسه ، بدل أن يرمي بكافور أرضا في ضربة قاضية ٠٠ ها هو يلتفت الى كافور وأتباعه ــ بعد أن بكى حظه من الدنيا ــ فينعتهم بالكذب ، واللؤم ، والجحود ، وأكلهم مال الشعب حتى التخمة ٠٠ ثم يعير كافورا بلونــه ، ونتــن رائحته ، وأخلاق العبيد التي فيه ٠٠ كل ذلــك باندفاق وجداني غزير ، وصور هجائية قاتلة ، يبدو معها المتنبي ، وكأنه قد تماسك من جديد ، وأوحى له شيطان شعره بأنك أنت الاقوى أيهــا الشاعر ٠٠ وأنت المنتصر في النهايــة ٠٠ فيروح يفرغ كل ما في نفسه من حقد ، وألم ، وازدراء :

انــي نزلــت بكذابــين ، ضيفهــم
عن القرى ، وعن الترحال ، محدود(١)

مــا يقبض الموت نفســا من نفوسهم
الا وفي يــده ، من نتنهـــا ، عــود

---

(١) كان ابو الطيب قد اقام ، بعد انشاده قصيدته البائية ، سنة لا يلقى كافورا ، ولكن يسير معه في الموكب لئلا يوحشه وهو يعمل على الرحيل عنه في ستر ، فأعد الابل ، وخفف الرحل [illegible] وقال يهجوه في يوم عرفة سنة ٣٥٠هـ . قبل رحيله بيوم واحد ؛ الديوان حاشية صفحة ٣٣٦ شرح اليازجي ٠

أكلما اغتال عبد السوء سيده
أو خانه ، فله في مصر تمهيد ؟!
نامت نواطير مصر عن ثعالبها
فقد بشمن ، وما تفنى العناقيد ..
العبد ليس لحر صالح بأخ
لو أنه في ثياب الحر مولود
لا تشتر العبد ، الا والعصا معه ،
ان العبيد لأنجاس مناكيد ..

لقد سد عليه غضبه وثأره لكرامته كل باب من أبواب الرحمة . وغابت كل رموز الانسانية في كافور .. ولم يعد يرى فيه الشاعر المنتقم ذلك الانسان ، أو الشيء الذي كان قبل قليل « انسان عين زمانه » انها أصداء حقد دفين ، على كافور وأشباه كافور .. تجمعت في حناياه .. وها هو يطلقها مدوية ، فاضحة ، مميتة .. وفي لحظة صحو خاطفة .. يحاول أن يجد عذرا لكافور ، في طغيانه ، ولؤمه ، ولكن العذر ينقلب منقصة جديدة يرميه بها ...

من علم الأسود المخصي مكرمة
أقومه البيض ، أم آباؤه الصيد ..

أم أذنه في يد النخاس دامية
أم قدره ، وهو بالفلسين مردود ..

وللمتنبي في كافور هجائية أخرى تحل فيها السخرية الضاحكة محل سخرية « الرصانة الفاجعة » و «لكنه ضحك كالبكا» كما يقول :

أمينا ، واخلافا ، وغدرا ، وخسة
وجبنا ٠ أشخصا لحت لي أم مخازيا ؟!
وتعجبني رجلاك في النعل ، انني
رأيتك ذا نعل ، وان كنت حافيا
فان كنت ، لا خيرا ، أفدت ، فانني
أفدت بلحظي مشفريك الملاهيا
ومثلك يؤتى من بلاد بعيدة
ليضحك ربات الحجال البواكيا ..

فقد جعل من مهجوه مجموعة نقائص ، ومخاز ، لا شخصا حقيقيا .. ثم سخر من رجلي كافور المشققتين كرجلي بعير .. ومن مشفريه ، ومن شكله .. فجعله مهرجا (أو كراكوزا) يؤتى للتفرج عليه من بلاد بعيدة .. حتى انه يضحك الثكالى .. تلقاء المشاهدة ..

وتراه يعمم حين أراد التخصيص :

أغايــة الدين أن تحفــوا شواربكــم
يا أمة ضحكت من جهله الأمم ٠٠ (١)

ومن أشد أهاجيه ايلاما ، وايجازا ، وروعة فن وتصوير ، هذه الاهزوجة الحزينة :

وكم ذا ، بمصر ، من المضحكات
ولكنــــه ضحـــك كالبكــا
واســـود مشفـــره نصفــه
يقـــال لــه أنــت بدر الدجى
وشعر مدحــت بــه الكركــدن
بــين القريض ، وبين الرقــى
فما كــان ذلــك مدحــا لــه
ولكنه كان هجــو الــورى ٠٠

فالبراعة في هذه الارجوزة تقوم على ألوان مــن الطباق ، تساعد على اخراج صورة ، طريفــة ،

---

(١) اشارة الى شاربي كافور الحليقين .. ولحيته الطليقة .. وفقا للحديث النبوي القائل : حفــوا الشوارب ، وعفوا عن اللحى .. لكن مسلمــي زمانه ، ومنهــم كافور ، قد اكتفوا من اسلامهم بالمظهر دون المخبر ...

وكئيبة ، لكافور وحاشيته ‥ ورعاياه الذين يتملقونه ، فيمتدحون علمه ، وهو جاهل ، وجماله ، وهو قبيح ‥ واذا من كل ذلك ضحك يحمل كل معاني البكاء ، وسخرية هازلة تحمل كل معاني المأساة ‥ وها هو يعلن أن مدحه لكافور (أو الكركدن) لم يكن ، في الواقع ، مدحا ‥ بل كان ، حين اضطر الى مدحه ، يهجو الناس جميعا ‥

وحين اضطر الى الاسفاف في هجائه ، لم ينحط الى درجة البذاءة ، والفحش ، ما خلا هجاءه لضبة وأمه الطرطبة ‥ التي قالها في يفاعته ‥ وكان في شبابه ينكرها ‥ لكنها ، ويا لسخرية الاقدار ، كانت سببا في هلاكه ‥ (١)

---

(١) لا يثبتها كلها في الديوان اكثر جامعيه وشارحيه لما فيها من بذاءة وقذف .. جاء في مطلعها :

ما انصف القوم ضبة … وامه الطرطبة
وانما قلت ما قلت … رحمة لا محبة
وما عليك من القتل … انما هي ضربة
وما عليك من الغدر … انما هي سبة
كذا خلقت ومن ذا … الذي يغالب ربه
ومن يبالي بذم … اذا تعود كسبه ..

(الطرطبة : مسترخية الثديين) الخ .
انظر : الديوان ص ٦٤ شرح اليازجي .

المتنبي والرثاء : الرثاء الداخلي :

ما دام المتنبي ، في لا تشابهه ، وصراعيته ، وغربته عن الناس ، وتعاليه ، قد خلق لغير زمانه ·· فمن الطبيعي أن يصطدم بالناس ، وينكسر ·· وتتم لديه غربة ثانية هي غربته عن آماله وغاياته المستحيلة ··

ويبرز المتنبي بين الغربتين محتضنا ذاته وعقله وتأتي الشاعرية القادرة لتغطي كل ذلك ، سواء في المدح ، أو الفخر ، أو الهجاء ، أو الوصف ·· بالفخر والاباء والعنفوان ··

لكن خيوطا من نور ضبابي ، يشعشعها قلب حزين ، تلوح بين ظلال القصيدة ــ أية قصيدة ــ ان متنبئا آخر يختبىء فيها ليرثي نفسه ، ويعلن فجيعته بالزمن ، والحياة ، والموت ، والآمال ·· غير أنه لا يسمح بالظهور على السطح الا لمتنبي الرفض ، والكبرياء ، والتماسك ·· فأبو الطيب ــ بهذا الاعتبار ــ يعد شاعر الرثاء الاول : رثاء الانسانية كلها ، رثاء الضياع العربي ، والتشرذم ، وعبثية الوجود ·· رثاء القيم العربية ، والرجال

الكبار الذين لم يعد يرى لهم أثرا في زمانه ·· الا كما يكون السراب ··

الرثاء الخارجي :

أما الرثاء التقليدي الخارجي ، فقد رثى المتنبي كثيرين : منهم من دفعه الى رثائهم صدق عاطفته ، ومنهم من حملته المجاملة على ذلك · وليس في هذا النوع الثاني من الرثاء ما يحمل قيمة فنية كبرى ، لولا بعض المعاني التي ارتفعت عن مناسبتها فكانت حكما سائرة ·· والمتنبي أبرع من صاغ المناسبة الصغيرة حكمة عامة ، كما سوف نرى بعد قليل ، أما النوع الاول فحار وصادق ، كرثائه لجدته ولأخت سيف الدولة ··

أ ـ رثاؤه لجدته :

لم يبق للمتنبي أثناء طوافه في الارض العربية سوى جدته لأمه ، المقيمة في الكوفة · ويوم هبط شاعرنا العراق ، بعد فراره من مصر ، أرسل اليها كتابا يدعوها فيه الى الالتحاق به في بغداد · فلما قرأت الكتاب ، وكانت قد يئست من لقاء حفيدها ،

فرحت به فرحا شديدا ، أثر فيها فماتت . وكان المتنبي يؤثرها بالحب ، ويتلهف لرؤيتها بعد طول غياب ، فرثاها كمن يرثي آخر أمل له في الحياة .. وضمن هذه المرثية كل ما في نفسه من شوق الى جدته ، وما هو فيه من استلاب واحباط .. وفجيعة، وبقايا صمود :

لك الله مـن مفجوعة بحبيبهـا
قتيلة شوق غـير ملحقها وصمـا
أحن الى الكأس التي شربت بهـا
وأهوى لمثواهـا التراب وما ضما
أتاها كتابي بعـد يأس وترحـة
فماتت سرورا بي فمت بهـا غما
حرام على قلبي السرور ، فانني
أعد الذي ماتت به ، بعدها ، سما

رثاء ــ كما ترى ــ تقليدي ، يمسك به العقل ، فلا تفجره العاطفة الا بمقدار ..

ثم ينتقل الى لوم نفسه على فراقها ، كل تلك المدة ، وأسفه على ما هدر من حياته ، بعيدا عنها ، في طلب السراب الخادع :

طلبت لهـا حظـا ففاتـت وفاتنـي
وقد رضيت بي ، لو رضيت بها قسما
هبيني أخذت الثأر فيك مـن العـدى
فكيف بأخذ الثأر فيك مـن الحمـى

وهو لا ينسى ، في غمرة بأسه ، وحزنه ، حساده ، وكائديه ، فيتصورهم فرحين بموتها ، شامتين به ، فاذا به يثور ، وينتقل فجأة من الرثاء ، الى الفخر ، مؤكدا لاعدائه بأنه ما زال ذلك الفتى المرهوب :

ولو لم تكونـي بنـت أكرم والد
لكان أباك الضخم كونك لي أما ..
لئن لـذ يوم الشامتـين بموتهـا
فقد ولدت منـي لأنفهم رغمـا
تغرب لا مستعظمـا غـير نفسه
ولا قابـلا الا لخالقـه حكمـا
يقولون لي ما أنـت في كل بلـدة
وما تبتغي؟ما ابتغي جل أن يسمى
واني لمن قـوم كـأن نفوسهـم
بها أنف أن تسكن اللحم والعظما

فهو ، في هذه الأبيات يخرج من دائرة الرثاء الى دائرة نفسه ، ملخصا سيرته الماضية ، مصورا آماله

ومطامحه ، معتبرا موت جدته كمصاب أخير يضيفه الدهر الى مصائبه الكثيرة ، حتى لم يعد في كيانه محل للمزيد ٠٠ وحتى « تكسرت النصال على النصال ٠٠ وواضح أنه لا يريد الاسترسال في تفجعه ، كيلا يعد حساده ذلك منه استسلاما أو ضعفا ٠٠ ويدل أن يبقى في دائرة الفجيعة ٠٠ بدل أن يصور « حالة » نراه يسارع ، عقلانيا ، الى تحويلها الى « موقف » وهذا ، في نظري ، مما يضعف الشعر ، ويرهق الشاعرية ٠٠ ولا يصل الى الفلسفة ٠٠ لكنه يشارفها :

كذا أنا يا دنيا ، فان شئت فاذهبي
ويا نفس زيدي في كرائهها قدما
فلا عبرت بي ساعة لا تعزني
ولا صحبتني مهجة تقبل الظلما ٠٠

ومهما ترجح الشاعر بين حالة ، وموقف ، فانه قادر دائما على تصوير لوعته وصدق عاطفته ، مازجا اياهما بمشاعر اللوعة ، والحنق ، والغيظ ، والشعور بالخيبة ٠٠ واذا به يرثي ويفتخر في آن واحد ٠٠ صحيح انه ينظر الى جدته من خلال نفسه ، وانه لا يعنى بتصوير شمائلها وفضلها

عليه ، والبقاء معها في جو رثائي خالص •• الا أنه يبدع راثيا ، ويبـدع مفتخرا •• ويبقى ذلـك القادر على تحويل الحالات الى مواقف •• والمواقف الى حالات في صدق وبراعة تعبيرية هائلة ••

رثاؤه لخولة أخت سيف الدولة :

ماتت خولة ، وكان المتنبي في العراق ، بعد هربه من مصر ، فأثار موتها في نفسه ألوانا من المشاعر ، منها مشاعر الاعتراف بالفضل ،ومشاعر الاعجاب ، اذ أن خولة كانت من حزب الشاعر ، اذا صح التعبير ، تشمله بعطفها ، وتدافع عـن شعره ، وشاعريته ، وتصد عنه الحساد ، والمتآمرين بوساطتها لدى أخيها ، وكانت خولة ، الى جانـب ذلك ، أديبة تتذوق الأدب ، وترعى الأدباء ، وترى في شعر المتنبي النموذج الارقى لكل ما سمعته من شعر الشعراء •• وربما كانت خولة أيضا المرأة التي خفق لها قلب المتنبي •• وأحبها في صمـت وتهيب ـ كما سبق القول ـ حتى اذا ماتت حز ذلك في قلبه ، فرثاها رثاء الاخاء والولاء الممزوجـين بعاطفة حب دفين • قال :

طوى الجزيرة حتى جاءنـي خبر
فزعت فيه بآمالي الى الكـــذب

حتى اذا لم يدع لي صدقه أملا
شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

أرى العراق طويل الليل مذ نعيت
فكيف ليل فتى الفتيان في حلـب

يظن أن فـؤادي غـــير ملتهـب
وان دمـــع جفونـي غير منسكب

بلى ، وحرمـة من كانت مراعية
لحرمة المجد ، والقصاد ، والأدب

الى أن يقول :

ولا ذكرت جميلا مـن صنائعهـا
الا بكيت ‥ ولا ود بلا سبب ‥

لقد استهل رثائيته بمطلع آخر هو :

يا أخت خير أخ ، يا بنت خير أب
كناية بهما من أشرف النسب (١)

---

(١) الديوان شرح اليازجي ص ٢٨٠ .

لكننا آثرنا هذين البيتين كمطلع أروع وأجمع: (طوى الجزيرة) ··اذ فيهما يصور الشاعر الهاجر الذي هتك الخبر الأليم حجاب هجره ·· فتكشف عن انسان ألوف لا يزال يحن الى « فتى الفتيان » سيف الدولة ، رغم كل شيء ·· يصور شدة وقع المصاب عليه ، هذا المصاب الذي لم يكد يكذبه في ظنه ، حتى صفعته الحقيقة المرة ·· فشرق بدمعه ، حتى كاد دمعه يشرق به ·· وهذه مبالغة يراها طه حسين مبتذلة وغير معقولة ·· وخطأ العميد دائما انه يحاسب الشاعر على معانيه ، لا على حالاته ·· وحين نقيم الشعر حسب جودة المعنى أو ابتذاله ، نسقط أكثر الشعر العربي الذي تعاور شعراؤه على معنى واحد يكررونه في قوالب مختلفة وصور شتى ·· ان هذا الاعتبار قد سقط نهائيا خاصة في ميزان النقد الحديث ، الذي تخطى موازين العميد ·

أما البيت الثالث ففيه التفات جميل الى سيف الدولة حيث يحمل التعبير الموفق كثيرا من حنين الشاعر ووفائه ، ومكنونات الالفة الطويلة ، والمشاركة في المصيبة ·· ولعل سيف الدولة قد ظن أن المتنبي سوف لا يتأثر لمصابه في شقيقته ، فدفع

له المتنبي هذا الظن ، مقسما بخولة نفسها ، وبشمائلها الفريدة في النساء ٠٠ (١)

شاعر الحكمة :

حكم المتنبي مجموعة آراء وخواطر سانحة ، جاءت وليدة التجربة المرة في صراعه مع الحياة والأحياء ، كما أن بعضها جاء وليد الفكر المثقف الذي يجول في كل ميدان ، وعصارة الفن الناضج الذي يسكب المعاناة رأيا ، والرأي حكمة ٠٠ وهي ، اجمالا ، لا تشكل فلسفة الشاعر في الحياة والموت ، والانسان ، بقدر ما تشكل سوانح ، وخطرات ملتهبة ٠٠ ودعوة الى نوع معين من الاخلاق ، والسلوك يحمل طابع الرفض والسلب في نظر معاصريه ، لأنه لم يعد مألوفا في زمان المتنبي سوى الهوان والاستسلام ، والغدر ، والكذب ، والتحايل، والظلم ٠٠ كما يحمل بذور تشاؤم صارخ ، يعتبره طه حسين تمهيدا قويا لفلسفة الشك والتشاؤم عند أبي العلاء ٠

---

(١) يرى الاستاذ محمد شاكر وغيره ان المتنبي كان يحب خولة ، وان سيف الدولة وعده سرا بها .. فاتصل ذلك بعلم ابي فراس ، وكان سببا في العداوة بين الرجلين (المقتطف) .

من هذه الآراء والخواطر التي لونتها العاطفة وصاغها العقل والفن صياغة الحكمة :

ـ غاية الحياة :

ليست الحياة في نظر المتنبي غاية تطلب لذاتها ، بل وسيلة لتحقيق أمر عظيم ، وقيمتها تقاس بمقدار نوعية هذا الأمر ٠ وقد كانت غاية المتنبي ـ كما علمنا ـ المجد والسلطان ٠٠ وقد تغنى بذلك في أكثر شعره ، خاصة في عهد الشباب ٠٠ ولكن ما نوع هذا المجد الذي يطلبه المتنبي ؟

ان المجد عند المتنبي مجد فروسي ، تبنيه القوة الجسدية ، والمناعة الخلقية ، وهو مرتبط بالثروة والنفوذ ، والعصامية :

ـ فلا مجد في الدنيا لمن قل مالـه
ولا مال في الدنيا لمن قل مجـده

ـ ولا تحسبن المجـد زقا وقينـة
فما المجد الا السيف والفتكة البكر

ـ ولسـت بقانـع مـن كل مجد
بأن أعـزى الى جـد همـام ٠٠

وهو يأخذ نفسه بكثير من الارهاق ، والتقشف ، والحرمان ، ويتفرد عن الناس بألوان شتى من الامتيازات الخلقية ، والفكرية ، والذوقية ·· حتى لذته تكاد تكون أبيقورية أو صوفية :

سبحان خالق نفسي كيف لذتها
فيما النفوس تراه غاية الألم ··

الحياة والموت : القوة في مجابهة القدر :

ان القوة التي يتغنى بها المتنبي ليست قوة الساعد ، ومضاء السيف فحسب ·· وانما هي قبل كل شيء قوة في النفس ، وفي الاخلاق ، وسداد الرأي ·· قوة أمام الحياة بكل مخاطرها ، ومصائبها وقوة في احتمال الألم ·· وقوة أمام الموت ·· وقوة نفسية خلقية تتجلى في ممارسة الوفاء والصدق ممارسة يومية ·· قال ابن جني : « ما رأيت المتنبي الا صادقا » ·· وقوة في التمسك بالكرامة ، والتضحية من أجلها بالحياة ، ان عزت الحياة الكريمة ·· لأن الكرامة تعادل الحياة بل تفوقها قيمة ورمزا ·· ومن خلال هذا المعنى نظر المتنبي الى الموت فلم يثر الموت في نفسه ما يثيره في الآخرين من مرارة وخوف ، وغصة ، وحسرة ·· رأى في

الموت تعبيرا عن قوة الارادة ، وعزة النفس . ان الموت أهون من الحياة الذليلة ، وقد يكون مطلبا وحيدا للانسان ، حين تعز الحياة العزيزة ، ويكثر الظالمون :

غير ان الفتى يلاقي المنايا
كالحات ، ولا يلاقي الهوانا

والحياة الذليلة أسهل طرق الحياة .. ومن تشبه بالذليل ذل :

ذل من يغبط الذليل بعيش
رب عيش أخف منه الحمام

اذن فليكن الموت موت الشجعان والشرفاء ، لا موت الضعفاء العاجزين :

واذا لم يكن من الموت بد
فمن العجز أن تكون جبانا

ذلك لأن طعم الموت واحد في الحالتين :

فطعم الموت في أمر حقير
كطعم الموت في أمر عظيم

والموت لا يعف عن الجبان ، ولا ينفرد بالشجاع ، وميتة الجاهل كميتة العالم :

يموت راعي الضأن في جهله
ميتة جالينوس في طبه

ولو كان الجبن يطيل العمر ، أو يحفظ الحياة ، لكانت الشجاعة حمقا ، والشجعان أضل الناس :

ولو ان الحياة تبقى لحي
لعددنا أضلنا الشجعانا

وقد يحتال الجبناء فيفلسفون جبنهم ويصفونه بالتعقل ، والروية والحزم ·· وتلك في نظر المتنبي ، خديعة ولؤم :

يرى الجبناء أن العجز عقل
وتلك خديعة الطبع اللئيم

ب ـ النظرة الى الناس والمجتمع :

موضوعيا ، تفهم من خلاصة موقف المتنبي ،ونظرته الى الحياة والأحياء ثلاثة مبادىء ، بدت وكأنها أساس تلك النظرة :

- ان الحياة الاجتماعية صراع مستمر بين الناس·
- ان الانسان بطبيعته شرير ، فاسد ، مفسد ··
- ان القيم الاجتماعية ليست سوى حيل يحتال بها الناس ، لدفع أذى ، أو نيل مأرب ·

أما نفسيا ، فنعرف أن المتنبي خلق للمجابهة والتعالي ، وبالتالي ، للانتماء ·· أي السلبية ·· في عصر لا يمكن للحر فيه الا أن يكون سلبيا أمام قيم المجتمع البالية ·· ومفاهيمه المقلوبة ··فالشك في كل شيء ، ايام المتنبي ، كان أبرز صفات العالم والانسان المتقدم ، والشاعر الثائر·· وتكون النتيجة خروجا تاما من دائرة الانتماء ، والقبول·· الى دائرة اللاانتماء ، والرفض ، ولا وسطية ، أو دونية ، عند الأحرار المميزين ··

وقد استمد المتنبي من تلك المبادىء نصائح ، غير مباشرة ، وقواعد للسلوك ، صاغها صياغة الحكم ، وألح عليها ، في كثير من قصائده ·· وكل قاعدة منها ترسم خط سلوك واضح ، للانسان القوي ، عقلا وجسدا ، والجدير بالحياة ·· فاذا هو انسان اقتحامي ، لا يشكو ، ولا يتذمر شيمة القاعدين ·· مغامر ، حذر ، لا يطمئن الى أحد ، ولو تودد :

وكن على حذر للناس تستره
ولا يغرك منهم ثغر مبتسم

ظالم لا يرحم ، فالرحمة غفلة ·· والمودة حيلة ،

ومن رحم الناس ظلم نفسه :

لا يخدعنك مـن عـدو دمعـه
وارحم شبابك من عدو ترحم
والذل يظهر في الذليـل مـودة
وأود منه ، لمن يود ، الارقـم

ثائر يصون كرامته بالدم لا بالحلم :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى
حتى يـراق على جوانبـه الدم

قوي مقدام ، لا سائل ولا متخاذل :

من أطاق التماس شـيء غلابـا
واغتصابا··لم يلتمسه سؤالا··

شرير ظلوم ، وشر منه عصره : تلك هي القاعدة !
خيّر رحيم ، كما يريد الأذلاء : ذلـك هو شواذ القاعدة !

فالرحمة ـ اذن ـ علة ، ومرض ، وانهزام ··
والنقمة صحة والتزام :

والظلم من شيم النفوس فان تجد
ذا عفـة ، فلعلـة لا يظلـم

منطق تبريري ، من وحي العصر ، وليس فلسفة ٠٠
وعلى كل حال ، فمسألة كون الانسان ظالما وشريرا بطبيعته ، أو عكس ذلك ، فمتروكة لعلماء النفس والتربية ، وهي حتى الآن ، لم تحسم ، بالرغم من الدراسات المستفيضة حولها ، في الشرق والغرب ، ناهيك بتعاليم الديانات الارضية والسماوية ، وما قررته حول طبيعة الانسان ٠٠

والمتنبي حين يقول : والظلم من شيم النفوس ، لا يقرر مبدأ أشبعه درسا ، لكنه يصور واقعا عاناه، ولمسه لمس اليد ، وتأذى منه بالاحتكاك والممارسة ، والتعامل مع الآخرين ، فوجد أنه ان لم يكن ذئبا أكلته الذئاب ٠٠ وان لم يَظلم ظُلم ٠٠ ولا خيار فأطلق صيحته ٠٠ ولا نقول أطلق رأيه ، أو فلسفته ٠٠ وهذا حسبه ٠٠

مفهوم الزمان :

ومفهوم الزمان ، عنده ، كمفهوم المكان : الزمان نسبي ، وفقا لحالة الانسان ، فهو تمدد في المكان ، أمام الخاملين ٠٠ وهو حاجز كبير أمام القادرين ٠٠ لكنهم ، بقدرتهم ، يستطيعون تخطيه

والانتصار عليه بالانجاز الكبير ·· كما يمكنهم أن يتحدوه وان تحداهم ·· وأن يخضبوا بالسيف شعر مفرقه على حد تعبير المتنبي :

ولو برز الزمان الـي شخصـا
لخضب شعر مفرقه حسامي !

والمكان نسبي أيضا : هو للخائرين مستراح بليد ، وللمغامرين منطلق لسفر دائم ·· نحـو المجهول ·· من قمم المجد ·· فالزمان لا يصـد الانسان ، ويقاومه ، الا بمقدار رغبـات هـذا الانسان ، ومطامحه ·· والمصاعب علـى قـدر العزائم :

على قدر أهل العزم تأتـي العزائـم
وتأتي على قـدر الكـرام المكـارم

وتعظـم في عـين الصغير ، صغاؤها
وتصغـر في عـين العظيـم العظائم

أما السعادة فلا يشعر بها الا الخاملون الاشقياء لأنها سراب خادع ، وشقاء يظنونه سعادة ·· والعاقلون في نصب وضيق ومرارة ·· ولو كانوا في صميم السعادة :

ذو العقل يشقى في النعيــم بعقلــــه
وأخو الجهالــة ، في الشقاوة ، ينعم ٠٠

ويبدو ، فيما نستشفه من شعره وسلوكه ، ان المتنبي يريد أن يتصف بكل صفات « الامام » ٠٠ في زمانه ، وهي صفات فصلها الفارابي ـ وكان معاصرا للمتنبي ـ في « مدينته الفاضلة » حــين تحدث عن مزايا وخصائص « رئيس » المدينة ٠٠ فاذا على رأسها : العقل والحكمة والشجاعة ، ثم تأتي بقية الصفات الاثنتي عشرة ٠٠٠

نلاحظ ذلك في موقــف الشاعر من العقــل ، واعتماده عليه ، وصيانته ، في زمن غاب فيه العقل النظيف ٠٠ وغارت الكرامة ٠٠ اذن هو في المقام الأول :

الرأي قبل شجاعــة الشجعــان
هو أول وهــي المحــل الثاني

والعقل يجب أن يزود من المعرفة باستمرار :
وخير جليس في الزمان كتاب ٠

والعقل ، ثم الشجاعة ، هما للحر الأبي رأسماله الوحيد ، بين قوم من العبيد ٠٠ بهما يشق طريقه ويسود :

فاذا هما اجتمعــا لنفس حرة

بلغت من العليــاء كل مكــان

والجمال ؟ ما الجمال ؟ انه فتنة دنيوية زائلة ..
لو فكر فيها ذو العقل وأمعن التفكير ، لما افتتن ..
ولما عشق :

لو فكر الانسان في منتهى حسـ

ـن الذي يسبيــه ، لم يُسبه ..

يريد المتنبي ـ هنا ـ أن يخرج بالشعر الى دائرة
العقل المحض .. أن يتفلسف .. لكننا نقول له :
ان الجمال لا ينظر اليه الشاعر من الزاوية الأخلاقية ،
أو الفلسفية المحضة ..

على الشاعر أن يتأثر بالجمال ، أي جمال ،
ثم يحوم حول رموزه ودلالاته في جو من التعطش
والتذوق ، والاستيحاء ، ثم .. ينهمر التعبير عبر
شلال من الرؤى ، والاحلام ، والمعاناة .. اما أن
ينقلب الشعر الى فلسفة ، أو تفلسف ، فانه يفقد
أهم أركانه : الروعة ، والحرارة ، وقوة التأثير ..
ويصبح من عمل العقل البارد وحده .. قابلا للأخذ
والرد والمناقشة ..

تلك هي الملامح العامة للدعوة الاخلاقية والاجتماعية في نظر المتنبي •• وهذه هي الخطوط العريضة لنفسيته ، وسلوكه ، والصورة التي تصور بها المجتمع •• وكل ذلك مستمد ــ دون ريب ــ من أحداث حياته ، وواقع عصره ، وبيئته ، ونتائج مطامحه ، ومحاولاته ، التي تكسرت جميعها على صخرة الواقع الفاسد ، الأمر الذي كوَّن لدى المتنبي شعورا استبد به ، حتى استحال في نفسه الى مذهب •• فحكم ان الناس جميعا مفطورون على الشر ، وعلى البطش ، والظلم ، والتكلف ، والاحتيال ، كما تكوَّن لديه رأي مستمد من اضطراب الحالة السياسية في عصره ، وتشرذم العرب ، وتسلط الأعاجم عليهم •• هذا الرأي هو ان الحق للقوة الغاشمة ، وان هذه القوة هي القانون الذي يسود العلاقات بين الناس ••

والمتنبي ، وقد عاش تحت وطأة هذا القانون الصارم ، قد انساق بتياره ، ورأى فيه صورة لكل مجتمع •• ولعله على حق ، وعلى كثير من الصواب ، في كل ما ذهب اليه ، من آراء ،واستخلصه من عبر ، نظرا لوضوح الرؤية لديه ، وعمق الرؤيا في وجدانه ، وفهمه الصحيح لحقيقة تكوين

المجتمعات الفاسدة ، ومفهوم العدالة ، التي يسن قوانينها الاقوياء في العادة ، لا المستضعفون ٠٠ فتكون لصالحهم طبعا ـ كما يقول جبران ـ وعلى حساب الشعب دائما ٠٠ (١)

ويضيق بنا المجال ، في هذا الكتاب ، عن تعداد حكم المتنبي ، وتحليلها ، وردها الى ينابيعها في الذات ، والثقافة ، والمعايشة ٠٠ مما يقتضينا أفراد كتاب برأسه ٠٠ أو على الأقل ، دراسة مفصلة ، لا يتسع لها هذا الكتاب ، على أي حال ٠٠

أما غزارة حكم المتنبي ، فمردها في نظرنا الى الأسباب التالية :

● كان المتنبي شاعر التجربة المشبوبة والمعاناة اليومية ، والاحتكاك المباشر مع الناس ، كل الناس ، وكان ما يراه فيهم من نقائص ، وما يراه في نفسه من فضائل ، يثيره ، ويدهشه ، ويحيره ٠٠ فينطقه بالشعر الوجداني يصور فيه كل هذا التناقض ٠٠ وكل تلك الدهشة ٠٠ ولكي لا يضيع تحت وطأة جزئيات الدهشة ـ كابن الرومي مثلا ـ كان ينقلب من متأثر

(١) انظر المواكب لجبران .

منفعل ، الى مؤثر فاعل ، أي الى صاحب موقف هذا الموقف يجسده في رأي عام منتزع من صميم التجربة ، والحدث الجزئي ·· وهو ما يسمى بالحكمة ··

- والمتنبي ، صاحب المعاناة اليومية ، كان قادرا على التقاط المعنى العام من المعنى الخاص ، حيث يتدخل العقل بسرعة ليطغى على العاطفة ، ويتفاعل معها ، ويحللها ، ثم يضغطها في شكل حكمة سائرة ، ورأي عام ·· والمدهش ، ان المتنبي لم يكن يقصد الى ذلك اطلاقا ·· كانت العملية تجري تلقائيا بفعل قوة التأثر والحضور العقلي الدائم ··

- والمتنبي ، صاحب الحضور العقلي القوي ، كان ينهمر عقليا ووجدانيا على ما يراه ، ويحس به ، وكانت عملية الخلق الشعري عنده ، عملية تقويم ومقابلة ، وتأمل ، أكثر منها عملية تعبير عن الاحساس وحده ، أو تصوير فني لمشهد من مشاهد الحياة ، ثم الاستغراق فيه ، بحيث لا يتسع الوقت للنهوض على السطح وبدء عمل العقل ـ كما كان ابن الرومي يفعل حين يغيب في وحيد وصوتها ـ وأبو نواس حين يغيب بين

النشوتين .. على عكس المتنبي الصاحي دائما
حتى في خضم التجربة ، وصميم المعاناة ..
لهذا ، جاء شعره تأملا عقليا ، في المجتمع ،
والقيم ، والحياة ، أي حكميا .. يحمل آراء
مغايرة .. ولكنها مثيرة .. لأنها ليست من عمل
العقل وحده ، وليست منتزعة من قاموس
فلسفي معروف .. بل هي وليدة العقل
والوجدان معا .. الثقافة والتجربة في آن ..
حتى آراء غيره .. كان المتنبي قادرا على
صياغتها صياغة جديدة أروع وأوقع في الأذن
العربية .. حتى لكأنها له ـ كما قال ابن
الأثير ـ وكما يبرر الجاحظ ذلك حين قال :
« والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العربي
والعجمي ، والبدوي والقروي ، وانما الشأن

والقول بأن المتنبي سرقها ، أو سلخها ، أو
نسخها عن غيره مما جاء في الكتاب والسنة ، والفرق،
ومما عند الفلاسفة والمتصوفة .. هذا القول
لا نقف عنده ، كما وقف الاقدمون ، وبعض
المحدثين ، منه . لأن لنا رأيا مغايرا في حكمة
المتنبي ، وفقا لمفهومنا الجديد للصنيع الفني ،

وتقييمنا للابداع الشعري ·· نعرضه فيما يلي ، وبايجاز كلي :

أولا : الشاعر ليس هو الفيلسوف ·· وحينما نقول ان شكسبير تأثر بمونتين ، وميكيافللي ، وسكارون ، فهذا لا يعني أن شكسبير هو هؤلاء ·· بل يعني ان شكسبير الذي نضجت أفكار هؤلاء في ذاته ، قد أحيا هذه الافكار بشكل شعري ، وبرؤيا جديدة ، بمعنى انه استخدمها في « وهم رؤيـاه للعالم » كما يقول ت·س· اليوت ، وفي اندفاعه العظيم للحياة ·· والمتنبي (شكسبير العرب) لم يخرج عن هذا المفهوم ، حين تأثر بأرسطو وبالمتصوفة وسواهم ··

ثانيا : الشاعر ليس مفكرا ·· ولكن اذا كان الفكر أساس الرؤيا الشعرية عند الشاعر ، فهذا لا يعني مطلقا أنه شاعر فاشل ·· بمعنى أنه مجرد ناقل أفكار ، أو مقتبس آراء ·· بل هو شاعر مفكر ·· أو شاعر ذو تجربة ذهنية ·· استطاع أن يشحن « كل الافكار » الشائعة ، بكهربائية معينة تصدر عن « محول » كهربائي ذاتي يمكنه دائما من تحويل الافكار الباردة الى « طاقة »

نورانية جديدة محملة بتجربة الشاعر ، وأحاسيسه ورؤاه ·· بعيدا عن النثرية والاجتزاء ··

وهكذا نجد ان « حكمة المتنبي » جاءت افرازا ذاتيا لرؤياه العقلية والثقافية ، ولم تأت نقلا حرفيا من خارج ·· كما جاءت نتيجة حتمية لشاعر لا يستطيع أن يستوعب بقدر ما يستطيع أن يدرك الا أن هذا الادراك ظل محموما ومتوترا ، ومتقطعا ، يلوب حول الفلسفة ولا يدخلها ·· لذا ، لا نستطيع أن نعتبر رؤيا المتنبي العقلية عملا فلسفيا ، لأنها لم تكن تهدف الى ايجاد النظرية التي تفسر علاقات الأشياء ومبادئها ·· أو موقف الانسان من الوجود والعدم والله ·· بل ظلت ، حسب تعبير نيتشه ــ تلك « الحكمة الممتعة » التي تثير الخيال لادراك « حتمية التقاء الارادة بالعقل » ··

عند هذا الحد ظل المتنبي شاعرا ·· ولم يمت الشعر على يدي عقله ··

الوصف ، أو شعر الفروسية والملاحم :

حين اتصل المتنبي بسيف الدولة ، وجد فيه صورة ذلك الأمير العربي الذي يروي نفسه العطشى الى حياة القتال والمجد · فقد كان سيف الدولة

ـ كما علمنا ـ يمثل ، في نظر المتنبي ، أملا عزيزا ، في زمن ضعفت فيه الخلافة ، وأصبح الحكم لعبة في يد الخدم في بغداد ، وتمزقت فيه الامبراطورية، وكثرت غارات الروم على أطرافها • وكان على سيف الدولة أن ينهض وحده بحماية ذلك الملك المنهار • ناهيك بالشمائل العربية الأخرى التي تجمعت فيه من علم وكرم ، وشهامة واباء وبطولة• والتي ندرت في تلك الأيام •• فراح المتنبي يسجل كل ذلك في شعره ، ويتغنى بوقائع سيف الدولة بروائع جاءت أجمل ما في الشعر العربي •• شعر حماسي ملحمي مفعم بروح البطولة ، والحمية ، والاعتزاز بذلك الجيش العربي الباسل وقائده المظفر حتى في انهزامه •• شعر ، تميز ، بالاضافة الى قيمته الفنية ، بقيمة تاريخية ، وجغرافية معا •• فهو اذا عرض لحروب سيف الدولة،ذكر كل ما يتصل بهذه الحروب من طرق ومسالك ، ومواقع ، وبلاد ، وعدد الجيش ، وطريقة تنظيمه ، ثم وصف المعركة ، وما يتخللها من كروفر بقصائد ملأى بالأنفاس الملحمية ، والمشاركات الوجدانية ، والاشارات التاريخية الكثيرة •

قال يصور الزحف (١) ، ثم المعركة التي دارت رحاها بين سيف الدولة والبيزنطيين في « تل بطريق » و « الدرب » و « سروج » و « سمنين » و « هنزيط » :

كل السيوف ، اذا طال الضراب بها
يمسها ، غير سيف الدولة ، السأم
لو كلت الخيل ، حتى لا تحمله
تحملته ، الى أعدائه ، الهمم
أين البطاريق ، والحلف الذي حلفوا
بمفرق الملك ، والزعم الذي زعموا
والشمس يعنون ، الا أنهم جهلوا
والموت يدعون ، الا أنهم وهموا
فلم تتم « سروج » فتح ناظرها
الا وجيشك في جفنيه مزدحم
والنقع يأخذ « حرانا » وبقعتها
والشمس تسفر أحيانا وتلتثم
جيش كأنك في أرض تطاوله
فالأرض لا أمم ، والجيش لا أمم
اذا مضى علم منها ، بدا علم
وان مضى علم منه ، بدا علم

(١) في قصيدة بلغت حوالي ٦٠ بيتا .

ثم يصف المتنبي عبور جيش سيف الدولة ، لبحيرة سمنين ، والايقاع بهنزيط، ويبدع في تصوير انهزام جيش الأعداء وتقهقره عبر نهر « أرسناس » ، ومطاردة سيف الدولة له ، وايقاعه « بتل بطريق » وارساله الأسرى من النساء والأطفال بالسفينة الى المؤخرة ، وينتهي الى وصف معركة « الدرب الكبرى » :

وقد تمنوا غداة الدرب في لجب
أن يبصروك فلما أبصروك عموا
فكان أثبت ما فيهم جسومهم
يسقطن حولك ، والأرواح تنهزم

ساخرا من قائد الأعداء « كيغر » واعتصامه بدرعه، مختبئا خلف شجرة :

فلا سقى الغيث ما واراه من شجر
لو زل عنه ، لوارت شخصه الرخم

وتمضي القصيدة ــ الملحمة في تفصيل دقيق ، وتهويل ملحمي رائع ، لا ينقصها من عناصر الملحمة الكاملة سوى طولها (٦٠ بيتا فقط) وغريتها ، رغم غياب الشاعر وراء شخصية البطل .. أما

العناصر اللازمة للملحمة فمتوفرة : كجلال اللهجة، وروعة التصوير ، والقدرة على نقلنا الى جو المعركة ، والاندماج التام بمناخ البطولة والحرب. لكن ما أخذ على المتنبي ، ومن قبله أبي تمام سرعة الوصف ، واجتزاء المشاهد ،وعدمالاسترسال في تصوير جو المعركة ، وقلة تنويع آلة الحرب ، ثم انتفاء ذلك الارتفاعالتصاعدي في وصف احتدام المعارك والتحام الابطال الى درجة انخلاع قلب السامع أو القارىء ، والاكتفاء بتمجيد الافراد دون الاهتمام بالدوافع الوطنية أو الانسانية ، بحيث تصبح الملحمة نشيد شعب بكامله ، وقصة تروي للأجيال بطولات أمة ..

والسبب دائما هو اياه : غنائية الشاعر العربي وميله الى الايجاز ، وضغط الصورة ، ورغبة الممدوح في الاختصار ، واقتصار المدح عليه ،وعدم تفرغ الشاعر وجدانيا وزمنيا لوصف المعارك والبطولات خارج اطار المدح والممدوح ، والقبيلة وعدم ايمانه بالخوارق وضعف الاحساس الوطني، والانتماء الشديد الى الأمة .. الى ما هنالك من أسباب لجمت حرية الشاعر وحدت من تصرفه ، وانطلاق شاعريته وشعره على هواهما في رحاب

الخيال ، والاسطورة ، والخارقة .. فكان أن حرم الأدب العربي من وجود ملاحم حقيقية وكاملة فيه في حين نجد الآداب العالمية ، قديما وحديثا ، غنية بها ..

وتنهض قصيدة أخرى للمتنبي في وصف معركة الحدث ، دليلا آخر على سمو أسلوبه الوصفي الملحمي ، وصدق عاطفته ، وارتفاعه الى مستوى المعركة . والحدث قلعة كان الروم قد خربوها .. فجاء سيف الدولة يعيد بناءها .. فداهمه الروم بجيش من خمسين ألف محارب .. فيهم البلغار والتتار والارمن .. فحارب الحمدانيون هذا الجيش اللجب ، من طلوع الشمس الى غروبها ، بخمسمائة محارب فقط من حرس سيف الدولة .. وانهزم الروم ، وتركوا في ساحة المعركة ثلاثة آلاف قتيل .. بينهم عدد من قادتهم ، وكبار محاربيهم ، وأسرى كثيرين .. فانبرى المتنبي ينشد ويتغنى ويصف ، في يوم المعركة نفسه وفي القلعة نفسها : (١)

---

(١) كان سيف الدولة قد سار نحو ثغر الحدث لاعادة بناء القلعة ، وكان اهلها قد سلموها الى الدمستق بالامان سنة ٣٣٧ هجرية ، فنزلها سيف الدولة يوم الاربعاء ٨=

على قدر أهل العزم تأتي العزائم
وتأتي على قـدر الكرام المكارم

وتعظم في عين الصغير صغارهـا
وتصغر في عـين العظيم العظائم

يكلف سيـف الدولة الجيش همه
وقد عجزت عنه الجيوش الخضارم

ويطلب عند الناس ما عند نفسه
وذلك ما لا تدعيـه الضراغـم

يفدي أتم الطـير عمرا سلاحـه
نسور الفلا ، أحداثها والقشاعم

وما ضرها خلـق بغـير مخالـب
وقد خلقـت أسيافـه والقوائـم

= جمادى الاخرى سنة ٣٤٣ وبدا من يومه فوضع الاساس وحفر اوله بيده . فلما كان يوم الجمعة نازله ابـن النقاس الدمشق في نحو ٥٠ الف فارس ، وراجل ، ووقع القتال يوم الاثنين اخر جمادى الاخرى ، من اول النهار الى العصر ، يحمل عليه سيف الدولة بنفسه في نحو ٥٠٠ من غلمانه ، فظفر به ، وقتل ٣ الاف مـن رجاله ، واسر خلقا كثيرا فقتل بعضهم ، واقام حتـى بنى الحدث ، ووضع بيده اخر شرفة منها يوم الثلاثاء ١٣ رجب . فقام المتنبي يمدحه ، وانشده اياها في ذلك اليوم في الحدث ، وقد شارك المتنبي في المعركة ــ كما يؤكد الرواة ــ .

هل الحدث الحمــراء تعرف لونها
وتعلــم أي الساقيــين الغمائــم

سقتهــا الغمــام الغر قبل نزوله
فلما دنا منهــا سقتها الجماجــم

بناها فأعلى ، والقنا يقرع القنا
وموج المنايــا حولهــا متلاطــم

أتـــوك يجردون الحديد ، كأنما
سروا بجياد مــا لهــن قوائـــم

وقفت،وما في الموت شك لواقف
كأنك في جفن الردى ، وهو نائم

تمر بك الأبطال ، كلمى ، هزيمة
ووجهك وضـــاح وثغـــرك باسم

وواضح أن المتنبي ، رغم صدق عاطفته،وتدفق وجدانه ، تغلب عليه غنائيته ، كعادته كلما وصف معركة ٠٠ فنراه يختصر المشهد الحربي الرهيب ، ولا يفصل لنــا موضوع المعركــة ، وجزئياتها ، والمشاركات الوجدانية لأشيائها ٠٠ الا أنه بلباقته التعبيرية ، والتصويرية ، واندماجه الكلي بجــو المعركة ، استطاع أن يملأ الجو بروح الفــداء ،

والجهاد ، والبطولة ، فبدت القصيدة ، وكأنها نشيد حربي وطني صاخب ، أو فلذة من فلذات الملحمة ٠٠ ولو توفرت الشروط التي ذكرناها قبل قليل ، لكان المتنبي هوميروس العرب بلا منازع ٠٠ وسيف الدولة أخيلهم ، بل أصفى بطولة وأروع مواقف وأخلاقية ٠٠٠ (١)

- نشيج لا نشيد :

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا
وعناهم من شأنه ما عنانا
وتولوا بغصة كلهم منـ
ـه ، وان سر بعضهم أحيانا
ربما تحسن الصنيع لياليـ
ـه ، ولكن تكدر الاحسانا
وكأنا لم يرض فينا بريب الـ
دهر ، حتى أعانه من أعانا
كلما أنبت الزمان قناة
ركب المرء في القناة سنانا
ومراد النفوس أصغر من أن
تتعادى فيه ، وان تتفانى

(١) انظر مقدمة الالياذة ـ لسليمان البستاني .

غير ان الفتـى يلاقـي المنايـا
كالحـات ، ولا يلاقي الهوانـا

ولو ان الحيـاة تبقـى لحي
لعددنـا أضلنـا الشجعانـا

واذا لـم يكن مـن الموت بـد
فمن العجز أن تكـون جبانـا

كل ما لم يكن،من الصعبفيالأذ
فس ، سهل فيها اذا هو كانـا

ـ مقطوعة من كبد المتنبي ووجدانه ، لا من قصيدة ·· وأبياتها العشرة هي كل ما في الديوان·· يبدو أن الشاعر أنشدها لنفسه ، وهو في مصـر ، في آخر أيام وجوده الأسير هناك ·· على غير عادته في تقسيم أكثر قصائـده المدحيـة ، بين نفسـه وممدوحه ·· بين « الأنا » ذات الحضور الدائـم والملهم ، وبين الآخر الذي لا يكاد يظهر حتى تطغى عليه طغيانا بارزا ··

أنشدها حين هجـع الى ذاتـه مستسلما ، أو كالمستسلم ، ولحظة جمع له اليأس زمانه كلـه ، فاذا به تافه حقير ، والكأس ، فاذا بها لا تحوي غير ثمالة وشل ، وسراب خادع ··

لم يذكر « الاسود » فيها ، ولا ألمح اليه ، وفي « اعدام وجود كافور » في القصيدة ·· أكبر دلالة على ما انتهى اليه أمر الرجلين ، من قطيعة وجفاء غير أن سوادا آخر غلف وجدان الشاعر وعقله هو شبح الموت القاتم ·· ولهو الناس عنه ·· وهو عليهم جاثم ·· وانصرافهم الى اللعب بالاقتتال والتفاني ·· وهو يلعب بهم ··

أبرز خصائص الشاعر ، ومدى بروزها في هذه القصيدة ـ الاعتراف :

تميز المتنبي ـ كما علمنا ـ بخصائص نفسية وذهنية وفنية كثيرة ، نوجزها ـ هنا ـ بما يلي :

ـ الانفة الى درجة التعالي دون انفصال تام عن الآخر ··

ـ روح التحدي ، والتمرد ، والرفض ، لكل قديم لا يزال الناس يقدسونه ، مع أنه سبب بلائهم ·· والقسوة على الملوك وأشباه الرجال من الأوثان البشرية الذين ليس لهم طهر الأوثان الحجرية ·· (يشبه المتنبي ، في الأزمنة الحديثة ، نيتشه ولورنس شبها كبيرا) ·

ـ الرؤيا العقلية الواضحة ، القادرة على ترجمة الأفكار وخلقها خلقا جديدا ٠٠ وعلى تمثـل العالم كله ، والقيم كلها ، في لحظة واحدة ٠٠

ـ أما في الفن ، فله محجة قلما وصل اليها شاعر عربي قبله ، أو بعده ، في زمانه ٠

ومن مزايا الخلق الفني عنده :

ـ الضجيج الموسيقي المنبعث من أعمـق قـرارات الشاعر ، والكلمة المفخمة المناسبة القادرة على احتواء ذلك الضجيج ، وبالتالي تفجيره في كيان القارىء أو السامع عبر الالقاء الجيد ٠ يقول بول فاليري : « ان القصيدة لا تصبح قصيدة ، شأنها في ذلك شأن القطعة الموسيقيـة ، الا اذا سمعناها بكل قيمتها ٠٠ أما حين تكون علـى الورق فاننا نكون معرضين لأن نهمل ما هـو أساسي فيها ، أي قيمتها المتكاملة ، ولأن نحكم عليها ، بالتالي ، بالاستناد الى قراءة العينين ٠ وهذا أبعد شيء عن الشعر » (١) ٠

ـ القدرة على صياغة اللحظة الانفعالية ، صياغة

---

(١) بول فاليري : الخلق الفني ـ تأملات في الفن ٦٩ ترجمة بديع الكسم . منشورات الرواد ١٩٥٢ دمشق .

ذهنية بعيدة الاشارات ، ومفرغة في بيــت أو بيتين من القصيدة دون حاجة الى التطويل المؤدي ـ حتما ـ الى النثرية الجافة ٠٠ وبتعبير آخر : ان المتنبــي قــادر على تحويــل الرعشــات ، والخطرات الذهنية الى « أحكام عقلية » أو حكم تتجاوز بمراميها حدود الزمان والمكان،والمناسبة الخاصة لتصبح ملكا لكل انسان ، شرط أن يكون هذا الانسان مستعدا للتلقي والتأثر حتى ولو جاء حكمه عليها ، بعد ذلك ، سلبيا ٠٠

فالى أي حد يستوعب النص الذي بين أيدينا ، هذه الخصائص ؟ سنرى ذلك بعد قليل ٠٠

ـ أبرز سمات العصر :

في السياسة : أ ـ كثرت الثورات ، والمغامرات الفردية (١) ، فكثرت من جراء ذلــك الدويلات الهزيلة المستقلة عن المركز ٠ يقول ابن الأثــير في حوادث سنة ٣٠٣ (وهي السنة التي ولد فيهــا المتنبي) : « ظهر بالجامدة رجل زعم أنه علوي ،

(١) فصلنا ذلك عند حديثنا عن عصر المتنبي في مقدمة هذا الكتاب . ونعيد ـ هنا ـ بعض سمات العصر لاننا نريد ان يستقل نقدنا هذا عن باقي فصول الكتاب . المؤلف

فقتل العامل بها ونهبها ، وأخذ من دار الخراج أموالا كثيرة ٠٠٠ » فلا يستبعد ، وقد نمت الفردية على هذا الشكل الفظيع ، أن يكون المتنبي قد ادعى النبوة فعلا ٠٠ ألم يكن « نبي » الكلمة ؟! فماذا ينقصه لكي يصبح نبيا في مثل عصره ذاك ؟! وكان من دونه شأنا يفعل أكثر ٠٠ ان أي نوع من أنواع التطلعات ، كان الدين مطية له ، بغية الوصول ٠ فالعصر عصر وصولية ، وانتهاب فرص ٠٠ بل عصر نهب ، وسلب ، ومصادرات للارض ، والانسان ، والكرامة ٠٠

ـ في الفكر والأدب : ان ظاهرة الازدهار الادبي والفكري ، في القرن الرابع الهجري لم تكن غريبة ، فمن الطبيعي أن تزدهر فيه العلوم والآداب والتصوف ، وينمو الفكر العربي نموا كبيرا ، لكثرة ما سبق هذا القرن من أخذ واقتباس وتفاعل ٠ حتى كاد الأديب ـ يجنح ـ من شدة التطور ، الى التعقيد اللفظي ، وقد ظهر ذلك مرارا في بعض صيغ المتنبي التعبيرية ، الى جانب التعقيد الفكري الذي اضطر اليه أبو تمام بفعل ثقافته ، وسلم منه المتنبي ، الا نادرا ، ولم يسلم منه أبو العلاء ٠٠

تحليل الأبيات :

يخيم على هذه الأبيات جو خاص ، أقـرب الى الظلمة والتظلم ، والكآبة ، منـه الى الارتيـاح والانفتاح ، وشيء من التمرد الذي ميز أكثـر مواقف المتنبي وشحنها بالكثير من كهربائية الاباء والتشامخ • الشاعر هنا ، على غير عادته ، منهار ، منسحق ، مؤتلق الوجدان ، صافي النوازع ، وكأن الألم النفسي قد صفاها ، والتحيز في المكان الضيق ، قد بلورها ، فأطلقها شعرا تأمليا رحيما •• وانطلق معها ، خاصة في الابيات الاربعة الأولى ، ينشج نشيج الموت ، بعد أن كان ينشد نشيد الحياة •• ولعل طول تفكيره ، في حكايته مع سيف الدولة ، ثم كيف انتهى على غير ما اشتهى في بلاط « الأسود » •• لعل كل ذلك قد أوحى اليه بهذه الابيات المظلمـة الكئيبة ، المحملة بكل عناصر الفجيعة ، والتـي يراها طه حسين أساسا للفلسفة العلائية •• صحب الناس •• الى : ربما تحسن الصنيع لياليه •• في هذه الأبيات ينفض المتنبي يده من صلاح الحيـاة والأحياء ، وبأسى عميق •• حتى هذه « الربما » لم تعد تغني ، عند شاعرنا ، ولا تسمن •• فاللذة عابرة ، والسعادة عارضة لا تلبث أن تزول • ويعود

الكل الى جوهر الشقاء الدائم ، والشر الأصيل ..
والناس ،مهما غرفوا منها ، سرعان ما يغادرونهما،
آخر الأمر ، بغصة موجعة.،-هي كالشجى أو أمر ..

وتولوا بغصة كلهم منه   وان سر بعضهم أحيانا

والناس ليسوا أفضل مـن الزمان ، بل هـم شركاؤه ، وأعوانه على الشر والتنغيص ، من حيث يدرون أو لا يدرون :

كلما أنبـت الزمـان قنـاة
ركب المرء في القناة سنانـا

اذن . ما العمل ؟ وما هي سيرة الكريم ، في مثل هذه الحياة ، وكيف يجب أن تكون ؟

في المقطع الثاني من القصيدة جواب الشاعر ـ الرجل . جواب المتنبي ـ الثائر على قدره ، والذي يأبى أن يستسلم للخارج لقيد الزمان والمكان .. بل يصر ، في عناد ، على المواجهة ، على اقامة تلك الرابطة المتينة بين وعيه ولا وعيه ، من جهـة ، وبينهما وبين العالم الخارجي ، من جهة أخرى :

غير ان « الفتى » يلاقي المنايا
كالحـات ولا يلاقـي الهوانـا

ويتعاظم هاجس الموت البطيء عنده فيحدس بالموت السريع ، ويعد نفسه له ، كبديل جدلي ، لا بد منه في حسبان الابطال الفتيان ، اذ لا خيار عندهم في لحظات الألم ، ومواقف الكرامة ٠٠ فابتداء من هذا البيت « غير ان الفتى » وانتهاء بقوله :

كل ما لم يكن ، من الصعب في الانـ
فس سهل فيها اذا هو كانا

نلحظ أن متنبي مصر ، يحاول أن « يهرب » من « المكان الأسود » عائدا الى حيز ذاته ، في شبه انطلاق صاروخي تحمله مركبة فضائية ضخمة وترمز اليه الحكمة ـ النذير :

واذا لم يكن من الموت بد
فمن العجز أن تكون جبانا

يفتقها عقل قدير ، صاغ الحالة ، عملا ، وحول المأساة من فاجعة العدمية ، الى ملحمة الوجودية ، رغم هول الموقف ٠٠ ووحدة البطل ، وغربة الشاعر ٠٠

ويكاد الشاعر فيه يرفع الراية ، ويكتفي بالنشيد العسكري ، قارعا طبول الحرب ، لولا

خطة لمعت تفاصيلها في رأس المتنبي ــ الرجل ٠٠
فراح يحيك خيوطها ٠٠ بعد أن غناها الشاعر لنفسه وهزج بها ٠٠ وما كانت تلك الخطة سوى « هربه » من مصر ، على الصورة السرية المدروسة التي نعرفها ٠٠ فكأن هذه الأبيات قد جاءت مهمازا لنفسه ، ودفعا لها نحو تقحم الهول ، وكسر الطوق باتجاه الحرية ٠٠ التي لولاها لما كان المتنبي أصلا ٠٠ ولما كان أي انسان ٠٠

ويدور حوار عقلاني بين المتنبي ونفسه في محاولة اقناع :

ويا نفس ، ما دمنا ــ كلنا ــ الى زوال ٠٠
وما دام الناس أعوانا للدهر على الشر ٠٠
وما دام مصير الشجاع والجبان الى فناء ٠٠ على حد سواء ٠٠
الثائر ، والمستسلم ، القوي ، والضعيف ٠٠
فليس ، هناك ، يا نفس ، معنى للخوف والتردد
وليس للكريم الشجاع ، الا اقتحام الموت ٠٠

ويجيئه الجواب من أعمق قرارات نفسه : بلى ، ولكن ٠٠

ويثور المتنبي على هذه « اللاكن » صارخا :

كل ما لم يكن محققا ــ يا نفس ــ صعب عليك كما تتوهمين ..
سهل لديك ، اذا تحقق ، لو تعلمين ..

وينتصر العقل على الوجدان .. وتنفذ الخطة بحذافيرها .. ويتحرر المتنبي ، مرة أخرى ، صانعا قدره بكلتا يديه من جديد ..

ولكن الاشارة الخفية الى تلك الخطة ، وبالرمز المعنوي البعيد والارتفاع بالصورة الشعرية من الخاص الى المطلق .. كل ذلك جعل من الأبيات الأخيرة بالذات محارة تشع منها « رؤيا عقلية وشعورية » واضحة تبلورت نهائيا في حكمة فروسية ، أخلاقية ، مثالية ، صالحة لكل جيل الفرسان ، ولكل انسان ارادي يهوى القمم ، ويفتدي المصير الافضل بروحه ..

وهكذا استطاع المتنبي أن يرتفع بالمناسبة الخاصة الى المناسبة العامة ، ويجتاز اللحظة العابرة ، والظرف القاسي ، الى خارج جدار الصوت والعاطفة ، داخلا فضاء العقل الواسع ، في تأملية ذهنية بعيدة الأفق .. كعادته دائما ، حين ينفذ بسهولة وقوة من الجزئيات الى الكليات .. من النوازع الشخصية ،

الى التأمل الفكري المصفى براووق التجربة والثقافة، الى الخطرات الانسانية المطلقة ، وهذا ، لعمري ، هو بعض من عالميــة المتنبي ، وقوة حضــوره في العقول والأفئدة ·· حيث استطاع دائمـا ، أن يتخطى حدود نفسه ، ويسمو على فرديته ، فخاطب كل وجدان ، وحرك مشاعر كل انسان ·· مهما كان ·· وهذا ما عناه ، ربما ، الشيخ ابراهيــم اليازجي بقوله : « المتنبي يتكلم بلسان الحدثان ، وينطق بخاطر كل انسان · » وسانت بوف ، حين عرّف الاديب كــان يعني المتنبي وأمثالــه مــن المبدعين · قال الناقد الفرنسي : « الأديب هو الذي يُغني العقل الانساني ، ويزيد ثروته ، وهو الذي يكشف حقيقة أدبية ، ويعرضها واضحة ، أو ينفذ الى العاطفة الخالدة في قلب الانسان ، فينشرها ، وهو الذي يؤدي فكرته ، أو ملاحظته أو رأيه ، في صورة ، دقيقة ، معقولة ، جميلة ، وهو الذي يخاطب الناس جميعا بأسلوبه الخاص ، ولكنه أسلــوب الجميع ، أسلوب حديث ، وقديم ، وصالح لكــل زمان ومكان » ·· وواضح ان هذا الناقد يقصد ، أكثر ما يقصد ، الناثر ، أكثر من الشاعر ، لكن المتنبي ينطبق عليه أهم فقرة وردت في النص ،

وهي : « أو ينفذ الى العاطفـــة الخالدة في قلـــب الانسان ، فينشرها » فكيف اذا غناها شاعر كالمتنبي، وأغناها ؟! كما تنطبق عليه الفقرة الأخيرة : « وهو الذي يخاطب الناس جميعا بأسلوبه الخاص ، ولكنه أسلوب الجميع ‥ الخ ‥ » .

فقد استطاع شاعرنا الكبير ، رغم ثقافته اللغوية المعقدة والفنية ، ورغم بدوية مناخه الشعري ، أن يسكب تجربته الذهنية والشعورية في قالب تعبيري مضغوط يمشي في شعاب القلوب ثم يتســرب الى العقول ، كل العقول ، فتنطلق به الألسنة كـــل الألسنة ‥ حتـــى يخيـــل للمستشهدين بشعـــره الحكمي ، من أفراد الشعب ، ان هذا الشعر هو لهم ، وانهم هم الذين نظموه ‥ فيروونه «مكسرا» حينا ، ومنثورا ، حينا ، وكما هو في أغلب الأحيان ، وحين يتفاصحون ويخطبون ويعظون لا يجدون سوى حكم المتنبي مسعفا ومعينا ‥ وما شرقت ، يوما ، أو غربت في الدنيا العربية الواسعة ، ولا سيما في الأوساط الشعبية ، الا وسمعت حِكم المتنبي على كل شفة ولسان ، وكأن هذا الشاعر قد استحال في قلوبهم ووجداناتهم الى « سليمان آخر ‥ أين من بيانه بيان ، سليمان ! وأصبح ، من بين كـــل

الشعراء ، الحكيم الاول ، والاقرب الى النفوس .
كما استحال « شخصه » الى بطل أسطوري يمثل الارادة العربية ، والشموخ العربي ، والقيم العربية،في عصر ماتت فيه كل هذه المزايا والشمائل وسار مع عنترة ، في وجدانهم ، جنبا الى جنب ..
وما حلت أسمارهم ، في لياليهم الشتائية والصيفية، الا على وقع عصا « الحكواتي » يروي لهم « سيرة عنتر » وبطولاته ، ويترنم بأشعار فارس بني عبس، وفارس بني كندة ، خالطا بينها بزهو وانتشاء .. حتى يطرب الصاحين منهم والنائمين ..

قصيدة تأملية غنية :

وبعد ، فالقصيدة التي بين أيدينا ، خصبة ، كثيرة الدلالات . والسبب ، كما رأينا ، تحرر المتنبي فيها ، والى حد كبير ، من نوازعه الشخصية العابرة ، وغاياته الفردية ، حيث تمكن بوجدانية صافية ، أن يحلق فوقها ، وينطلق مغنيا آلام نفسه ، متأملا في أمور الناس ، وشؤون الحياة ، وشجونها ، ويطل على الكون كله ، من خلال انهيار وجدانه ، وانخلاع كيانه .. بل من خلال تألق هذا الوجدان بعد أن أحرقته نار العذاب الاقدس .. وتماسكه ،

وتمسكه ببقايا ارادة عاقلة ، لا تفتأ تطل في المتنبي كلما اعصوصب أمره ، وتأزم موقفه ، وتحرجت لحظاته ..

أسلوبهـا :

من البديهي أننا لسنا أمام قصيدة كلاسيكية عادية ، لشاعر عادي . انها ، أولا ، لشاعر عاش في القرن الرابع الهجري ، أي في عصر الجنوح الشديد نحو التعقيد اللغوي والفكري والفني . وهي ، ثانيا ، للمتنبي بالذات : الشاعر الذي حاول جاهدا أن يعكس في شعره كل ذلك الجنوح ، وكل تلك الرغبة في التعقيد والفذلكة التعبيرية : فهو ، من جهة ، علاّمة لغة Philologue وان لم يكن منصرفا الى التنظير فيها . يعيش بين الأعراب ، ويخالط الفرق ، وهو ، من جهة ثانية ، ميال ، بحكم ثقافته ، الى الاقتباس من كل لون ، والاغتراف من كل ينبوع .. قادر على المزج والصهر . ومن هنا انقض عليه خصومه ، واتهموه بالاختلاس ، وعسر الهضم .. متناسين قدرته القادرة على التمثل وتحويل كل ما يأخذه الى ذائقته الخاصة وأسلوبه الخاص .. يذكرنا اسم الاشارة « ذا » الخالي من

أداة التنبيه ، في البيت الاول ، بحقائق ثلاث :

ــ ان المتنبي يكثر من ايراد أسمــاء الاشارة ، في شعره عامة ، خالية من أدوات التنبيه ٠

ــ انه يقلد الصوفية في بعض مصطلحاتهم اللغوية، ومنها أسماء الاشارة ، وأدوات الندبة ، والنداء، والاستغاثة ، التي تكثر في أشعارهم ، وغزلهــم الالهي ٠

ــ انه حاول أن يأخذ نفسه بشيء كثير من التزهد ، والتقشف ، وبنمط من الحياة صارم ، جريا على أنماطهم ، وطرقهم ٠٠ لكنه ــ هنا ــ يبدو وقد تحرر من كل تعقيد واصطناع تعبيري ، للافصاح عن مكنونات ألمه وضيقه ٠

أما القافية ، فقد جاءت انسيابية ، منسجمة مع انسياب عاطفته الملتاعة ، وصحو عقله ، وانطلاق وجدانه ٠٠ وهي قافية ذات رنين خافت ، وصليل حزين ٠٠ تصلح لتصاعد الأنين والنجوى٠٠ لا سيما وقد جاءت ضربا للبحر الخفيف (فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن) الــذي يقــول عنــه معرب الاليــاذة : « والخفيف أخف البحور على الطبع ، وأطلاهــا للسمع ، يشبه الوافر لينا ، ولكنه أكثر سهولة ،

وأقرب انسجاما » مع العاطفة ·· ولهذا ساعد البحر الخفيف على تدفق عاطفة المتنبي ، بدون صخب أو ضجيج ، ولو أتيح للمتنبي أن يتحرر من أطواق الخليل لاستطاع أن يتمدد ، وينساب ، ويتنفس في شعره أكثر ·· فلا تقف في طريق تدفقه ، وتفجر تجربته أية عقبة ·· خاصة وهو يملك كل أسلحة الحرية ، والانطلاق في آفاق الابداع ··

أما وقد سلمت هذه القصيدة الوجدانية من كل تعقيد لغوي ، للأسباب التي ذكرناها ، فانها لم تسلم من بعض التعقيد المعنوي · فالبيت الاخير مثلا :

كل ما لم يكن ، من الصعب في الأنفس ،
سهل فيها ، اذا هو كانا

فيه من التقديم والتأخير ، والتفلسف النظري لمسألة الامكان والعدم ، ما كاد يخرج به عن دائرة الوجدان المنفعل والمناخ الشعري الحميم ، الى دائرة التنظير الفلسفي ، والتبرير المنطقي · فالشاعر يريد أن يقول ختاما لتبرير اقدامه على تنفيذ خطته ، وتشجيعا لنفسه :

أنت ، يا نفس ، أمام خطة لا تعلمين من عواقبها شيئا ، لذلك تتهيبين ، وتجزعين ٠٠

لكنك ، اذا أقدمت ، وغامرت ، وجدت الصعب هينا ، لا خطر فيه ، ولا خوف منه ٠٠

لأن كل ما لم يكن (محققا) ، من الصعب على الأنفس (مواجهته) ، سهل فيها ، اذا هو تحقق ٠٠

ونحن نخاف من المجهول ، لأنه مجهول ٠ أما اذا حولناه ، بارادتنا وعزمنا ، الى معلوم ، هان كل شيء ، وانعدم الخوف ٠٠ والتردد ٠ فالى مَ الصبر والخوف ، والعدة جاهزة ؟! ما هي الا نقلة في الزمان والمكان ويتم الخلاص ٠٠ كل هذا استطاع المتنبي أن يشحنه في بيت واحد ، ويبثه في تضاعيفه وظلال معانيه ٠ فوفق الى حد كبير ٠٠ لكنه كاد يخرج بالبيت من حدود الطلاقة التعبيرية والانسياب اللفظي ، الى بداية تعمل ذهني ورياضة عقلية مجردة ٠٠ تنأى بالقصيدة عن المناخ الشعري الذي هي فيه ٠٠

أما باقي الصور فقد جاء ملائما لجو القصيدة فالاستعارة : كلما ركب الزمان قناة الخ ٠٠ وتولوا

بغصة منه ·· والتشخيص في : ربما تحن الضيع لياليه جاءت كلها لتساعد على خلق صورة عامة لحال الناس مع الدهر ، وحال المتنبي معهم جميعا · ولا عجب ، فالمتنبي خير من يلائم بين المعانـي ، وقوالبها ، بين الفكرة والصورة ·· والسر في هذا لا يأتي من مقدرته البيانية فحسب ، بل من يقظته النفسية ، ووضوح رؤياه العقلية ، وصدق معاناته، وشدة تفاعله مع معانيه ··

معانيهـا :

لم تخرج القصيدة عـن السمات العامة التـي وسمت قصائد المتنبي · على رأس هذه السمات :

ـ الموضوعية ، والجهد في اخراج الافكار اخراجا ذهنيا مطلقا وبتعبير آخر : فلسفيا ·

لكن هذا التفلسف لم يستطع أن يخرج بالمتنبي عن نطاق التأمل الذهني الصافي في بعض حقائـق الوجود والموجود في اطار هالة من التألق الوجداني المشع ·· فهو حكيم لا فيلسوف مهما جهد أو حاول وأغلب الظن انه عرف حده ولم يحاول ·· وأنـا أرى ميزته الابداعية في أنه لم يحاول ·· بل ظل

يرود المجاهيل في عالمه الشعري ، ويعبر عن أعمق ما لا نعرفه من أحاسيس النفس ونزعاتها ·· أو ما نتجاهله منها ، لأننا ، وهذا سر انحطاطنا ، نتقبل الشاعر الذي يداعب خدرنا ، ويبرر وداعتنا ، ودعتنا ، ويتغنى بقناعتنا التي هي كنز لا يفنى ! أما الشاعر الذي يهزنا، ينقلنا الى المجهول من أمرنا، الى حقيقتنا ·· فهو شاعر مرفوض لأنه رافض ·· ولأنه رافض فهو سلبي ، وغامض ·· اذ كيف يرمي حجرا في مستنقعهم ؟ كيف يرى قيمهم بغير عينيه ؟!

وبعد ، فالشاعر ليس هو الفيلسوف ، وان كان فيه بعض ملامح الفيلسوف · الشاعر مفكر · وقد يصاب « بموت الشعر » اذا ظل مفكرا وحسب · لكن اذا كان فكره أساس رؤياه الشعرية فقد تخصب تجربته وتتعمق رؤياه ويأتي بالرائع من ذلك الشعر التأملي الفكري ·· الذي يشارف العالمية ·· من هنا جاءت الحكمة ، عند المتنبي ، تعبيرا عن الرؤيا العقلية والثقافية ، أي من صميم الشعر ، لأنها لم تبق لعبة العقل والمنطق وحدهما فلم تصدم التخيل الشعري بالبرودة ، ولم تحوله من نشيد الى حديث جدلي ··

قيمة معانيها :

نلاحظ ان المعاني ، في هذه القصيدة ، كما في غيرها ، اذا جردناها من اطارها الفني عادية ، ان لم نقل مبتذلة •• ولكننا نسارع الى التذكير بحقيقة بدهية وهي :

ان القضية ليست في الصنيع الادبي عامة ، والشعري خاصة ، قضية معان عميقة ، أو غير عميقة ، جديدة ، أو قديمة •• انها قبل كل شيء ، قضية تفاعل مع هذه المعاني ، ومقدرة الاديب ، أو الشاعر على « ايصال الفكرة محاطة بجلال الرؤيا » الينا •• وبتعبير آخر : مقدرته على « التلاقي الروحي » معنا ، وهو ما يسمى اليوم عند منظري الحداثة في الشعر : قوة الحضور ، أو التواجد الفكري والشعوري فينا •• فنحن عندما نتلاقى معه ، لا « نفيد منه » فكرا ولا ثقافة بمقدار ما نفيد منه ذكريات ، وتحركات وجدانية وشعورية ، لا ندري ، في لحظة التلاقي ، من أين أتتنا بالذات •• ولكن من المؤكد ، أنها لم تأتنا من « معاني » الشاعر أو من ثقافته ، وهذا ما قاد الرومنسيين الى تعطيل الفكر نهائيا في لحظات

الابداع الشعري ·· بل من تلاقينا الروحي فقط ·
ذلك ان تلاقينا الفكري مع الأدباء والشعراء القدامى يأتي « باهتا » لأن ما بيننا وبينهم من الصلات الفكرية والثقافية أصبح واهيا ، ولم تعد تهمنا كثيرا « أفكارهم » الا بمقدار ما استطاعوا أن يجسدوا بها تجربتهم ورؤاهم الشعرية · لم يعد يربطنا بهم ــ اذن ــ سوى ذلك السلك النوراني الخالد الرابط أبدا بين القلوب ، المشع دائما على الأرواح ، عنيت به « الكلمة » التي أعطيت أن تحمل سر الألوهة في الانسان ، وسر الانسانية في الالــه ··

وبمقدار ما حمّل الشعراء القدامى هذه الكلمة من خفقات قلوبهم ، ودفقات وجداناتهم وجذبات أرواحهم ، بمقدار ذلك نقف عند آثارهم متأثرين والا فلن « يفيدونا » في شيء ··

ولقد أعطي المتنبي أن يكون واحدا من القلة التي « عاشت » الكلمة وأحيتها ، فحولتها من مادة جافة وآلة تعبيرية يومية ، الى روح ، حين حملتها الكثير من « وهم الرؤيا الذهنية » والكثير من « ألق الوعي الارادي » ، والتجربة الحياتية الفنية ··

وعقاب لبنان (١) :

بيني وبين أبي علي مثله
شم الجبال ، ومثلهن رجاء
وعقاب لبنان ، وكيف بقطعها
وهي الشتاء ، وصيفهن شتاء (٢)
لبس الثلوج بها علي مسالكي
فكأنها ببياضها سوداء
وكذا الكريم اذا أقام ببلدة
سال النضار بها وقام الماء (٣)
جمد القطار ، ولو رأته كما ترى
بهتت ، فلم تتبجس الأنواء
في خطه من كل قلب شهوة
حتى كأن مداده الأهواء
ولكل عين قرة في قربه
حتى كأن مغيبه الاقذاء

(١) قصيدة قالها في مدح صديق له متصوف يدعى ابا علي هرون بن عبد العزيز الاوراجي الكاتب قصد اليه في احد جبال لبنان حيث كان يعتكف للتعبد والمجاهدة . وقد لاقى المتنبي صعوبة في توقل تلك الذرى من جبال لبنا نالشاهقة ، حسب ما جاء في القصيدة .
(٢) عقاب جمع عقبة ، وهو المرتقى الصعب من الجبل . انظر الديوان : شرح اليازجي ج١ ص ٢٦٩ .
(٣) قام : جمد .

من يهتدي ، في الفعل ، ما لا تهتدي
في القول ، حتى يفعل ، الشعراء
في كل يوم للقوافي جولة
في قلبه ، ولأذنه اصغاء
من يظلم اللؤماء في تكليفهم
أن يصبحوا وهم له أكفاء
ونذيمهم ، وبهم عرفنا فضله
وبضدها تتبين الأشياء
....
لو لم تكن من ذا الورى اللذ منك هو
عقمت بمولد نسلها حواء ... (١)

العقل العاقل (٢) أو الاتجاه الذهني عبر المدلولات الصوفية :

في البيت الأول (٣) نرى الشاعر يسلط كل عقله وفنه ليقابل بين شواهق ثلاث : علو علي في

---

(١) اللذ : بسكون الذال وكسرها : لغة في الذي. وتسكين الواو في هو : ضرورة او على لغة . المصدر نفسه ص ٢٧٤ .
(٢) على حد تعبير طه حسين حين واجه امثال هذه القصيدة. انظر كتابه مع المتنبي ص : ١١٨ وما بعدها .
(٣) هذا البيت ليس اول القصيدة ، فقد سبق بمطلع غزلي صرفنا النظر عنه . اقراه في المصدر نفسه ص ١١٧ وما بعدها .

اسمه وهمته وسمو روحه ، وبين جبال لبنـان في ارتفاعها ، وبين رجائه من لقائه ٠٠ في تساميـه وعظمته ٠٠ وتتم له المقابلة في بيت واحد ، وكلمات ثماني ٠٠ وهذا لا يتأتى الا لشاعر من وزن المتنبي امتلك زمان شاعريته وعقله وفنه ، وأصبح قادرا على تصوير عاطفته تصويرا عقلانيا مضغوطا ٠٠ ولو نثرنا هذا البيت لاحتجنا الى أكثر من ثمانـي كلمات حتما ٠٠ ولو جرب شاعر عادي غيره ، أن يقول قوله لاحتاج الى أكثر من بيت واحد ٠٠

ومرد ذلك ، الى أن المتنبي صاحب تجربة عقلية عميقة ، وقادرة على صياغة مشاعره صياغة ذهنية، في أقل ما يمكن من الصناعة اللفظية بحيث لا يقع في الغموض ، كأبي تمام ، ولا في التصنع كأصحاب البديع ٠٠ ولأنه يملك ، الى جانب هذا ، زمـام الكلمة والصورة ، فلا يدعهما عقله تنداحان في خضم لعبة البديع ، ولا تخرجان منه ، الا على حطام عاطفة منهارة ومشتتة ٠٠

لو كان ذلك الغير ابن الرومي مثلا لذهب في شرح تلك « الشواهق » مذاهب شتى ، ولضرب الامثلة تلو الامثلة ، ولاسترسل في نثرية مملة ، وتقريرية

ذهنية جافة ·· حتى يبلغ بها حد المطولات ·· أما المتنبي فقد اختصر كل ذلك في بيت واحد ـ كما رأينا ـ وهنا تكمن الفرادة ، ويكمن سر الابداع الشعري ، والخلق الفني الآسر ، لا سيما في مجال الشعر الحكمي والمدحي ·· فلم يكن مقبولا ، ولا معقولا ، أن يبدأ شاعر المدح بمقدمة طويلة ، غير غزلية ، فيها كل شيء ، ما عدا الممدوح ، ثم ينتهي الى الممدوح بعد ثلاثين بيتا ·· وحين ينتهي اليه يعاتبه ، أو يلومه ، أو ·· يهجوه ·· وكل ذلك قبل أن يقصده أو يذهب اليه (١) ··

لكن المتنبي لم يخف من الذهاب الى صديقه ـ كما فعل ابن الرومي ـ بل تحدى قمم جبال لبنان ، ووعورة مسالكها ·· ولا عجب ، فهو قمة في ذاته ·· والقمة لا تخشى القمة ، أو تتهيبها ·· والصديق ـ القمة ، يجب أن تتلاقى عنده القمم ··

وفي البيت الثاني يصف المتنبي صعوبة تسلق جبال لبنان ، خاصة وهي في شتاء دائم ، حتى في

(١) كما فعل ابن الرومي في مدح صديق له يدعى احمد بن ابي ثؤابة . انظر كتابنا : ابن الرومي او الاحساس الفاجع بالغربة الصادر عن دار مكتبة الهلال ١٩٨٠. بيروت .

فصل الصيف ، لا لأنها جبال شاهقة وحسب ، بل لأنها مغطاة بالثلوج بحيث تمحي مسالكها على السائر فيها ، فكأن الثلج يلبسها وشاحا أسود كثيفا من ·· الثلج ·· تشبيه موفق في طباق جميل ··

ومن المؤكد ، نفسيا ، ان المتنبي ما وصف تلك الصعوبة الا ليصف همة له شماء تتقحم أهوال الحياة ·· فحري بها أن تتقحم أهوال المسالك الجبلية الوعرة ·· أليس هو القائل :

وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق
محتقر في همتي كشعرة في مفرقي !

ولنستدع ابن الرومي ، مرة أخرى ، لنطلب منه القيام بمثل رحلة المتنبي تلك ، عبر جبال لبنان لزيارة صديق عزيز عليه ، ولحاجة له عنده ملحة ·· ومع أنه يهوى الطبيعة ، وطالما استراح فيها ·· فماذا عساه يفعل ؟ هل يقرر القيام بالرحلة ؟ قد يقرر ، بعد تردد ·· ولكن · ما أن يخطو خطوة واحدة ، حتى ينظر الى القمم والمسالك ، فيخاف ، ويتهيب و « يقعد » على ضفة نهر ، ويبقى في السفح لا يتحرك ·· ثم يقرر أن يرسل الى صديقه على القمة ، قصيدة يعتذر له فيها عن الصعود

اليه ، واصفا أهوالا وهمية سيلاقيها ، فيما لو صعد اليه ، وقد يلقى مصيره ، هناك ، على شماريخ لبنان .. محللا له نفسيته ومخاوفها ووساوسها .. مفلسفا له منافع « القعود » ، ومضار الصعود .. والمغامرة ، وربما طلب منه أن يرسل اليه الجائزة المالية ، بدل أن يدعه يتجشم مخاطر السعي اليه من أجلها .. الى ما هنالك من شؤون وشجون ، حتى تبلغ القصيدة عشرات ، بل مئات الأبيات ! (١) .

حقا ان أقدار الرجال على مقدار هممها .. ويفشل ابن الرومي الرجل ، ويبقى الشاعر فيه ، وينجح الشاعر في المتنبي من خلال الرجل ..

ونتأمل في البيت الثالث الرمز البعيد الذي تحمله الصورة : صورة « قيام » الماء ، أي تجمده ، (اشارة الى ثلج لبنان) ،وذوبان النضار (الذهب) ..

ويأتي الجواب بسرعة ، في البيتين الرابع والخامس ، ليقول :

---

(١) انظر بائية ابن الرومي في مدح احمد بن ابي ثؤابة الذي دعاه الى زيارته وكان في البصرة او سامراء . اعتذر ابن الرومي عن الزيارة في قصيدة بلغت مقدمتها وحدها ٢٩ بيتا حيث صور لصديقه فيها مخاوفه من سفر البر والبحر وهواجسه . وبلغ باقي القصيدة ٩٠ بيتا!.

وكذا الكريم اذا أقـــام ببلـــدة
سال النضار بها ، وقـــام المـــاء
جمد القطار ، ولو رأته كما ترى
بهتت ، فلـــم تتبجس الأنـــواء

ولا ننسى مقدار ما لكلمة « بهتت » من قيمة في ميزان التجريد والانسنة ، لما تحمله من معانـــي الدهشة البالغة .. فلم يعد الناس بحاجة الى الماء ، ولا الى انهمار الامطار .. ما دام وجود الكريم ، وعطاؤه يعوضان عن كل ذلك ..

ودع عنك الغاية الشخصية (١) التي أوحت بكل هذه الصور الرائعة . فنحن لا يهمنا من الشاعر المبدع غاياته الشخصية ونوازعه الخاصة ، ما دام يستطيع أن يخرج من اطارها الضيق ، الى رحاب الانسان ، والقيـــم ، مستعينـــا بالرمز والصورة اللذين يعطيان « وهم الرؤيا العقلية والشعورية » مداها الأوسع .. ولا نعود نحس معها بأي فارق بيننا وبين الشاعر ، أو أي حجاب ..

---

(١) يقول شارحو الديوان ان الغاية من زيارة الاوراجي كانت للتوسط عند بدر بن عمار في طبريا بفلسطين كي يعرفه على صورة المتنبي ويستدعيه اليه ..

التعقيد المعنوي واللفظي :

في بعض الأبيات الاخيرة ، نرى المتنبي يلجأ الى شيء من التعمل ، أو التعقيد المعنوي واللغوي ٠٠ ولكن على براعة في الاخراج ودفع الغموض ٠ فحين يقول :

من يهتدي ، في الفعل ، مـا لا تهتدي
في القـول ، حتـى يفعـل ، الشعراء

نجد ، في هذا البيت تقديما وتأخيرا ، من جهـة ، ومعنى يكاد يكون غامضا نتيجة لذلك ، من جهـة أخرى ٠ فهو يريد أن يقول : ان ممدوحه يهتدي في الأفعال العظيمة ، الى ما لا تهتدي الشعراء اليه في القول ، حتى يفعله هو فيقتدون به ٠٠ (١)

كل هذا الجهد الذهني بذله الشاعر ليعطينـا معنى عاديا هو أن صديقه الأوراجي قدوة في القول والفعل ٠٠ لكن براعة الصياغة ظللت المعنى بهالـة فنية لولاها لسقط نهائيا في قاع النثر ٠٠ وكذلك نجد في البيت :

---

(١) يبدو ان صديقه هذا كان الى جانب كرمه شاعرا من شعراء الصوفيـة .

ونديمهم (١)، وبهم عرفنا فضله
وبضدها تتبين الاشياء

جهدا فكريا اعطانا، هذه المرة، معنى عميقا صاغه المتنبي صياغة الحكمة وابتعد به عن الابتذال والمباشرة، واستطاع أن يصله بنا حكمة أو حكما علميا صحيحا بقالب شعري رائع، يذكرنا بأحد أبيات «اليتيمة» الجاهلية المعروفة (٢) أما البيت

لو لم تكن من ذا الورى اللذ منك هو
عقمت بمولد نسلها حواء ..

ففيه من التعمل اللغوي ما فيه .. حيث أراد أن يصطنع أسلوب الصوفية الذين يحملون ألفاظهم أعباء ثقالا، ويلوون بها الى غير ما وضعت له، كما يقول طه حسين (٣) الى جانب ما في البيت من مبالغة غريبة، حين جعل من ممدوحه مبررا لوجود البشر: اذ لو يكن الأوراجي منهم، ولم يكونوا هم منه، لكان العقم أولى بأم البشر حواء !...

مبالغة تذكرنا بمبالغاته في مدح كافور .. الا

---

(١) ضمير الجمع يعود الى اللؤماء الوارد في بيت سابق
(٢) ضدان لما استجمعا حسنا والضد يظهر حسنه الضد
(٣) انظر: مع المتنبي لطه حسين ص ١٢٢ .

أن كذب العاطفة هناك كان هو السبب ، لتغطية نفاقه ٠٠ أما هنا ، فكان التباهي بمعرفة أسرار اللغة وصيغها النحوية الغريبة ، وتقليد الصوفية وهكذا سقط بعض شعره هنا وهناك ٠٠ لكن عظمة شاعرية المتنبي ، وروائعه ، لا يضيرها مثـــل هذه السقطات ٠٠ (١)

وبعـــد :

ذلكم هو أبو الطيب المتنبي الذي ملأ الدنيـــا ـ حقا ـ وشغل الناس ، كما قال ابن رشيق ، قد

---

(١) ومن غريب غريبه هذا البيت المؤلف من ١٤ فعل امر٠٠ وقد ورد في قصيدة مدح بها سيف الدولة مطلعها :

اجاب دمعي ، وما الداعي ســـوى كلـــل
دعا فلباه ، قبـــل الركـــب والابـــل

اما البيت فهو : اقل انل اقطع احمل عل سل اعد زد هش بش تفضل ادن سر صل !! اليتيمة ج ص ١٣٣.

نبي ، امام ؟ أم ماذا ؟

أما النبوة فقــد ادعاها فعــلا (١) وفشل ..
وبقيت له نبوة الكلمة الشعرية الخلاقة .. فمـا
زالت الدنيا العربيــة ، مــن المحيط الى الخليج ،
تعتبره أحد رُسُلها الكبار ، وأبرز من تغنى بالقيم
التي نادى بها ، وعاشها ، وأقدر شاعر استطاع أن
يلج الى ضمير الأمة ، ويهزه هزا عنيفا ..

كان يملك شاعرية متألقة ، ذات ضجيج داخلي ،
تنبثق من أعماق شخصية اقتحامية ، فاذا بضجيج
الذات يختلط بضجيج الشاعرية ، فتتكون لدينـا
سمفونية هائلة ، لانملك معها الا الهتاف والانتشاء ،
ثم ننسى كل موقف مضاد حاولنا تكوينه من بعض
سيرته ، وتهافته أحيانا ، وسقوطه ..

ان سحرا ما ينبعث من المتنبي ، اشعاعا مــا ،

---

(١) باجماع المؤرخين . انظر صفحة ٢٧ من هذا الكتاب .

يأتلق من شخصه ، من شعره ، من فكره •• حتى اذا حاولنا أن نقاضيه ، أو نعاديه ، جذبنا ذلك السحر ، وأدخلنا ، طوعا أو قسرا ، الى دائرة مغناطيسيته ، ولم نعد نستطيع فكاكا منها ، ورحنا نغني ، معه ، مجد السيف والقلم ، ومجد الذات •• وأصبحنا ، في النهاية ، جزءا من عالمه •• وهذا معناه ، في النظرة الحديثة •• ان المتنبي قادر على تغييرنا ، وبالتالي تغيير العالم ، من حوله ، وحولنا ولعل هذا ما عناه انسي الحاج حين قال : « عند كل زيارة شاعر ، يتغير العالم قليلا ، أو كثيرا •• » وفي قصده طبعا الشاعر الشاعر ••

ولكن كيف ؟ يجيب عن هذا السؤال شاعر ألماني رومنسي هو (هاندرلن ١٧٧٠ ـ ١٨٤٣) حين قال : « شعريا يعيش الانسان على هذه الأرض •• » أي أننا في ، حقيقتنا ، كلنا شعراء : نهوى ، نكره ، نتمنى ، نحلم ، نثور •• ولكننا ، لا نستطيع ، لنقص فينا ، أن نغني ذلك شعرا ، فيأتي الشاعر الملهم ليغني عنا كل ذلك •• وبمقدار قوة الاختراق عنده ، يغيرنا •• يغير فينا ما يكره ، ويجذبنا الى ما نحب ويحب •• والفعل نفسه مع الكون ، والله ، والطبيعة • ذلك ان الفن هو

« خلق ما لم تستطع الطبيعة خلقه » كما يقول أرسطو ٠٠ ومن هنا يكون التغيير وتكون الثورة !!
والمتنبي من هؤلاء القادرين على التغيير ، لأنه فنان كبير ، والقادرين على مشاركتنا في التغيير ٠٠ أما الكون ، والله ، والقدر ، فقد انشغل المتنبي عن ذلك بهموم ذاته ومطامحها ، كما انشغل بالحياة والأحياء ، والمجتمع الفاسد ، وصدمته الموازين المختلفة ، والنظم الجائرة ، وتقزم الانسان العربي في عصره ، فانصب بكل ما لديه من همة ، وعروبة ، وشاعرية ، على ذلك الواقع المؤلم ، وذلك الجو الكئيب المثير ، فانتزع من سويدائه صوره ، ومعانيه ، وصبها كلها في قالب حكمي تفلسفي تارة ، وتهكمي جاد وصريح ، فارتفع بها من مناسباتها الضيقة ، الى مجالها الانساني والاجتماعي الأوسع ، فاذا بها حكمة كل انسان ، ونشيد كل ثائر ، وسخرية كل ناقم ٠٠

المتنبي انسان فوقي :

حاول المتنبي أن يصور شخصه بصورة هي فوق صورة البطل ، ودون صورة النبي بقليل ٠٠ أو هي صورة نبي من طراز جديد ، سلاحه العلم

والحكمة ، والترفع ، الى جانب القوة والبطش ، و « تضريب أعناق الملوك •• » وهي صورة مستمدة من المفاهيم القرمطية ، والصوفية ، ومزايا القطب ، ومن الايمان العلوي ، ونظرية العصمة التي تلازم « الامام » بل تأتي على رأسها ••

وبالفعل ، فقد عايش المتنبي كل هؤلاء ، وأعطاهم المثل الصارخ على ما « ينتظرون » ويعتقدون : مع القرامطة ادعى النبوة وقام بالثورة ، وكان ادعاؤه ، كما رأينا ، معللا ، ومبررا بالبلاغة والشعر والسحر (المعجزة) •• ولدى المتصوفة (١) كان مقبولا لترفعه ، وتزهده ، وعدم تهتكه عن قصد ، كما يؤكد بروكلمن ، لكي تكون له صفة « القطب » أو « المريد » أو « الشيخ » عندهم •• وقد رأينا كم أفاد المتنبي من تعابير الصوفية ، ومصطلحاتهم ، ورموزهم في شعره ، حتى تكثر ، في ذلك ، واصطنع •• وكم أعجبوا به هم •

أما شخصية الامام ، وصفاته التي سمع عنها

---

(١) من اصدقاء المتنبي ابو علي الفارسي المتصوف المعروف، والذي زاره ابو الطيب في معتكفه في احدى جبال لبنان، وله فيه وفي لبنان قصيدة همزية رائعة . انظر صفحة ١٩٠ من هذا الكتاب .

ورآها مجسدة في الفارابي ، ومفلسفة ، وبشكـل تفصيلي في « مدينته الفاضلة » فقد أحبها المتنبي ، وأراد أن يكونها ، وسعى جاهدا اليها ، لا سيمـا وهو المُعد ، منذ الشباب ، وبالفطرة ، لتجسيدها ، وتحدي كل الناس بها ..

هذا الى جانب شعور دفين في حناياه ، يقول له دائما : انك من طينة غير طينة هؤلاء البشر ، وانك انسان فوق هؤلاء الأناسي .. وهذه مواهبك ، وما أكثرها ، وما أندرها في سواك ، ألا تجعل منك نبيا ، أو قطبا ، أو اماما ... منتظرا ؟!

بلى ، وهمتي وعلاي : يجيب المتنبي ، مرددا ، على الدوام ، بأنه « خير من تسعى به قدم » .. وانه غريب كصالح في ثمود ، وفي الغربـة معنى التفرد والامتياز .. و « كالمسيح بين اليهود » . وأن « كل ما خلق الله ، وما لم يخلق » محتقر في همته ، كشعرة في مفرقه !..

زد على ذلك الزام نفسه بنمط معين من الحياة ــ الا عند الضرورة وبتستر تام ــ هو أقرب من حيوات الرسل ، والأئمة ، والأقطاب ، منه الى أي حياة أخرى .. ناهيك بكتمان غاية الغايات عنده ،

واحاطة نفسه بسر مجهول حتى الآن ، لم يفصح عنه ، لا هو ، ولا التاريخ ، وهو أن يكون ، فعلا ، أحد أئمة الشيعة ! أو على الاقل ، أحد أبنائهم ، أو أحفادهم ! وهذه قضية أشرنا الى بطلانها ، في مطلع هذا الكتاب ، وقلنا ان المتنبي ليس بحاجة الى هذا النسب ، أو الانتساب ، وان كان يُشرفه ذلك • فلقد كانت له من شمائله ، ومواهبه ، وسيرته ، ما يغنيه ، أو يعوض له ، فلا يقنع « بأن ينعزى الى جد همام » كما يقول :

ولست بقانع من كل فضل   بأن أعزى الى جد همام

أما غاياته الدنيا فقد حققها ، ولكن بأسلوب العصر : من مال ، وشهرة ، وفرادة في عالمي اللغة والشعر ، توصلا ، ربما ، الى غاية الغايات الحقيقية : انشاء امبراطورية : الحاكم فيها نبي ، أو امام ، أو فيلسوف ، تماما كمدينة معاصره الفارابي أو جمهورية أفلاطون •• غير انه مات دون ذلك •• وبقيت له امبراطورية الشعر !••

المتنبي ونيتشه !

القول بأن المتنبي نيتشوي ، اعتبار مقلوب ! لِمَ لا يكون نيتشه « متنبئيا » أو ذا روح نبوية ،

كالمتنبي ؟ مع احترامنا لاختلاف المقاييس والنظرة الى مفهوم الروح والقوة ، والعلائية (١) والأخلاق عند نيتشه ، وفي عصره ٠

المتنبي متقـدم في الزمن ، ونيتشه متأخر ٠٠ بينهما قرابة ألف عام ٠٠ فلِمَ لا يأخذ المتأخر عن المتقدم ، أو يضاهي ، أو يماثل ؟

لكي لا نقع في التمحل ، في هذه المقارنة ، نسارع الى اثبات البدهيات التالية :

- المتنبي ليس فيلسوفا ، على الحصر ، وان كان متفلسفا ، على الاطلاق ٠٠ وقد بينا ذلك في هذا الكتاب ٠ فلا تجوز المقارنة الا بين فيلسوفين ، ومن فئة واحدة ٠ فالمقارنة بين شاعر وفيلسوف، في عصر واحد ، وأمة واحدة ، فاسدة ٠٠ فكيف بها بين شاعر وفيلسوف مختلفين فكرا ، وزمنا ، وجنسا ؟
- كل ما نستطيع أن نقوله ، اذا جاز لنا القول ، ان بين هذين العبقريين صفات متقاربة وحيـاة متشابهة ٠٠ أو مزاجا يكاد يكون واحدا ٠٠

(١) العلائية كلمة اخترناها بدلا من التعالي او الاستعلاء . فهي لا تعني ما تعنيـه هاتان الكلمتان بقدر ما تعنـي السمو او التسامي Sullimation المؤلف .

ـ المتنبي أحرق الحياة مـن حولـه ، واحترق • ونيتشه يقول : احراق واحتراق •• تلك كانت حياتي » (١) !•

ـ المتنبي دأب على توكيد نسبه الأعلى ، فاذا به عربي يماني ، يفخر بنسبه ، ويفخر نسبه به ، مع أن جدوده هؤلاء ممن يُفتخر بهم •• ونيتشه كان حريصا على توكيد نبالته ، فألحق نسبـه بنبلاء البولنديين ، لينفرد بين الرفـاق بهـذا الانتماء الارستقراطي المرموق ••

ومن المؤكد ان هذا الاصرار من قبل الرجلين ، على توكيد نسبهما ، لم يفدهما في شيء ، بقدر ما أفادتهما مواهبهما الخاصة ••

ـ المتنبي ألزم نفسه،وفقا لسمو محتده واستعداده، بنمط صارم من الحياة ، قوامه الترفع والجدية ، والبعد عن الكذب••وهكذا كان نيتشه ، بشهادة سيرته ، وشقيقته اليصابات ، التي قالت يوما : « ان آل نيتشه لا يليق بهم غير الصراحة في قول الحق » (٢) لكن صراحة نيتشه كانت شاملـة

(١) انظر كتاب : نيتشه ط٤ ص ٢٣ ترجمة عبد الرحمـن بدوي ـ مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٥ القاهرة .

(٢) المصدر نفسـه ص ٢٦ .

وعلمية ، بمعنى أنها تناولت جميع حقائق الكون والله ، والوجود والانسان ، بالتعرية ، والنقد المطلقين ، دون محاباة ، أو مراعاة حتى لأساتذته في الجامعة •• في حين ان صراحـة المتنبي دون ذلك بكثير •• صراحة أخلاقية ، غطاها ، أحيانا ، بالملق ، والحيلة ، والهروب ••

ـ أما الشعور بالوحشة والغربة عن الناس فقاسم مشترك بينهما • قالت صاحبة نيتشه سالوميه : « أول احساس تشعر به اذا ما رأيت نيتشه هو احساسك بأنك ازاء وجدان عنيف مستـور ، وشعور بالوحشة كتمه في نفسه •• » وهذا تماما ما كانه المتنبي ••

ـ تملّك المتنبي شعور قوي بأن عليه ، ليحقـق غايته ، أو رسالته ، أن يفتش ، لا عن مساعد ، بل عن ند أو ظهير ، أو شبيه ، يعانقه ، يحبه ، يفنى فيه ، يحقق من خلاله ذاته وأهدافه ، فكان سيف الدولة • ونيتشه فتش طويلا عن ذلك الند، بل الحبيب ، فكان فاغنر ! (١) •

---

(١) كان نيتشه يرى ان الحضارة الالمانية ، بشكل خاص ، والاوروبية ، بشكل عام ، مدينة في اخص خصائصهـا لفاغنر ، وموسيقى فاغنر !..

ـ نيتشه كان يقول : « كي تجني من الوجود أسمى ما فيه ، عش في خطر » !

ولم يكن أقتل للمتنبي من صمت الناس عنه ، وعدم قبولهم تحديه · لذا كان في تحد دائم ، أي في خطر دائم ، مجابه ، متقحم ، حتى الموت تضنيه الراحة والدعة والاستسلام ، حتى اذا فرضت عليه فرضا (كما في مصر) حُمَّ وانهار ! فهو في سفر دائم ، ولو لم يسافر ، وفي مجابهة مستمرة مع الناس والعصر والمفاهيم :

تعود أن يُغبر في السرايا ويدخل من قتام في قتام

ـ كانت صفة التوحد واحتضان الذات ، ولا تزال ، الجامع الأقوى بين العباقرة · يقول « رلكه » في : « رسائل الى شاعر ناشىء » : « نحن (أي المفكرين والشعراء والفنانين جميعا) ،في جوهرنا ، نعيش في وحدة مخيفة ، لا تقدر » ·· أولم يكن المتنبي من بين هؤلاء ، ومنهم نيتشه القائل : « كل من قُدِّر له أن يذيع شيئا جليلا ، في يوم من الأيام ، لا بد له من أن يظل وقتا طويلا مطويا في داخل صمته ، وكل من قدر له أن يشعل البرق يوما ما ، لا بد أن يظل سحابا مدة طويلة » !

ـ والمتنبي كان مغلق النفس على كنز مرصود ، وان ظهر بين الناس ـ الأرانب وعاش معهم •

ـ الامتياز الخارق والألـم الكبير ، هما حالتـان بارزتان عند أي عظيـم من عظماء الفكـر أو الشعر •

عند نيتشه كانت « فلسفة المرض » (١) وعنـد المتنبي كان الشعر مهمازه الأكبر لتحقيق الذات والانتصار على الألم ، والضياع ، في عصر كثر فيه الأصحاء ـ المرضى !

ـ كلا العبقريين يقدس العقل ، ويضعه في المقام الأول • لكن ، كل على طريقته ومفهومه •

ـ كلاهما في صراع مع العصر ، شيمة كـل كبير وعبقري • والقرن التاسع عشر ، عصر نيتشه ، كالقرن العاشر ، عصر المتنبي ، من أسوأ العصور وأرقاها في آن :

وتكاد الحملتان على العصرين ، تتشابهان عنفا وقسوة •• عند الرجلين ••

(١) جعل نيتشـه من المرض محور فلسفة خاصة تقوم على دحض افكار شـوبنهـور في التشاؤم وان العظيـم اذا اصيب بالمرض كالجنون وغيره فان ذلك مما يفتح عليه أبوابا كثيرة من أبواب الابداع والخلق .. المؤلف

ـ التنكر للقيم السائدة ، وتحطيم الأصنام من عابديها ميل مشترك بين الشاعر والفيلسوف . ولكنه عند نيتشه أقوى وأعنف .

يقول نيتشه : « الانسانية تعيش الآن على عبادة أصنام : أصنام في الأخلاق ، وأصنام في السياسة، وأصنام في الفلسفة.. تلك آلهة باطلة، اخترعتها ثم عبدتها فضلت سواء السبيل » ..

ويقول المتنبي :

وما أعاشر من أملاكهم أحدا
الا أحق بضرب الرأس من وثن !

وأبيات له كثيرة في هذا المعنى ، تؤكد كرهه لصنمية الحكام والتافهين .

ـ نيتشه يقول بأخلاق السادة ، وأخلاق العبيد .. لكن هذه الأخلاق قام بوضعها السادة أنفسهم ليتحكموا بالعبيد ويستغلوهم . أما المتنبي ، في خطرات ذهنه ، فيؤمن بأن العبد عبد « لو أنه في ثياب الحر مولود » والفرق ، دائما ، بين النظرتين هو الفرق بين المفكر والشاعر ، ولا مجال للمقارنة .

وهكذا كان نيتشه ، كما يقول عن نفسه : « **أنا** المبشر بالبرق ، وهذا البرق اسمه الانسان ـ الأعلى (أو السيبرمن) ٠

وما كان المتنبي الا بعضا من هذا البرق ٠٠

الضعفاء يجب أن يموتوا ، ويجب أن نساعدهم على الموت ، قال نيتشه :

فلا مبال ، ولا مداج ، ولا وان ، ولا عاجـز ، ولا تُكلة ٠٠ يقول المتنبي ٠ والحياة والخلود للقوة والاقوياء ٠٠ ومـا عداهمـا ٠٠ هراء وهباء !٠٠ وموت أبدي !!

ليس من مات فاستراح بموت انما الميت ميـت الأحياء ٠ « والشفقة فضيلة المومس » يقـول نيتشه ٠

والظلم من شيم النفوس ، فان تجد ذا عفة ، فلعلة ، لا يظلم ، يقول المتنبي ٠٠

ـ مات نيتشه ولم يعشق سوى حبيبة واحـدة : الخلود ٠ وقضى المتنبي دون أن يدري أن لـه حبيبة واحدة هي أيضا : الخلود !

تم الكتاب

الفهـرس

